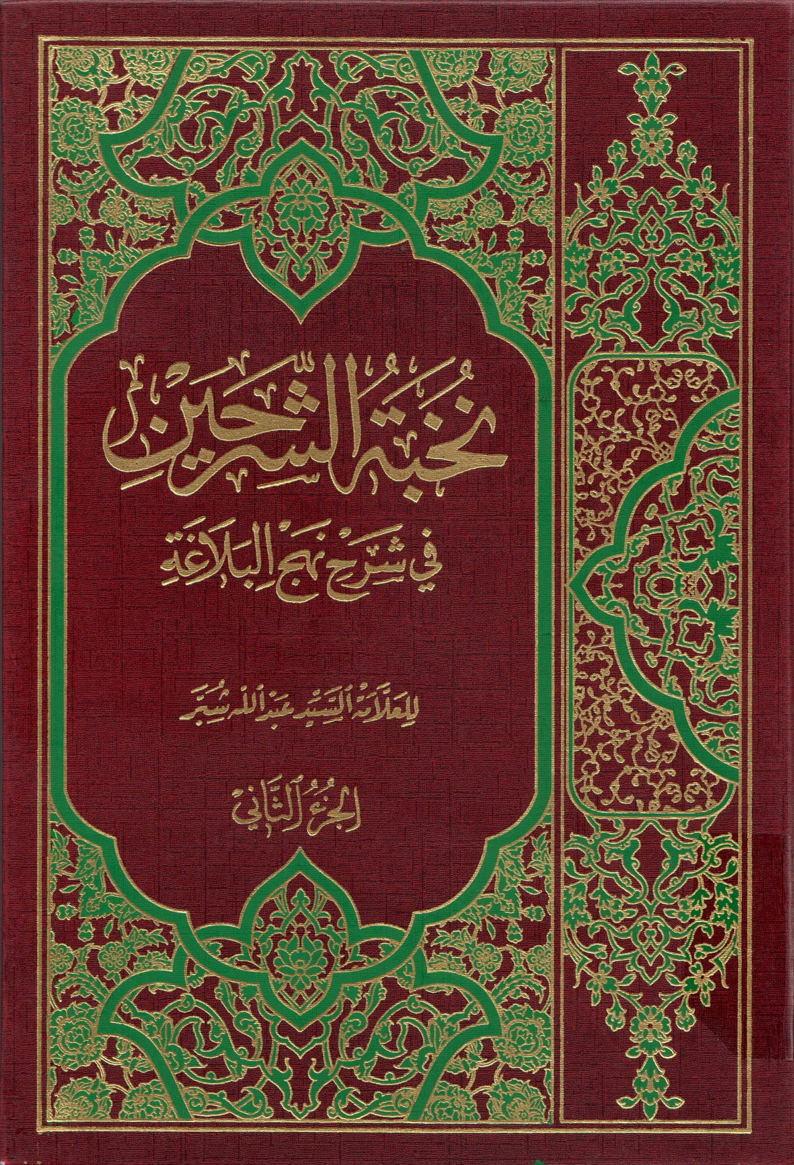

نخبة الشرحين
في شرح نهج البلاغة
للعلامة السيد عبد الله شبر
الجزء الثاني


نخبة الشرحين
في شرح نهج البلاغة


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤١١



في شرح نهج البلاغة

الجزء الثاني

للعلامة السيد
عبد الله شبر

نخبة الشرحين

(شرح نهج البلاغه)

للعلامة السيد عبدالله شبر (ره)

الناشر : انتشارات محبين

الكمية : ١٠٠٠ دوره (١-٤)

تاريخ الطبع :١٤٢٥ه/٢٠٠٤م

الطبعة :الأولى

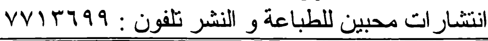
الزينكغراف : مدين

المطبعة : النهضة

شابك ج ٢: ٠-٦٧-٧١٠٣-٩٦٤

شابك الدوره : ٠-٧٠-٧١٠٣-٩٦٤




انتشارات محبين للطباعة و النشر تلفون : ٧٧١٣٦٩٩

مراكز التوزيع : ايران / قم / سوق القدس / رقم ٩٢ / تلفون ٧٧٣٧٦١٩ / مكتبة المصطفى

ايران / قم / سوق القدس / رقم ٥٧ / تلفون ٧٧٤٢٣٤٦ / انتشارات انوار الهدى

وما كلّ ذي قلب بلبيب ولا كل ذي سمع بسميع ولا كلّ ذي بصر ببصير فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها لا يقتفون أثر نبيّ ولا يقتدون بعمل وصي

[**وما كلّ ذي قلب بلبيب**] إذ الإنسان قد يخلو من اللّب وأراد باللّب العقل والذكاء واستعماله فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي فاللبيب من ينتفع بعقله فيما خلق لأجله وكذا قوله:

[**ولا كل ذي سمع بسميع ولا كلّ ذي بصر ببصير**] إذ السميع والبصير هما اللذان يستعملان سمعهما وبصرهما في استفادة العبرة وإصلاح أمر المعاد، كما قال تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ .

وقال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وفائدة هذه الكلمات تحريك النفوس إلى الاعتبار كيلا يعد التارك له غير لبيب ولا سميع ولا بصير.

ثمّ قال عليه السلام:

[**فيا عجباً**] أي: احضر فهذا أوانك أو يا قوم عجباً من هذا الحال.

[**وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها**] فإنّ ذلك هو الأصل الذي نشأت عنه أكثر هذه الرذائل.

[**لا يقتفون أثر نبيّ**] إذ لو اقتفوا أثر أنبيائهم لما اختلفوا إذ لا اختلاف فيما جاء به الأنبياء كما مرّ بيانه.

[**ولا يقتدون بعمل وصي**] إشارة إلى نفسه وهذا أقطع لاعذارهم فإنّ الاختلاف في الدين قد يعرض ضرورة وهي عدم إصابة الكلّ للحقّ لفقد

ولا يؤمنون بغيب ولا يعفون عن غيب في الشبهات

الأنبياء فأمّا إذا كان الأوصياء الواقفون على أسرار الشريعة موجودين بينهم امتنع أن يقعوا في تلك الضرورة فيعتذروا بها في الاختلاف ولو اتبعوه في أُمورهم لانتظم أمرهم وصلح معاشهم ومعادهم.

[**ولا يؤمنون بغيب**] إشارة إلى أنّهم بصد من مدح اللّه في كتابه بقوله: ﴿هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾ فقيل هو اللّه وقيل ما جاء من عند اللّه وقيل هو الدار الآخرة والثواب والعقاب والحسنات وقيل هو كقوله ﴿يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: لا يحفظون شرائط الإيمان في غيب بعضهم من بعض.

وقيل: الغيب ما غاب عن الحواس مما علم بالدليل وقيل يؤمنون بما غاب عن أفهامهم من متشابهات القرآن، والأولى أن يراد به جميع ما غاب عن الحواس مما علم بالبراهين القاطعة من العلم بوجود الصانع، وما يجوز عليه ويمتنع والدار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

[**ولا يعفون عن غيب**] فيذكرون مغايب الناس ويذكروهم بالغيبة والبهتان ومن غفل عن عيوب نفسه واشتغل بعيوب الخلق فقد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين وهذه خصال أربع قد تركوها مما لا ينبغي تركها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى خصال أربع لا ينبغي فعلها فعلوها بقوله عليه السلام:

[**في الشبهات**] ومن خاض في الشبهات ارتكب المحرّمات والوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة وهم يعملون في الشبهة بما قادهم إليه هواهم.

ويسيرون في الشهوات المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات على آرائهم كأنّ كلّ امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعُرى وثيقات وأسباب محكمات

[**ويسيرون في الشهوات**] لما لحظ مشابهة ميل قلوبهم إلى شهواتها الدنيوية وانهماكهما فيها قاطعة مراحل الأوقات بالتلذّذ بها لسلوك السائر في الطريق ونحوها استعار لذلك السلوك لفظ السير.

[**المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا**] فالمعروف والمنكر تابعان لإرادتهم وميولهم الطبيعيّة، فما أنكرته طباعهم كان هو المنكر بينهم وإن كان معروفاً في الشريعة، وما اقتضته طباعهم ومالت إليه أهواءهم كان هو المعروف بينهم وإن كان منكراً في الدين، فهم من أهل هذه الآية ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾.

[**مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات على آرائهم**] فكلّ ما يرد عليه مشكل من المشكلات ومبهم من المبهمات في الأحكام الإلهيّة الأصليّة والفرعيّة عوّلوا فيها على أهوائهم وآرائهم ولا يجرونها على القوانين الشرعيّة.

[**كأنّ كلّ امرئ منهم إمام نفسه**] فكلّ منهم يأخذ على نفسه ويحكم بآرائه.

[**قد أخذ منها فيما يرى بعُرى وثيقات وأسباب محكمات**] يعني كأنّ آرائه وأهوائه عنده عرى وثيقة لا يضلّ من تمسّك بها وأسباب محكمة ونصوص جليّة لا اشتباه فيها.

أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن

ومن خطبه له عليه السلام في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

[أرسله على حين فترة من الرسل] الفترة بين الرسل انقطاع الرسالة والوحي وبين محمد صلى الله عليه وآله وعيسى عليه السلام خمسمائة أو ستمائة سنة، ولم يرسل في تلك المدة رسول، ومعلوم أنّ خلوّ الزمان من الرسول يستلزم وجود الشرور والهرج والمرج والاختلاف، وحيث كان مذهب الإمامية عدم خلوّ الإمام من معصوم وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة وأنّ الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق فالفترة عبارة عن عدم ظهور الدين، وعدم انتظام الشريعة وبغيبة الحجة أو عدم تمكّنه من إظهار الأحكام تقية، لاستيلاء أئمّة الجور كزماننا هذا وما ضاهاه من الأزمنة السالفة.

[وطول هجعة من الأمم] كنّى بها عن الغفلة في أمر الموت والحشر والنشر والثواب والعقاب وسائر المصالح الدنيويّة والأُخرويّة والهجعة النوم فإنّ الغفلة مشبهة للنوم في ترك الإتيان بالمصالح.

[واعتزام من الفتن] والاعتزام بالعين المهملة والزاء المعجمة: العزم، وروي اغترام بالراء المهملة أي: كثرتها، وروي اعتراض من اعترض الفرس الطريق إذا مشى عرضاً من غير قصد.

فعلى الرواية الأُولى نسبة العزم إلى الفتن مجاز كنّى بها عن وقوعها بين الخلق المشبه لقصدها إيّاها.

وانتشار من الأُمور وتلظ من الحروب والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها وإعواز من مائها

وعلى الثانية أي: كثرة من الفتن.

وعلى الثالثة فالمعنى أنّ الفتن لما كانت واقعة على غير قانون شرعي ولا نظام مصلحي، ولذلك سُمّيت فتنة أشبهت المعترض في الطريق من الحيوان الماشي على غير استقامة فلذلك استعير لها لفظ الاعتراض.

[**وانتشار من الأُمور**] أي: تفرّق أُمور الخلق وأحوالهم وجريان أفعالهم على غير قانون قويم ولا نهج مستقيم.

[**وتلظ من الحروب**] يقال: تلظّت الحرب تلهّبت شبّه الحرب بالنار وأسند إليها التلظّي استعارة وكنّى به عن هيجانها ووجودها بينهم زمان الفرقة.

[**والدنيا كاسفة النور**] الواو للحال أي: كاشف نورها ونور ادنيا كناية عن وجود الأنبياء وما يأتون به من الشرايع وما ينتج عنهم من الأولياء والعلماء كناية بالمستعار ووجه المشابهة ما يستلزمه النور ووجود الأنبياء والشرايع من الاهتداء بهما ووشّح تلك الاستعارة بذكر الكسوف وعبّر به عن عدم ذلك النور ومنها ملاحظة الشبه بالشمس.

[**ظاهرة الغرور**] أي: كل قد اغترّ بها وغرق في شهواتها، وانهمك في لذّاتها، وافتتن بفتنها، وانخدع بخدعتها.

[**على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها وإعواز من مائها**] استعار لفظ الثمر والورق لمتاعها وزينتها، ولفظ الاصفرار لتغيّر تلك الزينة عن العرف في ذلك الوقت، وطلاق عيشهم اذن وخشونة مطاعهم كما

قد درست أعلام الهدى وظهرت أعلام الردى فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طلاّبها

يذهب حسن الشجرة باصفرار ورقها، فلا يلتذّ بالنظر إليها.

وكذا استعار لفظ الماء لموارد متاع الدنيا وطرق لذّاتها ولفظ الإعواز لعدم تلك المواد من صنف التجارات والمكاسب وعدم التملّك للأمصار. وكلّ ذلك لعدم النظام العدل بينهم وكلّها استعارات بالكناية.

ووجه الاستعارة الأُولى: أنّ الورق كما أنّه زينة الشجرة وبه كمالها كذلك لذّات الحياة الدنيا وزينتها.

ووجه الثانية: أنّ الثمرة كما أنّه مقصود من الشجرة وغاية لها كذلك متاع الدنيا والانتفاع به هو المقصود المطلوب منها لأكثر الخلق.

ووجه الثالثة: أنّ الماء كما أنّه مادّة الشجرة وبه حياتها وقيامها في الوجوب كذلك مواد اللذات وهي المكاسب والتجارات والصناعات وكانت العرب خالية من جميع ذلك.

[**قد درست أعلام الهدى**] كناية عن كتب اللّه وحججه القائمة التي بها يقتدى لسلوك سبل اللّه ودروسها عبارة عن عدم الرجوع إليهم والتعويل عليهم.

[**وظهرت أعلام الردى**] كناية عن أئمة الضلال الداعين إلى النار [**فهي**] الدنيا [**متجهمة لأهلها**] والتجهّم العبوس أي [**عابسة في وجه طلاّبها**] كناية عن عدم صفاتها لهم، فإنّ طيب العيش في الدنيا إنّما يكون مع وجود نظام العدل و—— بين أهلها وعدم المظالم وذلك في زمان الفترة مقصود بين العرب وهو كناية بالمستعار ووجه الشبه لا يستلزم المستعار عنه وله من عدم

ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة وشعارها الخوف ودثارها السيف فاعتبروا عباد الله واذكروا تيكَ التي آباؤكم بها مرتهنون وعليها محاسبون

تحصيل المطلوب معهما.

[**ثمرها الفتنة**] أي: غاية سعيهم فيها على خبط في ظلمات جهلهم إنّما هو الفتنة، أي الضلال عن سبيل اللّه والتيه في ظلمات الباطل، وغاية كلّ شيء هي مقصوده فأشبهت الثمرة المقصودة من الشجرة واستُعير لها لفظها.

[**وطعامها الجيفة**] استعار الجيفة لطعام الدنيا ولذّاتها ووجه الشبه أنّه لمّا كانت الجيفة عبارة عما أنتن وتغيّرت رائحته من جثة حيوان أو نحوها فخبث مأكله ونفر الطبع عنه كذلك طعام الدنيا ولذّاتها في زمان الفترة أكثر ما يكون من النهب والغارة والسرقة ونحوها مما يخبث تناوله شرعاص وينفر العقل منه، فاستعير لفظها له ويحتمل أن يكون كنّى بالجيفة عمّا كانوا يأكلونه في الجاهلية من ــــــ والموقودة والنطيحة والمتردّية ونحوها ممّا هو محرّم شرعاً بحكم الميتة.

وقوله: [**وشعارها الخوف ودثارها السيف**] استعار الشعار للخوف لأنّه كثيراً ما يستتبع اضطراب البدن وانفعاله بالرعدة فيكون شاملاً له شمول الثوب الملاصق لشطر البدن والدثار للسيف لاشتراكهما في مباشرة المدثر والمضروب من فوقهما.

ثمّ شرع عليه السلام فيما هو المقصود فقال:

[**فاعتبروا عباد اللّه واذكروا تيكَ**] وفي نسخة تلك، [**التي آباؤكم بها مرتهنون وعليها محاسبون**] إشارة إلى وجه العبرة، أي: تلك الأعمال التي

ولعمري ما تقاومت بكم ولا بهم العمود ولا خلت فيما بينكم الأحقاب والقرون وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أضلالهم ببعيد والله ما أسمعكم الرسول صلّى الله عليه وآله شيئاً إلّا وها أنا ذا مسمعكم وما اسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس حتّى تعتذروا بأنّهم سمعوا ما لم نسمع ولا شقت لهم الأبصار ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك إلّا وقد أُعطيتم مثلها في هذا الزمان والله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ولا أصفيتم به وحرموه

كانت عليها آباؤكم وإخوانكم زمان الفترة وزمان دعوة الرسول لكم فهم بها محبوسون في مشيق الأبدان الكثيفة المظلمة وأغلال الأخلاق الرديّة المهلكة والسيّئات الموبقة ومحاسبون عليها.

[ولعمري ما تقاومت بكم ولا بهم العمود ولا خلت فيما بينكم الأحقاب والقرون وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أضلالهم ببعيد والله ما أسمعكم الرسول صلّى الله عليه وآله شيئاً إلّا وها أنا ذا مسمعكم وما اسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس حتّى تعتذروا بأنّهم سمعوا ما لم نسمع ولا شقت لهم الأبصار ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك إلّا وقد أُعطيتم مثلها في هذا الزمان والله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ولا أصفيتم] أي: اختصمتم واصطفيتم **[به وحرموه]**.

فقد تمّت الحجّة عليكم فإن فعلتم ما فعلوا من الصالحات نجوتم كما نجوا، وإلّا هلكتم كما هلكو،ا ولا عذر لكم بتفاوت الحال بينكم وبينهم.

المقصود تشبيه زمان الخلف بالسلف وإلحاقهم بآبائهم في تشبيه زمانهم بزمانهم، وتقارب مابين الزمانين، وليس زمان الابن وحاله ببعيد من حال

ولقد نزلت بكم البليّة جائلاً خِطامها رخواً بطانها

أبيه ولا تفاوت بين أسماعكم وأسماعهم وأبصاركم وأبصارهم، وكذا سائر آلات الأبدان التي كانت لهم، فإنّها حاصلة لكم ولم تعلموا شيئاً كانوا جاهلين به، حتّى يكون ذلك سبباً للفرق بينكم وبينهم.

والغرض من إلحاقهم بهم في هذه الأُمور التنفير عن حال من سبق من الماضين بمخالفة أوامر اللّه والترغيب في حال من سبق في الاختيار بامتثال أوامر اللّه، فإنّه إذا حصلت المشابهة بهم بينهم وبين السابقية والمتشابهان يتّخذان في اللوازم، كان من يشبه بسابق في عصيانه لزمه ما لزمه من أليم العقاب، ومن يشبه به في طاعته وانقياده للّه لزمه ما لزمه من الوصول إلى جزيل الثواب.

ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**ولقد نزلت بكم البليّة**] لعلّه إنذار بابتلاء الخلق بدولة بني أُميّة وملوكها أو محنتهم العظيمة بفتنة معاوية.

وقوله: [**جائلاً خطامها**] كناية عن خطر دولتهم وصعوبة حال من يركن إليها لكونها خارجة عن قانون الشريعة الإلهية والملّة النبويّة، جارية على الأهواء الفاسدة والآراء الكاسدة، فالراكن إليهم وإلى دولتهم على خطر عظيم في دينه ودنياه وآخرته، وأُولاه كالراكن إلى الناقة الصعبة التي حال خطامها، أي: لم يثبت في وجهها وسمّي الزمام خطاماص لكونه في مقدّم الأنف والخطم مقدّمة الأنف والفم، فإنّ الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبت على راكبها.

وكذا إذا كان [**رخواً بطانها**] أي ارتخى حزامها فركبها فإنّه يكون

فلا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنّما هو ظلّ ممدود إلى أجل معدود الحمد للّه المعروف من غير رؤية الخالق من غير روية

الراكب في معرض السقوط وإن تصرعه فيهلك ربطان القتب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

ثمّ أردف ذلك بالنهي عن الاغترار بالدنيا ومتاعها، فقال:

[**فلا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور**] من متاع الدنيا وطيّباتها [**فإنّما هو ظلّ ممدود إلى أجل معدود**] والظلّ ساكن في رأي العين وهو متحرّك في الحقيقة لايزال يتقلّص شيئاً فشيئاً، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ ثمّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أشبه شيء بأحوال الدنيا، فأهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام، ولقد أجاد من شبّهه بالماء الجاري، فإنّك إذا نظرت إلى الأنهار العظيمة الجارية تتخيّل إنّ ما وقع عليه النظر من الماء متحداً مع أنّه في كلّ آن الجزء الذي تراه غير الذي رأيته، فهو يذهب وأنت لا تشعر كما يذهب العمر وينقضي شيئاً فشيئاً والإنسان لا يشعر.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه المعروف من غير رؤية**] وقد مرّ سابقاً أنّه تعالى يعرف بامارات وبآياته وأنّه منزّه عن الرؤيّة البصريّة لاستلزامها الجهة والجسميّة ونحوهما ممّا يجب تنزيه الواجب تعالى عنه [**الخالق**] للأسباب والفاعل لما يشاء [**من غير روية**] أي: فكرة وأمله ـــــ من روات في الأمر.

الذي لم يزل دائماً قائماً إذ لا سماء ذات أبراج ولا حجب ذات إرتاج فيه ولا ليل داج ولا بحر ساج ولا جبل ذو فجاج ولا فج ذو اعوجاج ولا أرض ذات مهاد ولا خلق ذو اعتماد ذلك مبتدع الخلق

[**الذي لم يزل دائماً**] لكون وجوب وجوده مستلزماً لاستحالة عدمه أزلاً وأبداً [**قائماً**] بأمور العالم ﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾ أي عالماً بهم ضابطاً لأحوالهم أو حافظاً عليهم أو قاهراً لهم مقتدراً عليهم.

[**إذ لا سماء ذات أبراج**] إشارة إلى اعتبار أزليّته وسبقه لكلّ ممكن ودوامه تقريراً لقوله صلى الله عليه وآله كان اللّه ولم يكن معه شيء والأبراج في اللغة الأركان وفي الاصطلاح كون الفلك مقسوماً باثنى عشر قسماً كلّ قسم منها يسمّى برجاً.

[**ولا حجب ذات إرتاج**] أي: إغلاق مصدر ارتج أي اغلق قيل هي حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته وقيل هي السماوات أنفسها، لأنّها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما للملائكة.

[**فيه ولا ليل داج**] أي: مظلم.

[**ولا بحر ساج**] أي: ساكن [**ولا جبل ذو فجاج**] جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.

[**ولا فج ذو اعوجاج**] والفج: الواسع.

[**ولا أرض ذات مهاد**] أي فراش، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا الأرض مهاداً﴾، [**ولا خلق ذو اعتماد**] أي ولا مخلوق ـــــ برجلين فيعتمد عليها أو ذو قوة وبطش.

[**ذلك مبتدع الخلق**] أي مخرجه لا من شيء أو مخترعه على غير مثال

ووارثه وإله الخلق ورازقه والشمس والقمر دائبان في مرضاته يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد قسم أرزاقهم

سبق كما قال بديع السماوات والأرض.

[**ووارثه**] مآله ومرجعه كما أنّه مبدئه إشارة إلى كونه دائماً قائماً لم يزل ولا يزال.

[**وإله الخلق**] موجدهم ومستعبدهم.

[**ورازقه**] يفيض سائر نعمه عليهم.

[**والشمس والقمر دائبان في مرضاته**] مسرعان في أوامره وإرادته وإنّما ذكرا في معرض التجيد لكونهما من أعظم آيات ملكه وأعلا علامات سلطانه ممتهنين بالطلوع والأُفول والإنارة والكسوف ودائبان تنبيه دائب وهو الجاد المجتهد المتعب من دأب في عمله أي جدّ وتعب دأباً ودؤباً فهو دئيب وقوله:

[**يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد**] جلب إلى ذكر المعاد وتحذير عن الغفلة عن الموت ـــــ على الصحّة والسلامة، إذ إبلائهما للجديد ينبّه على عدم الاعتماد على ما يروق ويعجب من نظارة الشباب وحسن الأبدان وطرواتها، وما يتجدّد من لذّات الدنيا لدخولها فيما يبلى، وتقريبهما للبعيد يوجب الحذر عما يستبعده أهل الغفلة والشباب والصحّة من قدوم الموت ومجيء الفوت. ونسب الابلاء والقريب إليهما لكون حركاتهما من الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم وتغيّراته.

وقوله: [**قسم أرزاقهم**] أي لكلّ منهم ما قدّر له على مقتضى الحكمة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

وأحصى آثارهم وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات

[**وأحصى آثارهم**] أي آثار وطئهم في الأرض كما يشعر به قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها﴾ أو حركاتهم وتصرّفاتهم [**وعدد أنفاسهم وخائنة أعينهم**] أي ما يرمون به بأطراف أبصارهم مسارقة وخفية بحيث لا يشعر به أحد.

[**وما تخفي صدورهم من الضمير**] الذي لا يعلم به أحد أبداً.

[**ومستقرّهم**] في الأرحام [**ومستودعهم**] في الأصلاب، وقد فسّر ذلك بقوله:

[**من الأرحام والظهور**] فتكون من متعلّقه بمستقرّهم ومستودعهم على إرادة تكرّرها ويمكن أن يكون المعنى مستقرّهم ومآواهم على ظهر الأرض ومستودعهم في بطنها بعد الموت، وتكون من ههنا بمعنى مذ أي مذ زمان كونهم في الأرحام والظهور.

[**إلى أن تتناهى بهم الغايات**] أي إلى أن يحشروا في القيامة ويجازى كلّ بعمله وعلى الأول يكون تناهي الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء في الدنيا والمقصود أنّ اللّه يعلم جميع أحوالهم من مبدئهم إلى نهايتهم، قال تعالى: ﴿واللّه يعلم أعمالكم﴾.

وقال: ﴿ما من غائبة في السماوات والأرض إلاّ في كتاب مبين﴾.

وقال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

وقال تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض إلاّ على اللّه رزقها ويعلم

هو الذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته قاهر من عازّه ومدمّر من شاقّه ومذلّ من ناواه وغالب من عاداه

مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾.

وقوله: [**هو الذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته**] أي: مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر وأنّه أرحم الراحين شديد النقمة على أعدائه ومع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر.

وكونه شديد العقاب هو واسع الرحمة لأوليائه، ومثل هذا غير مقدور لملوك الدنيا، فإنّ أحدهم في حال غضبه على عدوّه لا يتّسع لرحمته ولا لرحمة غيره.

وكذا في حال رحته لأوليائه لا يجتمع معهما غضب عليهم فسبحان الحليم الذي لا يشغله غضب عن رحمة وتبارك العدل الحكيم الذي لا تمنعه رحمته عن إنزال عقوبة.

[**قاهر من عازّه**] أي غلبه وعزّه غلبه ومنه قوله تعالى: ﴿وعزّني في الخطاب﴾ إذ كلّ موجود مسخّر تحت قدرته مقهور عاجز تحت قبضته وقهره بالإذلال والغلبة والأمراض والأعراض والموت كفرعون إذ قال: ﴿أنا ربّكم الأعلى فأخذه اللّه نكال الآخرة والأولى﴾.

[**ومدمّر من شاقّه**] المدمّر المهلك من دمره ودمر عليه أي أهلكه وشاقّه: عاداه لأنّ كلاً من المتعاديين في شق غير الآخر [**ومذلّ من ناواه**] أي عاداه، واللفظ مهموزه من ناوات الرجل ولينها لأجل السّجع. [**وغالب من عاداه**]

من توكّل عليه كفاه ومن سأله أعطاه ومن أقرضه قضاه ومن شكره جزاه عباد اللّه زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا وتنفّسوا من قبل ضيق الخناق

إذ كلّ موجود مقهور تحت قدرته [**من توكّل عليه كفاه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه اليس اللّه بكاف عبده﴾.

[**ومن سأله أعطاه**] ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾.

[**ومن أقرضه قضاه**] ﴿من ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً مضاعفة﴾.

[**ومن شكره جزاه**] ﴿اشكروني أشكركم﴾ ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في الوعظ والنصح فقال:

[**عباد اللّه زنوا أنفسكم**] في الدنيا باعتبار أعمالها وضبط أقوالها وأحوالها والتفكّر في غلبة حسناتها على سيّئاتها أو العكس وتداركوا ذلك في الدنيا غير أنّ العدل ومراعاة استقامتها على حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط.

[**من قبل أن توزنوا**] في الآخرة ولا يمكنكم تدارك ذلك.

[**وحاسبوها**] بضبط أعمالها الخبريّة والشرّية وتوجيهها إلى الصالحات وردعها عن السيّئات [**من قبل أن تحاسبوا**] في الآخرة.

[**وتنفّسوا من قبل ضيق الخناق**] استعار لفظ التنفّس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنّة بالأعمال الصالحة في الدنيا المستلزمة لها كما يستلزم

وانقادوا قبل عنف السياق واعلموا أنّ من لم يعن على نفسه حتّى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ

التنفّس راحة القلب من الكروب واستعار لفظ الخناق من الحبل المخصوص للموت ووجه الشبه ما يستلزمه ضيق الخناق والموت من عدم التمكّن والتصرّف والعمل أي: انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذّره بزوال وقته وضيقه.

[وانقادوا] إلى أمر اللّه ومراضيه **[قبل عنف السياق]** والعنف بالضم ضد الرفق يقال عنف عليه وبه والعنيف الذي لا رفق له بركوب الخيل والجمع عنف والمراد به سوق ملك الموت الروح من البدن يقول انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا بغير اختياركم سوقاً عنيفاً.

[واعلموا أنّ من لم يعن] أي: من لم يعنه اللّه **[على نفسه حتّى يكون له منها واعظ وزاجر]** وذاك بإعداد العناية الإلهيّة قوّته العقليّة على قهر النفس الأمّارة بالسوء الغدّارة وتهيئتها لقبول السوانح الخيريّة ومن لم يحصّل ذلك الاستعداد حتّى يكون هو القاهر الزاجر لنفسه.

[لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ] إذ لا قبول بدون استعداد للمقبول وفيه تنبيه على وجوب الاستعانة باللّه والالتجاء إليه في أحوال النفس ودفع الشيطان عنها واللّه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الحمد للّه الذي لا يَفِرَهُ المنع ولا يكديه الاعطاء والجود

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح

لعلّها سُمّيت بذلك لما تتضمّن من ذكر الملائكة وهي من جلائل الخطب.

روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال عليه السلام: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة وذلك إنّ رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربّنا لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب عليه السلام ونادى الصلاة جامعة، أي: احضروا الصلاة حال كونها جامعة، فاجتمع الناس حتّى غصّ المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللّون، فحمد اللّه سبحانه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال عليه السلام:

[**الحمد للّه الذي لا يَفِرَهُ**] أي لا يزيد ماله [**المنع**] من الفيض والرزق وزيارته والموفور: التام، وفرت الشيء وفراص ووفر الشيء نفسه وفوراً يتعدّى ولا يتعدّى.

[**ولا يكديه**] أي لا يفقره ولا ينفد خزائنه [**الاعطاء والجود**] يقال كدت الأرض تكدو فهي كادية إذا أبطأ نباتها وقلّ خيرها وأكديت الأرض أي: جعلتها كادية، وأكدى الرجل قل خيره وقوله تعالى: ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أي: قطع القليل، أي: هو تعالى ليس كما يتوهّم الوهم كملوك البشر الذين إذا أعطوا نقصت خزائنهم وإن منعوا زادت، كما شرح ذلك بقوله:

إذ كلّ معط منقص سواه وكلّ مانع مذموم ما خلاه هو المنّان بفوائد النعم وعوائد المزيد والقسم عياله الخلائق ضمن أرزاقهم

[**إذ كلّ معط منقص سواه وكلّ مانع مذموم ما خلاه**] وبرهان ذلك انّ الزيادة بالمنع والنقص بالإعطاء إنّما يتصوّر في حقّ من ينتفع ويتضرّر بالزيادة والنقصان والانتفاع والتضرّر عليه تعالى محال، فالتزيّد والتنقّص عليه محال ولأنّهما يقضيان بالحاجة والإمكان الممتنعين عليه تعالى ولأنّ مقدوراته غير متناهية وإنّما انتقص المعطي من خلقه لحاجته إلى ما يعطيه وانتفاعه به وإنّما استحقّ الذم بالمنع دونه سبحانه لكون ما يصدر منه من منع وإعطاء مضبوطاً منظوماً بنظام الحكمة والعدل دون غيره من المانعين.

[**هو المنّان بفوائد النعم**] المنّة تذكير المنعم للمنعم عليه بنعمته والتطاول عليه بها كما قال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهي صفة مدح له تعالى وصفة ذمّ لغيره لأنّ كلّ منعم سواه يحتمل أن يتوقّع بنعمته جزاء أو يستفيد كمالاً أيسره توقّع الذكر الجميل وهو تعالى منزّه عن ذلك ولذا ورد النهي عن المنّة قال تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ وقال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ وفوائد النعم ما أفاد منها.

[**وعوائد المزيد والقسم**] أي: ما اعتاد منها [**عياله الخلائق**] لأنّ عيال الرجل من جمعهم ليقيتهم ويصلح شأنهم كذلك الخلق إنّما خلقهم اللّه وجمعهم تحت عنايته ليصلح أحوالهم في معاشهم ومعادهم ثمّ قوى ذلك وأبانه بقوله:

[**ضمن أرزاقهم**] وتعهّد بإيصالها إليهم أينما كانوا فقال: [وفي السماء رزقكم وما توعدون فوربّ السماء إنّه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون﴾.

وقدّر أقواتهم وانهج سبيل الراغبين والطالبين ما لديه وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسئل

[**وقدّر أقواتهم**] فأعطى كلّ نفس ما كتب لها في اللوح المحفوظ واستعار لفظ العيال للخلق باعتبار ضمان أرزاقهم والقيام بأحوالهم ولفظ الضمان لّما وجب في الحكمة من تقدير الأقوات والأرزاق ممّا هو صلاحهم في الدنيا ثمّ أردف ذلك بما هو صلاح الآخرة فقال:

[**وانهج سبيل الراغبين والطالبين ما لديه**] أي أوضح سبيل الشريعة الغرّاء وطرق الملّة الزهراء للسالكين إليه الراغبين فيما عنده الطالبين ما لديه.

[**وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسئل**] قيل فيه لطيفة وهي أنّ فيضان ما يصدر عنه سبحانه له اعتباران أحدهما بالنظر إلى جوده وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات، بل نسبته إليها على سواء، فلا يقال هو بكذا أجود منه بكذا وإلّا لاستلزم أن يكون ببعض الأشياء أبخل أو إليها أحوج فيلزمه النقصان وهو منزّه عنه.

والثاني بالنظر إلى الممكن نفسه والاختلاف بالقرب والبعد إلى جوده إنّما هو من تلك الجهة فكلّ من كان أتمّ استعداداً وأقبل كان أقرب إلى جوده فالسائل إذاً وإن حصل خصلة ما سئل منه تعالى دون مالم يسئل فليس منعه مالم يسئله لعزّته عنده وليس بينه وبين ما سئل بالنسبة إلى جوده فرق وتفاوت بل تخصيصه بما سئل لتمام قبوله له ولو كان قابلاً لما يسئل لوصل إليه من غير مسألة وإنّ أعظم خطره.

وإلى ذلك أشار الرضا عليه السلام وقد سئل عن الجواد فقال: لسؤالك وجهان: إن أردت المخلوق فالذي يؤدّي ما افترض عليه، وإن أردت الخالق

الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبل والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده والرادع أناسيَّ الأبصار عن أن تناله وتدركه ما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال

فهو الجواد وإن أعطى وإن منع لأنّه إن أعطى أعطى من له وإن منع منع من ليس له.

[**الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبل والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده**] فإنّ الأوّليّة والآخريّة بالنسبة إلى المخلوق إضافيان اعتباريان بل هو أوّل بالعلّة والذات والشرف إذ ليس بذي مكان حتّى يكون تقدّمه مكانياً ولا بذي زمان لتأخّره عنه لأنّه من لواحق الحركة المتأخّرة عن الجسم المتأخّر عن علّته فلم تلحقه القبليّة الزمانيّة فضُلاً أن يسبق عليه.

[**والرادع أناسيَّ الأبصار عن أن تناله وتدركه**] الأناسي: جمع إنسان وهو المثال الذي يرى في السواد وقد مرّ سابقاً أنّ القوّة الباصرة إنّما تتعلّق بذي وضع وجهة وهو تعالى منزّه عنهما.

[**ما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال**] لما كان الزمان مبدء للتغيرات واختلاف الأحوال وكان سبحانه مقدّساً عن لحوق الزمان كانت مبرّاة عن تغيّر الأحوال الجارية على الزمانيات واختلافها.

[**ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال**] لأنّ من شأن ذي المكان جواز أن ينتقل من مكانه وهو تعالى منزّه عن المكان وإلاّ للزم النقصان اللازم للإمكان فامتنع عليه الانتقال.

ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لاتنفده مطالب الأنام لأنّه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحالح الملحّين

[**ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين**] الفلز: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضّة والرصاص ونحوه واللجين مصغّر الفضّة.

[**والعقيان**] الذهب الخالص وقيل هو ما ينبت نباتاً وليس من الحجارة.

[**ونثارة الدر**] ما تناثر منه كالسقاطة [**وحصيد المرجان**] لعلّه أراد المتبدّد منه أو المستحكم من قولهم شيء مستحصد أي: مستحكم.

[**ما أثّر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده**] فلو اللجين جئته وما ينقيه الكير منه والمرجان صغار اللؤلؤ وحصيده محصوده وما اجتمع منه واستعار لفظ الضحك للأصداف ووجه الشبه انفتاح الصدفتين عن اللؤلؤ الشبيه في بدوّه بالأسنان حال الضحك ومن لحمه تشبيه اللسان في رقة طرفه ولطافته ومن شاهد الصَّدَفة عند فتحها لوجدها كإنسان يضحك وكذا استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة لشبهة مما يحصد من الحنطة، وغيرها وقوله:

[**ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لاتنفده مطالب الأنام**] كالموضح لما قبله المبيّن له [**لأنّه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحالح الملحّين**] كالبرهان لما قبله وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه وكلّ من كان كذلك فلو وهب جميع ما ذكر لم ينقص ملكه واستعار لفظ الفيض لنعمه ملاحظة.

فانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفة فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب فرضه ولا في سنّة النبي ﷺ وأئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى اللّه سبحانه وتعالى فإنّ ذلك منتهى حقّ اللّه عليك

لشبهها بالماء الذي له مادّة تامّة لا تنقص بالنزح ومن روى بغضبه فلأنّ الغضب من لواحق المزاج والباري تعالى منزّه عنه فيتنزّه عن لواحقه وكذا البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث عليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيّد ولا ينقص لا يؤثّر في ملكه أن يهب الدنيا لمن شاء.

وقوله: [**فانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفة فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته**] تأديب للسائل ولسائر الخلق بأن لا يصفوا بمقتضى عقولهم القاصرة وأفهامهم الحاسرة لقصورها عن ذلك ما للتراب وربّ الأرباب ولذا قال سيّد الأنبياء وهو سيّد العارفين: «سبحانك لا أصفك إلّا بما وصفت به نفسك»، وقال تعالى: ﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾، وقال: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

[**وما كلّفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب فرضه ولا في سنّة النبي ﷺ وأئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى اللّه سبحانه وتعالى فإنّ ذلك منتهى حقّ اللّه عليك**] كما استفاض في الأخبار المتظافرة فإنّ حقّ اللّه على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون.

وفي رواية أُخرى: ويستكوا عمّا لا يعلمون، قال اللّه تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على اللّه إلّا الحقّ﴾.

وقال في آية أُخرى: ﴿إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾ فمن عوّل في

واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً وسمّي تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً فاقتصروا على ذلك

الأُصول والفروع على العلم واليقين وتمسّك بمحكمات الكتاب والسنّة وسكت عمّا سكت اللّه عنه فهو من أصحاب اليمين ملحق المقرّبين ومن عوّل على الظنّ والتخمين فقد خبط خبط عشواء في الدِّين وكان من المكذّبين الضالّين ومن أتباع الشيطان اللّعين.

وروي أنّ للّه أربعة أملاك تنادي كلّ يوم، يقول أحدهم: ألا ليت هذا الخلق لم يخلقوا.

فيجيب الآخر ويقول: وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

فيجيبه الثالث: وليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا.

فيجيبه الرابع: وليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تركوا الخوض فيما لم يعلموا وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله:

[واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب] الاقتحام: الدخول في الأمر بشدّة دفعة، والسُّدد جمع سدة، وهي الأبواب والحجب.

[فمدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً وسمّي تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً فاقتصروا على ذلك]

. . . .

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا﴾.

وظاهر كلامه عليه السلام الوقوف على اللّه كما هو الأشهر بين الجمهور إلاّ أنّ الأشهر بين أصحابنا وبه تظافر أخبارنا عدم الوقف والعطف وأنّ الراسخين في العلم هم النبي وأهل بيته المعصومين العالمون بتأويل الكتاب ومحكمه ومتشابهه وأنّهم أهل الذكر وحملة القرآن ويمكن الجمع انّ الراسخين في العلم مقول بالتشكيك وللرسوخ مراتب، فعلى إرادة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فالعطف وهم العالمون بالتنزيل والتأويل وعلى إرادة غيرهم فالوقف، فلا منافاة.

قال الشارح المحقّق البحراني: إعلم أنّ لحجب الغيوب طبقات كثيرة كما أشار إليه الرسول انّ للّه سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كلّ من أدركت بصره ثمّ قال: لمّا كان التكليف في نفس الأمر إنّما هو على قدر العقول وتفاوت مراتبها كما قال صلى الله عليه وآله: «بعثت لأكلِّم الناس على قدر عقولهم» كان كلّ عقل قوي على رفع حجاب من حجب الغيب وقصر عمّا ورائه واعترف به وبالعجز عنه فذلك تكليفه وهو من الراسخين.

فعلى هذا ليس الرسوخ مرتبة واحدة وهي تقليد ظاهر الشريعة واعتقاد حقيقتها فقط بل تقليدها مرتبة أولى من مراتبه وما وراء ذلك مراتب غير

ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين

متناهية بحسب مراتب السالكين وقوّتهم على رفع حجب الأنوار وظاهر كلامه عليه السلام لا ينافي ذلك إذا نزل عليه فإنّ قوله ويسمّى ترك التعمّق... إلخ صادق أيضاً على من قطع جملة من السائرين إلى اللّه وعجز عمّا ورائها فوقف ذهنه عن التعمّق فيه إذ لا يكلّف بما لا تعي قوته بدركه وقوله عليه السلام:

[ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين] إشارة إلى أنّ المقدّر لعظمة اللّه على قدر عقله هو المعتقد أنّ عقله أدركه وأحاط به علماً وهو تصغير لعظمة اللّه لأنّها أجلّ وأعظم من أن يضبطها عقول البشر أو تحيط بها الأفهام والفكر، والذي تحيط به العقول البشريّة محدود مركّب، فكان ممكناً فالمعتقد لذلك معتقد لغير الإله إلهاً وهو كفر وضلال وكما يمتنع على الخلق معرفة كنه ذات اللّه تعالى فكذا يمتنع معرفة كنه صفاته، لأنّها عين ذاته وكلّما وصفه به العقلاء فإنّما هو على قدر أفهامهم فوصفوه بأشرف طرفي النقيض من العلم والجهل والقدرة والعجز والحياة والموت ونحوها بالنسبة إلى ما ألفوه ولو ذكر لهم مالم يألفوه، ككونه تعالى لا أوّل له ولا آخر ولا جزء، وليس في مكان ولا زمان، وكان ولم يكن معه شيء من زمان أو مكان، أو ليل أو نهار، أو نور أو ظلمة فحاروا وتحيّروا.

ولذا قال باقر العلوم عليه السلام: «هل سُمّي عالماً قادراً إلّا لأنّه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين وكلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق ومصنوع مثلكم مرود إليكم» والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر

....

الموت ولعلّ النمل الصغار يتوهّم أنّ للّه زبانيتين فإنّهما كما لها وتتصور انّ عدمهما نقصان لمن لا يكونان له ولعلّ حال كثير من العقلاء كذلك فيما يصفون اللّه تعالى ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

وقال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

وقال: ﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾.

وفي الدعاء: «سبحان من لا يعلم ما هو إلاّ هو».

وقال البار عليه السلام: «تكلّموا في خلق اللّه ولا تتكلّموا في اللّه فإنّ الكلام في اللّه لا يزداد صاحبه إلاّ تحيّراً».

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ اللّه يقول ﴿إنّ إلى ربّك المنتهى﴾ فإذا انتهى الكلام إلى اللّه فأمسكوا».

وقال عليه السلام: «من نظر في اللّه كيف هو هلك» ولقد أجاد من قال: فلا تلتفت إلى من يزعم أنّه قد وصل إلى كنه الحقيقه المقدّسة بل احث التراب في فيه فقد ضلّ وغوى وكذّب وافترى فإنّ الأمر أرفع وأظهر من أن يتلوّن بخواطر البشر أو تصل إليه عميقات الفكر، وكلّما تصوّره العالم الراسخ فهو عن حرم الكبير بالفراسخ وأقصى ما وصل إليه الفكر العميق هو غاية مبلغه من التدقيق، فسبحان من حارت لطائف الأوهام في بيداء كبريائه وعظمته وسبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته وللّه درّ القائل:

واللّه لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد

علموا ولا جبريل وهو إلى محلّ القدس يصعد

هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولّهت القلوب إليه

كلاّ ولا النفس البسيطة لا ولا العقل المجرّد
من كنه ذاتك غير أنّك أوحدي الذات سرمد
وجدوا إضافات وسلباً والحقيقة ليس توجده
وتراوا وجوداً واجباً يفني الزمان وليس ينفد
فلتخسأ الحكماء عن حرم له الأملاك مسجّد
من أنت يارسطو ومن افلاط قبلك يا مُبلّد
ومن ابن سينا حين قرّر ما بناه له وشيّد
ما أنم إلاّ الفراش رأى السراج وقد توقّد
فدنى فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وقد أشار عليه السلام إلى هذه المطالب بقوله:

[**هو القادر الذي إذا ارتمت**] أي ترامت [**الأوهام لتدرك منقطع قدرته**] أي منتهى قدرته.

[**وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس**] ﴿الخناس الذي يوسوس في صدور الناس﴾.

والمجرّد من شوائب الأوهام والفائق على أمثاله من الأنام [**أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته**] أي: حاول الفكر أن يقع عليه ويشبّهه بكلّ ما ينبغي لها من الكمالات في أسرار عالم الغيب العميقة.

[**وتولّهت القلوب**] أي: اشتدّ عشقها [**إليه**] حتّى أصابها الوله وهو

لتجري في كيفيّة صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه فرجعت إذ جُبهت معترفة بأنّه لا تنال بجور الاعتساف كنه معرفته

الحيرة [**لتجري في كيفيّة صفاته**] أي لتصادف مجرىً ومسلكاً في ذلك.

[**وغمضت مداخل العقول**] أي غمض دخولها ودق وقت مواقع دخولها [**في حيث لا تبلغه الصفات**] أي: انتهت العقول إلى حدّ أنّها لا تعتبر مع ملاحظة ذات الحقّ صفة له بل بحذف كلّ خاطر وكلّ اعتبار من صفة وغيرها عن ملاحظة قدسه [**لتناول علم ذاته**] أي: لتنال العلم بكنه ذاته تعالى وصفاته.

[**ردعها**] أي: كفّها أو زجرها وردّها خاسئة حسيرة.

[**وهي تجوب**] أي: تقطع [**مهاوي سدف الغيوب**] والمهاوي: المهالك واحدها مهواة بالفتح، وهي بين جبلين وحائطين ونحو ذلك والسدف جمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم والواو في وهي للحال والجملة حاليّة والعامل ردعها أي: ردعها عن تلك المطالب حال ما هي قاطعة لمهاوي تلك الظلمات ووجه الاستعارة ما يشتركان فيه من عدم الاهتداء فيها.

وقوله: [**متخلصة إليه**] حال أيضاً والعامل تجوب أو ردعها وتخلّصها إليه توجّهها بكلّيتها في طلب إدراكه [**فرجعت إذ جُبهت**] أي: ردّت [**معترفة**] حال والعامل رجعت [**بأنّه لا تنال بجور الاعتساف كنه معرفته**] كنّى بجور الاعتساف عن شدّة جولانها في تلك المنازل وظاهر أنّ جور الاعتساف غير نافع في تحصيل ما لا يمكن.

ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزّته

[ولا تخطر ببال أولي الرويات] أي أصحاب الفكر **[خاطرة من تقدير جلال عزّته]** أي أنّ الفكر عاجز عن تقدير جلال عزّته والإحاطة بكماله.

وحاصل كلامه عليه السلام أنّ العقول إذا حاولت أن تدرك متى تنقطع قدرته تعالى على المقدورات نكصت عن ذلك لأنّه قادر أبداً على ما لا يتناهى وإذا حاول الفكر الذي قد صفا أن يدرك مغيّبات علمه كلّ ورجع ناكصاً وإذا اشتدّ عشق النفوس له وتولّهت نحوه لتسلك مسلكاً تقف منه على كيفيّة صفاته عجزت عن ذلك. وإذا تغلغلت العقول وغمضت مداخلها في دقائق العلوم الدقيقة طالبة أن تعلم حقيقة ذاته وقفت واعيت وردّها سبحانه وهي تقطع ظلمات الغيب لتخلص إليه فارتدّت حيث جبهها وردعها مقرّة معترفة بأنّ إدراكه ومعرفته لا تنال باعتساف المسافات التي بينها وبينه وأنّ أُولي الأفكار والرويّات يتعذّر عليهم أن يخطر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلاله وعزّه.

والسبب في ذلك أنّ كلاً من هذه المدركات قاصرة عن إدراك ما تطلبه من هذه المطالب العظيمة أمّا الأوهام فلقصورها عن إدراك ما ليس بمحسوس ولا متعلقاً بالمحسوس والأفكار والقلوب قاصرة عن الإحاطة بما لا نهاية له، إذ كانت صفات الكمال ونعوت الجلال كذلك والعقول قاصرة عن إدراك كنه ما ليس بذي حدّ وتركيب ولمّا كان مستند ذلك الردع هو قدرته تعالى صدّر به الكلام فقال هو القادر ... إلخ.

ثمّ شرع عليه السلام في ذكر جملة من نعوته فقال:

الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف

[الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله] إشارةً إلى أنّ الصنائع البشريّة إنّما تحصّل بعد أن يرتسم في الخيال صورة المصنوع، بل كلّ فعل لايصدر إلاّ عن تصوّر وضعه وكيفيّته أوّلاً وتلك التصوّرات تارة تحصل عن أمثلة للمصنوع ومقادير له خارجيّة يشاهدها الصانع ويحذو حذوها، وتارةً تحصل بمحض الإلهام والاختراع كما يفاض على كثير من الأذكياء صورة شكل لم يسبق زلى تصوّره فيتصوّره ويبرز صورته إلى الخارج، وكيفيّة صنع اللّه للعالم وجزئيّاته منزلته عن الوقوع على أحد هذين الوجهين:

أمّا الأوّل: فلما مرّ أنّه لا قبل له فلا قبل لمصنوعاته فلا مثال امتثله أي عمله مثله، ولا مقدار احتذى حذو.

وأمّا الثاني: فإنّ الفاعل على وفقه وإن سُمّي مخترعاً لكن التحقيق يشهد بأنّه إنّما فعل على وفق ما حصل في ذهنه من الشكل والهيئة وهما مستفادان من الصانع الأوّل فكان في الحقيقة فاعلاً على غير مثال سابق محتذ بالمقدار غيره، وعلم الأوّل سبحانه ليس على النحو المذكور من حصول صورة مساوية للمعلوم في ذاته فإذن فعله تعالى بمحض الإبداع والاختراع على أبعد ما يكون على حذو مثال.

ثمّ قال عليه السلام:

[وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف

الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قدرته ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة على معرفته وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته فصار كلّ ما خلق حجّة له ودليلاً عليه وإن كان خلقاً صامتاً فحجّته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة

الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قدرته] المساك بكسر الميم ما يمسك ويعصم به [**ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة على معرفته]** ملكوت القدرة ملكها، وإنّما نسبه إلى القدرة لأنّ اعتبارها مبدء الوجود كلّه فهو مبدء المالكيّة، واعتراف عطف على عجائب، وإلى أن متعلّق بالحاجة، وما دلّنا مفعول ثان لأرانا، على معرفته متعلّق بدلّنا.

واستعار النطق المختصّ باللّسان للّسان حال آثاره تعالى المفصحة عن كمال الحكمة المعجبة بتمام النظام وحسن الترتيب ووجه المشابهة ما اشترك فيه النطق وحال المصنوعات من ذلك الافصاح والبيان.

[**وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته]** إذ ما من شيء إلاّ وهو ناطق بلسان حاله بربوبيته وكمال إلوهيّته واستعار لفظ الاعلام لما يدلّ على حكمة الصانع في فعله من الاتقان والإحكام.

[**فصار كلّ ما خلق حجّة له ودليلاً عليه]** ينادي بلسان حاله على أنّ له موجداً صانعاً.

[**وإن كان خلقاً صامتاً فحجّته]** الضمير يعود إلى اللّه أو إلى الخلق الصامت [**بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة]** كما قال عليه السلام: البعرة تدلّ على البعير والأثر يدلّ على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج لا يدلان على اللّطيف الخبير؟! وكلّ ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن من

وأشهد أنّ من شبّهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لاندّ لك، وكأنّه لم يسمع تبرّء التابعين من المتبوعين إذ يقولون ﴿تاللّه إن كُنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾

شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحه﴾ ولقد أجاد من قال:

فواعجباً كيف يُعصى الإله ... وكيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد

[**وأشهد أنّ من شبّهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيبَ ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لاندّ لك، وكأنّه لم يسمع تبرّء التابعين مْن المتبوعين إذ يقولون ﴿تاللّه إن كُنّا لفي ضلال مبين * إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾**] هذا التفات منه عليه السلام إلى خطاب اللّه تعالى على طريق قوله ﴿مالك يوم الدين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾.

والحقاق جمع حقّة، وجاء في جمعها حقاق وحقق وحقوق، وهي أطراف عظام المفاصل، وفي إيقاع حقاق المفاصل مقابل تباين الأعضاء بديع، والغرض ذمّ من شبّه اللّه بالمخلوقين ذوي الأعضاء المتباينة والمفاصل المتلاحمة وأنّه لم يعرف ولم يباشر قلبه اليقين بأنّه لا ندّ له ولا مثل.

ثمّ أكّد ذلك بالآية وهو قول الكفّار في النار وهم التابعون للشياطين الذين أغروهم: لقد كنّا ضالّين إذ سوّيناكم باللّه تعالى وجعلناكم مثله.

وإنّما جعل المشبّه به بتباين الأعضاء وتلاحمها وإن كان المشبّه به هو

كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين وجزّوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم وقدّروك على هذه الخلقة المختلفة القوى

الجسم المتباين الأعضاء لأنّ تباين الأعضاء هو وجه الشبه المستلزم للتركيب فكان ذكره أهم ليظهر به تنزيهه تعالى عن هذا التشبيه سريعاً لتنزّهه عن الأعضاء وتباينها وتركيبها وشهادته عليه السلام بأنّ المشبّه به غير عارف به ولا متيقّن لتنزيهه عن المثل القرآن والبرهان مُصدّقان لشهادته.

أمّا القرآن فما ذكره عليه السلام وأمّا البرهان فلأنّ المجسّمة والمشبّهة وعبدة الأصنام ينكشف لهم أنّهم كانوا ضالّين في تشبيه أصنامهم بربّ العالمين، فصورة الدليل هكذا المشبّه ضالّون في تشبيه ربّهم وكلّ من كان ضالاً فيه فليس بعارف به، وكذلك كلّ من كان كذلك فليس بمنزّه له عن المثل.

وأمّا البرهان فلأنّ المشبّه له بخلقه يلزمه الحكم عليه بلوازم خلقه من الإمكان والحدوث لأنّ لازم المتشابهين لا يختلف.

[**كذب العادلون بك**] جمع عادل: وهو الجاعل للّه عديلاً.

[**إذ شبّهوك بأصنامهم**] إشارةً إلى سبب كونهم عادلين وتفصيل جهاته.

[**ونحلوك**] أي: أعطوك [**حلية المخلوقين**] من إثبات الأعضاء والجوارح وقطط الشعر والشباب ونحو ذلك من مزخرفات المشبّهة والمصوّرة.

[**وجزّوك**] أي جعلوك متجزّياً مركّباً على [**تجزئة المجسّمات**] أي كما تتجزّى الأجسام [**بخواطرهم**] وخطراتهم الفاسدة.

[**وقدّروك على هذه الخلقة**] أي: خلقة البشر [**المختلفة القوى**] لأنّها

بقرايح عقولهم وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك وإنّك أنت اللّه الذي لم يتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيّفاً

مركّبة من عناصر مختلفة الطبايع [**بقرايح عقولهم**] الجامدة المتابعة لأوهامهم الفاسدة وتقليد من سلف من آبائهم فإنّ الأعضاء إنّما تتولّد وتكمل بواسطة قوى طبيعيّة ونباتيّة وحيوانيّة وغيرها وهي قوى مختلفة بحقائقها ومتضادّة في أفعالها محتاجة إلى الجامع والمركّب منادية بالإمكان الذي تنزّه عنه تعالى وعن أن يتطرّق إليه بوجه من الوجوه.

ثمّ كرّر عليه السلام الشهادة بذلك مؤكّداً فقال:

[**وأشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك**] فزعم أنّك جوهر أو جسم أو في مكان أو زمان [**فقد عدل بك**] أي: جعل لك عديلاً ونظيراً ومماثلاً.

[**والعادل**] بك [**كافر بما تنزّلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك**] أي: العقول القاطعة أو شواهد حججهم هي تلك الآيات، كقوله تعالى: ﴿قل إنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾، وقوله: ﴿إنّكم لتشهدون أنّ مع اللّه آلهة أُخرى قل لا أشهد قل إنّما هو إله واحد وإنّي بريء ممّا تشركون﴾ والإشراك كفر. ثمّ أردف عليه السلام ذلك بشهادة ثالثة هي خلاصة الشهادتين الاولتين فقال:

[**وإنّك أنت اللّه الذي لم يتناه في العقول**] أي: لم تحط العقول بك كإحاطتها بالأشياء المتناهية [**فتكون في مهب فكرها مكيّفاً**] أي: ذا كيفية، ومهابّ الفكر: جهاتها، إذ يلزم من التناهي كونه ذا كيفيّة تكيّفه فيها القوى

ولا في رويّات خواطرها محدوداً مصرّفاً قدّر ما خلق فأحكم تقديره ودبّره فأحسن تدبيره ووجهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته

المتخيّلة.

[**ولا في رويّات**] جمع رويّة، أي: أفكار [**خواطرها محدوداً**] ذا حدّ [**مصرّفاً**] أي قابلاً للحركة والتغيّر، أي: محكوماً في ذاته بالتجزئة والتحليل والتركيب، إذ كان من شأن المحدود ذلك، ولمّا كانت هذه اللّوازم باطلة لتنزّهه تعالى عن الكيفيّة والأجزاء والتركيب كان ملزومها وهو التناهي في العقول باطلاً.

ومنها: [**قدّر ما خلق فأحكم تقديره**] بأن جعله على وفق الحكمة بحيث لو زاد أو نقص عمّا هو عليه لاختلّت مصلحته وتغيّرت منفعته وبطلت حكمته.

[**ودبّره فأحسن**] وفي نسخة فألطف [**تدبيره**] بإيجاده على وفق المصلحة وتصرّفه فيه أنواع التصرّفات الكلّية والجزئيّة من غير شعور غيره بذلك.

[**ووجهه لوجهته**] العالية التي خلق لأجلها ويسّر ما خلق له، والوجهة بالكسر: الجهة التي يتوجّه نحوها، قال تعالى: ﴿ولكلّ وجهة هو مولّيها﴾ فهيأ الصقر للاصطياد والخيل للركوب والطراد والسيف للقطع والقلم للكتابة والفلك للدوران ونحو ذلك.

[**فلم يتعدّ**] أحد من هذا المخلوق [**حدود منزلته**] التي جعلت غاية له.

[**ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته**] بحيث لا يمكنه الوصول إليه.

ولم يستصعب إذا أمر بالمضي على إرادته كيف وإنّما صدرت الأمور عن مشيّته المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور

والحاصل أنّه لم يتجاوز تلك المنزلة التي جعلت له ولم يقتصر دونها.

[**ولم يستصعب**] شيء من مخلوقاته [**إذا أمر بالمضي على إرادته**] حين أمر ذلك المخلوق بالتوجّه إلى وجهته على وفق إرادة اللّه بل ساقت الحكمة الإلهية كلاً إلى غايته لم يكن تخلّفه واستصعابه عن ذلك الأمر، قال تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ ثمّ علّل نفي الاستصعاب بقوله:

[**كيف**] أي: كيف يستصعب عليه تعالى بلوغه خلقه إلى غايته.

[**وإنّما صدرت الأمور عن مشيّته**] أي: وأصل وجودها بمشيّته، فكيف يستصعب عليه توجّهها لوجهتها وهو فرع من فروعوجودها وتابع له أو المعنى والحال أنّ جميع الآثار مستندة إلى مشيّته إذ كلّ أثر واجب عن مؤثّره والكلّ منته في سلسلة الحاجة إلى إرادته واجب عنها.

[**المنشئ أصناف الأشياء**] المختلفة والباري للموجودات المتباينة والمؤتلفة.

[**بلا روية فكر آل**] أي: رجع [**إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ولا تجربة أفادها**] أي: استفادها [**من حوادث الدهور**] التي مرّت عليه من قبل كما يكتسب الإنسان بالتجارب علم ما لم يكن.

[**ولا شريك أعانه على ابتداء عجائب الأمور**] لأنّ الروية والفكر

فتمّ خلقه وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته لم يعترض دونه ريب المبطىء ولا أناة المتلكّىء فأقام من الأشياء أودها ونهج ولئم بين متضادّها ووصل أسباب قرائنها

والتجربة مما يلحق الإنسان ويخصّه والباري سبحانه منزّه عن شيء في كيفيّة إبداعه لخلقه ومنزّه عن الشريك ببرهان الوحدانيّة.

[**فتمّ خلقه**] إشارة إلى قوله: ولم يستصعب إذا أمر بالمضي فلمّا أثبت هناك كونها أُمرت أعارها لفظ الأمر وكذا قوله:

[**وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته**] أي: انّ إرادته تعالى نافذة وإذا شاء أمراً كان واستحال أن لا يقع ﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وقوله عليه السلام:

[**لم يعترض دونه ريب المبطىء**] والريب المبطوء.

[**ولا أناة المتلكّىء**] الأناة والتلكّي: التباطؤ عن الأمر والتوقّف فيه، أي: ليس هو تعالى كأحد مخلوقاته يعترض دون مراده ريب وبطؤ وتأخير؛ إذ كلّ شيء في قهره وعلى غاية السرعة إلى إجابة أمره كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾.

[**فأقام من الأشياء أودها**] أي: اعوجاجها بإعداد كلّ منها لما ينبغي له وإفاضة كماله [**ونهج**] أي: أوضح حدودها وطرقها، فأوضح لكلّ شيء سبيل قصده وغايته وجعله مُيسّراً لما خلق له.

[**ولئم**] من الالتئام أي: جمع [**بين متضادّها**] لجمعه العناصر الأربعة على تضادّ كيفيّاتها في مزاج واحد [**ووصل أسباب قرائنها**] أي: نفوسها بتعديد أمزجتها لأنّ اعتدال المزاج والقريب من الاعتدال سبب بقاء الروح

وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات بَدَايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها

والمراد هدايتها إلى عبادته وما هو الأولى به في معاشها ومعادها وسوقها إلى ذلك، وقيل وصل أسباب قرائنها إشارةً إلى أنّ الموجودات لا تنفكّ عن أشياء تقترب بها من هيئة أو شكل أو غريزة أو نحوها واقتران الشيئين لا محالة مستلزم لاقتران أسبابهما واتصالهما لاستحالة قيام الموجودات بدون واصلة أسبابه وذلك الوصل منته إلى كمال قدرته إذ هو مسبب الأسباب وقوله عليه السلام:

[**وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار**] وحدّ الشيء منتهاه وما يحيط به والأقدار المقادير.

[**والغرائز**] وهو القوى النفسانية والأخلاق [**والهيئات**] والصفات وقد اقتضت حكمة الخالق تميّز بعض الموجودات عن غيرها بحدودها وحقائقها وبعضها بأشكالها وهيئاتها ومقاديرها وغرائزها وأخلاقها كما يقتضيه نظام الوجود وأحكام الصنع. وقوله:

[**بَدَايا خلائق**] جمع بديّة وهي: الخلقة العجيبة، أي: هي عجائب مخلوقات، [**أحكم صنعها**] على وفق إرادته ونظام مشيّته [**وفطرها على ما أراد وابتدعها**] أي: أخرجها من العدم المحض إلى الوجود وهو مضي الابتداء.

ونظم بلا تعليق رهوات فرّجها، ولاحم صدوع انفراجها ووشّح بينها وبين أزواجها

ومنها:

[في صفة السماء

ونظم بلا تعليق رهوات فُرَجها] الرهوات: جمع رهوة، وهي: المكان المرتفع والمنخفض، أيضاً يجتمع فيه ماء المطر وهو من الأضداد وقيل: الرهوة الفرجة المتّسعة، والفرج جمع فرجة وهي المكان الخالي.

[**ولاحم**] أي: ألصق [**صدوع**] الصدع: الشق، أي: شقوق [**انفراجها ووشّح**] بالتشديد أي: شيّد [**بينها وبين أزواجها**] قال ابن أبي الحديد: يقول عليه السلام كانت السماء أوّل ما خلقت غير منتظمة الأجزاء بل بعضها أرفع وبعضها أخفض فنظمها سبحانه، فجعله بسيطاً واحداً نظماً اقتضته القدرة الإلهيّة من غير تعليق أي لا كما ينظم إنسان ثوباً مع ثوب أو عقداً مع عقد بالتعليق والخياطة فألصق تلك الفروج والشقوق بجملتها جسماً متصلاً وسطحاً أملس لا نتوءات فيه ولا فروج ولا صدوع بل جعل كلّ جزء منها ملصقاً بمثله. وقال المحقّق البحراني في الفقرة الأُولى ما لفظه: يقتضي بظاهره أنّ السماء كانت ذات فرج وصدوع وهذا على رأي الشكلين ظاهر فإنّ الأجسام لمّا كانت عندهم مركّبة من الأجزاء التي لا تتجزّىء كانت قبل تأليفها ذات فروج وصدوع وأمّا على رأي غيرهم فقالوا يحتمل أمرين:

وذلّل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها

أحدهما: أنّه لمّا كانت السموات مركّبة من الأجزاء وكانت بين أجزاء كلّ مركّب مباينة لولا المركّب والمؤلف استعار لفظ الرهوات والفرج لما يتصوّر من المباينة بين أجزاء السماء عند قطع النظر عن صانعها ومركّبها سبحانه ونظامه لرهوات فرجها إفاضة لصورها على قوائمها حتّى تمّت مركباً منتظماً متلاحم الصدوع والفرج.

الثاني: يحتمل أن يشير بالفروج إلى ما بين أطباق السموات من التباين ونظمه لرهواتها وملاحمة صدوعها خلقها اكراً متماسّة لا خلأ بينها، ونبّه على كمال قدرة اللّه بقوله: بلا تعليق، فإنّ الأوهام حاكمة بأنّ السماء واقعة في خلأ كما يقف الحجر في الهواء وذلك منشأ حيرتها وتعجّبها فحرّكها بذلك القول إلى التعجّب والاستعظام و ـــ بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماويّة بمعنى قرائنها، وكلّ قرين زوج أي ربط بينها وبين نفوسها بقبول كلّ جرم سماوي لنفسه التي لا يقبلها غيره.

[**وذلّل للهابطين**] أي: للملائكة الهابطين [**بأمره**] كجبرئيل النازل بالوحي ونحوه [**والصاعدين بأعمال خلقه**] كالكتبة والحفظة [**حزونة معراجها**] أي: صعوبة المعراج إليها.

[**وناداها بعد إذ هي دخان**] بفتح دال بعد الإضافة وبضمّها أي بعد ذلك إذ هي دخان.

[**فالتحمت**] أي: اتصلت [**عرى**] جمع: عروة [**أشراجها**] جمع شرج وهو عرى العيبة ذكر له منسيان:

وفتق بعد الارتتقاق صوامت أبوابها وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها

أحدهما : أنّ النداء إشارة إلى قوله تعالى : ﴿فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ والتحامها اعتبار تركيبها بانضمام جزئها الصوري إلى جزئها القابل كما يلتحم طرفا العيبة بتشريح عراها.

[**وفتق بعد الارتتقاق صوامت أبوابها**] أي : جعلها أسباباً لنزول رحمته ومدبرات تنزيل بواسطة حركاتها على هذا العالم أنواع رحمة اللّه فكانت حركاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته ومفاتيح جوده الثاني أن تكون السماء إشارة إلى السحاب إذ كلّ ما علا الاسماء وهو قبل الانعقاد يشبه الدخان فاستعير له لفظه والتحام أشراجها إشارة إلى التحام تلك الأجزاء البخارية وانعقادها سحاباً وافتتاق الأبواب نزول المطر منها وقيل الارتتاق والالتصاق وكانت السموات كرة واحدة ففتق ما بينها بالفرجة وبالمطر كما قال تعالى : ﴿أولم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً فنقضناهما﴾ .

[**وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها**] جمع : نقب بفتح النون وهو الطريق في الجبل استعار لفظ الرصد لهذه الشهب المحسوسة ورشّحه بذكر النقاب إذ شأن الرصد والحرسة حفظ الفرج والأبواب إشارة إلى ما رويّ أنّ الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتسترق الغيب من الملائكة ثمّ تلقيه إلى الكهنة والسحرة فجُعلت هذه الشهب رجوماً لهم فكلّ من استرق منهم رُمي بشهاب، قال تعالى : ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كلّ جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ .

وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف متسلّمة لأمره وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوّة من ليلها وأجراهما في مناقل مجراهما وقدّر سيرّهما في مدارج درجهما ليميّز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرها

[**وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده**] تمور: تتحرّك تذهب وتجيء كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ وبأيده أي: هالكة وروي رائدة أي قويّة أي: حفظها بقوّته عن أن تحرّكها الريح المحترقة فيها ذهاباً وإياباً.

[**وأمرها أن تقف**] وتستقرّ في الهواء [**متسلّمة لأمره**] ومنقادة لقهره.

[**وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوّة من ليلها**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحوَنا آية اللّيل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ وجعلهما آيتين لدلالتهما على كمال قدرته كما مرّ وإبصار آية النهار وهو تمام ضياء الشمس الذي هو مادّة الإبصار ومحو آية الليل هو ما على القمر من لطخ السواد وقيل إبصار آية النهار كون نور الشمس لذاتها ومحو آية الليل كون نور القمر مستفاداً من الشمس.

[**وأجراهما في مناقل مجراهما وقدّر سيرّهما في مدارج درجهما**] أراد بذلك بروجهما ومنازلهما [**ليميّز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرها**] اي مقادير سيرهما إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ وقوله: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾ وقوله: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وقد قسّموا دوران الفلك الذي تسير فيه الكواكب بإثنى عشر قسماً سمّوا كلّ قسم منها برجاً وقسّموا كلّ

ثمّ علّق في جوّها أفلاكها وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها

برج ثلاثين قسماً وسمّوا كلّ قسم درجة وأسماء البروج هذه الحمل، الثور، الجوز، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت، وقد جمعت في هذين البيتين

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب من القوس جدياً واستقى الدلو بركة الحنيتان

والشمس تقطع كلّ برج في شهر والقمر يقطعه في أزيد من يومين وأنقص من ثلاثة أيام. وأمّا منازل القمر فثمانية وعشرون وأسمائها: الشرطين، البطين، الثريا، الديران، الهقعة، هيد، ذراع، ذثر، مطرفه، جهته، زبره، صرفه، عوّا، سماك، عقرب، نانا، اكليل، قلب، شوله، نعائم، بلده سعد الذابح، سعد، بلع، سعد السعود، سعد الأجنية، فرع المقدم، فرع المؤخّر، الوشا، والقمر يكون في كلّ يوم في منزل منها ﴿وكلّ في فلك يسبحون ذلك تقدير العزيز الحكيم﴾. ولمّا أشار إلى تركيبها أشار إلى قرارها في اجانها بقوله:

[ثمّ علّق في جوّها أفلاكها] ولا ينافيه قوله سابقاً بلا تعليق، لأنّ التعليق أمر ضافي يصدق سلبه وإثباته باعتبارين إذ المراد بالأوّل غير مُعلّقه بجسم آخر فوقها وبالثاني أنّه علّقها في جوّها بقدرته وأراد بالفلك إسم الجنس وهو أجسامها المستديرة التي يصدق عليها هذا الإسم.

[وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراها على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها

وقال تعالى: ﴿إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ وإنّما أعاد ذكر الشهب لأنّه ذكر أوّلاً أنّه أقامها رصداً وذكر هنا أنّه جعلها رصداً له أي: لرمي مسترقي السمع بها فقال:

[ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها وأجراها على إذلال تسخيرها] أي: كونها مسخّرة تحت حكم القدرة الإلهيّة لقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره﴾، **[من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها]** والكواكب السيّارات سبعة:

زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، وزهرة، وعطارد، والقمر.

والخمسة الباقية متحيّرة، لأنّ كلّ واحد منها استقامة، ثمّ وقوفاً ثمّ رجوعاً ثمّ وقوفاً ثانياً ثمّ عود للاستقامة وليس للنيّرين غير الاستقامة وباقي الكواكب التي على السماء غير هذه السبعة تسمّى بالثوابت وفلكها الثامن عند الرياضيين، وكلّ واحد من السبعة يتحرّك حركة مخصوصة يخالف حركة الأرض، فأمّا صعودها وهبوطها فصعودها طلبها لشرفها وشرف الشمس في درجة التاسعة عشر من الحمل وشرف القمر في الدرجة الثالثة من النور وشرف زحل في الحادية والعشرين من الميزان وشرف المشتري في الخامسة عشر من السرطان وشرف المريخ في الثامنة والعشرين من الجدي وشرف الزهرة في السابعة والعشرين من الحوت وشرف عطارد في الخامسة عشر من السنبلة وشرف الرأس في الثالثة من الجوزاء وشرف الذنب في الثالثة من القوس وبرج الشرف كلّه شرف إلّا أنّ تلك الدرجات قوته فما دام

ثمّ خلق سبحانه لا سكان سمواته وعمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته فملأهم فروج فجاجها

الكوكب متوجّهاً إلى قوّة الشرف فهو الأرداد والصعود، فإذا جاز صار في الانتقاص والهبوط وهبوط كلّ كوكب يقابل شرفه وصعوده.

وأمّا نحوسها وسعودها فقالوا: زُحل والمرّيخ نحسان أكبرهما زحل والمشتري والزهرة سعدان أكبرهما المشتري وعطارد سعد مع السعود نحس مع النحوس والنيران سعدان من التثليث والتسديس نحسان من المقابلة والتربيع والمقارنة والرأس سعد والذنب والكبد نحسان ومعنى سعودها ونحوسها كون اتصالاتها أسباباً لصلاح شيء من أحوال هذا العالم وفساده.

ومنها في صفة الملائكة عليهم السلام

[ثمّ خلق سبحانه لا سكان سمواته وعمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته] الصفح: السطح، وقيل المراد هنا سطح الفلك الأعظم ويقال لوجه كلّ شيء عريض صفح وصفحة ولعلّه إشارة إلى العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكّانه الملائكة المدبّرون له ويحتمل أن يريد محلّ عبادة الملائكة من حضرة جلال ربّ العالمين وعالم الملكوت ومقعدهم الصدق من معرفته فإنّ خلقهم إنّما كان لعمارة ذلك المحل وهو البيت المعمور بجلال اللّه وعبادتهم له ولمّا كانوا من أشرف الوجودات كانوا هم الخلق البديع التام المعجب.

[فملأهم فروج فجاجها] الفروج: الأماكن الخالية والفجاج جمع فج الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين.

وحشا بهم فتوق أجوائها وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبّحين في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد

[**وحشا بهم فتوق أجوائها**] جمع جو، وهو ما اتّسع من الأودية ويقال لما بين السماء والأرض جو، واستعار لفظ الفروج والفجاج والفتوق لما يتصوّر بين أجزاء الفلك من التباين لولا الملائكة الذين قام بهم وجودهما ورشح تلك الاستعارة بذكر الملي والحشو وأمّا فجاجها وفروجها فلعلّه إشارة إلى ما يعقل بين أجزائها وأجرامها المنتظمة من التباين لولا الناظم لها بوجود الملائكة فيكون حشو تلك الفرج بالملائكة كناية عن نظامها بوجودها وجعلها مدبّرة لها.

[**وبين فجوات تلك الفروج**] أي: متّسعاتها، والفجوة: الفرجة، والفروج: الأماكن الخالية [**زجل المسبّحين**] أي: منهم أصواتهم [**في حظائر القدس**] جمع حظيرة وأصلها ما يعمل شبه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد فسمّى عليه السلام تلك المواطن الشريفة فوق الفلك حظائر القدس بتسكين الدال وضمّها: الطهر، والتقديس: التطهير.

[**وسترات**] جمع سترة [**الحجب وسرادقات المجد**] السرادق: الستر الذي يمدّ فوق البيت، استعار لفظ الزجل لعبادتهم المستلزمة لرفع الصوت بالتضرّع والتسبيح والتهليل، والحظائر لمنازل الملائكة ومقامات عبادتهم ووصفها بالقدس لطهارتها عن نجاسات الجهل وأرجاس النفس الأمّارة واستعار السترات والسرادقات لحجب النور التي احتجبوا بها أو لتجرّدهم عن المواد والأوضاع المحسوسة ووجه الشبه كونهم محتجبين بذلك عن رؤية الأبصار والأوهام ووصفت بالمجد لكمال ذواتهم وشرفها على من دونها.

ووراء ذلك الترجيح تستكّ منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها أنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات أُولي أجنحة التي تسبّح جلال عزّته

[**ووراء ذلك الترجيح**] وهو في الأصل الزلزلة والاضطراب واستعير هنا لعبادة الملائكة واضطرابهم من سطوة اللّه وقدرته ورشحه بقوله [**تستكّ**] أي: تصمّ وتسد [**منه الأسماع**] به عن كمال عبادتهم [**سبحات**] بضمّ السين والباء أي عظمة وجلال [**نور تردع الأبصار**] تكفّها [**عن بلوغها فتقف خاسئة**] أي: متحيّرة أو صادرة [**على حدودها**] أي: تقف حيث تنتهي قوتها لأنّ قوّتها متناهية فإذا بلغت حدّها وقفت.

ويحتمل أن يشير بذلك الزجل والزجح إلى ما تسمعه الأنبياء من أصوات الملائكة، وأشار بسبحات النور التي وراء ذلك الترجيح إلى جلال وجه اللّه وعظمته وتنزيهه أن يصل إليه أبصار البصائر ومنه بكون ذلك وراء زجيحهم إلى أنّ معارفهم لا تتعلّق به كما هو بل وراء علومهم وعباداتهم أطوار أُخر تقصر معارفهم عنها وتقف أبصار البصائر عن إدراكها.

[**أنشأهم على صور مختلفات**] الحقائق [**وأقدار متفاوتات**] المراتب في الكمال والقرب.

[**أُولي أجنحة**] مثنىً وثلاث ورباع، وقيل الأجنحة مستعار لقواهم التي بها حصّلوا أعلا المعارف الإلهيّة وتفاوتها كناية عن تفاوت إدراكهم وعلومهم ولذا جعل الأجنحة هي [**التي تسبّح جلال عزّته**] وتنزّهه عمّا لا يليق بكرم وجهه وعزّ جلاله.

لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به بل هم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين وقائع أمره ونهيه وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته وأمدّهم بفوائد المعونة

[**لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه**] أي: لا يدّعون الإلهيّة لأنفسهم كما ادّعاها بعض البشر، ولا ينسبون بعض مصنوعاته إلى قدرتهم وإن كانوا وسائط فيها.

[**ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً معه ممّا انفرد به**] في إبداعه فلا يدّعون القدرة عليه أصلاً وذلك لكمال معارفهم بإقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكرمهم اللّه تعالى بالتقديس عن النفوس الأمّارة بالسوء التي هي مبدء الشرور والفساد.

[**بل هم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**] أي يتّبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتّى يقوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يعملون عملاً لم يأمرهم به [**جعلهم فيما هنالك**] من مقاماتهم العالية ومراتبهم المتعالية [**أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين وقائع أمره ونهيه وعصمهم من ريب الشبهات**] والشكوك التي منشئها النفس الأمّارة والهوى مما تنزّه الملائكة عنه.

[**فما منهم زائغ**] ومنحرف [**عن سبيل مرضاته**] وفيه دلالة على عصمتهم من الزلل وصيانتهم عن الخلل في القول والعمل.

[**وأمدّهم بفوائد المعونة**] إشارة إلى زيادتهم في كمالاتهم على غيرهم

وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده لم تثقلهم مؤصرات الآثام

ودوام ذلك بدوام وجوده.

[**وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة**] استعار التواضع والاستكانة لحالهم من الاعتراف بذلّ الحاجة والإمكان إلى جوده والانقهار وتحت عظمة وجوده وأشار إلى كون ذلك بمنزلة الشعار وملازماً لذواتهم ويحتمل كونه من الشعور وهو الإدراك.

[**وفتح لهم أبواباً ذللاً**] كناية عن وجوه معارفهم الإلهية التي هي أبوابهم ووسائلهم [**إلى تماجيده**] وتنزيهه وتعظيمه فيها مجّدوه وعظّموه وأشار بكونها ذللاً إلى سهولة حصولها لهم بدون اكتساب عن طرق وعرة بتراكم الشكوك والشبهات ومنازعات الأوهام والخيالات كما في علومنا ومعارفنا.

[**ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده**] قيل استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقرّبين بينهم وبين الحقّ ولفظ الأعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة ووجه الشبه أنّ المنارة للإعلام كما تكون وسائط في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقرّبون والمعارف الحاصلة بواسطتهم تكون وسائط في الوصول إلى المطلوب.

[**لم تثقلهم مؤصرات الآثام**] المؤصرات: المثقلات والاصر الثقل لم تكن عندهم نفوس أمّارة بالسوء حتّى يصدر منهم الأيام التي هي من لوازمها

ولم ترحّلهم عقب الليالي والأيام ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم ولاتّحدت قادحة الأحن فيما بينهم ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وسكن من عظمته

فاستلزم عدمها نفي آثارها عنهم.

[**ولم ترحّلهم عقب الليالي والأيام**] يقال: ارتحلت البعير أي ركبته والعقبة النوبة والجمع عقب أي لا يؤثّر فيهم تعاقب الليالي والأيام فيرحلهم عن الوجود وذاك لتجرّدهم والمجردات بريّة عن لحوق الزمان والتغيرات الحادثة.

[**ولم ترم الشكوك بنوازعها**] أي: بشهواتها النازعة المحرّكة وروي بالغين المعجمة من نزغ بينهم أي: أفسد [**عزيمة إيمانهم**] أي: لم تزدهم الظنون على يقينهم الذي عقدوه واعتقاداتهم ومعارفهم اليقينة لأنّ اعتراك الشكوك والظنون منشأه الأوهام والخيالات وعلوم الملائكة مبراة عنها واستعار الرمي لانبعاث النفوس الأمّارة وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى النفس المطمئنة وعلى رواية بالغين المعجمة يكون ترشيحاً للاستعارة وكذا قوله:

[**ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم**] استعار الاعتراك لاختلاط الظنون والأوهام على القلوب وجولانها في النفوس ووجه الشبه ظاهر.

[**ولاتّحدت قادحة الأحن**] جمع أحنة وهي الحقد [**فيما بينهم**] أي: لم تثر بينهم الأحقاد شيئاص من الشرور كما تشير المنار قادحها لبرائتهم عن قوى الغضب والشهوة.

[**ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وسكن من عظمته**

ورهبة جلالهة في أثناء صدورهم ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم منهم من هو في خلق الغمام الدُّلَّح وفي عظم الجبال الشمخ وفي فترة الظلام الأبهم ومنهم من قد فرقت أقدامهم تخوم

ورهبة جلالهة في أثناء صدورهم] حيث كانت الحيرة تردّد العقل في أولويّة بعض الأمور على بعض واحتياره بسبب معارضته الوهم والخيال للعقل فإذا أعدم الوهم والخيال عدمته الحيرة التي تخالط معارفهم وتزيل هيبة الخالق وعظمته من صدورهم والهيبة كناية عن استعار عظمته ولفظ الصدور مستعار لذواتهم.

[**ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها**] أي: دنسها وغلبتها [**على فكرهم**] وفاعل تطمع مضاف محذوف أي: أهل الوساوس وهم الشياطين أو نفس الوساوس بتجوّز إسناد الطمع إليه كقوله ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ ورينها كناية عن الشكوك اللازمة عنها على وجه عقولهم وأبصار ذواتهم وانتفائها عنهم بسبب انتفاء النفس الأمّارة التي هي سببها.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان أنواع الملائكة وأصنافهم فقال:

[**منهم من هو في خلق الغمام**] جمع غمامة: وهي السحابة، [**الدُّلَّح**] أي: الثقال بحمل الماء فقد ورد في الشريعة أنّ في الغمام ملائكة تسبّح اللّه وتقدّسه.

[**وفي عظم الجبال الشمخ**] أي: العالية الشاهقة.

[**وفي فترة الظلام**] أي: سواده [**الأبهم**] الذي لا يهتدي فيه ومنها البهائم [**ومنهم من قد فرقت أقدامهم تخوم**] بضمّ التاء جمع تخم أي:

الأرض السفلى فهي كريات بيض قد نفذت في مخارق الهوى وتحتها ريح هفّافة تحسبها على حيث انتهت من الحدود المتناهية

منتهى [الأرض السفلى] ويروى تخوم بفتح التاء على أنّها واحد والجمع تخم مثل صبور وصبر.

[**فهي**] أي أقدامهم [**كريات بيض قد نفذت في مخارق الهوى وتحتها ريح هفّافة**] أي: ساكنة طيّبة [**تحسبها على حيث انتهت من الحدود المتناهية**] أي: كأن أقدامهم التي خرقت الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة غير مضطربة بحيث تموّج تلك الرايات بل هي ساكنة تحسبها حيث انتهت وقد روي أنّ لإسرافيل جناحين، أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، وأنّ العرش على كاهل وأنّه ليتضاءل أحياناً لعظمة اللّه حتّى يعود مثل الوضع وهو العصفور.

وقيل: يشبه أن يكون هذا القسم من الملائكة السماويّة.

واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحيطة بأقطار الأرض السلفى ونهاياتها.

ووجه الشبه كون العلوم قاطعة للمعلوم وسارية فيه واصلة إلى نهايته كما أنّ الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها وشبّهها بالرايات الموصوفة بما ذكر من حيث البياض لما يستلزمه من الفاء على الكدور وعلومهم صافية من كدورات الشبه وظلمات الباطل.

ومن حيث نفوذها في أجزاء المعلوم كما تنفذ الرايات في الهواء وأشار بالريح التي تحبس الأقدام... إلخ، إلى حكمة اللّه التي أعطت كلاماً يستحقّه وقصرت كلّ موجود على حدّه و ـــــ إلى لطف تصرّفها أو جريانها في المصنوعات.

قد استفرغتهم أشغال عبادته ووسّلت وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه ولم تُجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس الرويّة من محبّته وتمكّنت من سويداء قلوبهم

[**قد استفرغتهم أشغال عبادته**] أي: جعلتهم فارغين عن كلّ شيء إلّا من العبادة كما قال تعالى: ﴿يسبّحون اللّيل والنهار لا يفترون﴾.

[**ووسّلت**] بالسين المشدّدة، يقال: وسّل فلان إلى ربّه وسيلة والوسيلة ما يُتقرّب به والجمع وسل ووسائل حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته وحقائق الإيمان تصديقهم الحقّ بوجوده عن شاهد وجودهم وظاهر كونه سبباً لإرادة معرفته التامّة والدوام عليها وإبراز ما في قلوبهم من الكمال بها إلى الفعل فإنّ التصديق بوجود الشيء الواجب تحصيله الأسباب الباعثة على طلبه فصار الإيمان والتصديق الحقّ اليقين بوجوده وسيلة جامعة بينهم وبين معرفته والاستكمال بها وقاطعاً لهم إلى الوله إليه والعشق له وثبات الرغبة على ما عنده دون غيره.

كما أشار بقوله: [**وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه ولم تُجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره قد ذاقوا حلاوة معرفته**] استعار الذوق لتعقلاتهم.

[**وشربوا بالكأس الرويّة من محبّته**] واستعار الشرب لما تمكّن في ذواتهم من عشقه وكمال محبّته ورشح الاستعارة الأُولى بذكر الحلاوة مكنّياً بها عن كمال ما يجدونه من اللّذة بمعرفته كما يلتذ ذائق الحلاوة بها والثانية بذكر الكأس الرويّة إذ من كمال الشرف أن يكون بكأس روية أي من شأنها أن تروي وكنّى بها عن كمال معارفهم بالنسبة إلى غيرهم.

[**وتمكّنت من سويداء قلوبهم**] سويداوات القلوب جمع سويد: وهي

وشيحة خفيفة فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم ولم تنفذ طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم

حبّة القلب.

[**وشيحة خفيفة**] والوشيحة في الأصل عرق الشجرة استعار لفظ القلوب بذكر سويدائها إذا كان من كمال تمكّن العوارض القلبيّة كالمحبّة والخوف أن يبلغ إلى سويدائه، وأشار بوشيحة خيفة إلى العلاقة المتمكّنة من ذواتهم لخيفته وهي كمال علمهم بعظمته.

[**فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم**] يقال: حنيت ضلعي أي: عوجتها وهو كناية عن كمال خضوعهم في عبادتهم من إطلاق المسبّب على السبب.

[**ولم تنفذ طول الرغبة إليه مادّة تضرّعهم**] حيث كان شأن الإنسان حال الرغبة في أمر من الأُمور إلى بعض الملوك الفزع فيه إليه بالتضرّع والخدمة، ثمّ ينقطع تضرّعه وخدمته بانقطاع مادّته ومادّته إمّا دواعي نفسه إلى الطلب وميولها وانقطاعها باستيلاء الملال على نفسه وضعفها عن تحمّل المشقّة ومطلوبه وتصوّره لإمكان تناوله وانقطاعه إمّا بإياسه منه، أو بإعطائه إيّاه، وكانت مادّة تضرّعهم وعبادتهم له تعالى على التقديرين بربّه عن القواطع إمّا من ذواتهم فلأنّ الملال والكلال من عوارض المركّبات العنصريّة، وأمّا مطلوبهم فلأنّه كمال معرفة اللّه تعالى بعد تصوّرهم لعظمة ذلك ــــــ.

وعلمت أنّ درجات الوصوف إليه غير متناهية لا جرم سلب عنهم في معرض المدح انقطاع عبادة تضرّعهم ليستلزم ذلك سلب انقطاع تفرّغهم وعبادتهم له.

ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة لديه ربق خشوعهم ولم يتولّاهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا تركتب لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجائهم

[**ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة لديه ربق خشوعهم**] الربق جمع ربقة وهي الحبل واستعير هنا لما حصلوا فيه من الخشوع إذ لا يقع من العارف بربّه المتقرّب إليه نقصان في الهيبة والخشوع بل كلّما ازداد به معرفة ازداد عنده عظماً وفي نفسه خشوعاً فكلّما عبر منزلاً من منازل المعرفة علم عظمة خالقه فكمل عقد يقينه بذلك وعلم نقصان ذاته فكمل خشوعه.

[**ولم يتولّاهم**] أي: يستولي عليهم [**الإعجاب**] بأنفسهم واستعظام ما حصل لها من الفضائل وما تنزّهت عنه من الرذائل [**فيستكثروا ما سلف منهم**] من عبادة ويستعظموا ما صدر عنهم من خير إذ هذه الرذيلة إنّما تكون من توهّمات النفس الأمّارة وهم منزّهون عنها.

[**ولا تركتب لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم**] إذ كلّما عظم جلال معبودهم في أنفسهم حقرت حسناتهم في نظرهم كما قال عليه السلام «وما قد لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً لا نقابل بها كرمك».

[**ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم**] أي: جدّهم واجتهادهم لأنّ الدؤوب من لوازم الطبيعة المنزّهين عنها وقال تعالى: ﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾.

[**ولم تغض رغباتهم**] أي: لم تنقص [**فيخالفوا**] ويعدلوا [**عن رجائهم**] بل رغباتهم دائمة وأشواقهم ثابتة فرجائهم دائم.

ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الحنين إليه أصواتهم ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم

[**ولم تجف لطول المناجاة أسلات**] جمع أسلة أي أطراف [**ألسنتهم**] استعار اللسان لتوجيه وجوههم دائماً إليه ورشحه بذكر الأسلات ملاحظة للتشبيه بأحدنا في مناجاته وكنّى بعدم جفاف ألسنتهم عن عدم فتورهم وعدم لحوق الإعياء والكلال منهم إذ لا ألسنة لهم من لحم رطب حتّى تجف.

[**ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الحنين إليه أصواتهم**] الهمس الصوت الخفي أي: ليس لهم أشغال خارجة عن العبادة فتكون لأجلها أصواتهم المرتفعة خافية ساكنة لتنزّههم عن الأحوال البشريّة والعوارض البدنيّة من الضعف والإعياء وكلال الأعضاء عند كثرة الأشغال وقوتها.

[**ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم**] قيل استعار المقادم من ريش الطائر وهي عشر في كلّ جناح لما سبق وجوبه من طاعة اللّه وكان من أهمّ عباداته كمعرفته والتوجّه إليه، ولفظ المناكب وهي أربع ريشات بعد المقادم في كلّ جناح لذواتهم.

ووجه الشبه: أنّ المناكب تالية للمقادم وعلى نظامها وترتيبها لا يخالف صفّها ونسقها وكذلك الملائكة لا تختلف ذواتهم وأجرامها في نسق ما أهمّ من عبادة ربّهم ومعرفته، بل حافّون لا يخالف بعضهم بعضاً في استقامة طريقهم إليه، ولا يخرجون عن نظام ترتيبه لهم في التوجّه إليه، كما أشار إليه في الخطبة الأولى وصافّون لا يتزايلون وحكى اللّه عنهم في

ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات ولا تنتنظل في هممهم خدائع الشهوات قد اتخذوا ذا العرش حيرة ليوم فاقتهم

القرآن ﴿وإنّا لنحن الصافّون﴾ .

[**ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم**] مفعول يثنوا استعار لفظ الرقاب والثني أي لم يلتفتوا إلى الراحة في تعب العبادة فيقصّروا في أوامره والمقصود نفي الأحوال البشريّة عنهم من التعب والراحة لكونهما من توابع هذه الأبدان .

[**ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات**] قد مرّ معنى الغفلة والبلادة طرف التفريط من فضلة الذكاء وكلاهما من عوارض هذا البدن وبواسطته وكذلك الشهوات والملائكة منزّهون عن جميع ذلك فلا يطرء على حضورهم لما توجّهوا له غفلة ولا بلادة حتّى يكون ذلك سبباً لإعراضهم عن التوجه فيه .

[**ولا تنتنظل في هممهم خدائع الشهوات**] التنضّل من المناضل وهو المراماة بالسهم أي لم يجز أن ترمي الشهوات هممهم بسهام خدائعها واستعار الانتضال لتوارد جواذب الشهوات على النفس الناطقة مع كونها مؤذية لها ومردية في قرار الجحيم .

[**قد اتخذوا ذا العرش حيرة ليوم فاقتهم**] أي : حاجتهم فهو ذخرهم الذي إليه يرجعون وعليه يعوّلون ويتوكّلون وبه يصولون وفيما عنده يرغبون وكنّى بذي العرش عن اللّه تعالى اقتباساً من قوله ﴿إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ وقوله ذو العرش المجيد .

ويمّموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم لا يقطعون أمد غاية عبادته ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلاّ إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته ولم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينسوا في جدّهم

[**ويمّموه**] أي: قصدوه [**عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم**] فأُولئك انقطعوا إلى الحق ولم يلتفتوا إلى الخلق وهؤلاء انقطعوا إلى الخلق وأعرضوا عن الحق [**لا يقطعون أمد غاية عبادته**] إذ غاية عبادته الوصول إلى كمال معرفته ودرجات المعارف غير متناهية فلا يمكنهم قطع تلك الغاية، ولذا قال سيد الأنبياء «اللهمّ زدني فيك معرفة» وقال تعالى مخاطباً له ﴿وقل ربّي زدني علماً﴾.

[**ولا يرجع بهم الاستهتار**] مصدر استهتر فلان أي لازمه وأُولع به [**بلزوم طاعته إلاّ إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته**] لأنّهم لما غرقوا في محبّته وعلموا كمال عظمته وأنّ مايرجونه من تمام جوده أشرف المطالب وما يخشونه من الحرمان منه أعظم المناطب لاجرم دام رجائهم له وخضوعهم في رقّ الحاجة إليه والخوف من حرمانه وذلك الرجاء والخوف مادّة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها.

[**ولم تنقطع أسباب الشفقة**] أي الإشفاق والخوف [**منهم فينسوا**] أي: فيضعفوا [**في جدّهم**] واجتهادهم أي: لم تنقطع أسباب خوفهم وأسباب حاجتهم إلى القيام في الوجود إلى الاستكمال بجوده، فإنّ الحاجة الضرورية إلى الغير في مطلوب تستلزم خوف عدم قضائه وتوجب الإقبال

ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منه شفقات وجلهم ولم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم

على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته وحاجتهم إليه دائمة، فجدّهم في عبادته دائم فالتواني فيه مفقود.

[**ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك**] أي: قريب [**السعي على اجتهادهم**] استعار الأسر لقود الأطماع إلى ما يطمع فيه ونفي الأطماع عنهم لتنزّههم من العوارض البشريّة وتوضيح ذلك أنّ كثيراً من العباد قد يصرفهم عن الاجتهاد في العبادة سبب ما يظهر لهم من كمالات الدنيا ورتبها فيؤثرون ما قرب من السعي في تحصيله على ما يستبعدونه من تحصيل السعادة الاخروية لاستيلاء الشهوة والغفلة والملائكة منزّهون عنهما.

[**ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم**] الصالحة [**ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منه شفقات وجلهم**] أي: لأذهب خوفهم رجائهم الذي يتولّد من استعظام تلك العبادة وتوضيح ذلك أنّ الإنسان إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه يرى في نفسه استحقاق أتمّ جزاء له، ويجد التظاؤل به والدالة عيه فيهون ذلك ما كان يجده من خوف الملك وكلّما أراد استعظامه لخدمته زاد اعتقاده في قربه من الملك وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقلّ هيبته، لكن الملائكة خائفون أبداً كما قال تعالى: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم﴾ وقال: ﴿تسبّح الرعد بحمده وترجف الملائكة من خيفته﴾.

[**ولم يختلفوا في ربّهم**] في وجوبه ووجوده وصفاته الكمالية والجلالية واستحقاقه كمال العبادة [**باستحواذ الشيطان عليهم**] أي: غلبته، لعدم

ولم يفرقهم سواء التقاطع ولا يتولاّهم غلّ الحاسد ولا تشعبتهم مصارف الريب ولا اقتسمتهم أخياف الهمم فهم أُسراء الإيمان لم يفكّهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونا ولا فتور

سلطان له عليهم بل هم عباد مكرمون وقال تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

[**ولم يفرقهم سواء التقاطع**] كتقاطع المتعادين وتباينهم الناشئ عن الغضب والشهوة.

[**ولا يتولاّهم**] أي: لا يستولي عليهم [**غلّ الحاسد**] فإنّ الحسد رذيلة نفسانيّة تنبعث عن البخل والشرّية ومنشئهما النفس الأمّارة وهم مبرّئون منها.

[**ولا تشعبتهم**] أي: قسمتهم وفرّقتهم وجعلتهم شعباً [**مصارف الريب**] والشكوك والشبه ومصارفهاهي الأُمور الباطلة التي ينصرف أذهانهم إليها عن شبهة أو هي تلك الشبه والشكوك أنفسها وتشعّبها لهم اقتسامها بحيث يذهب كلّ واحد من شبهة إلى باطل ومنشأ الشكوك والشبهات هو الوهم والخيال وهم منزّهون عن أمثالها.

[**ولا اقتسمتهم أخياف الهمم**] أي: الهمم المختلفة وأصله من الخيف وهو كحل إحدى العينين دون الأُخرى إذ لّما كان معبودهم واحد وهو غاية مطلوبهم كانت هممهم فيه واحدة فلم يلتفتوا إلى شيء آخر ولم يفترقوا فيها.

[**فهم أُسراء الإيمان**] استعارة مرشحة بلفظ الربقة له [**لم يفكّهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونا ولا فتور**] لتنزّه الملائكة عن هذه العلائق والعوائق التي منشئها النفس الأمّارة.

وليس في أطباق السموات موضع إهاب إلاّ وعليه ملك ساجد أو ساع حافد يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً في صفة الأرض ودحوها على الماء كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة تلتطم أوازي أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبداً كالفحول عند هياجها

[**وليس في أطباق السموات موضع إهاب**] أي: جلد [**إلاّ وعليه ملك ساجد أو ساع حافد**] أي: مسرع المراد أنّ السموات مملوءة بالملائكة بين ساجد لربّه وساع مجدّ في أمره وطاعته [**يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً**].

ومنها:

[**في صفة الأرض ودحوها على الماء كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة**] كبسها أغاصها وأدخلها الماء بقوة واعتماد شديد والمور التردّد في الحركة، ومستفحلة أي صائلة، استعار الكبس لخلقه لها ضائعاً معظمها في الماء كما يغوص الرق المفتوح ونحوه بالاعتماد عليه واستعار الاستفحال للموج ووجه الشبه ما اشتركا فيه من الاضطراب والهيجان والصولة.

[**ولجج بحار زاخرة**] زخر الماء أي: امتدّ جدّ أو ارتفع [**تلتطم أوازي أمواجها**] الأوازي جمع أزى وهو ما عظم من موج البحر.

[**وتصطفق متقاذفات أثباجها**] الاصطفاق الترادف وضرب بعضها بعضاً والاثباج جمع ثبج وهو معظم الأمواج وأعاليها.

[**وترغو زبداً كالفحول عند هياجها**] ترغو أيك تصوّت صوت البعير

فخضع جماح الماء المتلاطم لنقل حملها وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلتها وذلّ مستخذياً إذ تمعكت عليه بكواهلها فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذلّ منقاداً أسيراً

والرغا صوت ذرّات الخف وزبداً منصوب بفعل مقدّر أي: ترغو قاذفة زبداً وهو ما يظهر فوق السيل والتشبيه بالفحول لما يظهر على رؤوس الموج عند اضطرابه وغليانه من رغوة الزبد كما يظهر من فم الفحل عند هياجه.

[**فخضع جماح الماء**] أي: صعوده وغليانه [**المتلاطم لنقل حملها**] استعار لفظ الجماح لحركة الماء على غير نسق واضطراب لا يملك مع تعريفه كما يجمح الفرس.

[**وسكن هيج ارتمائه**] أي: تقاذفه وتلاطمه [**إذ وطئته بكلكلتها**] أي: صدرها.

[**وذلّ مستخذياً إذ تمعكت**] تمعّكت الدابّة أي: تمرّغت ومعكت الأديم: دلكته [**عليه بكواهلها**] جمع كاهل وهو ما بين الكتفين استعارة أوصاف الناقة من الكلكل والكاهل للأرض ورشح تلك الاستعارة بالوطيء والتمعّك وإنّما خصّ الصدر والكاهل لقوّتهما وكنّى بالجموع عن إلحاقها بالناقة.

[**فأصبح بعد اصطخاب**] أي صياح [**أمواجه ساجياً**] ساكناً [**مقهوراً وفي حكمة الذلّ منقاداً أسيراً**] استعار للماء لفظ الساجي والقهر ولفظ الحكمة وهي ما أحاط من اللجام بحنك الدابّة والانقياد والأسر وكنّى بها عن إلحاقه بحيوان صائل قهر كالفرس وإضافة الحكمة إلى الذل إضافة السبب للمسبّب.

وسكنت الأرض مدحوة في لجّة تيّاره وردت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسموّ غلوائه على كظّة جريته فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته

[**وسكنت الأرض مدحوة**] أي: مبسوطة [**في لجّة تيّاره**] والتيّار أعظم الموج ولجّته: أعمقه.

[**وردت من نخوة بأوه**] أي: كبره وفخره يقال: بأوت على القوم أي: فخرت.

[**واعتلائه**] أي: تيهه وتكبّره أي: كسرت الأرض سؤرة الماء كما يكسر سؤرة الرجل المتكبّر.

[**وشموخ أنفه**] الشموخ العلو مصدر شمخ بأنفه أي: تكبّر والجبال الشوامخ: الشاهقة.

[**وسموّ غلوائه**] السمو العلو وغلوائه أي: غلوّه وتجاوزه الحدّ وكهمته أي: شدة فمه لما هاج من الكعام وهو شيء يجعل في فم البعير [**على كظّة جريته**] والكظّة: الجهد والثقل أيك يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام فيقول كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظاً لشدّة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه.

[**فهمد**] أي: سكن [**بعد نزقاته**] وهي الخفقة والطيش.

[**ولبد بعد زيفان وثباته**] يقال: لبد الشيء بالأرض يلبد بالضمّ لبوداً أي: لصق بها ساكناً والزيفان الشجر في المشي يقال: راف البعير يريف والريافة من النوق المختالة وفي رواية ولبد بعد زينان وثباته والزينان شدّة هبوب الرياح، ناقة رفيان أي: سريعة.

فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها وحمل شواهق الجبال البذخ على أكنافها فجرّ ينابيع العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها وعدّل حركاتها من جلاميدها ذوات الشياخيت الشم من

وقد استعار لفظ النخوة والبار وشموخ الأنف والتيه والغلو والترف والزيفان والوثبات للماء في هيجانه واضطرابه ملاحظاً لشبه بالإنسان المتحيّر التيّاه في حركاته المؤذية بتكبّره وزهوه.

[**فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها**] أي: جوانبها، استعار الأكناف للأرض ووجه الشبه كون كلّ منهما محلاً لحمل ما ثقل من الجبال كما أنّ كتف الإنسان وغيره محلّ لحمل الأثقال.

[**وحمل شواهق الجبال البذخ على أكنافها**] الجبال الشواهق العالية والبذخ العالية.

[**فجرّ ينابيع العيون من عرانين أنوفها**] الينابيع جمع ينبوع وهو ما انفجر من الأرض، والعرنين أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين، استعار العرنين والأنف لأعالي رؤوس الجبال كناية عن إلحاقها بالإنسان.

[**وفرقها في سهوب**] جمع سهب وهو الفلاة [**بيدها**] جمع بيداء وهي الفلاة أيضاً.

[**وأخاديدها**] جمع اخدود وهو الشقّ في الأرض، قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الاخدود﴾.

[**وعدّل حركاتها**] بالجبال الراسيات الثقال [**من جلاميدها**] جمع جلمد أو جلمود أي: صخورها.

[**ذوات الشياخيت**] وهي رؤوس الجبال [**الشم**] أي: العالية [**من**

صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسرّبة في جوبات وخياشيمها وركوبها أعناق وسهول الأرضين وجراثيمها

صياخيدها] جمع صيخود وهي الصخرة الصلبة.

[**فسكنت من الميدان]** أي: التحرّك والاضطراب وماد الرجل يميد أي: تبختر [**برسوب الجبال]** أي: نزولها، يقال: رسب الشيء في الماء أي سَفِل فيه وسيف رسوب ينزل في العظام [**في قطع أديمها]** القطع جمع قطعة وأديم الأرض وجهها، يريد في أجزائها وأبعاضها ويروى في قطع أديمها بضمّ القاف وفتح الطاء جمع قطعة وهي الغروزة من الأرض.

[**وتغلغلها]** يقال: تغلغل الماء في الشجر دخوله وتخلّله في أُصوله وعروقه [**متسرّبة]** أي: داخلة، يقال: تسرّب الثعلب أي دخل سربه [**في جوبات]** جمع جوبة وهي الفرجة في جبل أو غيره.

[**وخياشيمها]** جمع خيشوم وهو أقصى الأنف.

[**وركوبها أعناق وسهول الأرضين وجراثيمها]** جمع جرثومة، وهي أصل الشجر، كنّى عليه السلام بالتغلغل والتسرّب عن نفوذ الجبال في الأرض وغوصها فيها، والخياشيم لتلك الأسراب ولمّا جعل للجبال أُنوفاً جعل تلك الأسراب التي قامت الجبال فيها خياشيم واستعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرض كناية عن إلحاقها بالقاهر والمقهور.

وقد أفاد عليه السلام في هذه الفقرات أنّ اللّه تعالى خلق الماء قبل الأرض ثمّ دحاها فيه وسكن بها مستفحل أمواجه ووجهه أنّ الماء لمّا كان حاوياً لأكثر الأرض كان سطحه الباطن المماس لسطحه الظاهر مكاناً لها وللمكان تقدّم

وفسح بين الجو وبينها وأعدّ الهواء منسماً لساكنها وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها ثمّ لم يدع جوز الأرض

ما على المتمكّن فيه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى خلق الجبال فيها وكونها سبباً لسكونها كما دلّ عليه القرآن، ثمّ أشار إلى تفجير ينابيع العيون والجبال وإنّما خصّ الجبال بتفجّر العيون لأنّها أكثر ما تتفجر من الجبال والأمكنة المرتفعة لشدّة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن الهابطة الرخوة. ثمّ ذكر أنّه تعالى أعدّ الهواء لساكنها فقال:

[**وفسح**] أي: أوسع [**بين الجو وبينها وأعدّ الهواء منسماً**] يعني موضع النسيم [**لساكنها**] إشارة إلى ما ذكره العارفون وهو أنّ الهواء كما جعل عنصر الأبدان الحيوانية كذلك جعل مدوداً يصل إلى الأرواح لصلاحها وبقائها بالتعديل والتعديل بالتردبح والتبقية.

[**وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها**] أي: منافعها كما قال تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين﴾ وأراد عليه السلام بأهلها المحتاجين إليها مطلق الحيوان وارتفاقهم بها جعلتها لهم قراراً صالحة لسكناهم وحرثهم وزرعهم ودفن أمواتهم إلى غير ذلك من منافعها التي لا تخفى، قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وقال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا أحياءً وأمواتا﴾ وقال تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون﴾.

[**ثمّ لم يدع جوز الأرض**] من إضافة الصفة إلى الموصوف أي:

تقصر مياه العيون عن رواسيها ولا تجد جداول الأرض ذريعة إلى بلوغها حتّى أنشأ لها ناشئة سحاب تحي مواتها وتستخرج نباتها ألّف غمامها بعد تفرّق لمعه وتباين قزعه حتّى إذا ما تمخّضت لجّة المزن فيه والتمع برقه في كففه

الأرض الجزر وهي التي لا نبات لها لانقطاع المطر عنها [**تقصر مياه العيون عن رواسيها**] الروابي التلاع وما عدا من الأرض.

[**ولا تجد جداول الأرض**] وهي الأنهار الصغار جمع جدول [**ذريعة**] أي: وصلة ووسيلة [**إلى بلوغها**] واستعار لفظ الوجدان والذريعة للجداول كناية عن إلحاقها بالإنسان العديم الوسيلة إلى مطلوبه [**حتّى أنشأ لها ناشئة سحاب**] وهو ما يبتدي ظهوره [**تحي مواتها**] والموات بفتح الميم: القفر من الأرض.

[**وتستخرج نباتها ألّف غمامها بعد تفرّق لمعه**] جمع لمعه وهي القطعة من السحاب وغيره.

[**وتباين قزعه**] جمع قزعة وهي القطعة الرقيقة من السحاب [**حتّى إذا ما تمخّضت**] أي تحرّكت بقوّة من تمخّض الولد تحرّك في بطن الحامل [**لجّة المزن**] جمع مزنة [**فيه**] الضمير للمزن أي: تحرّكت لجة المزن في المزن نفسه أي: تحرّك من السحاب وسطه ــــ.

[**والتمع**] أي: أضاء [**برقه في كففه**] جمع كفة والكفة كالدارة تكون في السحاب وعن الأصمعي كلّما استطال فهو كفّة بالضم نحو كفة الثوب أي حاشيته وكفة الرمل والجمع كفاف وكلّما استدار فهو كفّه بالكسر نحو كفّة الميزان وكفّة الصائد وهي حبالته والجمع كفف.

ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ومتراكم سحابه أرسله سحباً متداركاً قد أسفّ هيدبه تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه

[**ولم ينم وميضه**] أي: لم يفتر ولم ينقطع ضيائه ولمعانه استعار النوم له [**في كنهور**] هو العظيم من السحاب [**ربابه**] والرباب الغمام الأبيض وقيل إنّه السحاب الذي تراه كأنّه دون السحاب وقد يكون أبيض وقد يكون أسود وهو جمع واحده ربابة.

[**ومتراكم سحابه**] المتراكم الذي ركب بعضه بعضاً والميم بدل الباء [**أرسله سحباً متداركاً**] يلحق بعضه بعضاً من غير انقطاع [**قد أسفّ**] أي دنى من الأرض [**هيدبه**] ما تهدّب منه أي: تدلّى كما يتدلّ هدب العين على أشفارها [**تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه**] وفي رواية تمري الجنوب، أي: تحلب وتستدر وتمر به الجنوب أي: تستخرج مائه على أن تعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبناً والدرر جمع درّة، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصبّه.

والأهاضيب: جمع هضاب والهضاب جمع هضب وهي حلبات القطر بعد القطر والدفع جمع دفعة بالضمّ وهي كالدفعة من المطر بالضمّ أيضاً.

والشآبيب جمع شؤبوب وهو رشقة قوية من المطر تنزل دفعة استعار عليه السلام لفظ الهدب لقطرات المطر المتصلة لشبهها بالخيوط المتدلّية واستعار لفظ الدرر، والأهاضيب وهي الحلبات للغمام كناية عن إلحاقها بالناقة وأسند المري إلى الجنوب مجازاً، أو لأنّ لها سببيّة ما في نزول الغيث وخصّ الجنوب لأنّها في أكثر البلاد حارّة رطبة، وحرارتها لمجيئها من الجهة

فلمّا ألقت السحاب برك بوانيها وبعاع ما استقلّ به من العبء المحمول عليها أخرج به هوامد النبات ومن زعر الجبال الأعشاب فهي تبهج بزينة رياضها وتزدهي بما ألبسته من ربط أزاهيرها وحلية ما سمطت به من ناظر أنوارها

ـــــ بمقاربة الشمس ورطوبتها لأنّ البحار أكثرها ـــــ والشمس تفعل فيها بقوّة وتبخّر عنها أبخرة تخالط الرياح وحينئذ تكون أكثر استصحاباً للأبخرة، ولذا يكون السحاب أكثر انعقاداً معها والمطر منها أكثر لحرارتها المفتّحة للمسام ولرطوبتها المرخية.

[**فلمّا ألقت السحاب برك**] أي: مصدر [**بوانيها**] تشبّه بوان على وزن فعال بكسر الفاء وهو عمود الخيمة، والجمع بون وروي بوانيها أي: لواصقها من قوس بانيه إذا التصقت بالوتر.

[**وبعاع ما استقلّ به من العبء المحمول عليها**] بعاع السحاب ثقلها بالمطر والعباب المثقل والعبء الثقل واستقلّت ارتفعت ونهضت [**أخرج به هوامد النبات**] الأرض التي لا نبات بها.

[**ومن زعر الجبال الأعشاب**] الزعر جمع أزعر والمراد به قلّة العشب [**فهي تبهج**] أي تسرّ وتفرح [**بزينة رياضها**] ومن رؤاه يبهج بضمّ الهاء أراد يحسن ويملح من البهجة كما قال تعالى: ﴿من كلّ زوج بهيج﴾.

[**وتزدهي**] أي تتكبر [**بما ألبسته من ربط أزاهيرها**] والربط جمع ربطة وهي الملائة غير ذات لغتين والأزاهير النور ذو الألوان.

[**وحلية ما سمطت به من ناظر أنوارها**] سمطت به علق عليها السموط جمع سمط وهو العقد وروي شمطت بالشين المعجمة أراد ما خالط سواد

وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها فلمّا مهّد أ رضه

الرياض من النور الأبيض كالاقحوان ونحوه فصار كالشعر الأشمط والناظر ذو النظارة أي الحس والطراوة استعار عليه السلام لفظ البرك والبواني للسحاب وأسند إليه الالقا كناية عن إلحاحه بالجمل الذي أثقله الحمل فرمى بصدره إلى الأرض ونسب الابتهاج والازدهار واللّبس إلى الأرض ذات الأزاهير مجازاً ملاحظة تشبيهها بالمرأة المتحجّبة بما عليها من فاخر الملبوس وجميل الثياب.

ثمّ أشار عليه السلام إلى غايته وفائدته بقوله [**وجعل ذلك بلاغاً**] أي: كفاية [**للأنام ورزقاً للأنعام**] قال اللّه تعالى ﴿أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فتخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا تبصرون﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في تمجيد اللّه تعالى باعتبار وضع الفجاج والطرق في نواحي الأرض فقال: [**وخرق الفجاج**] أي: الطرق الواسعة [**في آفاقها**] أي: نواحيها إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وجعل لكم فجاجاً سبلاً لعلكم تهتدون﴾.

[**وأقام المنار**] أي: الأعلام [**للسالكين على جواد**] جمع جادة [**طرقها**] ولعلّه أراد بالمنار النجوم التي يهتدي بها كما قال: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ والجبال.

ثمّ شرع عليه السلام في تمجيد اللّه تعالى باعتبار خلقه لآدم واختيار وإتمام نعمته عليه وسائر أحواله فقال:

[**فلمّا مهّد أرضه**] أي: جعلها مهاداً، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ألم

وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أوّل جبلته وبديع فطرته وأسكنه جنّته وأرغد فيها أكله وأوعز إليه فيما نهاه عنه

نجعل الأرض مهاداً﴾ او جعلها مهداً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم الأرض مهداً﴾.

والأوّل إشارة إلى تسويتها وإصلاحها بحيث يسهل على العباد التصرّف فيها بالقيام والقعود والزراعة وسائر المنافع.

والثاني على استعارة مهد الصبي لها ووجه الشبه كونهما محل الراحة والنوم.

[**وأنفذ أمره**] على إيجاد مخلوقاته وإتمامها.

[**اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه**] نصب على الحال أو المصدر إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه اصطفى آدم﴾ وقوله: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾.

[**وجعله أوّل جبلته**] الجبلة الخلق ومنه قوله تعالى: ﴿واتّقوا اللّه الذي خلقكم والجبلة الأوّلين﴾ وتجوز الجبلة بالضمّ وقُرىء بها وفيه إشارة إلى أنّ آدم أوّل شخص كان في الوجود من نوع الإنسان.

[**وبديع فطرته وأسكنه جنّته وأرغد فيها أُكله**] أي: جعل مأكوله رغداً واسعاً طيّباً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

[**وأوعز**] أي: تقدّم [**إليه**] بالإنذار [**فيما نهاه عنه**] من وعّز بالتشديد توعيزاً وبالتخفيف وعز وعزاً.

وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله

[**وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته**] حيث قال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾.

[**فأقدم على ما نهاه عنه**] قال تعالى: ﴿فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه﴾.

[**موافاة لسابق علمه**] قال ابن أبي الحديد: لا يجوز أن ينتصب لأنّه مفعول له، وذلك لأنّ المفعول له يكون رغداً وعلّة للفعل، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهي السابق، بل يجب أن ينتصب موافاة على المصدرية المختصّة، كأنّه قال: فوافى بالمعصية موافاة وطابق بها سابق العلم مطابقة.

[**فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله**] وكلامه عليه السلام صريح في أنّ هبوطه بعد التوبة وهو ظاهر القرآن كما قال تعالى: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ فأخبر عن أنّه تعالى أهبطهم بعد تلقّي الكلمات والتوبة وقال تعالى في مقام آخر ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿وعصى آدم ربّه فغوى ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً﴾ فجعل الإهباط بعد الإجتباء والتوبة

وليقيم الحجّة على عباده ولم يخلّهم بعد أن قبضه ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته

وذهب جمع إلى انّ التوبة في الأرض بعد الهبوط لقوله تعالى: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾.

فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما ثمّ عقّب الهبوط بفاء التعقيب في قوله ﴿فتلقّى﴾.

وفيه أنّه تعالى لم يقل فقلنا اهبطوا بالفاء بل قال وقلنا اهبطوا والوا لا تقتضي الترتيب وقوله:

[**وليقيم الحجّة على عباده**] أي: إذا كان أبوهم أُخرج من الجنّة بخطيئته فبالأولى والأحرى أن لا يدخلها ذو خطايا جمّة، والمراد بإقامة الحجّة به بيان مصالحهم وما كلّفوا به والمراد بعباده حينئذ انّ أولاده الموجودون في زمانه والمنقول أنّه مات عن أربعين ولداً أو من بلغته شريعته وسنّته منهم بعد وفاته والمنقول أنّ اللّه أنزل عليه من الأحكام تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعم في أحد وعشرين ورقة وهو أوّل كتاب كتب في الدنيا أجرى اللّه عليه الألسنة كلّها.

[**ولم يخلّهم بعد أن قبضه**] إليه [**ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم وبين معرفته**] لما ثبت بالبراهين القطعيّة العقليّة والنقليّة أنّ الأرض لا تخلو من حجّة إمّا ظاهر مشهور أو مستتر مغمور وإلاّ لساخت الأرض بأهلها.

بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً حتّى تمّت بنبيّنا محمد صلّى اللّه عليه وآله حجّته وبلغ المقطع أعذره ونذره وقدّر الأرزاق فكثّرها وقلّلها وقسّمها على الضيق والسعة فعدّل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها

[**بل تعاهدهم بالحجج**] أي: جدّد العهد عندهم بها ويروى بل تعهّدهم بالتشديد والتعهّد التحفّظ [**على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرناً فقرناً**] بفتح القاف وهو أهل الزمان الواحد [**حتّى تمّت بنبيّنا محمد صلّى اللّه عليه وآله حجّته**] أي: لم يزل يبعث الأنبياء واحداً بعد واحد حتّى بعث محمّداً ﷺ فتمّت به حجّته على الخلق أجمعين.

[**وبلغ المقطع أعذره ونذره**] اي إعذاره إلى الخلق وإنذاره لهم بلغ الغاية، ومقطع كلّ شيء غايته أي: لم يبق بعده رسول ينتظر وانتهت عذر اللّه ونذره فعذره ما بيّن للمكلّفين من الإعذار في عقوبته لهم إن عصوه ونذره ما أنذرهم من الحوادث ومن أنذرهم على لسانه من الرسل.

[**وقدّر الأرزاق**] وقسّمها وأعطى كلّ مخلوق ما كُتب له في اللّوح المحفوظ منها [**فكثّرها وقلّلها وقسّمها على الضيق والسعة**] على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما قال: «وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقه ولو أغنيته لفسد وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغني ولو أفقرته لفسد».

[**فعدّل فيها**] بالتشديد من التعديل وهو التقويم وبالتخفيف من العدل نقيض الظلم [**ليبتلي من أراد**] ابتلائه وامتحانه بأن يعامله معاملة المختبر [**بميسورها ومعسورها**] وفي معناه قول النبي ﷺ: «إنّ أعطاء هذا المال فتنة وإمساكه فتنة».

وليختبر بذلك الشكر والصبر عن غنيّها وفقيرها ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها بسلامتها طوارق آفاتها بفرح أفراحها غصص أتراحها

[وليختبر بذلك] أي: يعامل معاملة المختبر وإلّا فحقيقة الاختبار ممتنعة عليه إذ هو عالم بالأشياء قبل وجودها.

[الشكر والصبر عن غنيّها وفقيرها] لفّ ونشر مرتّب أي: الشكر عن غنيها والصبر من فقيرها أو الشكر والصبر من كلّ منهما.

أمّا الشكر فمعلوم وجوبه على الغني والفقير.

وأمّا الصبر فمن الفقير واضح، ومن الغني من حيث أنّ الصبر على العوافي أشدّ من الصبر على الفاقة، فإنّ النفس مع غناها وقدرتها على الشهوات تسترسل فلابدّ من صبر يمنعها من التعدّي ووضع الأشياء في محلّها وعدم تجاوز الحدّ والإسراف.

[ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها] فنغّص سعة الغني بلواحق الفقر والفاقة، فبينما الإنسان في ملكه أصبح محتاجاً إلى الفلس وعقابيل المرض والفقر بقاياه وهي في الأصل ورح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض.

والفاقة: الفقر، وقرن **[بسلامتها]** في النعم **[طوارق آفاتها]** من غرق أو حرق أو غصب ظالم أو غلب غاشم وطوارق الآفات ما تجدّد من المصائب، وأصل الطروق ما يأتي ليلاً وقرن **[بفرح أفراحها غصص أتراحها]** والأتراح: الغموم، الواحد ترح وترحة أي: حزنة.

ثمّ أشار عليه السلام بالابتلاء بالآجال والموت والحياة كما قال تعالى ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ فقال:

وخلق الآجال فأطالها وقصّرها وقدّمها وأخّرها ووصل بالموت أسبابها وجعله خالجاً لأشطانها قاطعاً لمرائر أقرانها

[**وخلق الآجال فأطالها**] لقوم [**وقصّرها**] على آخرين [**وقدّمها وأخّرها ووصل بالموت أسبابها وجعله خالجاً**] أي: جاذباً [**لأشطانها**] أي: حبالها [**قاطعاً لمرائر أقرانها**] أي حبالها ومرائر القرائن جمع مرير، وهو ما لطف وطال منها واشتدّ فتله.

قيل: لمّا كان الأجل عبارة عن وقت ضرورة الموت وكانت أسباب حلول تلك الأوقات هي بعض الأمراض والقتل مثلاً لا جرم صدق أنّ الموت الذي هو عبارة عن مفارقة الأرواح لأجسادها متّصلاً بتلك الأسباب.

واستعار لفظ الخلج وهو الجذب للموت ورشح بذكر الأشطان ووجه الشبّه ما يستلزمه الموت من قرب الأجل كما يستلزمه الجاذب من قرب المجذوب إليه، فقدّر الموت جاذباً للأجل بالحبال كما يجذب بها الإنسان ما يريد واستعار المرائر لأسباب العلاقة بين الناس وظاهر كون الموت قاطعاً لتلك المرائر.

ثمّ شرع عليه السلام في تمجيده تعالى باعتبار كونه عالماً بالأشياء جزئيّاتها وكلّياتها، ويعجبني كلام ابن أبي الحديد في المقام قال بعد قوله عليه السلام عالم السر... إلى قوله: عن كنه ما هو أهله، لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قال علي بن العباس لإسماعيل بلبل شعراً

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلاّ ولكن لعمري منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذوي شرف ... كما علا برسول الله عدنان

عالم السرّ من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان بل كان تقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ويقول إنّه لم يعف ما شيّدت من معالم التوحيد بل أخرج اللّه تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهليّة العرب مالم تبتدعه أنت في جاهليّة النبط، بل لو سمع هذا الكلام ارسطاطاليس القائل بأنّه تعالى لا يعلم الجزئيات لخشع قلبه وقف شعره واضطرب فكره. ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة والعظمة والقحامة والمتانة والجزالة مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللّطف والسلاسة لا أرى كلاماً يشبه هذا إلاّ أن يكون كلام الخالق سبحانه. فإنّ هذا الكلام بنعته من تلك الشجرة وجدول من ذلك البحر وجذوة من تلك النار وكأنّه شرح قوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾ إنتهى.

قال عليه السلام: **[عالم السرّ من ضمائر المضمرين ونجوى المتخافتين]** النجوى المسارّة يقال انتجى القوم وتناجوا أي: تسارّوا والمخافتين الذين يسرّون المنطق وهي المخافتة والتخافت والخفت.

[وخواطر رجم الظنون] أي: القول بالظن، قال تعالى: ﴿رجماً بالغيب﴾.

ومنه الحديث المرجّم بالتشديد وهو الذي لا يعلم أحقٌّ هو أم باطل.

واستعار الرجم الذي هو الرمي بالحجر باعتبار الرمي بالظنّ كما يرمى

وعقد عزمات اليقين ومسارق إيماض الجفون وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب وما أصفت لاستراقه مصائخ الأسماع

بالحجر ونحوه وخصّ الظنّ بذلك دون العلم لأنّه كثيراً ما يكون الظن غير مطابق للواقع فكان أشبه الأشياء برمي الحجر المستلزم للأذى.

[**وعقد عزمات اليقين**] العزائم التي يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها والمراد ما انعقد في النفس من العزائم الصادرة عن يقين.

[**ومسارق إيماض الجفون**] أي: ما تسترقه الأبصار حين تومض يقال: أومض البرق والبصر إيماضاً إذا لمع لمعاً خفيفاً شبّه ﷺ شعاع البصر بالبرق في وميضه واختفائه عند فتح الجفون وطبقها واستعار الوميض لبروزه والمسارق لمخارجه.

[**وما ضمنته أكنان القلوب**] أي: غلفها، والكن: السترة، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿جعل لكم من الجبال أكناناً﴾ ويروى أكنّة القلوب وهي الأغطية أيضاً قال تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّة﴾ والواحدة كنان وعنى بذلك الضمائر المستكنة في القلب واستعار لفظ الأكنان للقلوب بالنسبة إلى ما أخفته من الأسرار.

[**وغيابات الغيوب**] والغيوب جمع غيابة وهي في الأصل قعر البئر ومنه ﴿غيابة الجب﴾ ثمّ نقلت إلى كلّ غامض خفي، استعار الغيابات للغيوب ووجه الشبه كون القلوب حافظة كالبيوت وكون الظلمات مانعة من إدراك البصر كما تمنع الغيوب إدراك ما فيها.

[**وما أصفت**] أي: تسمعت ومالت [**لاستراقه**] أي: لاستماعه في خفية [**مصائخ الأسماع**] أي: خروقها التي يصيخ بها أي: يتسمّع.

ومصائف الذرّ ومشاتي الهوام ورجع الحنين من المولهات وهمس الأقدام ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ومختبئ البعوض من

[**ومصائف الذرّ**] المواضع التي يصيّف الذرّ فيها أي: يقيم الصيف يقال صاف بالمكان واصطاف، والذر جمع ذرّة وهي أصغر النمل.

[**ومشاتي الهوام**] المواضع التي تشتي فيها، يقال: شتوت بموضع كذا وتشتيت أي: أقمت الشتاء به، والهوام جمع هامة وهو الخوف من الأحناش والمراد بيوتها الصيفية والشتوية من بطن الأرض الواقية لها حرّ الصيف وبرد الشتاء.

[**ورجع الحنين**] ترجيعه وترديده [**من المولهات**] وهي النوق أو النساء التي جعل بينهنّ وبين أولادهنّ.

[**وهمس الأقدام**] أي: صوت وطئها خفياً جداً قال تعالى: ﴿فلا تسمع إلاّ همساً﴾ والأسد الهموس الخفي الوطء.

[**ومنفسح الثمرة**] أي: موضع سعتها من الأكمام، وفي نسخة متفسّخ بالخاء المعجمة وتشديد السين وتاء بعد الميم من تفسّخت الثمرة إذا انقطعت [**من ولائج غلف الأكمام**] الولائج المواضع الساترة واحدها وليجة وهو كالكهف تستر فيها المارّة من مطر أو غيره وحسنت الإضافة هنا لأنّ كلّ كم غلاف ولا ينعكس فجاز تخصيص العام بالإضافة إلى بعض جزئياته.

[**ومنقمع الوحوش**] موضع تقمّصها واستتارها [**من غيران الجبال**] جمع غار وهو كالكهف في الجبال والمغار والمغارة مثل الغار.

[**وأوديتها ومختبئ البعوض**] أي: موضع اختبائها واستتارها [من

سُوق الأشجار وألحيتها ومغرز الأوراق من الأفنان ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب وناشئة الغيوم ومتلاحمها ودُرور قطر السحاب ومتراكمها وما تسفي الأعاصير بذيولها

سُوق] جمع ساق [**الأشجار وألحيتها**] جمع لحاء وهو القشر.

[**ومغرز الأوراق**] موضع غرزها فيها [**من الأفنان**] جمع فنن وهو الغصن.

[**ومحطّ الأمشاج**] ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها جمع مشيج كيتيم وأيتام ومنه قوله تعالى: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ ومحطّها مصدر أو مكان [**من مسارب الأصلاب**] أي: المواضع التي يتسرّب المني فيها من الصلب أي: يسيل والأخلاط التي يتولّد عنها.

[**وناشئة الغيوم**] أوّل ما ينشأ منها.

[**ومتلاحمها**] ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم.

[**ودُرور قطر السحاب**] درور مصدر درّ يدرّ أي: سال، وناقة درور: كثيرة اللّبن، وسحاب درور: كثير المطر.

[**ومتراكمها**] أي: المجتمع المتكاثف منها من ركمت الشيء أركمه بالضمّ جمعته وألقيت بعضه على بعض ورمل ركام وسحاب ركام أي: مجتمع.

[**وما تسفي الأعاصير**] جمع إعصار وهي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود، قال تعالى: ﴿فأصابها إعصار فيه نار﴾ وتسفي من سفت الريح التراب سفياً إذا أذرته فهو سفي [**بذيولها**] أي: بأطرافها، استعار الذيول لما أخذ الأرض منها.

تعفو الأمطار بسيولها وعوم نبات الأرض كثبان الرمال ومستقر ذوات الأجنحة بِذُرى شناخيب الجبال وتغريد ذوات المنطق في دياجير والأوكار وما أودعته الأصداف وحصنت عليه أمواج البحار

وما [**تعفو الأمطار**] أي: تدرسُ، يقال: عفت الريح المنزل، أي: درسته [**بسيولها وعوم**] أي: سير وسح [**نبات الأرض**] بتقديم النون على الباء وروي العكس أي: الهوام والحشرات التي تكون في [**كثبان الرمال**] جمع كثيب، وهو ما انصبّ من الرمل واجتمع في مكان فصار تلاً وكثبت الشيء أكثبه كثباً إذا جمعته.

استعار لفظ العوم لدخول عروق النبات في نواحي الأرض بملاحظة شبهها بالماء وعلى تقدير الرواية الثانية فالمراد الهوام التي تنشأ في الرمل وتغوص فيه وتسير كالحلكلة وهي دويبّة كالعطاة دون الشبر صفراء ملساء وكنوعٍ من الحيّات وغيرها.

[**ومستقر ذوات الأجنحة**] وهي الطيور [**بِذُرى شناخيب الجبال**] أي: رؤسها واحدها شنخوب وذراها أعاليها جمع ذروة.

[**وتغريد**] أي: أصوات [**ذوات المنطق**] أي: الطيور كما في قوله: «عُلِّمنا منطق الطير» [**في دياجير**] جمع ديجور وهو الظلام.

[**والأوكار**] جمع وكر وهو عشّ الطائر ويجمع أيضاً على وكور ووكر الطائر يكر وكراً أي دخل وكره، استعار المنطق للطير ووجه الشبه أنّ مدل تغريدهما معلوم للّه ولأوليائه فأشبه المنطق المفيد من الإنسان.

[**وما أودعته الأصداف**] من اللؤلؤ.

[**وحصنت عليه**] أي: ضمنته [**أمواج البحار**] كما تحضن الانثى من

وما غشيته سدفة ليل أو ذرّ عليه شارق نهار وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور وأثر كلّ خطوة وحسّ كلّ حركة ورجع كلّ شفة ورجع كلّ كلمة ومستقرّ كلّ نسمة ومثقال كلّ ذرّة

الطير بيضها وهي ما يكون في اللجّة امّا من سمك أو خشب أو ما يحتمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج، استعار الحصن للأمواج وملاحظة لشبهها بالحواضن في انطباقها على البيض والفراخ.

[**وما غشيته**] أي: غطّته [**سدفة ليل**] أي: ظلمته وقيل السدفة اختلاط الضوء والظلمة [**أو ذرّ عليه شارق نهار**] أي: ما طلعت عليه الشمس، يقال: ذرت الشمس تذر بالضم ذرواً أي: طلعت وذر البقل إذا طلع من الأرض.

[**وما اعتقبت**] أي: تعاقبت [**عليه أطباق الدياجير**] جمع ديجور، أي: مظلم، أي: أطباق الظلم، جمع طبق أي: أعظيتها.

[**وسبحات النور**] عطف على الدياجير، أي يعلم ما تعاقب عليه الظلام والضياء وسبحات النور ما تنزّه منه عن كدر الظلمة ولفظ النور مستعار لمعارف جلال الله.

[**وأثر كلّ خطوة**] بالضمّ ما بين القدمين وبالفتح مصدر خطوات.

[**وحسّ كلّ حركة ورجع كلّ شفة ورجع كلّ كلمة**] ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك.

[**ومستقرّ كلّ نسمة**] والنسمة الإنسان نفسه وجمعه نسم.

[**ومثقال كلّ ذرّة**] أي: وزنها، والمثقال وزن كلّ شيء قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة﴾ وعدّ من الخطأ قول العامّة للدينار مثقال.

وهماهم وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة أو نقاعة دم ومضغة أو ناشئة خلق وسلالة لم تلحقه سبحانه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتداع من خلقه عارضة ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة

[**وهماهم**] جمع همهمة وهي ترديد الصوت في الصدر وهمهمت المرأة في رأس الصبي إذا نوّمته بصوت تردفه له والنفس الهامّة ذات الهمّة التي تعزم على الأمر.

[**وما عليها**] أي: على الأرض وإن لم يسبق لها ذكر اعتماداً على فهم المخاطب، كما قال: ﴿كلّ من عليها فان﴾ أي يعلم ما على الأرض [**من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة**] أي: ما يستقرّ فيه الماء من الأماكن والنطفة الماء نفسه كما مرّ من قوله عليه السلام في الخوارج: «إنّ مصارعهم لدون النطفة» أي لا يعبرون النهر، ويجوز إرادة المني بقرينة ما بعده وقرارة النطفة حينئذ مستقرّها من الأرحام [**أو نقاعة دم**] والنقاعة نقرة يجتمع فيها الدم ومثله الانقوعة وهو استعارة لمحلّ دم الحيض.

[**ومضغة**] والمضغة قطعة اللحم واستعير هنا للولد في بعض أطوار خلقته [**أو ناشئة خلق**] أي: أوّل ما ينشؤ من الخلق.

[**وسلالة**] وهي في الأصل ما انسلّ من الشيء وسمّيت النطفة سلالة الإنسان لأنّها انسلّت منه [**لم تلحقه سبحانه**] وتعالى [**في ذلك**] المذكور [**كلفة**] أي: مشقّة.

[**ولا اعترضته في حفظ ما ابتداع من خلقه عارضة ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة**] لأنّ الكلفة والملالة والفترة

بل نفذهم علمه وأحصاهم عدّه ووسعهم عدله وغمرهم بفضله مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله اللّهمّ أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير

ونحوها من الحوادث التي ينزّه الواجب عنها ثمّ أثبت صفاتاً كاملة أربعة مقابل ما نفاه من صفات النقص، فقال:

[**بل نفذهم علمه**] مقابل لما نفاه من لحوق الكلفة في علمه بهم.

[**وأحصاهم عدّه**] مقابل لاعتراض العارضة في حفظ خلقه.

[**ووسعهم عدله**] مقابل نفي اعتوار الملالة له في تنفيذ أُموره وتدبير مخلوقاته إذ كان معنى عدله فيهم وصفه لكلّ موجود في مرتبته وهبته ما يستحقّه من زيادة ونقصان مضبوطاً بنظام الحكمة واعتراض الملالة سبب لاختلال نظام الفعل.

وقوله: [**وغمرهم بفضله**] مقابل لنفي الفترة فإنّ فتور الفاعل عن الفعل مانع له عن تتمّة فعله.

وقوله: [**مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله**] تنبيه على حقارة عبادتهم في جنب عظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثنائهم ولا يستكثروا شيئاً من طاعاتهم كما قال ﷺ: «وما قدر لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك.

ثمّ شرع في تمجيده تعالى خطاباً له ودعاءً وطلباً لجزاء ما سبق من ثنائه فقال:

[**اللّهمّ أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير**] لا تحصى نعمائك ولا تعدّ آلائك، وفيه إشارة إلى أنّه تعالى بحسب استحقاقه الوصف بأشرف

إن تؤمّل فخير مأمول وإن تُرجَ فأكرم مرجو، اللهمّ وقد بسطت لي ما لا أمدح به غيرك ولا أُثني به على أحد سواك ولا أُوجِّهه زلى معادن الخيبة ومواضع الريبة وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين اللّهمّ ولكلّ مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء

طرفي النقيض كان أهل الوصف الجميل وباعتبار تعدّد ثنائه وحمده بالنظر إلى كلّ جزئي من جزئيات نعمه هو أهل التعداد الكثير.

[**إن تؤمّل فخير مأمول**] خبر مبتدأ محذوف أي فأنت خير مأمول.

[**وإن تُرجَ فأكرم**] أي: فأنت أكرم [**مرجو، اللهمّ وقد بسطت لي ما لا أمدح به غيرك ولا أُثني به على أحد سواك**] إشارة إلى إذنه تعالى له وشكره والثناء عليه بالأوصاف الجميله التي لا يستحقّها حقيقةً إلاّ هو ولا ينبغي أن يطلق إلاّ له ومعنى بسطت لي: آتيتني لساناً وفصاحةً وسعة منطق فلا أمدح بها غيرك ولا أحمد بها سواك.

[**ولا أُوجِّهه زلى معادن الخيبة**] استعارة للبشر، لأنّ مادحهم ومؤمّلهم يخيب غالباً فكما أنّ معدن الشيء مظنّة المطلوب منه فالخلق مظانّ خيبة الطالب من أيديهم وحرمانه.

وكذا قوله: [**ومواضع الريبة**] لأنّهم لا يوثق بهم في حال ولا يطمئن إليهم في مال، أي: مواضع الشكّ في عطائهم ومنعهم ولذا فسّره بقوله:

[**وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين والثناء على المربوبين المخلوقين**] إليك يا ربّ العالمين ورازقاً للخلق أجمعين ومالك يوم الدين.

[**اللّهمّ ولكلّ مثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء**] وهو

وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة اللّهمّ وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك ولم يرَ مستحقّاً لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة إليك لا يجبر مسكنتها إلّا فضلك ولا ينعش من خلّتها إلّا منّك وجودُكَ فهب لي في هذا المقام رضاك، وأغنني عن مدّ الأيدي إلى سواك ﴿إنّك على كلّ شيء قدير﴾

في هذا المقام قد أوجبه اللّه على نفسه تفضّلاً منه كما قال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ وإلّا فمقتضى العدل أن لا يستحقّ شيئاً من ربّه لأنّ الأعضاء والجوارح والآلات والتوفيق كلّها منه تعالى بل هذه أيضاً نعم عليه يجب شكرها وهكذا.

[**وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة**] دليلاً نصب على الحال أو المفعول والمراد أنّه راج منه تعالى أن يدلّه على الأعمال التي ترضيه ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة فكأنّه جعل تلك الأعمال التي يرجو أن يدلّه عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً، والذخيرة والكنوز مستعارة لجوده.

[**اللّهمّ وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك**] لا يسوغ لأحد سواك [**ولم يرَ مستحقّاً لهذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقة**] أي فقر وحاجة [**إليك لا يجبر مسكنتها إلّا فضلك ولا ينعش**] بالفتح أي: يرفع والماضي نعش ومنه النعش لارتفاعه [**من خلّتها إلّا منّك وجودُكَ**] والمنّ العطاء والنعمة والمنّان من أسمائه الحسنى.

[**فهب لي في هذا المقام رضاك، وأغنني عن مدّ الأيدي إلى سواك ﴿إنّك على كلّ شيء قدير﴾**].

لمّا أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان**] قيل حاصل هذا الفصل أنّه لابدّ لكلّ من مطلوب على أمر من تضرر فيه وتمنع، والحكمة في ذلك أنّ الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب، فإنّ الطبع حريص على ما منع سريع النفرة عمّا سورع إلى إجابته فيه، فأراد عليه السلام التمنّع عليهم لتقوى رغبتهم إليه، فإنّه لم يصل إليه هذا الأمر إلّا بعد اضطراب في الدين بقتل عثمان، فاحتاج في تقويم الخلق وردّهم إلى قواعد الحق إلى أن يزدادوا فيه رغبةً بهذا الكلام ونحوه فقال:

[**دعوني والتمسوا غيري**] للإمارة، الا ترى أنّه عليه السلام نبّههم بعد هذا التمنّع على أنّ ههنا أُموراً صعبة مختلفة يريد أن ينكرها عليهم ويقاوم ببعضهم فيها بعضاً ويحملهم على الصلاح فجعل استقباله لتلك الأُمور الصعبة علّة لاستقالته من هذا الأمر، فقال:

[**فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له**] أي لا تصبر عليه [**القلوب ولا تثبت عليه العقول**] بل تنكره وتأباه لمخالفته الشريعة ومضادّية نظام العالم. ولعلّه يعني به ما كان يعلمه من اختلاف الناس عليه بضروب من الشبهات الباطلة والاشتباهات العاطلة كتهمة معاوية وأهل البصرة له

إنّ الآفـاق قد أغـامت والمحجة قد تنكّرت واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت

بقتل عثمان وكتأويل الخوارج عليه الرضا بالحكم والتحكيم ونحو ذلك.

ولذا كنّى عنه بالوجوه والألوان كناية بالمستعار.

وقال ابن أبي الحديد: إنّهم طلبوا منه البيعة على أن يقسم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر فاستعفاهم وسئلهم أن يطلبوا غيره ممّن يسير بسيرتهما و ـــــ لهم كلاماً تحته رمز وهو قوله إنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان... إلخ.

قالوا: وهذا كلام له باطن وغور عميق معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم، وهو الإنذار بحرب المسلمين بعضهم لبعض واختلاف الكلمة وظهور الفتنة.

ومعنى قوله له وجوه وألوان: أنّه موضع شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب علي، ومن قائل يقول: أخطأ، وكذلك القول في تصويب محاربيه من أهل الجمل وصفّين والنهروان وتخطيتهم فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وافترقت.

ومعنى قوله: **[إنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكّرت]** استعارة لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيّرة العازمة على الفساد من ظلمات الظلم والجهل. ووجه الشبه ما تستلزمه هذه الظلمات من توقّع نزول الشرور منها كما يتوقّع نزول المطر والصواعق من الغيم وأشار بالمحجّة إلى أنّ واضح طريق الشريعة وتنكّرها جهل الناس بها وعدم سلوكهم لها.

[واعلموا أنّي إن أجبتكم] إلى ما تريدون من البيعة والإمارة **[ركبت**

بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل منكم وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً

بكم ما أعلم] مما أنزل اللّه في كتابه المبين وأخبره به سيّد المرسلين من الحقّ الذي لا اختلاف فيه ولا ريبة تعتريه.

[**ولم أصغ إلى قول القائل منكم]** لم حكم بكذا وكيف قال كذا وفعل كذا.

[**وعتب العاتب]** عليه في أنّه لم يفضّله في العطاء أو نقصه حقّه في الجزاء لأنّ ذلك اعتراض على اللّه وعلى رسول اللّه ﷺ ودخول تحت قوله تعالى: ﴿فلا وربّك لن يؤمنوا حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾.

[**وإن تركتموني]** وبايعتم غيري وأمّرتم سواي [**فأنا كأحدكم]** في الطاعة لأميركم.

[**ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم]** لقوّة علمه بوجوب طاعة الإمام وفي قوله «لعلّي» إشارة إلى أنّ ذلك يكون منه لو ولّوا من هو أهل للولاية فإنّ ولّوا من يحكم بغير ما أنزل اللّه ويبدّل أكام اللّه ولا يعرف الشريعة الغرّاء ولا يعلم الملّة الزهراء فلا.

[**وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً]** وزيراً وأميراً حالان والعامل ما تعلّق به الجار والمجرور وأراد بالوزير المعنى اللّغوي وهو المعين والظهير، وفي قوله «لكم» إشارة إلى أنّ ذلك صلاح دنياهم التي يطلبونها فإنّه إذا كان أميراً حملهم على الحقّ الصعب فإن أخذوا به شقّ على طباعهم كاقتحام الحروب

. . . .

والصبر على التسوية في العطاء بين الوضيع والدني والشريف والخسيس وإن خالفوه كفروا.

ولذا قال له بعض أصحابه: إنّ طاعتك ذلّ ومخالفتك كفر، وإذا كان وزيراً فحظّه الشور والرأي الصالح والمعاضدة، وقد يخالف في رأيه وقال ابن أبي الحديد في معنى الفقرة: فأنا لكم وزير عن رسول اللّه ﷺ أفتي فيكم بشريعته وأحكامه خير لكم منّي أميراً محجوراً عليه مُدبراً بتدبيركم، فإنّي أعلم أن لا قدرة لمن أراد أن يحكم فيكم أن يسير بسيرة رسول اللّه ﷺ في أصحابه مستقلاً بالتدبير لفساد أحوالكم وتعذّر صلاحكم قال وقد حمل بعضهم كلامه عليه السلام على محمل آخر فقال:

هذا كلام مستريب شاك من أصحابه يقول لهم دعوني والتمسوا غيري على طريق الضجر منهم والتبرّم بهم والسخط لأفعالهم لأنّهم كانوا عدلوا عنه من قبل واختاروا عليه غيره، فلمّا طلبوه بعد أجابهم جواب المتسّخط العاتب وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر فقالوا: إنّه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية أي أنا لكم وزير خير مني لكم أميراً فيما يعتقدونه كما قوله تعالى: ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾ أي: تزعم لنفسك ذلك وتعتقده.

أميراً أمّا بعد أيّها الناس فقد فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري

ومن خطبة له عليه السلام

[أمّا بعد أيّها الناس فقد فقأت عين الفتنة] في القاموس: فقأ العين والسن ونحوها كمنع كسرها وقلبها أو نخعها وأشار بذلك إلى محاربته الناكثين والقاسطين والمارقين، حيث أقدم عليها وأطفأ نارها ﴿وكلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفئها﴾.

واستعار للفتنة لفظ العين وخصّها لأنّها أشرف الأعضاء وبها تصرّف الإنسان وحركته ورشح الاستعارة بذكر الفقأ مكنّياً به عن زوال فتنتهم بسيفه وإنّما قال:

[ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري] لما قاله ابن أبي الحديد: إنّ الناس كلّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة ولا يعلمون كيف يقاتلونهم هل يتبعون مولّيهم أم لا وهل يجهزون على جريحهم أم لا ويقسّمون فيهم أم لا وكانوا يستعظمون قتال من يؤذن كأذاننا ويصلّي كصلاتنا واستعظموا حرب عائشة وحرب طلحة والزبير لمكانهم في الإسلام ووقف جماعة عن الدخول في تلك الحرب كالأحنف بن قيس وغيره فلولا أنّه عليه السلام اجترى على سلّ السيف فيها ما أقدم أحد على ذلك. أقول ويدلّ على هذا كلامه في مقام آخر حيث قال: أمّا بعد فافقأت عين الفتنة شرقيها وغربيها وسانعتها ومارقها لم يكن ليجتري عليها غيري ولو لم أكن لما قوتل أصحاب الجمل

بعد أن ماج غيهبها واشتدّ كلبها فاسألوني قبل أن تفقدوني

ولا صفّين ولا أصحاب النهروان.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد فقأت عين أهل الفتنة ويكون كناية عن قتلهم.

وقوله: [**بعد أن ماج**] أي: اضطرب [**غيهبها**] أي: ظلمتها وهو كناية عن انتشار ظلمات الشبهات عن تلك الفتن في أذهان الناس وجهلهم أنّ خروج الناكثين حقّ أو باطل.

وقوله: [**واشتدّ كلبها**] أي شرّها وأذاها والكلب داء معروف ويقال للقحط الشديد كلب وكذا للقر الشديد وكنّى بذلك عن شدّة ما وقع فيها من الشرور وكلب أهلها وحرصهم على القتل والقتال كناية بالمستعار في الموضعين ثمّ قال عليه السلام:

[**فاسألوني قبل أن تفقدوني**] قال ابن أبي الحديد: روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعة من الرواة والمحدّين أنّه لم يقل أحد من الصحابة سلوني إلّا عليّ بن أبي طالب وروى شيخنا أبو جعفر الاسكافي عن ابن شبرمة قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلوني إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام، إنتهى.

وروي أنّ قتادة دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال: سلوني عمّا شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو إذن غلام حدث السن فقال: سلوه عن نملة سليمان أذكراً كانت أم أنثى، فسئلوه فانقطع فقال أبو حنيفة: كانت أنثى لقوله تعالى: ﴿إذ قالت نملة﴾ ولو كانت ذكراً لقال قال نملة، أقول وهذا خطأ أيضاً لأنّ النملة كالشاة والحمامة تقع على الذكر والأُنثى ونقل عن غير

فوالّذي نفسي بيده لا تسئلون عن شيء بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهتدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها مناخ ركابها ومحطّ رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً

واحد أنّه قال سلوني عمّا شئتم فقامت إليه إمرأة فقال كم عدد درج هذا المنبر الذي رقوته فخجل فقال أيّها المرأة إن كنت خرجت بغير إذن زوجك فعليك لعنة اللّه وإن خرجت بإذن زوجك فعليه لعنة اللّه، فقالت له أخبرني أيّها العالم عن أمّ المؤمنين حين خرجت تقاتل أميرالمؤمنين وجيوش المسلمين أكان ذلك بإذن من زوجها صلّى اللّه عليه وآله أم بغير إذن فألقم حجراً، ثمّ قال عليه السلام:

[**فوالّذي نفسي بيده لا تسئلون عن شيء بينكم وبين الساعة**] أي: القيامة.

[**ولا عن فئة**] أي: طائفة [**تهتدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها**] أي: الداعي إليها من نعق الراعي بغنمه وهو صوته من نعق ينعق بالكسر نعيقاً ونعاقاً، أي: صاح بها وزجرها.

[**وقائدها وسائقها مناخ ركابها**] والركاب الإبل واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها وجمعها ركب ككتاب وكتب.

[**ومحطّ رحالها**] والمناخ بضمّ الميم والمحط مصدرين كالمردلو مكانين استعار أوصاف الإبل ولواحقها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والركاب والرحال للفئة الهاربه والضلّة والمهدية والضالّة باعتبار انقيادهم لدعاتهم.

[**ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً**] وضمير أهلها يعود إلى الفتنة.

ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وجواذب الخطوب لاطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين وذلك إذا قلّصت حربكم وشمّرت عن ساق

[**ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور**] أي: ما تكرهون منها.

[**وجواذب الخطوب**] من جذبه الأمر أي: أهمّه، أي ما يصيبهم من الأمور العظيمة المهمّة.

وقوله: [**لأطرق كثير من السائلين**] لحيرتهم في عواقب تلك الخطوب وما يكون منها وكيفية الخلاص.

[**وفشل كثير من المسؤولين**] أي: حينهم عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقبها وما يُسئلون عنه منها.

[**وذلك**] إشارة إلى أطراق السائلين وفشل المسئولين [**إذا قلّصت**] بالتشديد وبالتخفيف [**حربكم**] وفي رواية عن حربكم وعن التشديد أي: نظمت واجتمعت لأنّه حينئذ يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق في مواطن متباعدة والتخفيف أي: كثرت وعلى تقدير عن فالمعنى إذا قلّصت كرائه الأمور جواذب الخطوب عن حربكم أي انكشفت عنها والمضارع من قلص يقلص بالكسر.

[**وشمّرت عن ساق**] أي: كشفت عن شدّة ومشقّة استعار ﷺ لفظ التقمّص والتشمير ملاحظة لشبه الحرب بالجدّ في الأمر الساعي فيه وكما أنّه إذا أراد ان يتوجّه قلص ثيابه وشمّرها عن ساقه لئلاّ يعوقه وتهيّأ واجمع عليه كذلك الحرب في كونها مجتمعة على النزول بهم واللحوق لم والواو في قوله:

وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون ايام البلاء عليكم حتّى يفتح الله لبقية الابرار منكم إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات تحوم حوم الرياح يصبن بلداً ويخطئن بلداً إلاّ أنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أُمية فإنّها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها

[**وكانت الدنيا عليكم ضيقاً**] للعطف على شمّرت وجملة [**تستطيلون ايام البلاء عليكم**] حالية وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة.

وقوله: [**حتّى يفتح الله لبقية الأبرار منكم**] أي الذين يسلمون من بني أميّة في دينهم وأعمارهم ويفتح الله لهم بهلاكهم وزوال دولتهم [**إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت**] أي: إنّ الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها يلتبس أمرها ولا يعلم الحقّ منها بالباطل إلى أن تنقضي وتدبّر فحينئذ ينكشف حالها ويعلم ماكان مشتبهاً منها.

ثمّ أكّد عليه السلام هذا المعنى بقوله: [**ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات**] كفتنة الجمل والخوارج حيث كان كثير من الناس في مبدء الأمر متوقّفين لاشتباه الحال عليهم إلى أن انقضت الفتنة ووضعت الحروب أوزارها فبان الضلال من الهدى.

ثمّ وضعت الفتن بانها [**تحوم حوم الرياح**] أي: تدور من حام الطير وغيره حول الشيء يحوم حوماً وحوماناً أي: دار [**يصبن بلداً ويخطئن بلداً**] استعار للفتن لفظ الحوم ملاحظة لشبهها في دورانها ووقوعها من دعاة الضلال في بلد دون بلد بالطاير والريح ولذا ذكر الحوم والخطأ.

وقوله: [**إلاّ أنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أُمية فإنّها فتنة عمياء مظلمة عمّت خطّتها**] الناس كافّة من حيث كانت رئاسة شاملة لكلّ أحد.

وخصّت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأحاط البلاء من عمي عنها وأيمُ اللّه لتجدّن أُميّة لكم أرباب سوء بعدي

[**وخصّت بليتها**] بأهل البيت وشيعتهم فإنّ نصيبهم منها أوفر حتّى صاروا يقتلون كلّ من تسمّى باسم عليّ والحسن والحسين عليهما السلام وابتلى أهل الدين فيها بالقتل وأنواع الأذى ويكفي في عظم تلك الفتنة هتكهم حرمة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وقتل الحسين عليه السلام وذرّيته وهتك حرمة الإسلام بهدم الكعبة وحرقها، مضافاً إلى ما انتشر من البلاء وعمّ الناس كلّهم بتوليتهم للحجاج دماء المسلمين إلى غير ذلك من منكراتهم التي هي أشهر من الشمس وأبين من الأمس.

وأشار بكونها عمياء إلى ذلك، واستعار لفظ العمى لجريانها على غير قانون الحقّ كالأعمى المتصرّف في حركاتها في غير جادّة أو لكونها لا يسلك فيها سبيل الحقّ كما لا يهتدي بالعين العمياء وكذا لفظ المظلمة وقوله:

[**وأصاب البلاء من أبصر فيها وأحاط البلاء من عمي عنها**] أي: من علم كونها فتنة كان منها في بلاء مع نفسه بالحزن الطويل لمشاهدة المنكرات ومن شأن أئمّة الضلال تتبع من أنكر أفعالهم بالقتل والإذلال فكان البلاء به أخصّ وأمّا من عمى عن كونها فتنة حتّى خبط معهم في ضلالهم أخطائه بلائهم ويحتمل أن يكون المعنى انّ العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذا لم ينكر ذلك والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر لانّ من لا يعلم المنكر منكراً لا يلزمه إنكاره.

ثمّ أقسم عليه السلام بقوله:

[**وأيمُ اللّه لتجدّن أُميّة لكم أرباب سوء بعدي**] فإنّهم ساموهم سوء

كالناب الغروس تعذم بفيها وتزبنُ برجلها وتمنع درّها لا يزالون بكم حتّى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم أو غير ضائر حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه والصاحب من مستصحبه

العذاب قتلاً وصلباً وحبساً وتشريداً في البلاد، ثمّ شبّههم عليه السلام بالناقة المسنّة في قوله: [**كالناب الغروس**] والناب الناقة المسنّة والجمع نيّب والغروس السيّئة الخلق تعضّ حالبها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجه الشبه بقوله [**تعذم بفيها**] والعذم: الأكل بخفاء وفرس عذوم يعضّ بأسنانه.

[**وتزبنُ**] أي: تدفع [**برجلها**] يقال زبنت الناقة عند الحلب أي: تدفع الحالب عنها.

[**وتمنع درّها**] أي: لبنها ومنه لا درور الأصل لبنه ثمّ قيل لكلّ خير وناقة درور كثيرة اللّبن إشارة إلى جميع حركاتهم المؤذية الردية من أذيّة الخلق وقتلهم ومنع رفدهم واستحقاقهم من بيت المال.

ثمّ أردف ذلك بذكر غايتين لحركاتهم الشرّية وبلائهم للناس بقوله: [**لا يزالون بكم**] قتلاً وإفناءً لكم [**حتّى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم**] بقائه [**أو غير ضائر**] أي: من لا يضرّهم ولا ينفعهم [**حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه والصاحب من مستصحبه**] أي: كما لا يمكن العبد أن ينتصر من سيّده والتابع المستصحب الذي من شانه الضعف وعدم الاستقلال بنفسه ممن يستصحبه كذلك لا يمكن هؤلاء أن ينتصروا من بني أميّة.

ترد عليكم فتنتهم شوهاء مَخشيّة وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يُرى نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة

ويحتمل أن يريد هناك ما يشبه الانتصار من الغيبة ونحوها كما قال عليه السلام في موضع آخر: ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه ثمّ أردف ذلك بذكر فتنتهم، فقال:

[**ترد عليكم فتنتهم شوهاء**] قبيحة الوجه وشاهت الوجوه تشوه شوهاً: قبحت [**مَخشيّة**] أي: مخوّفة.

[**وقطعاً جاهلية**] شبّهها بقطع السحاب لتراكمها على الناس ولأنّها كقطع اللّيل المظلم فيه، إشارة إلى ورودها عليهم دفعات وجعلها جاهليّة، لأنّها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ويروى شوهاء وقطعاء أي نكراء كالمقطوع اليد واستعار لفظ الشوهاء لقبحها عقلاً وشرعاً ووجه الشبه التنفّر عنها كما أنّ قبيحة المنظر كذلك ولكونها على غير قانون العدل كانت كأفعال الجاهليّة.

ولذا قال: [**ليس فيها منار هدى ولا علم يُرى**] أي: ليس فيها إمام عدل ولا قانون حتّى يقتدى به.

[**نحن أهل البيت منها بمنجاة**] ناجون عن آثامها والدخول فيها.

[**ولسنا فيها بدعاة**] إليها ولا إلى أمثالها وليس المراد أنّا سالمون من أذاهم غير داعين فيها إلى الحقّ فإنّ فعله عليه السلام وفعل الحسين عليه السلام وما جرى أهل بيته يشهد بخلاف ذلك.

ثمّ شرع عليه السلام إلى زوال دولتهم بظهور بني العبّاس عليهم واستئصالهم وتتبّع آثارهم وحصول الفرح منهم للأبرار فقال:

ثمّ يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً ويسوقهم عنفاً ويسقيهم بكاس مُصبّرة لا يعطيهم إلاّ السيف ولا يحلِسُهُم إلاّ الخوف فعند ذلك تودّ قريش بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً ولو قد جزر جزور

[**ثمّ يفرجها اللّه عنكم كتفريج الأديم**] الجلد وجمعه أدم مثل افيق وأفق ويجمع أيضاً على أدمة كرغيف وارغفة ووجه الشبه أنّ الجلد يكشف عمّا تحته فوعدهم أنّ اللّه تعالى يكشف تلك الغمّة كانكشاف الجلد عن اللحم.

وقوله [**بمن يسومهم خسفاً**] إشارة إلى بني العباس الذين بهم الخلاص من شرّ هؤلاء الأرجاس ويسومهم خسفاً يؤليهم ذلاً.

[**ويسوقهم عنفاً**] بالضمّ ضدّ الرفق.

[**ويسقيهم بكاس مُصبّرة**] بالصاد المهملة والباء الموحّدة أي: ممزوجة بالصبر المر أو مملوءة إلى أصبارها وهي جوانبها والواحدة صبرة بالضم.

[**لا يعطيهم إلاّ السيف ولا يحلِسُهُم**] أي: لا يلبسهم [**إلاّ الخوف**] من أجلست البعير ألبسته والحلس بالكسر كساء رقيق تحت البرذعة ولفظ الكأس والتصبّر والعطيّة والتحلس مستعارة ووجه الشبه جعلهم الخوف شعاراً لهم كما أنّ حلس البعير كذلك.

ثمّ أشار عليه السلام إلى غاية هذه الفرقة المتقلبة من قريش على هذا الأمر فقال:

[**فعند ذلك تودّ قريش**] لما ينتهي إليه حالهم من التراذل والضعف عن مقاومتهم [**بالدنيا**] بأن يبذلوا الدنيا [**وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً**] مع كونه أبغض الخلق إليهم.

[**ولو قد جزر جزور**] أي: مقدار زمان جزره كناية عن قصر ذلك المقام

لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فيعطونيه فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي فاستودعهم في أفضل مستودع وأقرّهم في قرار مستقر

المتمني [**لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه**] من نصرتهم له واتّباعهم لأمره وانقيادهم لهداه [**فيعطونيه**]. قال ابن أبي الحديد: فإنّ أرباب السيرة كلّهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزاب لمّا شاهد عبداللّه بن علي بن عبداللّه بن العبّاس بأزائه في صفّ خراسان لوددت أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام تحت هذه الراية بدلاص من هذا الفتى.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم**] تبارك مشتقّ من البروك المستلزم للمقام والثبات أو من البركة وهي الزيادة، إشارة إلى فضله وأحسانه ولطفه وهدايته كما أنّ الأوّل إشارة إلى عظمته باعتبار دوام بقائه واستحقاقه قدم الوجود لذاته وبُعد الهمم أي الأفكار والأنظار.

[**ولا يناله حدس الفطن**] أي: ظنّها وتخمينها.

[**الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي**] أي: لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضي بالفعل فيما لايزال ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم بل هو واجب الوجود في الحالين في الماضي والمستقبل.

ومنها: [**فاستودعهم في أفضل مستودع وأقرّهم في قرار مستقر**]

تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام كلّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللّه خلف حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد صلّى اللّه عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً

الضمير راجع إلى الأنبياء المدول عليهم بالمقام القائمين بدين اللّه الهادين إلى سُبل اللّه.

وحاصل الأمر أنّ دين اللّه واحد بعثت جميع الأنبياء لجذب الخلق إلى سلوكه، فمنه ما هو متّفق عليه في جميع الشرائع والملل من المعارف الإلهيّة ومكارم الأخلاق وما ينظم أمر الخلق في معاشهم ومعادهم كتحريم قتل النفس والزنا والسّرقة والظلم ونحو ذلك.

ومنها أُمور جزئيّة تختلف مصالحها بحسب الأزمان والأشخاص.

وكيف كان فالأنبياء في أفضل مستودع من خطائر القدس ومنازل الأُنس في محلّ كرامته ورضوانه ومغفرته في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[**تناسختهم**] أي: تثاقلتهم [**كرائم الأصلاب**] أي: الأصلاب الكريمة [**إلى مطهّرات الأرحام**] من كدر الفساد لم تنجّسهم الجاهلية بأنجاسها وأرجاسها ولم تلبسهم من مدلهمّات ثيابها.

[**كلّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللّه خلف**] فلا يخلو زمان من الأزمنة من حجّة اللّه بنبي أو وصيّ إمّا ظاهر مشهراص أو غامر مستور.

[**حتّى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد صلّى اللّه عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً**] فهو ﷺ غاية سلسلة الأنبياء والمرسلين وإن كان أقدمهم وكان نبياً وأودعه بين الماء والطين وكنّى بكرامة اللّه عن النبوّة والسلف المتقدّمون والخلف الباقون ويقال خلف صدق بالتحريك وخلف

وأعزّ الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبيائه وانتجب منها أُمنائه عترته خير العتر وأُسرته خير الأُسر وشجرته خير الشجر نبتت في حرم وبسقت

بالتسكين.

وقوله: **[وأعزّ الأرومات مغرساً]** جمع أرومة: وهي الأصل، استعار عليه السلام لفظ المعدن والمنبت والغرس لطينة النبق وهي مادّته القريبة التي استعدّت لقبول مثله ووجه الاستعارة أنّ تلك المادّة منشأ لمثله كما أنّ الأرض معدن للجواهر ومغرس الشجر الطيّب، ومعلوم أنّ الأصل الذي سمح بمثله ﷺ أفضل المعادن وأعزّ الأُصول وقيل أراد بذلك مكّة وقيل بيته وقبيلته ثمّ ميّزه ﷺ بما هو أخصّ وأشرف فقال:

[من الشجرة التي صدع منها أنبيائه] استعار لفظ الشجرة لصنف الأنبياء كما أنّ الشجرة أشرف من طينتها كذلك صنف الأنبياء أشرف المخلوقات ووجه الاستعارة هو ما كنّى الانصداع عنه من تفرّع أشخاص الأنبياء عن صنفهم كما تتفرّع أغصان الشجرة عنها.

[وانتجب منها أُمنائه] على وحيه ورسالته وشرائعه وحكمته **[عترته خير العتر]** أي: نسله خير النسل.

[وأُسرته] أي: قومه **[خير الأُسر]** لما روي عن النبي ﷺ قالك سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا، أنا وعليّ وحسن وحسين وحمزة وجعفر.

وعنه ﷺ: الناس تبع لقريش برّهم لبرّهم وفاجرهم لفاجرهم.

وقوله: **[وشجرته خير الشجر]** قيل: أراد بالشجرة في الموضعين إبراهيم عليه السلام وقيل أرادها شمّاً وولده بقرينة قوله: **[نبتت في حرم وبسقت]**

في كرم لها فروع طوال وفضل لا ينال وثمر لا ينال فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى وسراج لمع ضوئه وشهاب سطع نوره وزندٌ برقُ لمعه

أي: طالت [في كرم] رشح تلك الاستعارة بوصف الإنبات والبسق وكنّى بالكرم الذي فيه من زكاء أصله وما استلزم من الفعل.

[لها فروع طوال] كناية عن نسله صلى الله عليه وآله وذرّيته وسائر نجباء بني هاشم وبوصفهم بالطول عن بلوغهم في الشرف.

[وفضل لا ينال] الفضل الغاية البعيدة وهو ترشيخ للاستعارة، وكذا قوله: [وثمر لا ينال] كناية عن العلوم والأخلاق المتفرّعة عنه وعن عترته المعصومين، وكنّى بكونها لا تنال عن شرفها وغموض أسرارها أي: أنّها لشرفها وعلوّها لا يمكن أن يطاول فيها أو لغموض أسرارها لا تصل الأذهان إليها.

وقوله: [فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى وسراج لمع ضوئه وشهاب سطع] أي: ارتفع [نوره وزندٌ برقُ لمعه] الزند العود يقدح به النار وهو الأعلى، والزندة السفلى فيها ثقب وهي الانثى وإذا اجتمعتا قيل زندان ولا يقال زندتان تغليب للتذكير والجمع زناد وأزند وزناد.

استعار عليه السلام لفظ البصيرة والسراج والشهاب والزند له صلى الله عليه وآله، ووجه الاستعارة كونه سبب هداية الخلق كما أنّ هذه الأُمور الثلاثة كذلك ورشح استعارة السراج بلمعان الضوء والشهاب بسطوع النور والزند ببروق اللّمع.

ويحتمل أن يكون وجه استعارة الزند هو كونه مشيراً لانوار العلم والهداية.

سيرته القصد وكلامه الفصل وحكمه العدل أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة من العمّل وغباوة من الأمم اعملوا رحمكم اللّه على أعلام بيّنة فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام وأنتم في دار مستعتب

وقوله: [**سيرته القصد**] أي: العدل والاعتدال والاستواء على الصراط المستقيم وعدم الانحراف إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط [وسنّته الرشدخ أي: سلوك طريق اللّه عن هداية.

[**وكلامه الفصل**] أي: الفاصل بين الحقّ والباطل كقوله تعالى: ﴿إنّه لقول فصل وما هو بالهزل﴾.

[**وحكمه العدل**] الوسط بين رذيلتي الظلم والانظلام.

[**أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة**] أي: زلّة [**من العمّل**] من هفا يهفو.

[**وغباوة**] أي: جهل وقلّة فطنة [**من الأمم**] يقال: فلان غبي، أي: قليل الفطنة.

[**اعملوا رحمكم اللّه على أعلام بيّنة**] استعار الأعلام لأئمّة الدين وما بأيديهم من مصابيح الهدى وكنّى بكونها بيّنة عن وجودها وظهورها بين الخلق.

[**فالطريق نهج**] أي: واضح [**يدعو إلى دار السلام**] أي: الجنّة، وكنّى بالطريق عن الشريعة ونهجه وضوحها وظاهر كونها داعية إلى الجنّة وإسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيم الطريق وواضعها.

وقوله: [**وأنتم في دار مستعتب**] أي: في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه واستعتابه أي: تطلبوا إرضاء اللّه بطاعته فيرضى عنكم.

سوعلى مهل وفاغ والصحف منشورة والأقلام جارية والأبدان صحيحة والألسن مطلقة والتوبة مسموعة والأعمال مقبولة

[**وعلى مهل**] أي: إمهال وإنظار [**وفاغ**] من عوائق الموت وما بعده.

[**والصحف منشورة**] أي: صحف أعمالكم لم تطوَ بعد والواوات السبعة كلّها للحال والجملة التي بعدها حالية.

[**والأقلام**] أي: أقلام الملائكة الذين هم حفظة الأعمال عليكم [**جارية**] بحسب أعمالكم ﴿وما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾.

[**والأبدان صحيحة**] لم يعترضها مرض يمنعها من عبادة اللّه.

[**والألسن مطلقة**] لم تعتقل بعد كما تعتقل ألسنة المحتضرين عند الموت.

[**والتوبة مسموعة**] لم تنسدّ بابها بعد كما إذا بلغت النفس التراقي قال تعالى: ﴿يومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

[**والأعمال مقبولة**] لأنّكم في حال التكليف لم تخرجوا منها، والغرض من التذكير بهذه الأمور التنبيه على وجوب العمل معها وبذكر أضدادها ممّا لا يمكن معه العمل ولا ينفع الندم، نسأل اللّه التوفيق لما يحبّ ويرضى.

بعثه اللّه والناس ضلال في حيرة حاطبون في فتنة قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء

ومن خطبة له ﷺ
في ذكر النبي ﷺ وتقرير فضيلته

[**بعثه اللّه**] إلى الخلق مبشّراً ونذيراً وهادياً إلى اللّه وسراجاً منيراً.

[**والناس ضلال**] عن سبيل اللّه عادون عن طريق اللّه والواو للحال والجملة حالية.

[**في حيرة**] من أمرهم وفي شبهة من دينهم [**حاطبون**] بالحاء المهملة، جمع حاطب وهو الذي يجمع الحطب وهو على الاستعارة.

ومعنى حاطبون [**في فتنة**] أنّهم يجمعون في ضلالهم وفتنتهم ما اتّفق من أقوال وأفعال، كما يجمع الحاطب، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ والغثّ والسمين حاطب ليل، لأنّه لا ينظر ما يجمع في حبله.

ويروى خابطون بالخاء المعجمة وتقديم الباء على الطاء أي: حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع ومنه فلان يخبط خبط عشواء.

[**قد استهوتهم الأهواء**] أي: دعتهم إلى أنفسها وجذبتهم الآراء الباطلة إلى مهاوي الهلاك.

[**واستزلّتهم الكبرياء**] أي: قادتهم إلى الزلل والخطأ عن طريق العدل واقتفاء آثار الأنبياء في التواضع.

[**واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء**] فطارت بهم إلى ما لا ينبغي من العادات والفساد في الأرض، فكانوا ذوي خفّة وطيش ولفظ الجهلاء تأكيد

حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل فبالغ صلّى اللّه عليه وآله في النصيحة ومضى على الطريقة ودعى إلى الحكمة والموعظة الحسنة الحمد للّه الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه

كما يقال ليل أليل [حيارى] لا يهتدون إلى مصالحهم لجهلهم فهم [في زلزال] أي: اضطراب [من الأمر] أي: من أمور دنياهم وأخراهم.

[وبلاء من الجهل] في عاداتهم وسبي بعضهم بعضاً وقتلهم [فبالغ صلّى اللّه عليه وآله في النصيحة] أي: في نصيحة أُمّته.

[ومضى على الطريقة] في سلوك سبيل اللّه من غير انحراف.

[ودعى إلى الحكمة والموعظة الحسنة] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة فالدعوة بالحكمة الدعوة بالبرهان وبالموعظة الدعوة بالخطابة.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه] قال المحقّق البحراني: أثنى على اللّه سبحانه باعتبارات أربعة: الأوّليّة، والآخرية، والظاهرية، والباطنية، فأكّد كلّ واحد منها بكماله، فكمال الأوّليّة بسلب قبلية كلّ شيء عنه، وكمال الآخريّة بسلب بعديّة كلّ شيء له، والظاهريّة بسلب فوقيّة شيء له، والباطنيّة بسلب شيء دونه، والمراد بالظاهر العالي، فلذلك حسن تأكيده

مستقرّه خير مستقرّ ومنبته خير منبت في معادن الكرامة ومماهد السلامة قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار وثنيت عليه أزمة الأبصار

بسلب فوقية الغير له وبالباطن الذي بطن خفيات الأمور علماً وهو بهذا الاعتبار أقرب الأشياء إليها، فلذلك حسن تأكيده بسلب ما هو دونه، أي: ما هو أقرب زليها منه، وحصلت حينئذ المقابلة بين الداني والعالي.

ويحتمل أن يريد بالظاهر البيّن ويكون معنى قوله «فلا شيء فوقه» أي لا شيء يواري جوده ويحجبه عن معرفة خلقه به وبالباطن الخفي معنى فلا شيء دونه أي في الخفاء.

ومنها في ذكر الرسول ﷺ

[مستقرّه] وهي مكّة المشرّفة [خير مستقرّ] لكونها أمّ القرى ومحلّ العبادة والخلوة بالله والسلامة من سخط الله.

[ومنبته] مادّته القرشيّة التي استعدّت لقبول مثله [خير منبت] أو المراد بيته الذي خرج منه أو قبيلته التي ظهر منها [**في معادن الكرامة ومماهد السلامة**] والمهاد الفراش ولمّا قال في معادن وهي جمع معدن قال بحكم القرينة والازدواج مماهد وإن لم يكن الواحد منها ممهّد والمراد هنا بالسلامة البراءة من العيوب أي في نسب ظاهر غير معيب. ثمّ قال:

[**قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار**] أي نحو النبي ﷺ ولم يبيّن الصارف وهو الله تعالى بتوفيقه ولطفه.

[**وثنيت عليه أزمة الأبصار**] لمّا استعار لفظ الأزمّة للإبصار ملاحظاً

دفن به الضفاين وأطفأ به النوائر ألّف به إخواناً وفرق به افتراقاً أعزّ به الذلّة وأذلّ به العزّة كلامه بيان وطمسة لسان

لشبهها بمادر الإبل رشح تلك الاستعارة بذكر الشيء وكنّى بذلك عن التفات الخلق إليه بإبصار بصائرهم وتلقّي الرحمة الإلهية منه.

[**دفن به الضفاين**] استعار لفظ الدفن لإخفاء الأحقاد به بعد أن كانت ظاهرة مجاهراً بها.

[**وأطفأ به النوائر**] استعار لفظ الإطفاء لإزالة العداوات بين العرب بالتأليف بين قلوبهم كما قال تعالى في مقام الامتنان ﴿واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ وأشار إلى ذلك بقوله [**ألّف به إخواناً وفرق به افتراقاً**] وهم المتألّفون على الشرك أو المعنى أنّ الإسلام ألّف بين المتباعدين وفرّق بين المتقاربين قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما وألّف ما بين عليّ وعمّار مع تباعدهما.

[**أعزّ به الذلّة**] أي: ذلّة الإسلام وأهله.

[**وأذلّ به العزّة**] أي: عزّة الشرك وأهله وبين كلّ قرينتين من هذه الفقرات الستّة مقابلة ومطابقة تقابل التفريق التأليف وبالذلّة الإعزاز وبالعزة الإذلال [**كلامه بيان**] أي: كلام الرسول ﷺ بيان، والبيان إخراج الشيء من حيز الخفاء إلى حيز الوضوح أو أنّه بيان لما انلق من أحكام كتاب اللّه تعالى إشارة إلى قوله تعالى لتبيّن للناس ما نزّل إليهم.

[**وطمسة لسان**] استعار لفظ اللاسن لسكوته ووجه الشبه أنّ سكوته ﷺ مستلزم للبيان من وجهين من حيث سكوته عمّا لا ينبغي من القول فيعلم الناس السكوت عن الخوض فيما لا يعنيهم ومن حيث أنّ

ولئن أمهل اللّه الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجى من مساغ ريقه الشجى ما ينبت في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى الحلق نفسه ومساغ ريقه موضع الإساغة من أسغت الشارب أوصلته إلى المعدة أسوغه وأسيغه وساغ الشراب نفسه يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق يتعدّى ولا يتعدّى وهو على المجاز كما في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وفي ذكر

الصحابة كانوا إذا فعلوا فعلاً على سابق عادتهم فسكت عنهم ولم ينكره عليهم علموا بذلك أنّه على حكم الإباحة فكان سكوته بيان للحكم.

ومن كلام له عليه السلام
في معرض التهديد لأهل الشام ونحوهم بأخذ اللّه لهم

[ولئن أمهل اللّه الظالم] وأخّر أخذه [فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد] الطريق التي يرصد بها [على مجاز طريقه] أي: مسلكه وموضع جوازه.

[وبموضع الشجى من مساغ ريقه] الشجى ما ينبت في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى الحلق نفسه ومساغ ريقه موضع الإساغة من أسغت الشارب أوصلته إلى المعدة أسوغه وأسيغه وساغ الشراب نفسه يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق يتعدّى ولا يتعدّى وهو على المجاز كما في قوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وفي ذكر

الشجر والرصد تنبيه على أنّ اللّه تعالى في مظنه أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطّلاعه على ظلمه كما قال: ﴿أو نأخذهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين أو نأخذهم على تخوّف﴾ ثمّ قال عليه السلام: ﴿أما والذي نفسي بيده ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم ليس لأنّهم أولى بالحقّ منكم ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي

الشجر والرصد تنبيه على أنّ اللّه تعالى في مظنه أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطّلاعه على ظلمه كما قال: ﴿أو نأخذهم في تقلّبهم فما هم بمعجزين أو نأخذهم على تخوّف﴾ ثمّ قال عليه السلام: ﴿أما والذي نفسي بيده ليظهرنّ هؤلاء القوم] أي: أهل الشام **[عليكم ليس لأنّهم أولى بالحقّ منكم ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي]** لأنّ مدار النصرة في الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره لا على اعتقاد الحق مع التخاذل وعدم طاعة الرئيس، ثمّ أردف ذلك بتوبيخهم وتنفيرهم عمّا هم عليه من مخالفة أمره بقوله:

[ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي]

لأنّ شأن الرعية الخوف من سلطانها فإذا كان حاله مع رعيته بالعكس كانت اللائمة عليهم بعصيانه حجّة له عليهم وأمّا التنفير فيذكر أنّهم في محلّ ظلم مثله.

قال ابن أبي الحديد: ومن تأمّل أحواله عليه السلام في خلافته علم أنّه كالمحجور عليه لا يتمكّن من بلوغ ما في نفسه وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين وكان السواد الأعظم لا يعتقدون وفيه الأمر الذي يجب

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا واسمعتكم فلم تسمعوا ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تجيبوا ونصحت لكم فلم تقبلوا شهود كغياب وعبيد كأرباب

اعتقاده فيه ويرون تفضيل من تقدّمه من الخلفاء عليه ويظنّون أنّ الأفضليّة إنّما هي الخلافة ويقلّد أخلافهم أسلافهم ولا يرونه إلاّ بعين التبعيّة لمن سبقه وكأنّه عليه السلام كان رعية لهم وأكثرهم إنّما يحارب معه بالحمية وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم ولم يكن قادراص على إظهار ما عنده، ألا ترى إلى كتابه إلى قاضته في الأماصر وقوله: فاقضوا كما كنتم تقضون حتّى يكون الناس جماعة أو أموات كما مات أصحابي، ثمّ قال عليه السلام:

[**استنفرتكم للجهاد**] وحفظ البلاد ونظام المعاش والمعاد [**فلم تنفروا واسمعتكم**] الدعوة إلى مصالحكم [**فلم تسمعوا ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تجيبوا**] وهو كقوله تعالى حكاية عن نوح: ﴿قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً وأنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم﴾ إلى قوله ﴿إسراراً﴾.

[**ونصحت لكم**] ببيان مصالح دينكم ودنياكم وأولاكم وأُخراكم [**فلم تقبلوا**] النصيحة [**شهود كغياب وعبيد كأرباب**] لأنّ الفائدة في شاهد الموعظة دون الغائب عنها هو سماعها والانتفاع بها، فإذا لم يكونوا كذلك فهم كالغياب عنها في عدم الانتفاع بها ولأنّهم رعيته من شأنهم التعبّد لأوامر أمرائهم ثمّ أنّهم لتعزّزهم وتكبّرهم وعدم طاعتهم كالأرباب الذين من شأنهم أن يأمروا ولا يأتمروا ثمّ وبّخهم بنفارهم عمّا يتلو عليه من الحكم

أتلو عليكم من الحكم فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها وأحثّكم على جهاد أهل البغي فما أتي على آخر قولي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبأ ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم أقوّمكم غدوة وترجعون إليّ عشيّة كظهر الحنية

فقال :

[**أتلو عليكم من الحكم**] الجامعة [**فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها وأحثّكم على جهاد أهل البغي**] إشارة إلى أهل الشام [**فما أتي على آخر قولي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبأ**] مثل يضرب في شدّة التفرّق وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ ﴿ومزّقناهم كلّ ممزّق﴾ وهما لفظان جعلا إسماً واحداً كمعدي كرب وسبأ مهموز بن يشحبن بن يعرب بن قحطان .

[**ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم**] أي : تمسكون عن الاتعاظ والانزجار ويقلعون عن ذلك من قولهم كان فلا يعطي ثمّ خدع أي أمسك ويجوز أن يريد ويتلوّنون ويختلفون في قبول الموعظة من قولهم خلق فلان خلق خادع أي : متلوّن وقيل لمّا كانت المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة قال يتخادعون أي أنّهم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كلّ منهم يستغفل صاحبه عن تذكّر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن خداع بل تقع منهم صورة المخادعة .

[**أقوّمكم غدوة**] بإصلاح أخلاقكم بالحكم الجامعة والمواعظ النافعة [**وترجعون إليّ عشيّة كظهر الحنية**] أي معوجّين كظهر القوس تشبه للمعقول من اعوجاجهم وانحرافهم عن جميل الأخلاق بالمحسوس .

عجز القوم عجز المقوِّمُ أيّها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم المختلفة أهوائهم المبتلى بهم أُمرائهم صاحبكم يطيع اللّه وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي اللّه وهم يطيعونه لوددت واللّه أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، يا أهل الكوفة مُنيتُ منكم بثلاث واثنتين صمّ ذوو أسماع وبُكمٌ ذو كلام وعمى ذوو أبصار

[**عجز القوم**] بصيغة اسم الفاعل إشارة إلى نفسه واعتراف بعجزه عن تقويمهم لعدم إصغائهم [**عجز المقوِّمُ**] بصيغة اسم المفعول كناية عن أصحابه أي: أشكل أمرهم وأعيته أدوائهم علاجاً، ثمّ عاد إلى ندائهم وتنبيههم بذكر معائبهم لتنفر عقولهم عنها فقال:

[**أيّها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم**] وإذا غاب العقل عن البدن كان كالبهيمة بل أضلّ [**المختلفة أهوائهم**] ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ [**المبتلى بهم أُمرائهم**] ثمّ نبّههم عليه‌السلام على رذالتهم من مخالفة أمره مع كونه مطيعاً للّه وطاعة أعدائهم لرئيسهم مع كونه عاصياً للّه فقال:

[**صاحبكم يطيع اللّه وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي اللّه وهم يطيعونه لوددت واللّه أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم، يا أهل الكوفة مُنيتُ**] أي: بُليت [**منكم بثلاث واثنتين**] وإنّما لم يقل بخمس لتناسب الثلاث وكونها إيجابيّة والاثنتين من نوع آخر سلبيّة.

[**صمّ ذوو أسماع وبُكمٌ ذو كلام وعمى ذوو أبصار**] أي: فيكم الصمم عن سماع الحق وقبوله مع كونهكم ذوي أسماع والبكم عن قول الحقّ مع

لا أحرار صدق عند اللّقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرّقت من آخر واللّه لكأنّي بكم فيما أخال ألّو حمِس الوغى

كونكم ذوي كلام والعمي عن آيات اللّه مع كونكم ذوي أبصار وذاك لعدم انتفاعهم بهذه الآلات ومن لم يفده سمعه وبصره عبرة ولم يكن كلامه فيما يعنيه كان كفاقدها كما قال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ وقال تعالى: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**لا أحرار صدق عند اللّقاء**] أي: عند اللّقاء للعدوّ ولا تصدق حربتهم لمخالطة الجبن والتخاذل والفرار إذ الحرّ هو الخالص من شوب الرذائل والمطاعن.

[**ولا إخوان ثقة عند البلاء**] أي: ليسوا ممّن يوثق بأُخوّتهم من الابتلاء بالنوازل.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الدعاء إليهم على وجه التفجّر فقال:

[**تربت أيديكم**] أي: لا أصبتم خيراً، وأصل التراب كأنّه دعى عليه أن يفتقر.

[**يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرّقت من آخر**] هذا وجه الشبه ذكره بعد المشبّه والمشبّه به.

[**واللّه لكأنّي بكم فيما أخال**] بكسر الهمة أفصح من فتحها أي: أظنّ [**ألّو**] يريد ان لو ثمّ أُدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة [**حمِس**] بكسر الميم: اشتدّ وعظم [**الوغى**] أي: الحرب، وهو في الأصل الأصوات

وحمي الضراب قد انفجرتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها وإنّي على بيّنة من ربّي ومنهاج من نبيّه وإنّي لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم واتّبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى فإن لبدوا فالبدوا

والجلبة وسمّيت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك.

[**وحمي الضراب**] تأكيد لما قبله [**قد انفجرتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها**] أي وقت الولادة أو وقت الطعان.

ثمّ عاد عليه السلام إلى ذكر فضيلته ليثبت قلوبهم ويتألّفها فقال:

[**وإنّي على بيّنة من ربّي**] من آياته الظاهرة وبراهينه الباهرة وولوج الطريق القويم وسلوك الصراط المستقيم، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿قل إنّي على بيّنة من ربّي﴾.

[**ومنهاج**] أي: طريقة وسنّة [**من نبيّه وإنّي لعلى الطريق الواضح**] من سبيل اللّه وشريعته [**ألقطه لقطاً**] يريد أنّ الضلال غالب على الهدى وأنا التقط طريق الهدى من بين طرق الضلال، لقطاً من ههنا وههنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة قد اكتفها الشوك والعوسج من جانبهما كليهما فهو يلتقط المنهج التقاطاً.

[**انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم**] أي: طريقهم.

[**واتّبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى**] أي: ردى الجاهلية والضلال القديم وفيه إيماء إلى أنّ اتّباع غيرهم يردّ إلى ذلك.

[**فإن لبدوا**] أي: سكتوا [**فالبدوا**] من لبد الشيء بالأرض يلبد بالضمّ لبوداً التصق بها، ويحتمل أن يريد أنّهم سكتوا عن طلب الخلافة والامارة

وإن نهضوا فانهضوا ولا تسبقوهم فتضلّوا ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا ولقد رأيت أصحاب محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فما أرى أحد يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً قد باتوا سجّداً وقياماً يحيون ليلهم بالصلوة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم

وانزووا عنها فتابعوهم في ذلك فإنّ سكوتهم قد يكون لمصلحة يغيب علمها عن غيرهم.

[**وإن نهضوا**] في ذلك [**فانهضوا**] معهم [**ولا تسبقوهم**] إلى أمر لم يتقدّمكم فيه [**فتضلّوا**] فإنّ التقدم على الدليل شأنه الضلال عن المقصد.

[**ولا تتأخّروا عنهم**] أي عن متابعتهم في أوامرهم وافعالهم بالمخالفة لهم [**فتهلكوا**] في تيه الجهل وعذاب الآخرة.

[**ولقد رأيت أصحاب محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فما أرى أحد يشبههم**] وفيه حثّ وترغيب لهم على الاقتداء بهم واتّباع آثارهم [**لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً**] كناية عن ـــــ وتركهم زينة الدنيا ولذّاتها.

[**قد باتوا سجّداً وقياماً**] يحيون ليلهم بالصلاة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والّذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً﴾.

[**يراوحون بين جباههم وخدودهم**] أي: تارة يسجدون على الجباه وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة تذلّلاً وخضوعاً، والمراوحة بين العمل أن يعمل هذا مرّة وذاك أُخرى وراوح بين رجليه قام على هذه تارة وعلى تلك أُخرى.

[**ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم**] إشارة إلى قلقهم ووجدهم

كـأنّ بين أعـينهم ركبُ المعزى من طول سجـودهم إذا ذكـر اللّه هملت حتّى تبلّ جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف وفاً من العقاب ورجاء للثواب واللّه لايزالون حتّى لا يدعوا للّه محرّماً

من ذكر المعاد وأهوال يوم القيامة كما يقلق الواقف على الجمر مما يجده من حرارته.

[**كأنّ بين أعينهم**] كناية عن جباههم من محلّ السجود [**ركبُ المعزى**] أي: الجيش المعروف من الغنم [**من طول سجودهم**] ووجه الشبه أنّ جباههم من طول السجود قد اسودّت وماتت جلودها كما أنّ ركبة المعز كذلك [**إذا ذكر اللّه هملت**] أي: سالت أعينهم [**حتّى تبلّ جيوبهم**] وروي جباههم أي تبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته.

[**ومادوا**] أي: اضطربوا وتحرّكوا [**كما يميد الشجر يوم الريح العاصف وفاً من العقاب**] وقلقاً من خوف اللّه.

[**ورجاء للثواب**] كما يتحرّك الجذل المسرور من الفرح وكما يتحرّك الإنسان ويتمايل من الطرب، قال تعالى: ﴿والّذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

ومن كلام له عليه السلام
إشارة إلى بني أميّة وسوء سيرتهم

[**واللّه لايزالون**] ظالمين، فحذف الخبر وسدّت حتّى وما بعدها مسدّه في قوله [**حتّى لا يدعوا للّه محرّماً**] وهو ما لا يحلّ انتهاكه وكذا محرمة

ولا عقداً إلّا حلّوه حتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا دخله ظلمهم ونبأ به سوء رعيهم وحتّى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه وحتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه

بفتح الراء.

[ولا عقداً] من عقود الإسلام التي نظم بها أمر العالم من قوانين الشرع وضوابطه **[إلّا حلّوه]** كناية عن حزم تلك القوانين الشرعيّة وهدم تلك القواعد المرعيّة.

[حتّى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا دخله ظلمهم] كناية عن شمول عدوانهم وبغيهم جميع الخلق من البدو والحضر وبيوت المدر البيوت المبنية في القرى وبيوت الوبر ما يتخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن وكالشعر للمعز.

[ونبأ] بتقديم النون على الباء الموحّدة **[به سوء رعيهم]** أي: أوجب سوء رعيهم لأهله نبؤه عنهم يقال نبأه منزله إذا ضرّه ولم يوافقه وكذا نبأ به فراشه، فالفعل لازم فإذا أريد تعديته بالهمزة قلت قد أنبأ فلان على منزلي أي جعله نابياً وفي رواية سوء رعتهم أي سوء ورعهم أي تقائهم والورع بالكسر الرجل التقي من ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورعة.

[وحتّى يقوم الباكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه وحتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم] أي انتقاده وانتقامه منه فهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

[كنصرة العبد من سيّده] ثمّ ذكر المشبّه والمشبّه به.

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بقوله: **[إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه]**.

وحتّى يكون أعظمكم فيها عناءاً أحسنكم باللّه ظنّاً فإن أتاكم اللّه بعافية فأقبلوا ابتليتم فاصبروا فإنّ العاقبة للمتّقين نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون

وقيل إنّه مصدر مضافد إلى المفعول وكذا نصرة العبد أي حتّى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة العبد السيّيء الطريقة إيّاه ومن في الموضعين مضافه إلى محذوف أي من جانب أحدهم ومن جانب سيّده وفيه بعد.

[**وحتّى يكون أعظمكم فيها**] أي: في الفتنة الدلول عليها بالمقام [**عناءاً**] أي تعباً ومشقّة [**أحسنكم باللّه ظنّاً**] وذلك لأنّ من أحسن الظنّ باللّه كان أشدّ الناس بعداً منهم وتوكلاص عليه فيكونون عليه أشدّ كلباً وأعظم طلباً فكان أعظم الناس في دولتهم تعباً وعناءً.

[**فإن أتاكم اللّه بعافية**] من الابتلاء بشرورهم أو بقائم عدل مخلص من بلائهم [**فأقبلوا**] واشكروا اللّه على ذلك وإن [**ابتليتم**] بشيء من ذلك [**فاصبروا، فإنّ**] اللّه مع الصابرين وأنّ [**العاقبة للمتّقين**] كما قال تعالى: ﴿واصبر إنّ العافية للمتّقين﴾.

ومن كلام له عليه السلام

[**نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون**] قيل لمّا كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه لأنّ المجهول لا يحمد عليه ولمّا كان المستقبل غير معلوم جعل الاستعانة بإزائه لأنّ الماضي لا يستعان عليه.

ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبّوا تركها والمبلية لأجسادكم وإن كنتم تحبّون تجديدها فإنّما مثلكم ومثلها كسفر

ولقد طرف وأبدع عليه السلام في قوله [**ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان**]ذلك لأنّ للأديان سقماً وشفاء، كما انّ للأبدان سقماً وشفاء.

ولذا قيل: وإذا مرضت من الذنوب فدارها بالذكر إنّ الذكر خير دواء والسقم في الأبدان ليس بضائر، والسقم في الأديان شرّ بلاء.

وقيل للاعرابي ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنّة، قيل: افلا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب أمرضني، وقيل لمريض: ما مرضك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطبّاء، قيل وما هو؟ قال: مرض الذنوب، فقيل: كيف نجدك الآن؟ قال: بخير إن نجوت من النار، قيل: فما تشتهي، قال: ليلة طويلة بعيدة ما بين الطرفين أحيها بذكر اللّه تعالى.

ثمّ أردف الحمد والثناء بالوصيّة الناصحة فقال:

[**أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم**] ومن أكبر المصالح ترك محبوب لابدّ من مفارقته باستدراج كي لا يصعب مفارقته عليه مع محبّته إيّاه فيبقى كمن نقل عن معشوقه إلى موضع شديد الظلمة ولذا قال:

[**وإن لم تحبّوا تركها**] ثمّ قال: [**والمبلية لأجسادكم**] بالأمراض والهرم ونحوهما.

[**وإن كنتم تحبّون تجديدها**] ومن شأن المؤذي ان يجتنب، ثمّ أردف ذلك عليه السلام بتمثيلهم في الكون بها فقال:

[**فإنّما مثلكم ومثلها كسفر**] يقال: قوم سفر أي: مسافرون.

سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه وأمّوا علماً فكأنّهم قد بلغوه وما عسى المجرى إلى الغاية أن يجري إليها حتّى يبلغها

[سلكوا سبيلاً فكأنّهم قد قطعوه وأمّوا] أي قصدوا **[علماً]** أي: جبلاً أو مناراً في الطريق يهتدي به.

[فكأنّهم قد بلغوه] قيل: كان في هذا الموضع كهي في قولك كأنّك بالدنيا لم تكن وكأنّك بالآخرة لم تزل، أي: ما أقرب ذلك واسرعه وتقدير الكلام هنا كأنّهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له وكأنّهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له لأنّه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأُخرى شبهوا وهم في الحال الأُولى بهم أنفسهم وهم على الحال الثانية.

وفيه تخويف بالموت وما بعده وتحقير لمدة البقاء في الدنيا والمقام فيها وحثّ على اغتنام الفرصة من تزوّد التقوى والمداومة على الأعمال الصالحة، وأكّد ذلك بقوله:

[وما عسى المجرى إلى الغاية أن يجري إليها حتّى يبلغها] يقال: أجرى فلان فرسه إلى الغاية إذا أرسلها ثمّ نقل ذلك إلى كلّ من يقصد بكلامه معنى أو بفعله غرضاً فقيل فلان يجري بقوله إلى كذا أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه وفي بعض النسخ: وكم عسى، فالتقدير وكم ترجوا الذي يجري إلى غاية من اجرائه إليها حتّى يبلغها وهو استفهام في معنى التحقير لما يرجوه من مدّة الجري وهي مدّة الحياة الدنيا ومفعول المجرى محذوف والتقدير المجرى مركونة ولما لم يكن الفرض إلاّ ذكر الإجراء لا جرم حذف المفعول وقد يجيء لازماً وكذلك قوله:

وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه والمراد والطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتّى يفارقها فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفي فخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها فإنّ عزّها وفخرها إلى انقطاع وزينتها ونعيمها إلى زوال وضرّائها وبؤسها إلى نفاد وكلّ مدّة فيها إلى انتهاء وكلّ حيّ إلى فناء

[**وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه**] أي: وما يرجى ويؤمّل أن يكون من ذلك البقاء كان هنا تامّه وهو في الموضعين استفهام على سبيل التحقير لما يرجى من البقاء في الدنيا والإنكار على المؤمّل الراجي له.

[**والمراد**] بالطالب في قوله [**والطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتّى يفارقها**] الموت، وأسند إليه الطلب مجازاً واستعار له الحدود وكنّى بذلك الحدّ وعمّا يتوهّم من سوق أسباب الموت للبدن إليه.

وقوله: [**فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفي فخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرّائها وبؤسها فإنّ عزّها وفخرها إلى انقطاع وزينتها ونعيمها إلى زوال وضرّائها وبؤسها إلى نفاد وكلّ مدّة فيها إلى انتهاء وكلّ حيّ إلى فناء**] حاصل الكلام النهي عن الركون إلى شيء من أحوال الدنيا واعتباره والسكون إليه وأنّه لا يعتبر خيرها ولا شرّها فمن خيرها عزّها وفخرها وزينتها ونعيمها فلا يتنافس فيه ولا يعجب به وأمّا شرّها فضرّائها وشدائدها ونهى عن الجزع منها.

وعلّل وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بانقطاعه وزواله وما كان من شأنه الزوال والانقطاع فمن الواجب أن لا يتنافس فيه ولا يعجب به وإن عُدّ نافعاً وأن لا يخرج من وجوده وإن عدّ ضاراً.

أوليس لكم في آثار الأوّلين وآبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون أولم ترون إلى الماضين منكم فلا يرجعون وزلى الخلف الباقي ولا يبقون، أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى فميت يبكى وآخر يعزّى وصريع مبتلى وعائد يعود وآخر يجود، وطالب للدّنيا والموت يطلبه

[**أوليس لكم في آثار الأوّلين**] استفهام إنكاري لعدم استفادتهم العبرة والبصرة من آثار من سلف من القرون السالفين.

[**وآبائكم الماضين تبصرة**] تتبصّرون بهم [**ومعتبر**] تعتبرون بهم [**إن كنتم تعقلون**] كما تزعمون أنّكم عقلاء.

ثمّ نبّه عليه السلام على وجه العبرة والتبصّر بقوله:

[**أولم ترون إلى الماضين منكم**] الذين نزل بهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات قد مضوا [**فلا يرجعون**] إلى أهاليهم وأموالهم وأولادهم [**وزلى الخلف الباقي**] الذي خلّفوه وبقى بعدهم يفنون كفنائهم.

[**ولا يبقون، أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى**] وحالات مختلفة، فاستدلّوا على عدم بقائها باختلاف أحوالها وأنّها لا تصلح قراراً، ولذا ترى أهلها متباينة أحوالهم مختلفة صفاتهم.

[**فميّت يبكى**] عليه [**وآخر يعزّى**] على ما أصابه [**وصريع مبتلى**] بالأمراض والأشجان والأسقام والأحزان.

[**وعائد يعود**] آخر مشغول الخاطر به.

[**وآخر**] في المساومة والاحتضار [**يجود، وطالب للدّنيا**] مشغول بها مستغرق في شهواتها منهمك في لذّاتها [**والموت يطلبه**] من ورائه.

وغافل وليس بمغفول عنه على أثر الماضي يمضي الباقي ألا فاذكروا هادم اللّذات ومنغّص الشهوات قاطع الأُمنيات عند المساورة للأعمال القبيحة واستعينوا بالله على أداء واجب حقّه وما لا يخفى من اعداد نعمه وإحسانه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها

[**وغافل**] عمّا يراد به [**وليس بمغفول عنه**] ولابدّ [**على أثر الماضي يمضي الباقي**] وإن طال بقائه وما مصدرية، وإنّما قدّم الميت في أقسام أهل الدّنيا لأنّ ذكره أشدّ موعظة واستعار لفظ الجود للمحتضر ووجه الشبه أنّه يسمح بنفسه ويسلّمها كما يسلّم الجواد ما يعطيه من مال، ثمّ أمرهم بذكر الموت واصفاً له بلوزامه المنفّرة عنه فقال:

[**ألا فاذكروا هادم اللّذات ومنغّص الشهوات قاطع الأُمنيات**] جمع أُمنية ما يتمنّاه الإنسان، ثمّ عيّن لهم وقت ذكره وهو قوله [**عند المساورة**] أي المواثبة [**للأعمال القبيحة**] ليكون ذكره زاجراً لهم عنها وإنّما أتى وزن المفاعلة باعتبار أنّ الفعل القبيح لابدّ فيه من ممانع كموانع الشرع والعرف فيتوهّم فيه معنى المواثبة.

[**واستعينوا باللّه على أداء واجب حقّه**] التي كُلّفتم بالقيام بها والمواظبة عليها [**وما لا يخفى**] أي: وعلى أداء واجب ما لا يحصى [**من اعداد نعمه وإحسانه**] إشارة إلى قوله تعالى: **﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾**.

الحمد للّه الناشر في الخلق فضله والباسط فيهم بالجود يده نحمده في جميع أُموره ونستعينه على رعاية حقوقه ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بأمره صادعاً بذكره ناطقاً فأدّى أميناً ومضى رشيداً

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الناشر في الخلق فضله والباسط فيهم بالجود يده**] أي: نعمته إطلاقاً لاُتمّ السبب على المسبّب ومعلوم كون الجود مبدء للنعمة والنشر والبسط وإن كانا حقيقة في الأجسام إلاّ أنّهما من الاستعارات الشائعة التي قارنت الحقيقة، ثمّ أكّد ذلك الحمد بتعميمه بقوله:

[**نحمده في جميع أُموره**] من شدّة ورخاء وسرّاء وضرّاء، إذ الشدائد اللاحقة نِعَم أيضاً، فإنّها إذا قوبلت بالصبر الجميل ترتّب عليها ثواب جزيل، كما قال: ﴿وبشّر الصابرين﴾ وظاهر أنّ أسباب النعم نعم ولما حمده على ما لحق من نعمائه طلب المعونة، بقوله:

[**ونستعينه على رعاية حقوقه ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بأمره صادعاً**] أي: مظهراً ومجاهداً للمشركين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، واستعار لفظ الصادع له صلى الله عليه وآله لأنّه شقّ بأمر اللّه بيضة المشرك وقلوب المشركين كما عمّر بيضة الإسلام وقلوب المسلمين وأخرج ما فيها من الكفر والجهل ولم يزل [**بذكره**] تعالى [**ناطقاً**] فأودعه في قلوبهم.

[**فأدّى**] ما أمر به [**أميناً**] عليه [**ومضى**] إليه [**رشيداً**] مرشداً إلى حضرة

وخلّف فينا راية الحقّ من تقدّمها مرق ومن تخلّف عنها زهق ومن لزمها لحق وليلها مكيث الكلام بطيء القيام سريع إذا

قدسه، وقوله صادعاً وناطقاً وأميناً ورشيداً أحوال.

[وخلّف فينا راية الحقّ] أي كتاب اللّه وأهل البيت إشارة إلى قوله صلى الله عليه وآله: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيت لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».

[من تقدّمها مرق] عن الطريق السويّ كما يمرق السهم عن القوس.

[ومن تخلّف عنها زهق] أي: هلك، يقال: زهقت نفسه بالفتح زهقاً وزهوقاً أي: خرجت، قال تعالى: ﴿وتزهق أنفسهم وهم لها كارهون﴾، وزهقت الناقة: إذا سبقت وتقدّمت أمام الركب، وزهق الباطل: اضمحلّ، قال تعالى: ﴿إنّ الباطل كان زهوقاً﴾، يقول عليه السلام: من كان متقدّماً لها أو متأخّراً عنها فقد خرج عن الحقّ بالتخلّف عنها والميل إلى طرفي الإفراط والتفريط.

[ومن لزمها] وكان تحتها وتبعها فقد **[لحق]** الحق وكان على حاق الوسط، ووجه الشبه بين الراية والكتاب والسنّة كونهما مقصدين لتابعهما يهتدي بهما في سبيل اللّه كما أنّ الراية كذلك، وأشا بقوله:

[وليلها مكيث الكلام] إلى نفسه عليه السلام لأنّه المشار إليه من العترة، واعلم أنّ الخلق بكتاب اللّه ومكيث الكلام بطيئه، ورجل مكيث: أي رزين يعني أنّه ذو أناة و ـــــ.

ثمّ أكّد ذلك بقوله **[بطيء القيام]** كناية عن تأنّيه في حركته في وجوه المصالح إلى حين استبانة الرأي الأصلح ووجه المصلحة، وقوله **[سريع إذا**

قام فإذا أنتم ألنتم له رقابكم وأشرتم إليه بأصابعكم جاء الموت فذهب به فلبثتم بعده ما شاء اللّه حتّى يطلع اللّه لكم من يجمعكم نشركم فلا تطمعوا في غير مقبل

قام] كناية عن مبادرته إلى وجوه المصلحة وانتهازه الفرصة أو المعنى هو مثبت في أحواله فإذا نهض جدّ وبالغ ثمّ اخذ يذكّرهم بموته وفقده فقال:

[**فإذا أنتم ألنتم له رقابكم**] أي خضعتهم لطاعته وانقدتم لأمره [**وأشرتم إليه بأصابعكم**] كناية عن اشتهاره فيهم وتعظيمهم له يريد أنّه إذا اتمّ امره وكمل الإسلام به [**جاء الموت فذهب به**] إلى ربّه.

[**فلبثتم بعده ما شاء اللّه**] في حيرة من أمركم ليس لكم إمام مثله يجمعكم على التقوى، إشارة إلى مدّة بني أُميّة واستيلائهم على العباد والبلاد وتظاهرهم بالجور والفساد [**حتّى يطلع اللّه لكم من يجمعكم**] على الهدى ويضمّ [**نشركم**] أي: الجمع انتشاركم وتفرّقكم ويلمّ شعثكم ويجبر وهنكم وطلوعه ظهوره وتعيّنه للرئاسة بعد اختفاء، فيحتمل أن يريد به الإمام المنتظر عجّل اللّه فرجه، قيل هو قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أُميّة.

[**فلا تطمعوا في غير مقبل**] أي: من لم يقبل على هذا الأمر ممّن هو اهله أو آثر تركه إلى الخلوة باللّه فلا تطمعوا فيه فإنّ له باللّه شاغلاً عن كلّ شيء، وقيل المراد بغير المقبل من انحرف عن الدين بارتكاب منكر فلايجوز لكم أن تطمعوا في ان يكون اميراً لكم وروي فلا تطعنوا في عين مقبل أي: من اقبل عليكم من اهل البيت طالباً لهذا الأمر وهو له أهل فكونوا معه ولا تدفعوه عمّا يريد.

ولا تيأسوا من مُدبر فإنّ المدبر عسى أن تزل إحدى قائمتيه وتثبت الأُخرى فترجعا حتّى تثبتا جميعاً إلاّ أنّ مثل آل محمّد صلّى اللّه عليه وآله كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم فكأنّكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصنايع وأراكم ما كنتم تأملون

[**ولا تيأسوا من مُدبر**] أي: من أدبر عن طلب الخلافة وهو أهل لها فلا تيأسوا من عوده وإقباله على الطلب، فلعلّه إنّما أدبر عنها لاختلال بعض شرائها من قلّة الناصر وعدم المعين.

[**فإنّ المدبر عسى أن تزل إحدى قائمتيه**] كناية عن فقده لبعض الشرائط كعدم الناصر والمعين.

[**وتثبت الأُخرى**] إشارة إلى وجدان بعض الشرائط وقوله [**فترجعا حتّى تثبتا جميعاً**] إشارة إلى تكامل شرائط قيامه واجتماعها، قيل ولا ينافي اليأس عن النهي ههنا عن الطمع في غير المقبل لجواز أن ينهى عن الطمع فيه حال إعراضه وإدباره عن المطلب لاختلال بعض شرائطه والنهي عن الإياس منه لجواز حصول شرائط القيام فيها وتكاملها وقوله:

[**إلاّ أنّ مثل آل محمّد صلّى اللّه عليه وآله كمثل نجوم السماء**] فكما أنّ النجوم أمان لأهل السماء فهم أمان لأهل الأرض وكما أنّ النجوم إذا ذهبت من السماء ذهبت السماء، فكذا هم إذا ذهبوا فنت الأرض ولواهم لساخت بأهلها وكما يهتدى بالنجوم فكذا يهتدى بأهل البيت [**إذا خوى نجم طلع نجم**] كناية عن عدم خلوّ الأرض منهم كما دلّت عليه الأخبار المتواترة والبراهين العقليّة المتظافرة، وقوله:

[**فكأنّكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصنايع وأراكم ما كنتم تأملون**]

الأوّل قبل كلّ أوّل والآخر بعد كلّ آخر

بظهور الإمام المشتهر والقائم المنتظر الحقّ الجديد والعالم الذي علمه لا يبى.

وقد روي عنه عليه السلام أنّه قال في مقام آخر ما يجري مجرى الشرح لهذا الوعد، قال: يا قوم اعلموا علماً يقيناً أنّ الذي يستقبل قائمنا من أمر جاهليّتكم ليس بدون ما استقبل الرسول صلى الله عليه وآله من أمر جاهليّتكم وذلك أنّ الأُمّة كلّها يومئذ جاهليّة إلّا من رحم اللّه، فلا تعجلوا فيجعل الخرق بكم واعلموا أنّ الرفق يمن وفي الأناة بقاء راحة والإمام أعلم بما ينكر، ولعمري لينزعنّ عنكم قضاة السوء وليقبض عنكم الراضين وليعزلّن عنكم أُمراء الجور وليطهرنّ الأرض من كلّ غاش وليعملنّ فيكم بالعدلّ وليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم وليتمنّ أحيائكم لأمواتكم رجعة الكرّة عما قليل فيعشوا اذن فإنّ ذلك كائن للّه أنتم بأحلامكم كفّوا السنتكم وكونوا من وراء معايشكم فإنّ الحرمان سيصل إليكم وإن صبرتم واحتسبتم أو ائتلفتم انه طالب وتركم ومدرك لثاركم وأخذ بحقّكم وأُقسم باللّه قسماً حقّاً إنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون.

ومن خطبة له عليه السلام
تشتمل على ذكر الملاحم

ومضمون هذا الفصل بعد توحيد اللّه تحذير السامعين عن عصيانه وعن تكذيبه فيما كان يخبرهم به من الأُمور المستقبلة.

[الأوّل قبل كلّ أوّل والآخر بعد كلّ آخر] أي: انّه تعالى موجود قبل

بأوّليّته وجب أن لا أوّل له وبآخريّته وجب أن لا آخر له وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه شهادة يوافق فيها السرّ الاعلان والقلب اللسان أيّها الناس لا يحرمنّكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني ولا تتراموا بالابصار عندما تسمعونه منّي فوالذي فلق الحبّة

كلّ شيء يشير العقل إليه ويفرضه أوّل جميع الموجودات وكذا هوموجود بعد كلّ شيء يشير العقل إليه ويفرضه آخراً من جميع الموجودات .

فبالاعتبار الأوّل هو أوّل قبل كلّ ما يفرض أوّلاً .

وبالاعتبار الثاني هو آخر بعد كلّ ما يفرض آخراً .

[**بأوّليّته وجب أن لا أوّل له وبآخريّته وجب أن لا آخر له**] لمّا كان معنى أوّليّته كونه مبدء لكلّ موجود ومعنى آخريته كونه غاية ينتهي إليها كلّ شيء في جميع أحواله علم من ذلك أن لا أوّل له ولا آخر وإلاّ لم يكن أوّلاً ولا آخراً بالمعنيين المذكورين .

[**وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه**] وحده لا شريك له [**شهادة يوافق فيها السرّ الاعلان والقلب اللسان**] كناية عن خلوصها عن شائبة النفاق والجحود باللّه .

[**أيّها الناس لا يحرمنّكم شقاقي**] أي : لا يحلنّكم ، وقيل لا يكسبنكم .

[**ولا يستهوينكم عصياني**] أي : لا يستهينكم يجعلكم هائمين .

[**ولا تترامو بالأبصار**] فيلحظ بعضكم بعضاً بأبصاركم فعل المنكر المكذب [**عندما تسمعونه منّي**] من الأُمور الغريبة والأحاديث العجيبة .

[**فوالذي فلق الحبّة**] أي شقّها وأخرج منها الورق الأخضر ، كما قال تعالى : ﴿إنّ اللّه فالق الحبّ والنوى﴾ .

وبرء النسمة إنّ الذي أنبأتكم به عن النبي الأُمّي ما كذب المبلّغ ولا جهل السامع لكأنّي أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام

[**وبرء النسمة**] أي: خلق الإنسان [**إنّ الذي أنبأتكم به**] من المغيّبات وسائر الأُمور الغريبة والأحوال العجيبة ممّا تنكرون كلّه مأخوذ [**عن النبي الأُمّي**] صلّى اللّه عليه وآله [**ما كذب المبلّغ**] فيما بلّغ عن ربّه [**ولا جهل السامع**] فيما سمع هو عنه وعنى بالمبلّغ السامع نفسه ما كذبت على الرسول تعمّداً ولا جهلت ما قاله له فأنقل عنه خطأً أو غلطاً. [

لكأنّي أنظر إلى ضليل] كثير الضلال [**قد نعق بالشام**] قيل كنّى به عن عبدالملك بن مرون لأنّ هذه الصفات والامارات فيه أتمّ منها في غيره، لأنّه قام بالشام حين دعى إلى نفسه وشخص بنفسه إلى العراق وقتل مصعب تارةً وتارةً لمّا استخلف الأمر على الكوفة كبشر بن مروان وأخيه وغيره حتّى انتهى الأمر إلى الحجّاج وهو زمان اشتداد عبدالملك وثقل وطأته وحينئذ صعب الأمر جدّاً وتفاقمت الفتن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث، فلمّا كمل أمر عبدالملك وهو معنى أسبغ زرعه هلك وعقدت رايات الفتن المضلّة بعده.

وقيل كنّى به عن معاوية وما حدث في أيّامه من الفتن وما حدث به من فتنة كحروب أولاده مع بني المهلّب وكحروبهم مع زيد بن عليّ وكالفتن الكائنة بالكوفة أيّام يوسف بن عمر وخالد القسري وعمر بن هبيرة وغيرهم وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال وذهاب النفوس وقيل كنّى عمّا حدث في أيّام معاوية من الفتن وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيداللّه بن زياد وواقعة الحسين عليه السلام.

وقيل أشار به إلى السفياني والدجّال، والنعق صوت الراعي بغنمه.

وفحص براياته في ضواحي كوفان فإذا فغرت فاغرته واشتدّت شكيمته وثقلت في الأرض وطأته عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها وماجت الحرب بأمواجها

وقوله: [**وفحص براياته في ضواحي كوفان**] ماخوذ من مفحص القطاة أي: مجثمها، كأنّهم جعلوا الكوفة في زمانهم مفحصاً ومجثماً للرايات وكوفان اسم الكوفة وهي في الأصل الرملة الحمراء وضواحيها نواحيها القريبة منها البارزة عنها، يريد رستاقها وكنّى بفحص راياته عن بلوغه إلى الكوفة ونواحيها كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالقطاة التي تتخذ مفحصاً، وقوله:

[**فإذا فغرت فاغرته**] أي: فتح فاه، كناية عن اقتحامه للناس وفتكه بهم، ملاحظة لشبهه في الأسد في اقتحام فريسته فإنّه يفتح فاه عند الإفتراس والتأنيث للفتنة.

[**واشتدّت شكيمته**] والشكيمة في الأصل حديدة معترضة في اللّجام في فم الدابة وكنّى بها عن قوّة رأسه وشدّة بأسه وأصله أنّ الفرس الجموح قويّ الرأس يحتاج إلى قوّة الشكيمة وشدّته وكذا قوله:

[**وثقلت في الأرض وطأته**] كناية عن شدّة بأسه في الأرض وعلى الناس، وقوله:

[**عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها**] استعار لفظ العض للفتنة ووجه الشبه ما يستلزمانه من الشدّة والألم ورشح تلك الاستعارة بذكر الأنياب وأنبا الفتنة أهلها وكذا استعار لفظ الموج في قوله:

[**وماجت الحرب بأمواجها**] للحرب وكنّى به عن الاختلاط الواقع فيها

وبدا من الأيام كلوحها ومن الليالي كدوحها فإذا أينع زرعه وقام على ينعه وهددت شقاشقه وبرقت بوارقه عقدت رايات الفتن المعضلة وأقبلن كاللّيل المظلم

من القتل والأهوال، واستعار للأيام لفظ الكلوح في قوله:

[**وبدا من الأيام كلوحها**] وكنّى به عن شدّة ما يلقى فيها من الشر كما يلقى من المبئس وكذا لفظ الكدوح وفي قوله:

[**ومن الليالي كدوحها**] استعارة لما يُلقى فيها من المصائب الشبيهة بها وكلوح الأيام عبوسها والكدوح الآثار من الجراحات والقروح الواحد كدح أي: خدش، والمراد من قوله الأيام ثمّ قال ومن اللّيالي أنّ هذه الفتنة مستمرّة الزمان كلّه لأنّ الزمان ليس إلاّ النهار واللّيل، وقوله:

[**فإذا أينع زرعه**] أي: أدرك ونضج وهو الينع بالفتح والضم مثل النضج والنضج ويجوز ينع الزرع بغير همزة ينوعاً ولم تسقط الياء في المضارع وقد روي هذا أيضاً بحذف الهمزة وقوله:

[**وقام على ينعه**] جمع يانع كصاحب وصحب ويجوز إرادة المصدر أي: قام على صفة وحالة هي نضجه وإدراكه استعار لفظ الزرع لأعماله ولفظ الإيناع كناية عن بلوغه غاية أفعاله وقوله:

[**وهددت شقاشقه وبرقت بوارقه**] استعار الشقاشق والبروق لحركاته الهائلة المخوّفة تشبيهاً بالسحاب ذي الشقاشق والبروق وقوله [**عقدت رايات الفتن المعضلة**] أي: إنّ هذه الفتنة إذا قامت أثارت فتناً كثيرة بعدها يكون فيها الهرج والمرج.

[**وأقبلن كاللّيل المظلم**] ووجه الشبه كونها لا يهتدي فيها لحق كما لا

والبحر الملتطم هذا ولم يخرق الكوفة من قاصف ويمرّ عليها من ريح عاصف وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون ويحصد القائم ويحطم المحسود

يهتدي في ظلمة الليل لما يراد.

[والبحر الملتطم] ووجه الشبه عظمها وخلطها للخلق بعضهم ببعض وانقلاب قوم على قوم بالحق لهم والهلاك كما يلتطم بعض أمواج البحر ببعض.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ما يلحق الكوفة بسبب تلك الفتنة وبعدها من الوقائع والفتن بقوله:

[هذا ولم يخرق الكوفة] أي: يحويها ويقطعها **[من قاصف]** أي: ريح قوية تكسر كلّما تمرّ عليها وتقصفه وكذا قوله:

[ويمرّ عليها من ريح عاصف] أي: شديدة، استعار العاصف والقاصف لما يجري على أهلها من الشدائد وقد وقع فيها ما أخبر فتن كثيرة ووقائع جمّة كفتنة الحجّاج والمختار بن أبي عبيدة وغيرهما.

ثمّ وعد عليه السلام بظهور دولة أُخرى فقال:

[وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون] أي عن مدّة قليلة يلحق قرن من الناس بقرن وكنّى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض.

[ويحصد القائم ويحطم المحسود] استعار لهم لفظ الحصد والطم ملاحظةً لمشابهتهم الزرع يحصد قائمه ويحطم محصوده، فكنّى بحصدهم عن موتهم أو قتلهم وبحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب.

وذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحسنات وجزاء الاعمال خضوعاً قياماً قد ألجمهم العرق

قال ابن أبي الحديد: وهذا كناية عن الدولة العبّاسية التي ظهرت على دولة بني أميّة والقرون: الأجيال من الناس، واحدها قرن بالفتح، وبحصد القائم وبحطم المحصود كناية عن قتل الأمراء من بني أميّة في الحرب، ثمّ قتل المأمورين منهم صبراً فحصداً القائم قتل المحاربة وحطم الحصد القتل صهراً وهكذا وقعت الحال مع عبدالله بن علي وابي العباس السفّاح.

ومن خطبة له عليه السلام
تجري هذا المجرى

[**وذلك**] إشارة إلى يوم القيامة [**يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحسنات**] مصدر ناقش أي: مناقشة والدقّة والاستقصاء فيه.

[**وجزاء الأعمال**] فيجزي كلّ بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، ﴿ليجزي الذين أسائوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾، وقوله:

[**خضوعاً**] إشارة إلى قوله تعالى: خُشّعاً أبصارهم﴾، [**قياماً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾ وهما كناية عن كمال برائتهم من حولهم وفوقهم إذن وتيقّنهم ان لا سلطان إلاّ سلطانه، وقوله:

[**قد ألجمهم العرق**] أي: بلغ منهم مكان اللّجام، كناية عن بلوغهم

ورجعت بهم الأرض فتن كقطع الليل المظلم لا تقوم لها قائمة ولا ترد لها راية تأتيكم مزمومة مرحولة

الغاية من الجهد، إذ كانت غاية التاعب أن يكثر عرقه.

[ورجعت بهم الأرض] أي: تحرّكت واضطربت، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿إذا رجّت الأرض رجّاً وبسّت الجبال بسّاً﴾، وقوله: [فاحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متّسعاً﴾، إشارة إلى الزحام الشديد الذي يكون هناك.

ومنها:

[فتن كقطع الليل المظلم] إشارة إلى ما يقع بعده عليه السلام من الفتن سيّما فتنة صاحب الزنج بالبصرة والقِطع بكسر القاف جمع قطع وهو الظلمة، قال تعالى: ﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل بأهلك بقطع من الليل﴾ وقيل أي: بطائفة منه وشبّهها بالليل المظلم لعدم الاهتداء بها وعدم استبانة الرشد فيها، وقوله:

[لا تقوم لها قائمة] اي: لا يمكن مقابلتها بما يقاومها ويدفعها وإنّما أنّث لكون القائمة في مقابلة الفتنة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، أي: لا سبيل إلى قتال اهلها أو لا تقوم لها قلعة قائمة أو بيّنة قائمة بل تنهدم، وقوله:

[ولا ترد لها راية] اي: لثباتها لا يفرّ أهلها بل هم كرّارون غير فرّارين وقوله:

[تاتيكم مزمومة مرحولة] أي: تامّة الأدوات كاملة الآلات كالناقة التي

يحفزها قائدها ويجدها راكبها أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم يجاهدهم في اللّه قوم أذلّة عند المتكبّرين هم في الأرض مجهولون وفي السماء معروفون فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم اللّه

عليها رحلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب [**يحفزها**] يدفعها [**قائدها ويجدها راكبها**] أي: يحمل عليها في السير فوق طاقتها، يقال: جهدت دابتي بالفتح ويجوز أجهدت والمراد أنّ أرباب تلك الفتن يجهدون ويجدون في إضرام نارها رجالاً وفرساناً فالرجل كنّى عنهم بالقائد والفرسان كنّى عنهم بالراكب، وقوله:

[**أهلها قوم شديد كلبهم**] أشي: شدّتهم وشرّهم وإذا هم [**قليل سلبهم**] أي: همّتهم القتل لا السلب، نّى بقائدها عن أعوانها، وراكبها عن منشئها المتبوع فيها، وبحفزها وجهدها عن سرعتهم فيها قتل أهلها إشارة إلى الزنج وظاهر شدّة كلبهم وقلّة سلبهم إذ لم يكونوا أصحاب حرب وعدّة وخيل كما يعرف ذلك من قصّتهم المشهورة.

ثمّ وصف عليه السلام مقاتلتهم في اللّه وجهادهم في سبيله بقوله: [**يجاهدهم في اللّه قوم أذلّة عند المتكبّرين**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ وذلك من صفات المؤمنين.

ثمّ قال: [**هم في الأرض مجهولون**] أي: ليسوا من أبناء الدنيا المعروفين فيها [**وفي السماء معروفون**] لكونهم من أهل العلم والإيمان يعرف ربّهم بطاعته وتعرفهم الملائكة بعبادة ربّهم.

ثمّ أرف ذلك باخبار البصرة مخاطباً لها والمراد أهلها بما يقع بها من فتنة الزنج فقال: [**فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم اللّه**] للعصاة

لا رهج ولا حسّ وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر

[**لا رهج**] أي: لا غبار له [**ولا حسّ**] ولا صوت.

[**وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر**] قيل: إنّه إشارة إلى فتنة الزنج وظاهر أنّه لم يكن لهم غبار ولا أصوات إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فإذن لا رهج ولا حسّ وظاهر كونهم من نقم اللّه للعصاة وإن عمّت الفتنة إذ قلّما تحصل النازلة بقوم دون قوم كما قال تعالى: ﴿واتّقوا فتنةً لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾.

والموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف من قبل الزنج أو من قبل غيرهم ووصفه بالحمرة كناية عن شدّته، وذلك أنّ أشدّ الموت ما كان سفك الدم، وقد فسّره عليه السلام بهلاكهم من قبل الغرق وهو أيضاً في غاية الشدّة لاستلزامه زهوق الروح وكذا وصف الأغبر لأنّ أشدّ الجوع ما اغبرّ معه الوجه وقيل لأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض.

قال المحقّق البحراني: وقد أشار عليه السلام إلى هذه الفتنة في فصل من خطبة خطب بها عند فراغه من حرب البصرة وفتحها وهي خطبة طويلة حكينا منها فصولاً لا تتعلّق بالملاحم من ذلك فصل يتضمّن حال غرق البصرة، فعند فراغه من ذلك الفصل قام إليه الأحنف بن قيس فقال: يا أميرالمؤمنين ومتى يكون ذلك؟

قال: يا أبابحر إنّك لن تدرك ذلك الزمان وانّ بنيك وبينه قروناً، ولكن ليبلغ الشاهد منكم الغائب عنكم لكي تبلغوا اخوانهم إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت اخصامها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنّه لا بصيرة لكم يومئذ.

. . . .

ثمّ التفت عن يمينه فقال: كم بينكم وبين الأبله؟ فقال له المنذر بن الجارود: فداك أبي وأمّي أربعة فراسخ.

قال: صدقت، فوالذي بعث محمّداً وأكرمه بالنبوّة وخصّه بالرسالة وعجّل بروحه إلى الجنّة لقد سمعت منه كما تسمعون منّي أن قال: يا عليّ هل علمت أنّ بين التي تسمّى البصرة والتي تسمّى الأبله أربعة فراسخ سيكون في التي تسمّى الأبله موضع أصحاب العشور يقتل في ذلك الموضع من أمتي سبعون ألف شهيد هم يومئذ بمنزلة شهداء بدر يقال له المنذر.

يا أميرالمؤمنين ومن يقتلهم فداك أبي وأمّي؟!

قال: يقتلهم إخوان الجنّ وهم جبل كأنّهم الشياطين سود ألوانهم منتنة أرواحهم شديد كلبهم قليل سلبهم طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلّة عند المتكبّرين من أهل ذلك الزمان مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكي السماء عليهم وسكّانها والأرض وسكّانها.

ثمّ هملت عيناه بالبكاء ثمّ قال: ويحك يا بصرة! ويلك يا بصرة من جيش لا رهج له ولا حسّ، قال له المنذر: يا أميرالمؤمنين وما الذي يصيبهم من قبل الغرق ممّا ذكرت وما الريح وما الويل فقال: هما بابان فالويح باب الرحمة والويل باب عذاب يابن الجارود! نعم ثارات عظيمة منها عصبة يقتل بعضها بعضاً ومنها فتنة يكون بها إخراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وقتل رجال وسبي نساء يذبحن ذبحاً يا ويل أمرهنّ، حديث عجيب أن يستحلّ بها الرجال الأكبر الأعور الممسوخ العين اليمنى والأخرى كأنّها

. . . .

ممزوجة بالدم لكأنّها في الحمرة علقة تأتي الحدقة كهيئة كهيئة حبّة العنب الطافية على الماء فيتبعها من أهلها عدّة من قتل بالأبله من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل ويهرب من يهرب، ثمّ رجف ثمّ قذف ثمّ خسف ثمّ الجوع الأغبر ثمّ الموت الأحمر وهو الغرق يا منذر إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلاّ العلماء، منها الخزينة، ومنها تدمر، ومنها المؤتفكة.

يا منذر والذي فلق الحبّة وبرء النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة متى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة وإنّ عندي من ذلك علماً جمّاً وإن تسألوني تجدوني به عالماً لا أُخطيء منه علماً، ولقد استودعت علم القرون الأُولى وما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: فقام إليه رجل فقال: يا أميرالمؤمنين! أخبرني عن أهل الجماعة ومن أهل الفرقة ومن أهل السنّة ومن أهل البدعة؟

فقال: ويحكم إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن تسأل أحداً بعدها! أمّا أهل الجماعة فأنا ومن اتبعني وإن قلّوا وذلك الحقّ من أمر اللّه وأمر رسوله، وأمّا أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتّبعني وإن كثروا، وأمّا أهل السنّة فالمتمسّكون بما سنّه اللّه ورسوله لا العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا، وقد مضى الفوج وبقيت أفواج وعلى اللّه قصمها واستئصالها عن جديد الأرض وباللّه التوفيق.

انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن وتفجع المترف الآمن لا يرجع ما تولّى منها فأدبر ولا يدري ما هو آت منها فينتظر سرورها مشوب بالحزن وجلد الرجال فيها منسوب إلى

ومن خطبة له عليه السلام

[انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين] أي: المعرضين **[عنها]** والغرض التزهيد في الدنيا والتحذير منها وأمرهم أن ينظروا إليها نظر الزاهدين عنها فيها المعرضين عنها وأن يتركوها ويحقّروها إلّا بقدر الضرورة.

وأشار إلى ذكر معايبها المنفّرة عنها بقوله:

[والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن] (ما) زائدة في (عمّا قليل) والثاوي: المقيم، أي: تُزيل المقيم بها المطمئن إليها عمّا ركن إليه منها.

[وتفجع المترف] المتنعّم بها، الذي خدعته بأمانيها **[الآمن]** فيها بسلب ما ركن إليه وأمن عليه **[لا يرجع ما تولّى منها فأدبر]** من شباب وصحّة ومال وعمر ونحوه.

[ولا يدري] أي: لا يعلم **[ما هو آت]** بعد ذلك **[منها]** من مصائبها **[فينتظر]** ويحترز منه.

[سرورها مشوب بالحزن] إذ لا يعدم الإنسان في كلّ آن فوت مطلوب او فقد محبوب **[وجلد الرجال]** أي: قوّة أهلها وجلدهم **[فيها منسوب إلى**

الضعف فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها قليل لم يكن وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل وكلّ معدود منقض

الضعف] والوهن كما قال تعالى: ﴿ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة﴾ **[فلا تغرّنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها]** اشار به إلى الكفن ونحوه كما قيل:

فـمـا تزوّد ممّا كـان يجـمـعـه ... إلّا حنوطاً غداة البين في خرق
وغيـر نفـجـة أعـواد شبـين له ... وقـل ذلـك مـن زاد لمنـطـلـق

ثمّ جعل التفكّر علّة للاعتبار وجعل الاعتبار علّة الابصار فقال:

[رحم اللّه امرء تفكّر فاعتبر] وانتقل ذهنه إلى ما هو الحقّ من وجوب ترك الدنيا والعمل للآخرة.

[واعتبر فأبصر] فاده ذلك الانتقال إدراكاً للحق وشاهدة ببصر البصيرة له.

[فكأنّ ما هو كائن في الدنيا عمّا قليل لم يكن وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل] والمراد بالقليل الأوّل الزمان القصير هو انقضاء الأجل وحضور الموت، وفي الثاني قيام الساعة وحضور القيامة وإن كانت تأتي بعد زمان طويل إلّا انّ الميّت لا يحسّ بطوله ولا فرق بين الف الف سنة عنده إذا عاد حيّاً وبين يوم واحد لأنّ الشعور بالبطؤ في الزمان مشروط بالعلم بالحركة كما يدلّ على ذلك حال النائم، ونبّه بقوله:

[وكلّ معدود منقض] على انقضاء مدد الأعمار لكونها معدودة الأيّام والساعات والأنفاس، وقوله:

رحم اللّه امرء تفكّر فاعتبر واعتبر فأبصر فكأنّ ما هو كائن في الدنيا عمّا وكلّ متوقّع آت وكلّ آت قريب دان العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره إنّ من أبغض الرجال إلى اللّه لعبد وكِلهُ اللّه إلى نفسه حائر عن قصد السبيل سائرٌ بغير دليل

[**وكلّ متوقّع آت وكلّ آت قريب دان**] وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري في صورة الضرب الأوّل من الشكل الأوّل ونتيجته فكلّ متوقّع قريب دان، والإشارة بها إلى الموت وما بعده.

ومنها:

[**العالم من عرف قدره**] أي: مقداره من ملك اللّه ومحلّه من ـــــ وخصّ العالم فيمن عرف قدره لأنّ ذلك يستلزم معرفته لنفسه ونسبتها إلى العالم ومقدار مرتبه من خلق اللّه وفي ذلك تمام العلم ويلزم من ذلك أنّ من لا يعرف قدره لا يكون عالماً لأنّ سلب اللازم يستلزم سلب الملزوم فيكون إذا جاهلاً وأشار إلى قوّة ذلك الجهل بقوله [**وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره**] وقوله:

[**إنّ من أبغض الرجال إلى اللّه لعبد وكِلهُ اللّه إلى نفسه**] أي: لم يمدّه بالطاقة وفضله وتأييداته لعلمه بأنّ ذلك لا ينجع فيه ولا يجذبه إلى الخير والطاعة [**حائر**] أي: عادل [**عن قصد السبيل**] والطريق السويّ، ولمّا كان هذا الشقي خابطاً فيما يعتقد ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النظر قال:

[**سائرٌ بغير دليل**] والدليل كناية عن أئمّة الهدى المرشدين إلى اللّه والكتاب والسنّة وإنّ من سار في أُمور معاده ومعاشه بغير دليل منهما كان

إن دُعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دُعي إلى حرث الآخرة كسل كأنّ ما عمل به واجب عليه وكأنّ ما ونى فيه ساقط عنه وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كلّ مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد أُولئك

من الهالكين وقوله:

[**إن دُعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دُعي إلى حرث الآخرة كسل**] والمراد بالحرث هنا كلّما فعل ليثمر فائدة، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المحرّمات، واستعار الحرث لذلك للمشابهة من كونها مستلزمة للمكاسب الأُخروية والدنيوية كما أنّ الحرث كذلك.

ثمّ شبّه ما عمل له من حرث الدنيا بالواجب عليه من مبادرته إليه ومواظبته عليه وشبّه ما قصر عنه من حرث الآخرة بالساقط عنه فرضه في تكاسله وقعوده عنه مع أنّ الأمر فيه ينبغي أن يكون بالعكس فقال: [**كأنّ ما عمل به واجب عليه وكأنّ ما ونى فيه**] أي: فتر [**ساقط عنه**] أي: غير واجب عليه لإهماله وتعقيره وكسل الرجل بكسر السين أي: تثاقل عن الأُمور فهو كسلان.

ومنها:

[**وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كلّ مؤمن نومة**] أي: كثير النوم، كناية عن خامل الذكر بين الناس مشتغل بربّه عنهم وفسّر بقوله:

[**إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد أُولئك**] الذين كانوا بهذه الصفة.

مصابيح الهدى وأعلام السرى ليسوا بالمسابيح ولا المذابيح والا المذاييع البذر أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّ نقمته أيّها الناس! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه ايّها الناس! إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذّبكم من أن يبتليكم وقد قال جلّ من قائل إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين

[**مصابيح الهدى**] لكونهم أسباب الهداية في سبيل الله [**وأعلام السرى**] تأكيد لما سبق [**ليسوا بالمسابيح ولا المذابيح والا المذاييع البذر**] سيأتي تفسيره في كلام السيّد (رحمه الله).

[**أولئك يفتح الله لهم**] وفي رواية بهم أي: ببركاتهم [**أبواب رحمته ويكشف عنهم ضرّ نقمته أيّها الناس! سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه**] أي: يقلب ويكبّ، وربّما قيل أكفأته أيضاً إشارة إلى فساد أهل الزمان وما يكون فيه من الفتن وشبّه قلبهم للزمان بقلب الإناء بما فيه، ووجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الإنشاء الذي كبّ عن الانتفاع فإنّ الزمان للإسلام كالإنشاء للماء، وأشار إلى أنّ ذلك ليس بظلم بقوله:

[**ايّها الناس! إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم**] ويظلمكم ونفى ذلك عنه بقوله: ﴿وما ربّك بظلاّم للعبيد وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

[**ولم يعذّبكم من أن يبتليكم**] ويعاملكم معاملة المختبر.

[**وقد قال جلّ من قائل إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين**] وقال: ﴿احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من

أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه بعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدعّي نبوّة ولا وحياً فقاتل بمن أطاعه من عصاه يسوقهم إلى منجاتهم اللّه ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم

قبلهم فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾ وقال: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ وقد مرّ معنى ابتلاء اللّه لخلقه واختبارهم وامتحانهم.

ومن خطبة له عليه السلام
وقد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرواية

[**أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه بعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله وليس**] أي: والحال أنّه ليس [**أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدعّي نبوّة ولا وحياً**] أي: في زمانه وما قاربه فلا ينافي كون هود وصالح وشعيب من أنبياء العرب لبعدهم من زمانه وأمّا خالد بن سنان فإن ثبتت نبوّته فهي كنبوّة جماعة من بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع وإنّما ينهون عن الشرك ويامرون بالتوحيد.

[**فقاتل بمن أطاعه من عصاه يسوقهم إلى منجاتهم**] أي: إلى الإسلام الذي هو محلّ نجاتهم من عذاب.

[**اللّه ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم**] كأنّه يخاف أن تسبقه القيامة فهو

يحسر الحسير ويقف الكسير فيعتم عليه حتّى يلحقه غايته إلاّ هالكاً لا خير فيه وبوئهم محلَّتهم فاستدارت رحاهم

يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم وهم على ضلالهم.

ثمّ أشار ﷺ إلى وصفه ﷺ بالشفقة على الخلق في حال أسفارهم معه في الغزوات ونحوها بقوله:

[**يحسر الحسير**] وهو الذي أعيا في طريقه.

[**ويقف الكسير**] الذي انكسر مركوبه فلايزال يلطف به حتّى يُبلغه أصحابه.

[**فيعتم عليه حتّى يلحقه غايته**] ويوصله إلى مطلوبه ومقصوده [**إلاّ هالكاً لا خير فيه**] ممّن لا يمكن إيصاله ولا يرجى نجاته، وقيل إنّ ذلك من باب الاستعارة والمجاز والمعنى كأنّ النبي ﷺ لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ورأفته بهم يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده أو عرضت له شبهة أو حدث عنده ريب فلايزال يوضح له ويرشده حتّى يزيل ما خامل سرّه من وساوس الشيطان ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ولم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى إلاّ من كان يعلم أنّه لا خير فيه أصلاً لعناده وإصراره على الباطل ومكابرته للحقّ كأبي لهب وابي جهل ونحوهما.

وقوله: حتّى يلحقه غايته، أي: حتّى يوصله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام وهو أيضاً معنى قوله:

[**وبوئهم محلَّتهم**] وقوله: [**فاستدارت رحاهم**] أي: انتظم أمرهم، إنّ الرحى إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها وهي أيضاً معنى قوله:

واستقامت قناتهم وأيم اللّه لقد كنت من ساقها حتّى تولّت بحذافيرها واستوسقت في قيادها ما ضعفت ولا جبنت ولا حنت ولا وهنت وأيم اللّه لأبقرن الباطل حتّى أخرجُ الحقّ من خاصرته

[**واستقامت قناتهم**] وكلّ ذلك من باب الاستعارة.

ثمّ أقسم عليه السلام بقوله:

[**وأيم اللّه لقد كنت من ساقها**] جمع سائق كقادة جمع قائد وحاكة جمع حائك ومرجع الضمير الجاهليّة المدلول عليها بالمقام وإن لم تذكر لفظاً كأنّه جعلها كمثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه حتّى فرت وأدبرت وأتبعها يسوقها سوقاً وهي مولّية بين يديه [**حتّى تولّت**] أي: أدبرت [**بحذافيرها**] أي: كلّها عن آخرها [**واستوسقت**] أي: اجتمعت الملّة الإسلامية والدعوة المحمّدية [**في قيادها**] كما تستوسق الإبل المفردة إلى إعطائها ويجوز أن يرجع ضمير استوسقت إلى الجاهلية أي ولّت بحذافيرها واجتمعت كلّها تحت ذلّ المقادة إشارة إلى طاعة من أطاع من العرب وانقاد للإسلام واستعار لفظ الإنسان والقيادة ملاحظة لتشبيههم بالإبل المجتمعة لسائقها والمنتظمة في قياده لها.

ثمّ قال عليه السلام: [**ما ضعفت ولا جبنت ولا حنت ولا وهنت**] يعني ذلك الوقت الذي حاربت فيه أو المراد أنا ذلك الشجاع الذي فعلت كذا وكذا ولم يعرض لي جبن ولا ضعف ولا وهن بل أنا باق على تلك الحال ويوضحه قوله:

[**وأيم اللّه لأبقرن الباطل حتّى أخرجُ الحقّ من خاصرته**] كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحقّ غالباً عليه ومحيطاً به فإذا بقر ظهر الحقّ

حتّى بعث اللّه محمّداً صلّى اللّه عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً لهم خير البريّة طفلاً وأنجبها كهلاً

الكامن فيه، استعار لفظ الخاصرة للباطل ورشح تلك الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعزّ قيمة منه وكنّى به عن تميّز الحقّ منه.

ومن خطبة له ﷺ:

[**حتّى بعث اللّه محمّداً صلّى اللّه عليه وآله شهيداً**] يشهد على الأمّة بما فعلته من طاعة أو معصية إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وحتّى غاية للفصل السابق حيث ذكر ما كانوا عليه من سوء الحال والقشف والفقر فقال: حتّى منّ اللّه عليه ببعثة النبي ﷺ شهيداً.

[**وبشيراً**] للخلق بما أعدّ لهم من الثواب العظيم.

[**ونذيراً لهم**] بما أعدّ للعصاة من العقاب الجسيم وينظم هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً﴾ [**خير البريّة طفلاً**] إذ كان ﷺ حال طفوليّته وصباه جامعاً للمكارم التي لا تخفى والفضائل التي لا تستقصى مما لا يوجد عند الكهول.

[**وأنجبها كهلاً**] يقال: رجل نجيب أي: كريم، وقد كان ﷺ في كهوليّته ودعوته للناس منبع كلّ فضيلة واصل كلّ خصلة حسنة، كان أنجب

أطهر المطهّرين شيمة وأجود المستمطرين ديمة فما احلولت لكم الدنيا في لذتها ولا تمكّنتم من رضاع أخلاقها

الناس كهلاً، وكهلاً وطفلاً منصوبان على الحال.

[أطهر المطهّرين شيمة] أي: خلقاً إذ هو ﷺ متمّم مكارم الأخلاق الطاهرة ومحاسن الشيم الفاخرة وكلّ خلق حسن فمنه أخذ وإليه انتهى فلا جرم كان أطهر الشيمة وأكرم الخلق.

[وأجود المستمطرين ديمة] الديمة مطر يدوم والمستمطرون المستجدون، استعار للنبي ﷺ وصف السحاب المرجو منه نزول الديمة وهي المطر الذي لا رعد فيه ولا برق ورشح بلفظ الديمة وكنّى بذلك عن غاية جوده وكرمه وقد كان ﷺ لا يبيت عنده شيء ولا يأوي إلى منزله وعنده شيء من ذهب أو فضّة حتّى ينفقه.

[فما احلولت لكم] الخطاب لبني أُميّة ونحوهم بأنّه ما حلت **[الدنيا]** بأعينهم.

[في لذتها ولا تمكّنتم من رضاع أخلاقها] جمع خلف جملة ضرع الناقة وهو استعارة بالكناية عن وجوه مكاسب الدنيا ولذّاتها ورشح تلك الاستعارة بذكر الرضاع وكنّى به عن تناولهم لها ملاحظة لتشبيهه بالناقة.

والمقصود أنّ اللّه بعث محمّداً ﷺ وهو أكرم الناس شيمة وأنداهم يداً وخيرهم طفلاً وأنجبهم كهلاً وصانه اللّه في أيّام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا وأكرمه عن ذلك فلم تفتح عليكم البلاد،

ولا درّت عليكم الأموال ولا أقبلت الدنيا نحوكم ودالت الدول عليكم على حدّه فتمكّنتم من أكلها والتمتّع بها كما يتمكّن الحالب من

إلّا من بعده صادفتموها جائلاً طامها قلقاً وضينها قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود وعلا لها بعيداً غير موجود

إخلاف الناقة فيجلبها وما حلت لذّاتها لكم **[إلّا من بعده صادفتموها]** أي: وجدتموها **[جائلاً طامها]** جائلاً من الجولان، الخطام: زمام الناقة خطمت البعير زممته وناقة مخطومة **[قلقاً]** أي: مضطرباً **[وضينها]** الوضين: الهودج بمنزلة البطان للقتب والتصدير للوصل والحرام للسرج وهو سيور تنسج مضاعفة بعضها على بعض يشدّ بها الهودج منه إلى بطن البعير والجمع وضن استعار عليه السلام لها لفظ الخطام والوصين ورشّحهما بالقلق والجولان وكنّى بذلك عن مصادفتهم للدنيا بعد رسول الله ﷺ غير منظومة الحال ولا مضبوطة على ما ينبغي لضعف ولاتها عن إصلاح حالها كما أنّ الناقة القلقة الحرام الجائلة الخطام غير منظومة الآلة ولا مضبوطة الحالة فهي بمعرض أن تمشي وتنصرف على غير استقامة فهلك راكبها.

ثمّ ذكر عليه السلام رذيلة القوم فقال:

[قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود] أي: الذي خضد شوكه ووجه شبه الحرام بالسدر المخضود أنّ نواهي اللّه ووعيداته على فعل المحرّمات يجري مجرى الشوك للسدر في كونها مانعة منه كما يمنع شوك السدر جانبه من تناول ثمرته ولما كان بعض الامة قد طرح اعتبار النواهي والوعيد جانباً عن نفسه وفعل ما حرّم عليه جرى ذلك عنده مجرى تناوله للسدر الخالي عن الشوك في سهولة تناوله والإقدام عليه وقوله:

[وعلا لها بعيداً غير موجود] أي: بين أولئك المشار إليهم وجائلاً وقلقاً حالان وقوله:

وصادفتموها والله ضلاً ممدوداً إلى أجل معدود فالارض لكم شاغرة وأيديكم فيها مبسوطة وأيدي القادة عنكم مكفوفة وسيوفكم عليهم مُسلّة وسيوفهم عنكم مقبوضة

[وصادفتموها والله ضلاً ممدوداً إلى أجل معدود] استعار لفظ الظلّ لها ورشح بالممدود وكنّى بذلك عن زوالها بعد حين تهديداً لهم به.

[فالأرض لكم شاغرة] أي: خالية، موشغر المكان أي: خلا، وبلدة شاغرة برجلها إذا لم تمتع من غارة أحد، كنّى بذلك عن خلوّها لهم أو أنّه أراد أنّ الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية عن معنى، كما قال الشاعر:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلّهم ... اللّه يعلم أنّي لم أقل فندا
إني لأفتح عيني ثمّ أغمضها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

ثمّ أعاد عليه السلام الشكوى والتألّم فقال:

[وأيديكم فيها مبسوطة] كناية عن قدرتهم على التصرّف.

[وأيدي القادة] أي: الخلفاء **[عنكم مكفوفة]** مع كونهم مستحقّي الرئاسة ومستوجبي الإمرة.

[وسيوفكم عليهم] أي: على القادة والرؤساء **[مُسلّة وسيوفهم عنكم مقبوضة]** لعدم تمكّنهم منكم.

قال ابن أبي الحديد: كأنّه يرمز إلى ما سيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله وكأنّه يشاهد ذلك عياناً ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذي سنح له والأمر الذي كان أُخبر به.

ثمّ أشار عليه السلام إلى تهديد بني أُميّة باللّه وتخويفهم بأخذه وعقابه فقال:

ألا إنّ لكلّ دم ثائراً ولكلّ حقّ طالباص وإنّ الثائر في دمائنا كالحاكم في حقّ نفسه وهو اللّه الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب فأقسم باللّه يابني أميّة عمّا قليل لنعرفها في أيدي غيركم وفي دار عدوّكم

[**ألا إنّ لكلّ دم ثائراً**] يطلب القود.

[**ولكلّ حقّ طالباص وإنّ الثائر في دمائنا**] والطالب بحقّنا.

[**كالحاكم في حقّ نفسه**] إذ ثارهم حقّ ثابت للّه يطلب ولا يهمل وهو الحاكم المطلق، فلذا استعار له تعالى لفظ الثائر، وإنّما قال: كالحاكم، لأنّ إطلاق لفظ الحقّ للّه ليس بحقيقة إذ الحق من شأنه أن ينتفع بأخذه ويتضرّر بتركه والباري تعالى منزّه عن تلك، لكن لما جرى ذلك الدم مجرى الحق له تعالى فأشبه الحاكم منّا في استيفاء الحق.

[**وهو اللّه الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب**] فلا تهدر دمائنا ولا تضيع حقوقنا.

[**فأقسم باللّه يابني أميّة عمّا قليل**] أي: عن مضي زمان قليل [**لنعرفها**] أي: الدنيا أو امرتها [**في أيدي غيركم وفي دار عدوّكم**] وقد ظهر صدق قوله عليه السلام حيث انّ الأمر بقي في ايدي بني أُميّة قريباً من تسعين سنة ثمّ عاد إلى بني العباس وانتقم اللّه منهم على يد أشدّ الناس عداوة لهم فقد سار عبداللّه بن علي بن عبداللّه بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمدبن مروان وهو آخر الأمويين فالتقيا بالزاب من أرض الموصل ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة فهزم مروان واستولى على عسكره وقتل من اصحابه خلقاً عظيماً ومروان هراباً إلى الشام وعبداللّه يتبعه، فسار إلى مصر

الا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفة، الا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله أيّها الناس! استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر

فاتّبعه بجنوده فقتله وقتل خواصّه وبطانته ولم يزل الأمر كذلك حتّى استؤصل بنو أُميّة وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للّه ربّ العالمين.

ثمّ شرع عليه السلام في التنبّه على الفكر في تحصيل السعادة الباقية فقال:

[**ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفة، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله**] أي: إنّ أفضل أبصار البصر وسماع السماع ما عاد على المبصر والسامع بالفائدة المطلوبة منهما وهي تحصيل الكمالات النفسانية من العلوم والأخلاق.

ثمّ نبّه عليه السلام بعد هذا على المقصود من قبول قوله ونصحه فقال:

[**أيّها الناس! استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ**] استعار عليه السلام لنفسه الشريفة الصباح ورشح بذكر الشعلة والاستصباح لكونه مقتدى به كالمصباح، وأشار بذلك إلى أنّ شرط التأثير من الواعظ أن يكون متّعظاً في نفسه وإلّا نفرت القلوب عنه واشمأزّت النفوس منه فيدخل في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾ وفي قوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُر مقتاص عند اللّه ان تقولوا ما لا تفعلون﴾.

قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله — عار عليك إذا فعلت عظيم

ثم قال: [**وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر**] الامتياح نزول البئر وملأ الدلاء منها، استعار لفظ العين ورشح بذكر الصفو والترويق

عباد اللّه لا تركنوا إلى جهالتكم ولا تنقادوا إلى أهوائكم الباطلة، فإنّ النازل بهذا المنزل نازل بشفا جرف هار ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع

والمتح إشارة إلى كون العلم المستفاد منه مادّة الحياة الأبديّة كما أنّ ماء العين مادّة الحياة الدنيويّة وكنّى بترويقها عن الكدر عن رسوخه فيما علم بحيث لا يتطرّق إليه فيه شبهة تكدّر يقينه وهو أمر لهم بالاهتداء به وأخذ العلوم أصولها وفروعها عنه.

ثمّ أردف ذلك النهي عن الجهل في قوله:

[**عباد اللّه لا تركنوا إلى جهالتكم ولا تنقادوا إلى أهوائكم الباطلة، فإنّ النازل بهذا المنزل**] الراكن إلى الجهالة والمنقاد إلى الأهواء

[**نازل بشفا جرف هار**] هار الجرف يهور هوراً وهووراً فهو هائر، وقالوا: هار خفضوه في موضع الرفع كقاض، أرادوا هائر مقلوب من الثلاثي إلى الرباعي كما قلبوا شائج السلاح إلى شاكي وهو ربّه فتهوّروا نهار أي: انهدم والجرف الطرف استعارة لآرائهم الفاسدة حيث لم تبن على نظام العقل ولا على قانون الشرع، فكانت منهارة لا يبنى عليها إلاّ ما كان بصدد أن ينهار وكان المشير بها واقفاً على شفا جرف هار، قال تعالى: ﴿أم من أسّس بنيانه على شفا جرف هار﴾.

وقوله: [**ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع**] الردى: الهلاك، وأراد بنقله من موضع إلى آخر انّ المشير بالرأي عن جهل منه يشير على واحد بما يستلزم إذاه وهلاكه ثمّ ينقل ذلك الرأي المهلك إلى غيره فيكون كناقل الهلاك من واحد إلى آخر.

لرأي يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرّب ما لا يتقارب فالله الله أن تشكوا إلى من لا يُشكي شجوكم ولا من ينقض برأيه ما قد برم لكم

[لرأي يحدثه بعد رأي] ولم يزل يحدث رأياً فاسداً بعد رأي فاسد فهو ساع في ضلال يروم أن يحتج بما لا سبيل إثباته وينصر مذهباً لا انتصار له كما أشار إليه بقوله:

[يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرّب ما لا يتقارب] وقيل استعار لفظ اللّصق للصلح، أي: يريد أن يصلح بينكم وبين أعدائكم وذلك أمر لا يصلح، ووجه الشبه كون الخصمين في طرفين تجمعهما المصالح ويوجب لهما الاتحاد كما يجمع اللّصاق بين الملتصقين، ويحتمل أن يريد يلصق بكم من الآراء الفاسدة ما لا ينبغي أن يلتصق بكم ويقرّب عليكم البعيد مثلاً يشير عليهم بعدم الحرب والصلح مع معاوية وذلك مخالف للحقّ وكون الرأي يستلزم تفرّق الكلمة فلا يلتصق بالحقّ ولا يليق به ويقرّب ذلك الرأي ما لا يتقارب والطباع.

ثمّ نهاهم وحذّرهم أن يشكوا إلى من لا يزيل شكايتهم ومن لا رأي له في الدين فقال:

[فالله الله] أي: احذروا الله **[أن تشكوا إلى من لا يُشكي]** أي: لا يزيل ولا يدفع **[شجوكم]** أي: حزنكم، أي لا تشكو إلى من لا يدفع عنكم ما تشكون منه.

[ولا من ينقض برأيه] الفاسد وهواه الكاسد **[ما قد برم لكم]** أي: أحكم بالعقل السليم والشرع المستقيم.

إنّه ليس على الإمام إلاّ ما قد حمل من أمر ربّه من الإبلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والإحياء للسنّة وإقامة الحدود على مستحقّيها وإصدار السُّهمان إلى أهلها فبادروا العلم من قبل تصويح نبته ومن قبل أن تشتغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم عند أهله

ثمّ أردف ذلك بما يجب على الإمام وفائدة ذلك الإعذار إليهم فيما عساهم ينسبونه إليه من تقصير فيركنون إلى غيره في الرأي ونحوه وذكر أموراً خمسة أشار إليها بقوله:

[**إنّه ليس على الإمام إلاّ ما قد حمل من أمر ربّه من الإبلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة**] للعباد.

[**والإحياء للسنّة**] سنّة اللّه ورسوله التي درسوها فما من يوم إلاّ وتموت فيه سنّة وتحيى فيه بدعة [**وإقامة الحدود على مستحقّيها**] بجناياتهم.

[**وإصدار السُّهمان إلى أهلها**] والسهمان جمع سهم: وهو النصيب الذي يستحقّه المسلم من بيت المال، وقد فعل عليه السلام جميع ذلك وزاد وبلغ الغاية في بيان ما يصلحهم وما يفسدهم.

ثمّ لما سبق نهيه عن الجهل أمر بالمبادة إلى العلم فقال:

[**فبادروا العلم**] أي: إلى أخذ العلم من أهله ومعدنه من عين إضافته وهو نفسه [**من قبل تصويح نبته**] استعار لفظ النبت ورشح بذكر التصويح وكنى به عن عدمه بموته عليه السلام فإنّ تصويح النبات موته.

[**ومن قبل أن تشتغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم عند أهله**] أي: من قبل أن تشتغلوا بتخليص أنفسكم من شرور الفتن أي: التي تنزل بهم من بني أميّة ومعاناتها، ومستار العلم ما استيسر منه واستخرج وأهله هو عليه السلام

وانتهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنّما أُمرتم بالنهي بعد التناهي الحمد للّه الذي شرّع الإسلام فسهّل شرائعه لمن ورده وأعزّ أركانه على من غالبه

وأولاده المعصومون.

[**وانتهوا عن المنكر وتناهوا عنه**] إشارة إلى أنّ النهي عن السيّء إنّما هو بعد الانتهاء عنه ولذا أكّده بقوله:

[**فإنّما أُمرتم بالنهي بعد التناهي**] لأنّ انفعال الطباع عن مشاهدة الأفعال والاقتداء بها أقوى وأسرع منها عن سماع الأقوال خصوصاً إذا خالفها فعل القائل كما يشهد به العقل والتجربة مضافاً إلى النصوص الشرعية فإنّ قلب السامع مرآة لقلب الواعظ وأُذنه مرآة لأُذنه فإذا صدر الوعظ من القلب ـــــ في القلب وإذا صدر من مجرّد اللسان لم يتجاوز الأذان.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الذي شرّع الإسلام فسهّل شرائعه لمن ورده**] حمد اللّه سبحانه باعتبار ما أنعم به من وضع شريعة الإسلام للعقول السليمة لتسلك بها إليه، وأشار بشرائعه إلى موارد العقول من أركانه وتسهيله لها إيضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمها الفصيح والألكن ويشارك الغبي في ورود مناهلها الفطن الذكي.

[**وأعزّ أركانه**] بحمايتها [**على من غالبه**] من قصد هدمه وإطفاء نوره مغالبة من المشركين والجاهلين.

فجعله أمناً لمن عقله وسلماً لمن دخله وبرهاناً لمن تكلّم به وشاهداً لمن خاصم به ونوراً لمن استضاء به وفهماً لمن عقل ولبّاً لمن تدبّر

ثمّ شرع عليه السلام في مدح الإسلام ووصفه بأوصاف فقال:

[**فجعله أمناً لمن عقله**] أي: أمناً لمن تعلّق به في الدنيا من القتل وأخذ المال وفي الآخرة من العذاب.

[**وسلماً لمن دخله**] أي: مسالماً له وفي الأوّل ملاحظة لتشبيهه بالحرم باعتبار دخوله، وفي الثاني ملاحظة الشبهة بالمغالب من الشجعان باعتبار مسالمته، ومعنى مسالمته الاستسلام له كونه محقون الدم مقرراً على ما كان يملكه فكان الإسلام سالمه أو صالحه لكونه لا يقضي ما يؤدّيه بعد دخوله فيه.

[**وبرهاناً لمن تكلّم به**] أي: فيه ما هو برهان.

[**وشاهداً لمن خاصم به**] والشاهد أعمّ من البرهان لتناول الجدل والخطابة.

[**ونوراً لمن استضاء به**] استعار لفظ النور ورشحه بذكر الاستغناء به ووجه الشبه كونه مقتدر به في طريق اللّه إلى جنته.

[**وفهماً لمن عقل**] لما كان بالفهم عبارة عن جودة الذهن لقبول ما يرد عليه وكان الدخول في الإسلام ورياضة النفس بقواعده وأركانه سبباً عظيماً لتهيئة الذهن لقبول الأنوار الإلهيّة وفهم الأسرار، وأطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاق المسبب على السبب.

[**ولبّاً لمن تدبّر**] أطلق عليه لفظ العقل من إطلاق المسبب على السبب أيضاً، وأريد العقل بالملكة وما فوقه من مراتب العقل فإنّ الإسلام وقواعده

وآية لمن توسّم وعبرة لمن اتّعظ ونجاةً لمن صدق وثقة لمن توكّل وراحة لمن فوّض وجُنّة لمن صبر فهو أبلج المناهج واضح الولائج

ما قوى الأسباب محصول العقل بمراتبه.

[**وآية لمن توسّم**] أي: تفرّس طريق الخير ومقاصده فإنّ الإسلام آية وعلامة لذلك المتفرّس إذا اهتدى بها فقد وقع في طريق الهدى.

[**وعبرة لمن اتّعظ**] فإنّ الإسلام نعم المعبر للمتّعظ إلى سبيل اللّه بما فيه من أحوال القرون الماضين والأمم السالفين.

[**ونجاةً لمن صدق**] أي: صدق الرسول فيما جاء به فإنّ دخوله في الإسلام سبب نجاته من سيوف اللّه في الدنيا وعذابه في الآخرة وأطلق عليه اسم النجاة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب أيضاً.

[**وثقة لمن توكّل**] إذ هو سبب ثقة المتوكّلين على اللّه لاشتماله على الوعد الكريم وبه يكون استعدادهم للتوكّل.

[**وراحة لمن فوّض**] أموره كلّها إلى اللّه تعالى وعلم ما لا يعلم منها وترك التكليف به، وقيل بل المراد انّ المسلم إذا كمل إسلامه وفوّض أمره إلى اللّه كفاه اللّه جميع أُموره وأراحه من الاهتمام بها.

[**وجُنّة**] بضم الجيم، أي: وقاية من عذاب اللّه [**لمن صبر**] على العمل بقواعده وأركانه.

[**فهو أبلج المناهج**] الأبلج: الواضح المشرق، ومناهج الإسلام: طرقه وأركانه الذي يصدق على من سلكها وهي الإقرار باللّه ورسوله والتصديق بما وردت به الشريعة، وظاهر كونها أنواراً واضحة الهدى.

[**واضح الولائج**] أي: واضح البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين

مشرفة المنار مشرق الجوادِّ مضيء المصابيح كريم المضمار رفيع الغاية جامع الحلبة متنافس السبقة شريف الفرسان

الاعتبار [**مشرفة المنار**] منار الإسلام: الأعمال الصالحة التي يقتدي بها السالكون كالعبادات الخمس ونحوها، وظاهر كونها مشرفة عالية على غيرها من العبادات السابقة.

[**مشرق الجوادِّ**] وهو قريب من أبلج المناهج [**مضيء المصابيح**] كنّى به عن علماء الإسلام وأئمّته كناية بالمستعار وشح بذكر الاستضائة وكنّى بها من ظهور العلم عنهم واقتداء الخلق بهم، ويحتمل أن يريد بالمصابيح أدلّة الإسلام كالكتاب والسنّة.

[**كريم المضمار**] مضمار الإسلام الدنيا وكومها باعتبار اقتباس الأنوار منها والعبور بها إلى اللّه، ولفظ المضمار مستعار.

[**رفيع الغاية**] إذ غاية الوصول إلى سبيل اللّه ورضوانه ولا غاية أرفع منها ولا مرتبة أعلا منها.

[**جامع الحلبة**] استعار الحلبة للعتمة فإنّها حلبة الإسلام ووجه الاستعارة كونها محلّ الاجتماع بها للسباق إلى حضرة اللّه التي هي الجنّة كاجتماع الخيل في الحلبة للسباق إلى الرهن.

[**متنافس السبقة**] لأنّ سبقته الجنّة وهي أشرف ما يتنافس فيها.

[**شريف الفرسان**] استعار الفرسان لعلمائه الذين هم فرسان العلوم ورجالها ملاحظة لشبهه بالفرس الجواد الذي لا يجارى راكبه والحلبة الخيل المجموعة للمسابقة والمضمار موضع تضمير الخيل أو زمان تضميرها، والغاية: الراية المنصوبة، وهو هنا خرقة تجعل على قصبة وتنصب في آخر

التصديق منهاجه والصالحات مناره والموت غايته والدنيا مضماره والقيامة حلبته والجنّة سبقته

الذي تنتهي إليه المسابقة كأنّه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم وغايتها رفيعة عالية وحلبتها جامعة جارية وسبقها متنافس فيها وفرسانها أشراف.

ثمّ وصفه عليه السلام بأوصاف أُخرى فقال:

[التصديق منهاجه] أي: طريقه.

[والصالحات مناره] أي: أعلامه.

[والموت غايته] لأنّ الدنيا سجن المؤمن وبالموت يخلص من ذلك السجن ويحظى بالسعادة الأبديّة.

[والدنيا مضماره] كأنّ الإنسان يجري في الدنيا إلى غاية هي الموت وإنّما جعلها مضمار الإسلام لأنّ المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعيّنة.

[والقيامة حلبته] أي: ذات حلبة، فحذف المضاف كقوله تعالى: ﴿هم درجات﴾ أي: ذوو درجات **[والجنّة سبقته]** أي: جزاء سبقه، فحذف أيضاً.

حتّى أورى قبساً لقابس وأنار علماً لحابس فهو أمينك المأمون وشهيدك يوم الدين وبَعيثُكَ نعمةً ورسولك إلى الخلق رحمة

منها في ذكر النبي ﷺ

وذكر جدِّه واجتهاده في إقامة الدِّين وتعظيم شعائر الإسلامي والمسلمين:

[**حتّى أورى**] أي: أشعل [**قبساً لقابس**] والقبس: الشعلة، استعارها لأنوار الدين المشتعلة المضيئة لتقتبس منها قلوب المؤمنين أنوار الهدى.

[**وأنار علماً لحابس**] وهو الواقف بالمكان، استعار لفظ العلم وأسند إليه تنويره لأنّه أظهر أنواراص جعلها أعلاماً يهتدى بها في سبيل اللّه من حبسة ظلمة الحيرة والشبهات عن سلوكها فهو واقف على ساق التحيّر كقوله تعالى: ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وكنّى بتلك الأعلام عن آيات الكتاب والسنن ويحتمل إرادة أئمّته الدين تنوير قلوبهم بما طهر من نفسه القدسيّة من الكمالات والعلوم.

[**فهو أمينك المأمون**] على وحيك.

[**وشهيدك يوم الدين**] على خلقك كما قال: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقال: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

[**وبَعيثُكَ**] أي: مبعوثك إلى الخلق [**نعمةً**] عليهم بهدايتهم إلى طرق الهدى وردعهم عن سلوك جادّة الردى.

[**ورسولك**] بالحقّ [**إلى الخلق رحمة**] كما قال: ﴿وما أرسلناك إلاّ

اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك واجزه مضعّفات الخير من فضلك اللّهمّ أعل على بناء البانين بنائه وأكرم لديك نزله وشرّف لديك منزله وآته الوسيلة وأعطه الثناء والفضيلة

رحمة للعالمين﴾.

[**اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك**] إشارة إلى أنّ مقتضى عدله تعالى أن يقسم شرف النفوس أشرف الكمالات وأعلا المراتب من حضرته.

[**واجزه مضعّفات الخير من فضلك**] لما دعى له ما يستحقّه زاد على ذلك فدعى له أن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له ما يستحقّه من الخيرات.

[**اللّهمّ أعل على بناء البانين بنائه**] أي: شيّد ما بناه من قواعد الدِّين وأساس أحكام الشرع المبين على سائر بناء البانين للشرائع من الرسل قبل، ويحتمل أن يريد ما بناه لنفسه من مراتب الكمال ولفظ البناء مستعار [**وأكرم لديك نزله**].

وهو ما تهيّأ للتنزيل من ضيافته ونحوها أراد ما هيّأ له من الثواب الجزيل والثناء الجميل.

[**وشرّف لديك منزله**] في حضرة القدس في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

[**وآته الوسيلة**] أي: ما يتوسل به إليه ويقرّب منه، وفسّرت بأنّها درجة رفيعة في الجنّة.

[**وأعطه الثناء**] أي: الرفعة.

[**والفضيلة**] التامّة.

واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا نادمين ولا ناكبين ولا ضالّين ولا مفتونين وقد بلغتم من كرامة لكم منزلة تكرم بها امائكم ويوصل بها جيرانكم

[**واحشرنا في زمرته**] أي: جماعته حال كوننا [**غير خزايا**] بقبائح الذنوب.

[**ولا نادمين**] على التفريط في جانب اللّه والتقصير في العمل بطاعته.

[**ولا ناكبين**] أي: ولا منحرفين عن سبيله إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط، لبهوره ومواثيقه التي واثق بها خلقه أن يعبدوه ويخلصوا له الدين.

[**ولا ضالّين**] عن سواء السبيل.

[**ولا مفتونين**] بشبهات الأباطيل.

قال السيد (رضي اللّه عنه): وقد مضى هذا الكلام فيما تقدّم إلاّ أنا كرّرناه هاهنا في الروايتين من الاختلاف.

ومنها

في خطاب أصحابه بتذكيرهم المنزلة التي أكرمهم اللّه بها من الإسلام والهداية للإيمان فقال:

[**وقد بلغتم من كرامة لكم**] بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً أو عبّاد أصنام وبلغتم من كرامته إيّاكم [**منزلة**] عظيمة [**تكرم بها امائكم**] وعبيدكم ومن كان مظنّة المهنة والمذلّة.

[**ويوصل بها جيرانكم**] أي: من التجأ إليكم واستجار بكم من معاهد أو ذمّي فإنّ اللّه تعالى حفظ ذمام المجاورة لكم حتّى عصم دمائهم وأموالهم

يعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عليه ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة

وصرتم إلى مال.

[يعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد] ولا نعمة **[لكم عليه]** كالروم والحبشة فإنّهم عظموا بهاء مسلمي العرب لتقمّصهم لباس الدين ولزومهم قاموسه وإظهارهم شعاره.

[ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة] كالملوك الذين في أقاصي البلاد نحو الهند والصين وأمثالها، قيل إنّهم هابوا دولة الإسلام وإن لم يخافوا سطوة سيفهم لأنّه شاع وذاع أنّهم قوم صالحون إذا دعوا اللّه سبحانه لهم وأنّهم يقهرون الأمم بالنصر السماوي وبالملائكة لا بسيوفهم ولا بأيديهم.

قيل: إنّ العرب لما عبرت دجلة إلى القصر الأبيض الشرقي بالمدائن عبرتها في أيام مدّها وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها ولا درع عليها ولا بيض وزبت الفرس بعد رمي شديد منها للفرس بالسهام وهم يعترمون ويحملون ولا تهولهم السهام فقال فلاّح نبطي بيده مسحاة وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسوار من الأساورة معروف بالبأس وشدّة الرماية: ويلكم أمثلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الخاسرين ولذعه باللّوم والتعنيف فقال له: اقم مسحاتك فأقامها فرماها فخرق الحديد حتّى عبر النصل إلى جانبها الأخرى، ثمّ قال أنظر الآن ثمّ رقى بعض العرب المارّين عليه عشرين سهماً لم يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد وإنّه لقريب إليه غير بعيد ولقد كان بعض السّهام تسقط بين يدي الأسوار فقال له بالفارسية:

وقد ترون عهود اللّه منقوضة فلا تغضبون وأنتم لنقض ذم آبائكم تأنفون وكانت أُمور اللّه عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع

أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم؟ قال: نعم.

ثمّ لمّا قرّر نعمة اللّه عليهم أردف ذلك بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقّه فقال:

[**وقد ترون عهود اللّه منقوضة**] وتسكتون [**فلا تغضبون**] كالراضين بذلك، يشير بذلك إلى بغي البغاة والخوارج وسائر المنكرات التي وقعت من أهل الشام وغيرهم خالفوا فيها أمر اللّه ونكثوا بيعته التي هي عهد من عهود اللّه عليهم فإنّ السكوت على مثل ذلك مع التمكّن من إزالته وإنكاره بالجهاد منكرهم راكبوه والواو في قوله أي: [**وأنتم**] مع ذلك [**لنقض ذم آبائكم تأنفون**] فبالأولى أن تأنفوا لعهود اللّه أن تنقض وذممه أن تحقر.

ثم ذكر تفريطهم وتهاونهم في الأُمور التي كان اللّه سبحانه فرضها وجعلهم مصدرها وموردها من أُمور الإسلام وأحكامه والتسلّط به على سائر الناس فقال:

[**وكانت أُمور اللّه عليكم ترد**] أي: الأحكام الشرعية إليكم ترد منّي ومن تعليمي إيّاكم.

[**وعنكم تصدر**] إلى من تعلّمونه إيّاها من أتباعكم وتلامذتكم.

[**وإليكم ترجع**] بتعلّمها بنوكم واخوتكم من هؤلاء الأتباع التلامذة، ففررتم من الزحف لما أغارت جيوش الشام عليكم وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم.

فمكّنتم الظَّلَمة من منزلتكم وألقيتم إليهم أزمّتكم وأسلمتم أُمور اللّه في أيديهم يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات وأيم اللّه لو فرقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم اللّه لشرّ يوم لهم

[فمكّنتم الظَّلَمة] كمعاوية وأصحابه **[من منزلتكم]** تتجاذلكم عنّي.

[وألقيتم إليهم أزمّتكم] ولفظ الأزمّة مستعار للأُمور التي سلّموها إليهم، كلّ ذلك بالتقصير في جهادهم.

[وأسلمتم أُمور اللّه في أيديهم] وهي أحوال بلاد الإسلام **[يعملون بالشبهات]** على وفق آرائهم الفاسدة وآرائهم الباطلة التي يتوهّمونها حججاً فيما يفعلون.

[ويسيرون في الشهوات] بالانهماك فيها.

ثمّ أقسم فقال: **[وأيم اللّه لو فرقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم اللّه لشرّ يوم لهم]** تحذير لهم وإنذار بما سيكون من بني أُميّة من جمع الناس في بلائهم وشرورهم وعموم فتنتهم وكنّى باليوم عن مدّة خلافتهم التي كانت شرّ الأوقات على الإسلام وأهله، وإنّما نسب التفريق إليهم والجمع إلى اللّه تقريراً لما سينزل بهم قدره من ابتلائه الخلق بهم فإنّهم لو فرّقوهم في أطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر اللّه لهم ولم يمنعهم من نزوله بجميعهم بما يراد لهم من الابتلاء بدولة بني أُميّة وشرورها وأحوال دولتهم مع الخلق خصوصاً الصالحين من عباد اللّه ظاهرة.

وقد رأيت جـولتكم وانحـيازكم عن صفـوفكم تحوزكم الجـفاة الطغام وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب ويآفيخ الشرف

ومن خطبة له عليه السلام في بعض أيّام صفّين

وفيه تبكيت لأصحابه بانحيازهم عن صفوفهم فقال:

[**وقد رأيت جولتكم**] أي: دورتكم، والمراد هزيمتكم، فأجمل اللفظ وكنّى عن اللّفظ المنفّر عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه، كما قال تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ كناية عن الغائط، وكذا قوله:

[**وانحيازكم عن صفوفكم**] كناية عن الهرب أيضاً، إشارة إلى قوله تعالى ﴿الاّ متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة﴾ قيل وهذا باب من أبواب البيان لطيف وهو حسن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج عوضاً عن لفظ يتضمّن جبهاً وتقريعاً.

[**تحوزكم**] أي: تعدل بكم عن مراكزكم [**الجفاة**] جمع جاف [**الطغام**] الأوغاد من الناس.

[**وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب**] جمع لهموم وهو الجواد من الناس [**ويآفيخ الشرف**] جمع: يافون وهو معظم الشيء من ذهب يافوخ اللّيل أي: أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ وهو أعلى الرأس وجمعه يآفيخ بقرينة ما بعده استعارة لهم إذا كانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم وشرفهم كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان، وكذا قوله:

والأنف المقدّم والسنام الأعظم ولقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم حسّاً بالنّصال وشجراً بالرماح يركب أُولاهم أُخراهم كالإبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد عن مواردها

[**والأنف المقدّم والسنام الأعظم**] ووجه الشبه عزّهم وشرفهم كغرّة الأنف وتقدّمه وحسن الوجه بالنسبة إلى باقي الأعضاء كغرّة السنام وعلوّه بالنسبة إلى باقي أعضاء الجمل.

ثمّ أردف ذلك التبكيت والتذكير بالرذيلة فقال:

[**ولقد شفى وحاوح صدري**] والوحاوح الحرق والحرارات [**أن رأيتكم بأخرة**] على وزن فعلة أي: أخيراً [**تحوزونهم**] بالأخرة [**كما حازوكم**] أوّلاً.

[**وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم**] عن مواقفكم [**حسّاً**] أي: قتلاً واستئصالاً وطعناً [**بالنّصال**] بالسيوف أخذاً من قوله تعالى: ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ وروي حشأ بالهمزة من حشأت الرحل أي: أصبت حشاه، وروي بالنضال بالضاد المعجمة وهي المناضلة والمراماة.

[**وشجراً**] أي: طعناً [**بالرماح يركب أُولاهم أُخراهم**] ومقدّمهم تاليهم، أي يشفي حرارة قلبي أن تكونوا بهذه الصفة والغرض من ذلك تثبيتهم على مثل هذه الأفعال في مثل تلك المواقف، وكنّى بوحاوح صدره عمّا كان يجده من التألّم بسبب انقهار أصحابه وغلبة عدوّهم لهم.

ثمّ شبّههم بتضعضعهم وركوب بعضهم لبعض مولّين بالإبل فقال:

[**كالإبل الهيم**] أي: العطاش [**المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد**] تطرد [**عن مواردها**] أي: الإبل التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثمّ طردت ورميت

بالسهام وذيدت عمّا وردته فإنّ طردها على ذلك الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض.

ومن خطبة له عليه السلام

[وهي خطبة الملاحم] جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة في الحرب.

[الحمد للّه المتجلّي لخلقه بخلقه] أي: ظهر لمخلوقاته حتّى عرفوه بما خلقه من الآيات والآثار الدالّة على وجوده، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد وقيل انّ تجلّيه يعود إلى جلاء معرفته من مصنوعاته لقلوب عباده حتّى أشبهت كلّ ذرّة من مخلوقاته مرآة ظهر لهم فيها فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتتفاوت تلك المشاهدة بحسب تفاوت أشعّة أبصار بصائرهم فمنهم من يرى الصنعة أوّلاً والصانع ثانياً ومنهم من يراهما معاً ومنهم من يرى الصانع أوّلاً ومنهم من لا يرى مع الصانع غيره، وعن الحسن عليه السلام ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت اللّه قبله وبعده ومعه وقوله:

[والظاهر لقلوبهم بحجّته] أي: الواضح وجوده ووجوبه لقلوب منكريه بأوهامهم وألسنتهم بقيام حجّته عليهم بذلك من أحكام الصنع وحسن النظام وإتقان التدبير ولذا ترى الناس عند الوقوع في الأهوال وصعاب الأحوال يتوجّهون إليه ويعتقدون أنّ في الخارج مسبّباً لتلك الأسباب بحسب فطرتهم وإن لم يتفطّنوا كما قال تعالى: ﴿ولئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ اللّه قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب اللّه وأتتكم

....

الساعة أغير اللّه تدّعون إن كنتم صادقين﴾ بل إيّاه تدّعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون وأظهر الموجودات هو اللّه كما قال: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾.

والنور هو الذي به تدرك الأشياء، فالعارفون يعرفون الأشياء باللّه إذ هي أظهر شيء لا انّهم يستدلّون بخلقه عليه ويعرفونه بخلقه كما قال سيّد الشهداء: «سبحانهك كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعُدتَ حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباص وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً».

وقال عليه السلام: «تعرّفتَ لكلّ شيء فما جهلك شيء» وتوضيح ذلك أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب ويخيّط مثلاص كأن كونه حيّاً من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة وإن لم يتعلّق بها حسّ البصر ووجود اللّه وقدرته وعلمه وسائر صفاته تشهد له بالضرورة كلّما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبرّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وتقلّب أحوالنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثمّ محسوساتنا ثمّ مدركاتنا بالعقل وكلّ واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلّة على وجود خالقها ومدبّرها.

خلق الخلق من غير رويّة إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر بذي ضمير في نفسه خرق علمه باطن غيب السترات وأحاط بغموض عقائد السريرات في ذكر النبي صلّى اللّه عليه وآله اختاره من شجرة الأنبياء

قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾ وفي الخبر أنّ اللّه تجلّى لعباده من غير أن يروه وأراهم نفسه من غير أن يتجلّى لهم.

[**خلق الخلق من غير رويّة**] وفكر في كيفيّة خلقه [**إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر**] بذي بقلب وسمع وبصر وشمّ وذوق ولمس وليس اللّه تعالى [**بذي ضمير في نفسه**] وترتيب البرهان هكذا من الشكل الثاني كلّ روية فلذي ضمير ولا شيء من واجب الوجود بذي ضمير فينتج أنّه لا شيء من الرويّة لواجب الوجود.

[**خرق علمه باطن غيب السترات**] أيك نفذ في كلّ مستتر وغائب بحيث لا يحجبه ستر ولا يستره حجاب.

[**وأحاط بغموض عقائد السريرات**] أي بما دقّ من عقائد أسرائر القلوب، كما قال: ﴿اللّه يعلم السرّ وأخفى﴾.

ومنها

[**في ذكر النبي صلّى اللّه عليه وآله اختاره من شجرة الأنبياء**] استعار الشجرة لصنف الأنبياء ووجه الشبه كون ذلك الصنف ذا ثمر وفروع، ففروعه أشخاص الأنبياء وثمره العلوم والكمالات النفسانية، كما أنّ الشجرة ذات غصون وثمر.

ومشكاة الضياء وذؤابة العلياء وسرة البطحاء ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة طبيب دوّار بطبّه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه

[ومشكاة الضياء] استعار المشكاة لآل إبراهيم ووجه الشبه ظهور الأنبياء منهم وسطوع نور الهداية وضوء النبوّة من بيوتهم كما سطع ور المشكاة.

[وذؤابة العلياء] الذؤابة ما تدلّى من الشعر ونحوه، وأشار بها إلى قريش لتدلّيهم في أغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلّي ذؤابة الشعر عن الرأس.

[وسرة البطحاء] سرة الوادي أشرف موضع فيه، وأشار به إلى اختياره من أفضل بيت مكّة.

[ومصابيح الظلمة] استعار المصابيح للأنبياء إذ بهم ينجى من ظلمات الجهل.

[وينابيع الحكمة] لفيضان العلم والحكمة عنهم كفيضان الماء عن ينابيعه.

ومنها

[طبيب دوّار بطبّه] يعني نفسه الشريفة، لأنّه طبيب مرض الجهل ورذائل الأخلاق، وكنّى بدورانه بطبّه تعرّضه لعلاج الجهّال من دائهم ونصب نفسه لذلك أو لأنّ الدوّار أكثر تجربة، واستعار المراهم في قوله **[قد أحكم مراهمه]** لما عنده من مكارم الأخلاق والعلوم والمعارف والمواسم في قوله:

[وأحمى مواسمه] لما يتمكّن منه من إصلاح ما لا تنفع فيه الموعظة

يضع من ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمى و آذان ومن ألسنة بُكْم متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة فهم في ذلك

والتعليم بالجلد وسائر الحدود فهو كالطبيب الكامل الذي يملك المراهم والأدوية والكاوي لمن لا ينفع فيه المراهم.

[**يضع من ذلك**] أي من كلّ واحد من أدويته ومواسمه [**حيث الحاجة إليه من قلوب عمى**] يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبل اللّه.

[و] من [**آذان**] صمّ يعدّها لقبول المواعظ وتجوّز بلفظ الصمّ في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتان كالصمّاء إطلاق للملزوم على اللازم، إذ كأن الصمم يستلزم ذلك العدم.

[**ومن ألسنة بُكْم**] يطلقها بذكر اللّه والحكمة وأطلق لفظ بُكْم مجازاً في عدم النطق منها بوجودها وهو التكلّم بما ينبغي فإنّها لفقدها النطق كالبكم.

[**متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة**] كناية عن قلوب الجهّال، ولذا أشار إليهم بأنّهم [**لم يستضيئوا بأضواء الحكمة**] أي: لم يكسبوا شيئاً من العلوم والأخلاق.

[**ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة**] كنّى بالزناد عن الفكر وبالقدح عن الاكتساب به كناية بالمستعار، ووجه الشبه كون الفكر يستخرج به العلوم الثاقبة التي تثقب سُترات الحجب كما يستخرج بالزناد النار.

[**فهم في ذلك**] أي: في عدم استضائتهم بأضواء الحكمة واستنارتهم

كالأنعام السائمة والصخور القاسية قد انجابت السرائر لأهل البصائر محجّة الحقّ لخابطها وأسفرت الساعة عن وجهها وظهرت العلامة لمتوسّمها

بأنوار العلوم والمعارف الحقّة [**كالأنعام السائمة والصخور القاسية**] ووجه الشبه بينهم وبين الأنعام استوائهم في الغفلة والانخراط في سلك الشهوة والغضب دون اعتبار شيء من حظّ العقل وعدم التقيّد به كما لا تفيد الأنعام السائمة وبينهم وبين الصخور قساوة قلوبهم وعدم لينها من خشية اللّه وآياته كما قال تعالى: ﴿ثمّ قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾.

[**قد انجابت السرائر**] أي: انكشفت [**لأهل البصائر**] قيل: هو إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسية ولمن تفرّس ما يكون من ملك بني أميّة وعموم ظلمهم من أولي التجارب والفطن السليمة ويحتمل أن يريد بالسرائر أسرار الشريعة وانكشافها لأهلها وقوله:

[**محجّة الحقّ لخابطها**] إشارة إلى وضوح الشريعة وبيان طريقة اللّه وفائدة القضيّة الأُولى التنبيه على النظر في العواقب، وفائدة الثانية الجذب إلى اتّباع الدين وسلوك سبيل اللّه، إذ لا عذر للخابطين في جهالاتهم بعد وضوح دين اللّه، وقوله:

[**وأسفرت الساعة عن وجهها**] أي: بدت مقبلة، ولمّا كان وجه الشيء أوّل ما يبدو منه وينظر كنّى به عمّا بدا من أمر الساعة وهو قيام الفتن وإقبالها، وقوله:

[**وظهرت العلامة لمتوسّمها**] أي: علامة قيام الساعة وهي الفتن المتوقّعة المتفرّسة من بني أُميّة ومن بعدهم، وذكره ـــــ الساعة وظهور علاماتها

ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونسّاكاً بلا صلاح وتجّاراً بلا أرباح

تهديد وترغيب في العمل لها.

ثمّ قال عليه السلام موبّخاً لهم عاتباً عليهم:

[**ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح**] شبّههم في عدم انتفاعهم بالعقول وعدم فائدة المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿كأنّهم خشب مسنّدة﴾.

[**وأرواحاً بلا أشباح**] قيل: هو وما قبله إشارة إلى نقصانهم أي أنّ فيهم من هو شبح بلا روح كما سبق من كان له روح وفهم فلا قوّة له في أمر الحرب ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن فهم في طريق تفريط وإفراط وقيل كنّى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن وقيل أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت أبدانهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح وإن أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرض ومصالح الإسلام حتّى كأنّهم في ذلك أرواح لا تعلّق لها بما تحتاج الأجسام إليه.

[**ونسّاكاً بلا صلاح**] كناية عن أنّ من زهد منهم إنّما زهد عن هل أو رياء، فزهده ظاهريّ ليس عن صلاح سريرة وقيل: أراد من تزهّد منهم عن جهل فإنّه وإن عمل إلاّ أنّ أعماله لم تكن إلاّ عن علم كانت ضائعة واقعة على غير الوجه المرضي والمأمور به كما روي عن البي صلى الله عليه وآله: «الزاهد الجاهل مسخرة الشيطان».

[**وتجّاراً بلا أرباح**] لأنّهم تاجروا اللّه بأعمال فاسدة ليست خالصة وإن

وأيقاظاً نوّماً وشهوداً غيّباً وناظرة عمياً وناطقة بكماً راية ضلالة قد قامت على قطبها وتفرّقت بشعبها

زعموا أنّها صالحة فهم ممّن ﴿زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ومن ﴿الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

[**وأيقاظاً**] بالعيون [**نوّماً**] بالعقول، راقدين في مهاد الغفلة ومراقد الطبيعة.

[**وشهوداً**] بأبدانهم [**غيّباً**] بعقولهم عن التفطّن في الآخرة.

[**وناظرة**] بحسّها [**عمياً**] عن تصفّح آثار اللّه للعبرة بها والانتفاع في أمر الآخرة، فهي تشبه العمي في عدم الفائدة بها.

[**وناطقة**] بالفضول وما لا ينفع [**بكماً**] عن النطق بما ينبغي، وهذه الألفاظ مستعارة للمشابهات المذكورة، وقد راعى في ذلك التضاد في الألفاظ وأراد ذوي عيون وآذان وألسنة بالصفات المذكورة، أي: خالية عن الفائدة، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

ثمّ لمّا نبّههم وأيقظهم بالتوبيخ والتقريع ألقى إليهم ما ينبغي أن يحترزوا منه ويأخذوا أُهبتهم له من ظهور الفتن المتوقّعة لبني أُميّة، وكنّى عن ظهورها بقوله:

[**راية**] أي: هذه راية [**ضلالة قد قامت على قطبها**] كناية عن اجتماع أهلها على قائد الفتنة ورئيسهم فيها، وكنّى بالقطب عنه كناية بالمستعار.

[**وتفرّقت بشعبها**] إشارة إلى انتشارها في الآفاق وتولّد فتن أُخرى

تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج عن الملّةِ قائم على المضلّة فلا يبقى منكم يومئذ إلاّ ثفالة كثفالة القدر أو نفاضة كنفاضة العِكم تعرككم عرك الأديم وتدوسكم دوس الحصيد

عنها.

[تكيلكم بصاعها] استعار الكيل لأخذهم وإهلاكهم زمرة زمرة كالكيّال في أخذه لما يكيله جملة جملة، ورشح بلفظ الصاع.

[وتخبطكم بباعها] استعار الخبط الذي هو للناقة النفور التي تخبط ما تلقاه بيدها لإيقاع السيف والأحكام الجائرة فيهم على غير قانون شرعي ولا ميزان عقلي ورشح الاستعارة بذكر الباع ولم يقل بيدها لأنّ ذكر الباع أبلغ في البصر عن قوّة الخبط.

وقوله: **[قائدها] خارج عن الملّة]** أي: عن الدين والشريعة **[قائم على المضلّة]** أي: مقيم الضلالة.

[فلا يبقى منكم يومئذ إلاّ ثفالة كثفالة القدر] الثفالة ما سفل في القدر من الطبيخ، واستعاره مكنّياً به عمل لا خير فيه من الأرذال ولا ذكر له ولا اعتبار **[أو نفاضة كنفاضة العِكم]** النفاضة ما سقط من الشيء المنفوض، والعِكم العِدل، والعكم أيضاً نمط تجعل فيه المرأة ذخيرتها وهو استعارة كما سبق.

[تعرككم عرك الأديم] العرك الدلك بقوّة، استعارة لتقليب الفتن لهم و—— وتذليلهم بها كما يذلّل الأديم وكذا استعار الدوس في قوله:

[وتدوسكم دوس الحصيد] لإهانتهم لهم وشدّة امتهانهم إيّاه بالبلاء، وشبّه ذلك بالدوس الحصيد ونحوها والحصيد الزرع المحصود.

وتستخلص المؤمن منكم استخلاص الطير الحبّة البطينة من بين هزيل الحب أين تذهب بكم المذاهب وتتيه بكم الغياهب وتخدعكم الكواذب ومن أين تؤتون ولكلّ أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب

ثمّ أشار إلى استيلاء أهل الضلال على المؤمنين بقوله :

[**وتستخلص المؤمن منكم استخلاص الطير الحبّة البطينة**] أي : السمينة [**من بين هزيل الحب**] أي : ضعيفه ، ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنّها تحفّه بنكايتها وأذاها كما يلتقط الطائر سمين الحبّ ويخلي عن الهزيل .

ثمّ أخذ عليه السلام يسالكهم عن سبيل التهكّم والتقريع لهم ببقائهم على غوايتهم فقال :

[**أين تذهب بكم المذاهب**] سؤال على سبيل التوبيخ عن غاية أخذ مذاهب الضلال لهم وعمّا ينتهي بهم ظلم الجهالات إليه بقوله :

[**وتتيه بكم الغياهب**] أي : الظلمات ، جمع غيهب .

[**وتخدعكم الكواذب**] أي : أوهامكم الكاذبة .

[**ومن أين تؤتون**] أي : من أين أتتكم هذه الأمراض النفسانية المفوّتة لحياة الأبدان كما أنّ الأمراض الجسمانيّة مفوتة لحياة الجسد وهو عليه السلام وإن كان يعلم أنّ الداخل إنّما دخل عليهم من جهلهم ولكن ذلك من باب تجاهل العارف ، وهو كقوله تعالى : ﴿فأين تذهبون﴾ وكذا قوله : ﴿وأنّى تؤفكون﴾ أي : متى يكون انصرافكم عمّا أنتم عليه من الغفلة .

[**ولكلّ أجل كتاب ولكلّ غيبة إياب**] منفصل عمّا قبله يشتمل على التهديد بالإشارة إلى قرب الموت وأنّهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم ، ثمّ أمرهم باستماع الموعظة منه بقوله :

فاستمعوا من ربانيّكم وأحضروه قلوبكم واستيقظوا إن هتف ونادى بكم وليصدق الرائد أهله وليجمع شمله وليحضر ذهنه فلقد فلق لكم الأمر

[**فاستمعوا من ربانيّكم**] يعني نفسه ﷺ، والربّاني المتألّه العارف بالربّ.

[**وأحضروه قلوبكم**] أي: التفتوا بأذهانكم إلى قولي.

[**واستيقظوا**] من نوم الغفلة [**إن هتف**] أي: صاح [**ونادى بكم وليصدق الرائد أهله**] إشارة إلى المثل المشهور: ولا يكذب الرائد أهله، والرائد هو الذي يبعثه القوم لطلب الكلأ والماء.

أراد ﷺ أن يبلغ كلّ أحد من الحاضرين عنده المستمعين لكلامه فزنّهم بمنزلة الرائد أهله وقبيلته ما سمع منه من الحكمة والموعظة ليرجعوا إلى طاعته وينتفعوا بعلمه كما يرجع طالب الكلأ من الماء الواجد له إلى قومه فيبشّرهم ويصدقهم، ويحتمل أن يريد بالرائد الفكر، وبأهله النفس الإنسانية، فكأنّه قال فلتصدِّق افكاركم نفوسكم إذ كان الفكر مبعوثاً من قبل النفس في طلب مرعاها وما حياتها من العلوم والكمالات كالرائد لأهله وصدقه لها تصرفه على قدر العقل فيما يشير به دون مشاركة الهوى فإنّه إذا أرسلته النفس عن مشاركة هوى كذبها ودلاّها بغرور.

وقوله: [**وليجمع شمله**] أي: ما تفرّق وتشعّب من خاطره في أمور الدنيا ومهماتها.

[**وليحضر ذهنه**] أي: يوجّهه إلى ما اقول [**فلقد فلق لكم الأمر**] أي: أوضح لكم أمر ما جهلتموه من الدّين وأحكام الشريعة أو أمر ما سيكون من

الخرزة وقرفه قرف الصمغة فعند ذلك أخذ الباطل مأخذه وركب الجهل مراكبه وعظمت الطاغية وقلّت الراعية وصال الدهر صيال السبع العقور

الفتن وشقّ لكم ظلمة الجهل منه فلق [الخرزة] أي: كما يتّضح باطن الخرزة بشقّها وخصّ فلق الخرزة لأنّ فلقها لا يكاد يلتحم ويخفى.

[**وقرفه قرف الصمغة**] أي: قشره كما تقشر الصمغة من عود الشجرة فتقطع، قيل أي إنّه أُلقي إليكم علمه بكلّيته والنصيحة فيه حتّى لم يدّخر عنكم شيئاً من ذلك كما يقرف الصمغة قارفها يقال: تركته على مثل مقرف الصمغة إذا لم يترك له شيئاً لأنّ الصمغة تقتلع من شجرتها حتّى لا يبقى عليها علقة.

[**فعند ذلك**] أي: فعندما تفعل بكم تلك الفتن وراية الضلال ما تفعل [**أخذ الباطل مأخذه**] كما يقال عمل عمله، أي: قوى سلطانه وثبت واستحكم وأخذ مقارّه، وكذا قوله:

[**وركب الجهل مراكبه**] أي: كان ذلك وقت جملته ملاحظاً لتشبيهه بالمستعد للمغارة قد ركب خيله وكنّى بمراكبه عن الجهّال.

[**وعظمت الطاغية**] أي: الفتنة الطاغية التي تجاوزت في عظمتها الحدّ والمقدار.

[**وقلّت الراعية**] أي: رعاة الدِّين وأهله الذين يحمون حوزته، أي: الفرقة الراعية، وفي رواية: الداعية، أي: الفرقة الداعية إلى اللّه.

[**وصال الدهر صيال السبع العقور**] استعار الصولة للدهر ملاحظة لشبهه بالسبع، ووجه الاستعارة كون الدهر مبدءاً قوياً لتلك الشرور الواقعة

وهدر فتيق الباطل بعد كظوم وتواخى الناس على الفجور وتهاجروا على الدِّين وتحابّوا على الكذب وتباغضوا على الصدق فإذا كان كذلك كان الولد غيظاً

ناشبة السبع الضاري العقور في شدّة صولته.

[**وهدر فتيق الباطل بعد كظوم**] الفتيق: فحل الإبل وهدر ردّد صوته في حنجرته، يقال: إبل هوادر وكذا هدّر بالتشديد تهدراً استعار الفتيق للباطل ورشح الاستعارة بذكر الهدير والكظوم، ووجه الشبه ظهور الباطل وإكرام أهله وتمكّنهم من الأمر والنهي كالفحل المكرم ذي الشقشقة، وعنى بالهدير ظهورهم وتمكّنهم وبالكظوم خفاء الباطل وخمول أهله في زمان ظهور الحق وقوّته.

[**وتواخى الناس على الفجور**] أي: كان اتصالهم ومحبّة بعضهم لبعض على الفجور.

[**وتهاجروا على الدِّين**] أي: أحسّوا منه قوّة في دينه هجروه ورفضوه فهجرهم.

[**وتحابّوا على الكذب**] أي أحبّ بعضهم بعضاً على الفجور واتّباع الأهواء وهو داخل تحت التواخي على الفجور.

[**وتباغضوا على الصدق**] هو داخل أيضاً تحت التهاجر على الدِّين والغرض بتعداد ذلك تنفير السامعين عن تلك الرذائل وتخويفهم بوقوعها [**فإذا كان**] ذلك [**كذلك كان الولد غيظاً**] أي: اشتغل كلّ امرء بنفسه لينجوا بها، فيكون الولد الذي هو أعزّ محبوب غيظاً لوالده، أي: من أسباب محنته وغيظه، وأطلق لفظ الغيظ عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

وكان المطر قيظاً وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً وسلاطينه سباعاً وأوساطه أكالاً وفقرائه أمواتاً وغاض الصدق وفاض الكذب واستعملت المودّة باللّسان وتشاجر النّاس بالقلوب

[**وكان المطر قيظاً**] فإنّ ذلك ممّا يعدّ شرّاً لأنّه لا يثير نباتاً ولا يقوم عليه زرع ويفسد الثمار القائمة وكأنّه كنّى به عن انقلاب أحوال الخير شروراً.

[**وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً**] أي: أكابره ضارية على أوساط الناس.

[**وسلاطينه سباعاً**] ضارية تفترس كلّ ذي سمن.

[**وأوساطه أكالاً**] من دون مدّ للهزة ولا تشديد أي: طعاماً، يقال: ما ذقت أكالاً، أي: طعاماً، وفي نسخة بمدّ الهمزة على أفعال جمع أُكل وهو ما أُكِل، كقفل وأقفال وروي أُكالاً بضمّ الهمزة على فُعال جمع أكل للمأكول كعرق وعراق وإن كان خلاف القياس أي: صار أوساط الناس طعمة للولاة وأصحاب السلاطين وكالفريسة للأسد.

[**وفقرائه أمواتاً**] لانقطاع مادّة حياتهم ممّن هو أعلا منهم رتبة، أو كنّى بموتهم عن غاية شدّتهم وبلائهم، لكون الموت غاية ذلك إطلاق السبب على المسبب.

[**وغاض الصدق وفاض الكذب**] استعار الغيض لقلّة الصدق والفيض لظهور الكذب وكثرته ملاحظة لشبههما بالماء.

[**واستعملت المودّة باللّسان وتشاجر**] أي: تنازع [**النّاس بالقلوب**] إشارة إلى النفاق وهو التودّد بالأقوال مع التباعد بالقلوب وعقدها على البغض والحسد، واستعار لفظ التشاجر للقلوب ملاحظة لشبهها بالرماح كما انّ الرمح يشجر به فكذا قلوب بعضهم تعقد على هلاك بعض والطعن

وصار الفسوق نسباً العفاف عجباً ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً
كلّ شيء خاضع له

فيهوبأنوا المهلكات والفقرة إشارة إلى الآية وهي قوله: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**وصار الفسوق نسباً**] استعار لفظ النسب للفسوق ووجه الشبه كون الفسق بينهم يومئذ هو سبب التواصل والتزاور والتحابّ كما أنّ النسب كذلك وصار [**العفاف عجباً**] لقلّة وجوده وندرته بينهم.

[**ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً**] بأن يجعل الخمل والصوف والشعر إلى الجسد ويظهر الجلد إشارة إلى انعكاس الأحكام الإسلامية إذ لمّا كان الفرض الأصلي من الإسلام أن يكون باطناً ينتفع فيه القلب ويظهر فيه منفعته فقلب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنتهم دون قلوبهم فأشبه لبس الفرو إذ كان أصله أن يكون خمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذي هو لباسه فاستعمل مقلوباً.

ومن خطبة له عليه السلام
في توحيد اللّه وتعظيمه قال:

[**كلّ شيء خاضع له**] أي: خاشع والخشوع من الناس يعود إلى خضوعهم للّه ومن الملائكة دؤبهم في عبارته ملاحظة لعظمته ومن سائر الممكنات انفعالها عن قدرته وخضوعها في رقّ الإمكان والحاجة إليه فإنّ جوّز استعمال المشترك في أكثر من معنى حقيقة أو مجازاً فالأمر واضح وإلاّ

وكلّ شيء قائم به وغنى كلّ فقير وعزّ كلّ ذليل وقوّة كلّ ضعيف

فهو في قوّة المتعدّد كما في قوله: ﴿إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبي﴾ فكأنّه قال البشر خاضع له والملك خاضع له.

[وكلّ شيء قائم به] في الوجود قيام المعلول بعلّته لأنّ الممكنات أمّا جواهر أو أعراض ولا يقوم شيء منها بذاته في الوجود، أمّا الأعراض فظاهر احتياجها إلى المحلّ الجوهري، وأمّا الجواهر فلأنّ قوامها ي الوجود إنّما يكون بقيام عللها حتّى ينتهي إلى علّة العلل الذي به قوام كلّ موجود في الوجود فهو الغني عن كلّ شيء في كلّ شيء وهو القيّوم المطلق القائم بذاته المقيم لغيره.

[وغنى كلّ فقير] الفقر هنا مطلق الحاجة كما أنّ الغنى سلب مطلق الحاجة ليعمّ التمجيد إذ كلّ ممكن مفتقر في طرفيه مُنته في سلسلة الحاجة إليه وهو المقيم له في الوجود فهو تعالى رافع حاجة كلّ موجود بل كلّ ممكن.

[وعزّ كلّ ذليل] قيل العزيز هو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتدّ الحاجة ويصعب الوصول إليه وهذه المفهومات مقولة بالزيادة والنقصان ولم تكمل إلّا في الواجب تعالى ويقابله الذليل وهو تعالى عزّ كلّ موجود لأنّ كلّ موجود سواه إنّما تتحقّق فيه هذه المفهومات منه فمنه عزّ كلّ موجود وكلّ موجود ذليل في رقّ الإمكان والحاجة إليه.

[وقوّة كلّ ضعيف] القوّة تطلق على كمال القدرة على شدّة الممانعة والدفع ويقابلها الضعف وهما مقولان بالزيادة والنقصان على من يطلقان عليه وهو تعالى المفيض على كلّ قابل ما يستحقّه والمعطي كلّ ضيف عادم القوّة من نفسه كماله وقوّته فمنه قوّة كلّ ضعيف بالمعنين المذكورين.

ومفزع كلّ ملهوف ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها بل كنت قبل الواصفين من خلقك

[**ومفزع كلّ ملهوف**] أي: إليه ملجأ كلّ مضطرّ في ضرورته حال حزن أو خوف أو ظلم كما قال تعالى: ﴿وإذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ آيّاه﴾ وكلّ ملجأ ومفزع غيره إضافي لا حقيقي وهو مضطرّ إليه تعالى ﴿من تكلّم سمع نطقه ومن سكت علم سرّه﴾ إشارة إلى وصفي السميع العليم ومرجع الأوّل إلى الثاني، إذ معناه العلم بالمسموعات يستلزم الوصفان إحاطته بما أظهر العبد وأبداه وأسرّه وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته.

[**ومن عاش فعليه رزقه**] لأنّه الرزّاق لعباده.

[**ومن مات فإليه منقلبه**] والفقرتان إشارة إلى كونه تعالى مبدء المعاد في وجودهم وما يقوم بهم عاجلاً ومنتهىً وغايةً لهم أجلاً فإليه رجوع الأحياء منهم والأموات وبه قيام وجودهم حالتي الحياة والممات.

ثمّ التفت ﷺ من ــــــ إلى الخطاب على طريق إيّاك نعبد، لشدّة عناية المتكلّم بالمعنى وأنّه تعيّن بصفاته حتّى صار كالمشاهد المخاطب فقال:

[**لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها**] أو لم ترك أرباب العيون فتحيّر عنك والكلام في تقدير شرطيّة متّصلة أي لو صحّ إخبار العيون عنك لكانت قدراتك لكنّها لم ترك فلم تصح أن تخبر عنك.

[**بل كنت قبل الواصفين من خلقك**] تعليل لسلب الرؤية المستلزم لسلب الأخبار عنها أي كلّ من كان قبل واصفه لم يروه فلم يخبروا عنه ويحتمل أن يكون المراد بقبليته تعالى للواصفين قبليّة وجوده بالعلّية الذاتيّة

لم تخلق الخلق لوحشة ولا استعملتهم للمنفعة ولا يسبقك من طلبت ولا يفلتك من أخذت ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك ولا يرد أمرك من سخط قضائك

وهي بهذا الاعتبار مستلزمة لتنزيهه تعالى عن الجسمية ولواحقها المستلزم لامتناع الرؤية المستلزم لكذب الأخبار عنه من وجه المشابهة الحسّية.

[**لم تخلق الخلق لوحشة**] دخلت عليك من الإنفراد فخلقتهم للأُنس.

[**ولا استعملتهم للمنفعة**] تعود إليك فإنّ جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق المزاج المنزّه عنه تعالى.

[**ولا يسبقك من طلبت**] أي: لا يفوتك هرباً.

[**ولا يفلتك من أخذت**] أي: لا يفلت منك بعد أخذه.

[**ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك**] تنزيه له تعالى عن أحوال ملك الدنيا إذ كان كمال سلطان أحدهم بزيادة جنوده وكثرة مطيعيه وقلّة المخالف والعاصي له ونقصان ملكه بعسك ذلك وهو سبب لتسلّط أعدائه عليه وطمعهم فيه وسلطانه تعالى لذاته وكمال قدرته فهو ﴿مالك الملك يؤت الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير﴾ فلا يتصوّر خروج العاصي بعصيانه عن كمال سلطانه حتّى يؤثّر في نقصانه ولم يكن لطاعة الطائع تأثير في زيادة ملكه.

[**ولا يرد أمرك**] أي: قدرك النازل على وفق القضاء [**من سخط قضائك**] وهذا أيضاً يستلزم كمال القدرة وتمام السلطان إذ كان ما علموجوده لابدّ من وجوده سواء كان مكروهاً للعبد أو محبوباً له كما قال تعالى:

ولا يستغني عنك من تولّى عن أمرك كلّ سرّ عندك علانية وكلّ غيب عندك شهادة أنت الأبد فلا أمد لك وأنت المنتهى فلا محيص عنك وأنت الموعد فلا منجا منك إلاّ إليك

﴿ويأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ وقال: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع ماله من دافع﴾ وقال: إن يمسسك اللّه بضرّ فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كلّ شيء قدير وإنّما خصّص المسخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر إذ كان من شأنه أن لو قدر لردّ القدر.

[**ولا يستغني عنك من تولّى عن أمرك**] أي: من تولّى عن أمرك بالطاعة والعبادة فهو إليك أشدّ فقراً وأنقص ذاتاً ممن تولّى أمرك وهذا أيضاً يستلزم كمال السلطان والغنى المطلق.

[**كلّ سرّ عندك علانية وكلّ غيب عندك شهادة**] لكمال العلم والإحاطة بجميع المعلومات ونسبتها إليه على حدّ سواء لأنّ السر والغيب إنّما يطلقان بالنسبة إلى مخفي عنه وغائب عنه وهي القلوب المحجوبة بحجب الطبيعة وأستار الهيئات البدنية وذلك منزّه عنه تعالى.

[**أنت الأبد**] أي: الدائم [**فلا أمد**] أي: لا غاية [**لك**] يقف عندها وجودك، والمراد ذو الأبد.

[**وأنت المنتهى**] كما قال: ﴿وإنّ إلى ربّك المنتهى﴾ [**فلا محيص عنك**] ولا مفرّ منك إلاّ إليك.

[**وأنت الموعد**] ومرجع الكلّ إليك [**فلا منجا منك إلاّ إليك**] كما قال تعالى: ﴿إلى اللّه مرجعكم جميعاً﴾ وقال: ﴿وظنّوا أن لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه﴾.

بيدك ناصية كلّ دابّة وإليك مصير كلّ نسمة سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر عظمه في جنب قدرتك وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك وما أسبغ نعمك في الدنيا وما أصغرها نِعَم الآخرة

[**بيدك**] أي: في ملكك وتصرّفك [**ناصية كلّ دابّة**] كما قال تعالى: ﴿وما من دابّة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾ وإنّما خصّت الناصية لأنّها أشرف ما في الحيوان والسلطان على الأشرف يستلزم القهر والقدرة على غيره بالأولى ولأنّ الناصية إذا أُخذت تبعها سائر الأعضاء والجوارح.

[**وإليك مصير كلّ نسمة**] لما مرّ أنّ منتهى الكلّ إليه ومصيره إليه [**سبحانك**] تنزيه وتقديس للّه تعالى.

[**ما أعظم ما نرى من خلقك**] كأطباق الأفلاك والعناصر وما يتركّب منها ورفع السماوات بغير عمد وبسط الأرض على غير سند.

[**وما أصغر عظمه في جنب قدرتك**] إذ العظيم عندك حقير والعزيز لديك ذليل.

[**وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك**] الذي يهولنا [**فيما غاب عنا من سلطانك**] من القدرة وحجب العزّة من الملأ الأعلى وسكّان حضائر القدس.

[**وما أسبغ نعمك في الدنيا**] التي أنعمت بها على عبادك ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[**وما أصغرها**] في جنب [**نِعَم الآخرة**] الجسيمة التي لا يمكن وصفها بتقرير ولا رقمها بتحرير.

من ملائكة أسكنتم سمواتك ورفعتهم عن أرضك

ومنها

في وصف الملائكة، إذ لمّا شرع في بيان عظمة اللّه وجلاله وجعل مادّة ذلك التعظيم تعديد مخلوقاته ذكر الأشرف فالأشرف، فبدء بالملائكة السماوية، ثمّ بغيرهم.

قال ابن أبي الحديد: من اراد أن يتعلّم الفصاحة ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمّل هذه الخطبة فإنّ نسبتها إلى كلّ فصيح من الكلام عدا كلام اللّه ورسوله نسبة الكواكب النيّرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضيّة، ثمّ لينظر الناظر ما عليها من البهاء والجلالة والرداء والديباجة وما تحدثه من الروعة والرهبة والمخافة والخشية حتّى لو تُليت على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنشور لهدّت قواه ورعبت قلبه وأضعفت نفسه وزلزلت اعتقاده فجزى اللّه قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليّاً من أوليائه وما أبلغ نصرته له تارة بيده وتارة بلسانه ونطقه وتارة بقلبه وفكره، إن قيل جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل وعظ وتذكير فهو أبلغ الواعظين والمذكّرين، وإن قيل فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسّرين، وإن قيل عدل وتوحيد فهو إمام أهل العدل والموحّدين، ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد، إنتهى.

فقال عليه السلام:

[من ملائكة أسكنتم سمواتك ورفعتهم عن أرضك] وليس فيه دلالة أنّ جميع الملائكة في السماء، فلا ينافي كون الكرام الكاتبين في الأرض، وقد قيل أيضاً إنّ ملائكة الأرض تعرج إلى السماء ومسكنها بها ويتناوبون على

هم أعلم خلقك بك وأخوفهم لك وأقربهم منك لم يسكنوا الأصلاب ولم يُضمَّنوا الأرحام ولم يخلقوا من ماء مهين ولم تتشعّبهم ريب المنون

أهل الأرض، وخصّ ملائكة السماء لعلوّهم وشرفهم، وقد قيل إنّهم وسائط لغيرهم في وصول العلوم والكمالات إلى سائر الخلق، فكانوا كالاستاذ لمن عداهم.

[**هم أعلم خلقك بك**] أمّا على تقدير تجرّدهم فظاهر إذ المجرّد علمه غير مشوب بغفلة النفس الأمّارة والسهو والنسيان، فهو أكمل في معارفه وعلومه، ولأنّهم يشاهدون الجنّة والنار والألواح السماوية وليس الخبر كالعيان.

[**وأخوفهم لك**] لكونهم أعلم بعظمته وجلاله وكلّ من كان أعلم باللّه كان أخوف له وأشدّ خشية، قال تعالى: ﴿إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾ وروي إنّ أعلمكم باللّه أخوفكم منه، فحصر الخشية في الآية بالعلماء بحسب تفاوت العلم بالشدّة والضعف يكون تفاوت الخشية بهما.

[**وأقربهم منك**] المراد قرب المنزلة والرتبة لتنزّهه تعالى عن المكان، قال تعالى: ﴿إنّ اكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ [**لم يسكنوا الأصلاب**] ولم تخالطهم الصورة اللّحميّة والدمويّة.

[**ولم يُضمَّنوا الأرحام**] ولم يخرجوا من ذلك الموضع المستقذر.

[**ولم يخلقوا من ماء مهين**] وكفى بنصّ القرآن على كونه مهيناً في تحقيره.

[**ولم تتشعّبهم ريب المنون**] أي: لم تختلف عليهم حوادث الدهر،

وإنّهم على مكانتهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم لك وقلّة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم ولأزروا على أنفسهم ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ولم يطيعوك حقّ طاعتك

وظاهر كون هذه الأُمور الأربعة نقصانات تلزم الحيوان العنصري لاستلزامها التغيير ومخالطة المحال المستقذرة ومعافاة الأسقام والأمراض فسلبها عنهم فضيلة لهم.

ثمّ لمّا بيّن عظمة الملائكة بالنسبة إلى من عداهم شرع في بيان عظمة اللّه وحقارة عظمتهم بالنسبة إلى عظمته فقال:

[وإنّهم على مكانتهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك] أي: دواعيهم إلى طاعتك وخدمتك لا تنازعها الصوارف فكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد.

[وكثرة طاعتهم لك وقلّة غفلتهم عن أمرك] أي: مع كونهم في هذه الأحوال التي توجب لهم العظمة **[لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك]** وعرفوا كنه معرفتك.

[لحقّروا أعمالهم ولأزروا على أنفسهم] أي: عابوها ولاموها ووبّخوها، حيث لم تقم بما يجب من عبادتك، ولذا قال عليه السلام: «وما قدر لساني في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك».

[ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ولم يطيعوك حقّ طاعتك] كما قال سيّد المرسلين وخاتم النبيين: «سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك سبحانك

سبحانك خالقاً ومعبوداً بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً وجعلت فيها مأدبة مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصور وأنهاراً وزروعاً وثماراً، ثمّ أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا

ما عبدناك حقّ عبادتك».

ولمّا كان كمال العبادة ومطابقتها للأمر المطاع بحسب العلم بعظمته وكانت ذات الحقّ سبحانه أعظم من أن يطّلع على كنهها أو يحيط بحقيقتها ملك مقرّب أو نبيّ مرسل كانت عبادة الملائكة بحسب معارفهم القاصرة عن كنه الحقيقة، وكلّما ازدادت المعرفة زادت العبادة واستحقر ما دونها.

[**سبحانك خالقاً ومعبوداً**] إشارة إلى وجوب تنزيهه بهذين الاعتبارين عن الشركاء والأنداد إذ لما تفرّد بالإبداع والخلق استحقّ التفرّد بالعبادة وقوله:

[**بحسن بلائك عند خلقك**] والباء للتعليل بمعنى اللاّم متعلّقة بسبحانك لما فيه من معنى الفعل أي: أُسبّحك لحسن بلائك وبمعبود أي يعبد لذلك.

[**خلقت داراً**] يعني الجنّة [**وجعلت فيها مأدبة**] بفتح الدال وضمّها هو الطعام الذي يُدعى الإنسان إليه، يقال: أدب زيد القوم يأدبهم بالكسر أي: دعاهم إلى طعامه والآدب الداعي إلى طعامه.

[**مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصور وأنهاراً وزروعاً وثماراً، ثمّ أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبت رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا**] استعار الدار للإسلام والمأدبة للجنّة والداعي للرسول صلى الله عليه وآله، وقد جمعها الخبر النبوي: «إنّ اللّه جعل الإسلام داراً والجنّة

وأقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكْلِها واصطلحوا على حبّها ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمرض قلبه

مأدبة والداعي إليها محمّد ﷺ» لأنّ الإسلام يجمع أهله ويحميهم كالدار والجنّة مجمع الشهوات كالمأدبة، ويجوز أن يراد بالدار الآخرة باعتبار كونها مجمعاً ومستقراً والمأدبة فيها الجنّة والمنصوبات الثمانية مميّزة لتلك المأدبة وهذا هو البلاء الحسن المشار إليه، إذ وجود الإسلام والجنّة والداعي إليهما بلاء حسن من اللّه لخلقه.

ثمّ إنّهم لاستغراقهم في الشهوات وانهماكهم في اللّذات ورقودهم في مهاد الغفلات لم يلتفتوا إلى الداعي.

[**وأقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكْلِها**] استعار الجيفة للدنيا كما في النبوي: «الدنيا جيفة وطالبها كلاب» لأنّ لذّاتها وشهواتها في نظر أولياء اللّه مستقذرة منفور منها كالجيفة، واستعار الافتضاح للاشتهار بجمعها واقتنائها والخروج به عن شعار الصالحين إذ الإقبال على الدنيا والاشتغال بها عن اللّه من أعظم الكبائر، ولذا ورد أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطية، ولمّا كان الافتضاح عبارة عن انكشاف شبّه به الحرص عليها وجمعها، وقوله:

[**واصطلحوا على حبّها**] إشارة إلى أنّ الاصطلاح على محبّة الشيء يستلزم شدّة محبّته وعشقه، ولذا رتّب عليه قوله:

[**ومن عشق شيئاً أغشى بصره وأمرض قلبه**] كما قيل: حبّك للشيء يعمي ويصمّ، واستعار البصر لنور البصيرة تشبيهاً للمعقول بالمحسوس والغشاء لظلمة الجهل ملاحظة للشبه بظلمة العين العارضة باللّيل، وإسناد الإغشاء إلى الدنيا إمّا حقيقة لما يستلزمه حبّها من الجهل والغفلة عن اللّه

فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه ولهت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها

والدار الآخرة أو مجازي لعدم استفادتهم بأبصارهم عبرة، ولذا قال:

[**فهو ينظر بعين غير صحيحة**] كناية عن عدم الانتفاع بها في تحصيل الفائدة.

[**ويسمع بأذن غير سميعة**] لما مرّ [**قد خرقت الشهوات عقله**] استعار التخريق لتفرّق عقله في مهمّات جزئيّات الدنيا ومطالبها فصار عقله كالثوب المخرّق الذي لا ينفع به صاحبه وقريب منه النبوي: «من جعل الدنيا أكبر همّه فرّق اللّه عليه همّه وجعل فقره بين عينيه» ونسب التخريق إلى الشهوات لأنّ زمام عقله بيد شهوته فهي تمزّقه كلّ ممزّق وتفرّقه كلّ مفرّق، كذا استعار الأمانة لقلبه في قوله:

[**وأماتت الدنيا قلبه**] لخروجه به عن الانتفاع الحقيقي الباقي كالميت، وضمير عليها يرجع إلى الدنيا في قوله:

[**ولهت عليها نفسه**] وكنّى بالوله عن شدّة المحبّة لها.

[**فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها**] استعار لفظ العبد لكونه محبّاً لها متجرّداً لتحصيلها، كما أشار إليه بقوله:

[**حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها**] أي أنّه متصرّف بحسب تصريفها ودائر في حركاتها حيث دارت، فإن كانت في يده أقبل عليها بالعمارة والحفظ وإن زالت عنه بذل جهده في تحصيلها وخدمة من كانت في يده لغرضها فهو في ذلك كالعبد لها كما قال عليه السلام في مقام آخر:

لا ينزجر من اللّه بزاجر ولا يتّعظ منه بواعظ وهو يرى المأخوذين على الغرّة حيث لا إقالة ولا رجعة كيف نزل بهم

«عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق»، ثم انّه لانهماكه في لذّاتها وانغماره في شهواتها.

[لا ينزجر من اللّه بزاجر ولا يتّعظ منه بواعظ وهو] أي: والحال انّه **[يرى المأخوذين على الغرّة]** أي: الاغترار والعظمة، وهذا شروع منه عليه السلام في وصف نزول الموت بالغافلين عن الاستعداد له لما ورد من أحوال الآخرة.

[حيث لا إقالة] فيستقيلون من أعمالهم **[ولا رجعة]** لهم إلى الدنيا فيتداركوا ما فاتهم.

[كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون] من سكرات الموت وأهواله لا الموت فإنّه معلوم لكلّ أحد.

[وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون] من الموت وما بعده فإنّ الغافل حال انهماكه في لذات الدنيا لا يعرض له خوف الموت بل يكون آمناص منه في تلك الحالات.

[وقدموا من الآخرة على ما كوان يوعدون] من الحسنات والثواب والعقاب.

[فغير موصوف ما نزل بهم] أي: ليس ذلك مما يمكن استقصائه بوصف، بل غايته التمثيل، ففي التوراة أنّ مثل الموت كمثل شجرة شوك ادّخرت في بدن ابن آدم فتعلّقت كلّ شوكة بعرق وعصب ثمّ جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأبقى ما أبقى.

اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ زاد الموت فيهم ولوجاً فمحيل بين أحدهم وبين منطقه وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيما أفنى من عمره وفيم أذهب دهره ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها

[**اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت**] الحسرة على ما فاتهم ممّا بذلوا جهدهم الجهيد في تحصيله من علائق الدنيا.

[**ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم ثمّ زاد الموت فيهم ولوجاً**] استعار الولوج لما يتصوّر من فراق الحياة لعضو عضو فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر.

[**فمحيل بين أحدهم وبين منطقه**] فلا يقدر على الكلام.

[**وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأُذنه على صحّة من عقله وبقاء من لبّه يفكّر فيما أفنى من عمره وفيم أذهب دهره ويتذكّر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها**] أي: تساهل في دينه في اكتسابه إيّاها، أي: كان يفني نفسه بتأوّلات ضعيفة في استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض، قال تعالى: ﴿ولست بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه﴾ والمراد إنّه كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك المطالب حتّى حصّلها واكتسبها.

[**وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها**] أي: من وجوه مشتبهة وهذا يولد المعنى الأول في الإغماض [**قد لزمته تبعات جمعها**] أي: آثامها، واحدتها تبعة.

وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه ينعمون فيها ويمتعون بها فيكون المهنّى لغيره والعبؤ والوزر على ظهره والمرء قد علقت رهونه بها فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره

[وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه] من ورثته **[ينعمون فيها ويمتعون]** يتلذّذون **[بها فيكون المهنّى لغيره والعبؤ]** أي: الثقل.

[والوزر على ظهره] لهم المهنّى وعليه الوزر والمهنا المصدر من هنيء الطعام وهنؤ بالكسر والضمّ مثل فقه وفقه والمصدر هناء ومهناة أي: صار هنيئاً، واستعار العبىء للآثام التي تحملها النفس ورشح بذكر الظهر استعارة لفظ المحسوس للمعقول.

[والمرء قد علقت رهونه بها] قصد به مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت مما قد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة فأشبه ما جمع من الهيئات الرديّة في نفسه عن اكتساب الأموال فارتهنت بها.

وقال ابن أبي الحديد: لمّا كان قد شارف الرحيل وأشفى على الغراق وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقّة لغيره ولم يبق له فيها تصرّف فأشبه الوهن الذي علق على صاحبه فخرج عن كونه مستحقّاً وصار مستحقّاً لغيره وهو المرتهن.

[فهو يعضّ يده] كناية عمّا يلوم ذلك من الأسف والحزن فأسف **[ندامة على ما أصحر له]** أي: ظهر **[عند الموت من أمره]** حيث انكشف له انقطاع سببه من اللّه وفوت ما كان يتوهّم بقائه مما أشغله عن ربّه من الدنيا الفانية وما فاته من الآخرة الباقية.

ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه ويحسده عليها قد حازها دونه فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه يرد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم ثمّ زاد الموت التياطاً فقبض بصره كما قبض سمعه

[**ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره**] كما مرّت الإشارة إليه، فهو يتحسّر على ذلك التفريط كما قال تعالى: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب اللّه وإن كنت لمن الساخرين﴾ ويتمنّى هداية اللّه فيقول: ﴿لو أنّ اللّه هداني لكنت من المتّقين﴾ والرجعة إلى الدنيا لامتثال ما فرّط فيه من الأوامر الإلهيّة فتقول حين ترى العقاب: ﴿لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين﴾ وكما قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾.

[**ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه ويحسده عليها قد حازها دونه**] لما علم من كونها وزراً ووبالاً عليه.

[**فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع بسمعه يرد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم**] أي: ما يتراجعونه بينهم من الكلام.

[**ثمّ زاد الموت التياطاً**] أي: التفافاً به.

[**فقبض بصره كما قبض سمعه**] نبّه عليه السلام بهذا الكلام على أنّ آلة النطق تبطل من الإنسان حال الموت قبل آلة السمع والبصر ونبّه عليه السلام على أنّ بطلان آلة السمع بعدها قبل آلة البصر وأنّ آلة البصر تبطل مع المفارقة وهذا بحسب

وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً ولا يجيب داعياً ثمّ حملوه إلى محطٍّ في الأرض وأسلموه إلى عمله وانقطعوا عن زورته حتّى إذا بلغ الكتاب أجله

ما تقتضيه الطبيعة وإلاّ فقد تعرض الآفة لقوّة البصر وآلته قبل آلة السمع وآلة النطق.

ثمّ قال عليه السلام: [**وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله**] بعد أن كان ريحانة لهم.

[**قد أوحشوا من جانبه**] أي: جعلوا مستوحشين والمستوحش المهموم الفزع ويروى أوحشوا من جانبه أي: خلوا منه وأقفروا يقال: أوحش المنزل أي: قفر وخلا.

[**وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً**] يبكي عليه.

[**ولا يجيب داعياً**] يدعوه.

[**ثمّ حملوه إلى محطٍّ في الأرض**] بالخاء المعجمة كناية عن اللحد لأنّه يحط ثم يحفر وبالحاء المهملة ومحط القوم منزلهم.

[**وأسلموه إلى عمله**] النافع والضار له، وفيه إشارة إلى تجسّم الأعمال وأنّ الثواب والعقاب هي الأعمال التي كانت في الدنيا جعلها اللّه بهذه الصور وفي ذكر الإسلام إشارة إلى ما عليه الأغلب الأكثر من أعمال السوء إذ الناجي قليل لأنّ الإسلام إنّما يكون إلى العدوّ إشارة إلى أنّ العمل القبيح كعدوّه القويّ عليه يسلم إليه.

[**وانقطعوا عن زورته حتّى إذا بلغ الكتاب أجله**] أي: انقضاء المدّة

و الأمر مقاديره وألحق آخر الخلق بأوّله وجاء من أمر اللّه ما يريده من تجديد خلقه أماد السماء وفطرها وأرجّ الأرض وأرجفها وخلع جبالها ونسفها ودكّ بعضها بعضاً من هيبة جلاله ومخوف سطوته وأخرج من فيها فجدّدهم بعد إخلاقهم

المضروبة لبقاء الخلق في الدنيا أو في البرزخ.

[و] بلغ [**الأمر**] أي: القضاء [**مقاديره**] تفاصيله من الآثار التي توجد على وفقه.

[**وألحق آخر الخلق بأوّله**] اي: فتساوى الكلّ في شمول الموت والفناء لهم ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض﴾.

[**وجاء من أمر اللّه ما يريده من تجديد خلقه**] وبعثهم وإعادتهم [**أماد السماء**] أي: حرّكها ويروى أمار والموران الحركة.

[**وفطرها وأرجّ الأرض**] أي: زلزلها [**وأرجفها وخلع جبالها ونسفها**] أي: قلعها من أصولها.

[**ودكّ بعضها بعضاً**] أي: صدمه ودقّه حتّى يكسره ويسوّيه بالأرض [**من هيبة جلاله ومخوف سطوته**] وكلّ ذلك نطق به الكتاب المبين والأخبار المتواترة عن سيّد المرسلين، قال تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ وقال تعالى: ﴿إذا رجّت الأرض رجّاً وبسّت الجبال بسّاً﴾ وقال تعالى: ﴿وحُملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة﴾ وقال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾ وإليه أشار بقوله:

[**وأخرج من فيها**] من الأموات ونشرهم [**فجدّدهم بعد إخلاقهم**] أي: صاروا كخلق جديد بعد أن خلقوا وكانوا كالثوب الخلق الذي لا ينتفع به.

وجمعهم بعد تفريقهم ثمّ ميّزهم لما يريد من مسائلتهم عن الأعمال وخبايا الأفعال وجعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء فأمّا أهل الطاعة فأثابهم بجواره وخلّدهم في داره حيث لا يظعن النزّال ولا تشخصهم الأسفار ولا تنالهم الأسقام والأخطار ولا تتغيّر منهم الأحوال وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار

[**وجمعهم بعد تفريقهم ثمّ ميّزهم**] أي: فصل بينهم فجعلهم فريقين سُعداء وأشقياء، كما أُشير إليه بقوله: ﴿وامتازوا اليوم أيّها المجرمون﴾ أي: انفصلوا من أهل الطاعة وذلك التميز [**لما يريد من مسائلتهم عن الأعمال وخبايا الأفعال**] من التقير والتقطير والصغير والكبير والجليل والحقير.

[**وجعلهم فريقين**] كما قال: ﴿فريق في الجنّة وفريق في السعير﴾ [**أنعم على هؤلاء**] وتفضّل عليهم بالجنّة.

[**وانتقم من هؤلاء**] وفيه إشارة إلى أنّ الجنّة ونعيم تفضّل عليهم والانتقام والعقوبة عدل.

[**فأمّا أهل الطاعة فأثابهم بجواره**] والقرب المعنوي منه والكمال المطلق وهو المشار إليه بقوله: ﴿ورضوان من اللّه أكبر﴾.

[**وخلّدهم في داره**] وجنّته ومحلّ الراعية [**حيث لا يظعن النزّال**] بل هم فيها خالدون وعنها لا يظعنون ولا يرتحلون.

[**ولا تشخصهم الأسفار ولا تنالهم الأسقام والأخطار ولا تتغيّر منهم الأحوال**] ولا يتكدّر لهم بال لأنّ كلّ ذلك من لواحق الأبدان والكون في الحياة الدنيا فحيث زالت زالت عوارضها ولواحقها.

[**وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شرّ دار**] وهي جهنم فبس القرار.

وغل الأيدي إلى الأعناق وقرن النواصي والأقدام وألبسهم سرابيل القطران ومقطّعات النيران في عذاب قد اشتدّ حرّه وباب قد أطبق عليه أهله في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع وقصيف هائل لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها ولا يفصم كبولها

[**وغل الأيدي إلى الأعناق**] أي: جعلها في الأغلال جمع غلّ بالضم وهو القيد.

[**وقرن النواصي والأقدام**] إشارة إلى انعكاس رؤوسهم حتّى اتصلت بأقدامهم لما لحقهم من الخجل.

[**وألبسهم سرابيل القطران**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ ونسبتها إلى القطران إشارة إلى شدّة استعدادهم للعذاب وذلك أنّ اشتعال النار فيما يمسح بالقطران أشدّ.

[**ومقطّعات النيران**] أي: ثياب قد قطعت وفصّلت لهم من النار كما قال تعالى: ﴿قطّعت لهم ثياب من نار﴾ وقيل المقطّعات قصار الثياب [**في عذاب**] أليم جسيم.

[**قد اشتدّ حرّه وباب قد أطبق عليه أهله**] إذ هم خالدون فيها لا خروج لهم منها أبداً فأطبقت أبوابها ولا تفتح أبداً [**في نار لها كلب**] أي: شدّة [**ولجب**] الجب واللجب: الصوت [**ولهب ساطع وقصيف هائل**] القصيف الصوت الشديد.

[**لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها**] هذا وما بعده كناية عن الخلق.

[**ولا يفصم كبولها**] أي: لا تكسر قيودها، الواحد كبل وهو كالأسير والقدية استعارة لقيود الهيئات البدنية المتمكّنة من نفوسهم فكما لا ينفصم

لا مدّة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى في ذكر النبي ﷺ قد حقّر الدنيا وصغّرها وأهون بها وهوّنها وعلم أنّ اللّه زوالها عنه اختيار وبسطها لغيره احتقاراً فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً أو

القيد الوثيق من الحديد ولا ينفك المكبّل به فكذلك نفوسهم المقيّدة بالهيئات الرديّة البدنيّة فلزوم العذاب لهم للزوم هذه الملكات الرديّة لنفوسهم.

[**لا مدّة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى**] أعاذنا اللّه من النار وعذابها وسائر إخواننا المؤمنين بفضله ورحمته.

ومنها

[**في ذكر النبي ﷺ**]: [**قد حقّر الدنيا وصغّرها**] أتى بهذه الصيغة المقيّدة للتكثير إشارة إلى زيادة تحقيره للدنيا وتصغيرها والمراد صغرها عند غيره لكيون قوله:

[**وأهون بها وهوّنها**] مطابقاً له أي: أهون هو بها وهوّنها عند غيره.

[**وعلم أنّ اللّه زوالها**] أي: قبض الدنيا [**عنه اختيار**] أي: باختيار ورضى منه ﷺ لذلك لعلمه بما فيه من رفعة قدرة ومنزلته في الآخرة ليستعدّ بذلك لكمال النبوّة والقيام بأعباء الرسالة.

[**وبسطها**] أي: بسط اللّه الدنيا ووسّعها [**لغيره**] من الكفّار وأبناء الدنيا [**احتقاراً**] لها إذ لو كانت الدنيا لها قدر عند اللّه لما سقى الكافر منها شربة ماء.

[**فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً**] والرياش والريش بمعنى اللّباس [**أو**

يرجو فيها مقاماً بلّغ عن اللّه معذراً ونصح لأُمّته منذراً لهم ودعى إلى الجنّة مبشّراً نحن شجرة النبوّة ومحطّ الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحِكم

يرجو فيها مقاماً].

ثمّ أشار إلى ثمرة ذلك الزهد والإعراض عن الدنيا بقوله:

[**بلّغ عن اللّه معذراً**] أي: بلّغ رسالة ربّه إعذاراً إلى خلقه أن يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنا عن هذا غافلين﴾.

[**ونصح لأُمّته منذراً لهم**] بالعذاب الأليم والعقاب الجسيم في إعراضهم عن أوامر اللّه ومراضيه وإقبالهم إلى نواهيه ومقاصيه [**ودعى إلى الجنّة مبشّراً**] لمن سلك منهاجه القويم وصراطه المستقيم بما أعدّ له فيها من النعيم المقيم والثواب الجسيم والرضوان العظيم.

ثمّ أشار إلى فضيلة ذاته الشريفة ونسبه المنيعة محدّثاً بما أنعم اللّه عليه منبّهاً لهم عمّا غفلوا عنه من معرفة حقّه حتّى قابلوه بمعاوية وأمثاله فقال:

[**نحن شجرة النبوّة**] كأنّه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بني هاشم.

[**ومحطّ الرسالة**] أي: منزلها.

[**ومختلف الملائكة**] أي: موضع اختلافها ومحلّ صعودها وهبوطها.

[**ومعادن العلم**] الإلهي [**وينابيع الحِكم**] أي: الحكمة، ولفظ الشجرة والمعادن والينابيع مستعار.

قال ابن أبي الحديد ما حاصله أنّه: لو أراد بقوله نحن مختلف الملائكة جماعة من جملتها رسول اللّه صلى الله عليه وآله فلاريب في صحّة القضيّة وصدقها وإن

. . . .

أراد بها نفسه وابنيه فهي أيضاً صحيحة ولكنّ مدلوله ومستنبطه فقد جاء في الأخبار الصحيحة أنّه قال: «يا جبرئيل إنّه منّي وأنا منه فقال جبرئيل وأنا منكما»، وروى أبو أيوب الأنصاري مرفوعاً: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا وذلك قبل أن يظهر أمر الإسلام ويتسامع الناس.

وفي خطبة الحسن عليه السلام لما قبض أبوه: لقد فارقكم في هذه اللّيلة رجل لم يسبقه الأوّلون ولم يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول اللّه للحرب وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وجاء في الخبر أنّه سمع يوم أُحد صوت من الهواء من جهة السماء لا سيف إلاّ ذوالفقار ولا فتى إلاّ عليّ وأنّ رسول اللّه ﷺ قال هذا صوت جبرئيل، فأمّا قوله ومعادن العلم وينابيع الحكم يعني الحكمة أو الحكم الشرعي فإنّه عنى بها نفسه وذرّيته فإنّ الأمر فيها ظاهر جداً.

قال رسول اللّه ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب».

وقال ﷺ: «اقضاكم عليٌّ» والقضاء يستلزم علوماً كثيرة.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ سألتُ اللّه أن يجعلها أُذنك ففعل.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله﴾ أنّها نزلت في عليّ وما خُصَّ به من العلم.

ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللّه سبحانه الإيمان به وبرسوله

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهدٌ منه﴾ أنّ الشاهد عليٌّ عليه السلام.

وروى المحدّثون أنّه صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام: «زوّجتك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأعلمهم علماً».

وروى المحدّثون أيضاً عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه وموسى في علمه وعيسى في ورعه فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام».

وقوله: [**ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة**] ترغيب في نصرته ومحبّته وجذب إليهما بالوعد برحمة اللّه وإفاضة بركاته كما أنّ قوله: [**وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة**] تنفير عن بغضه وخذلانه والسطوة المنتظرة لعدوّهم من اللّه فهم كالمنتظرين لها وتحقّق في الرجعة وفي الدار الآخرة.

ومن خطبة له عليه السلام
في بيان أفضل الوسائل الموصلة إلى اللّه سبحانه

[**إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللّه سبحانه الإيمان به وبرسوله**] فالإيمان باللّه هو التصديق بوجوده، وهو إشارة إلى أصل الإيمان، وله لواحق وكمالات أهمّها التصديق برسوله وقدمه على سائر العبادات لأنّه أصل لها لا تصحّ بدونه.

والجهاد في سبيله فإنّه ذروة الإسلام وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة وإقامة الصلاة فإنّها الملّة وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة

[**والجهاد في سبيله**] وأشار إلى فضيلته وتقديمه على سائر العبادات بقوله:

[**فإنّه ذروة الإسلام**] وذروة الشيء: أعلاه، استعيرت له ملاحظة لشبهه في العلوّ والمرتبة بالسنام للبعير، وقدّم على الصلاة لكون سالكه على يقين من اللّه وقوّة من التصديق بما جاء به الرسول ﷺ حيث يلقي نفسه إلى التهلكة الحاضرة ولأنّه الأصل الأعظم في جميل العالم على الدين.

وأشار إلى الثالث بقوله:

[**وكلمة الإخلاص**] وهي كلمة التوحيد المستلزمة لنفي الشركاء والأنداد وهو معنى الإخلاص، ولذا أُضيفت إليه وأشار إلى وجه فضيلتها بقوله:

[**فإنّها الفطرة**] أي: فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لأنّها كلمة التوحيد وعليه فطر الخلق كما مرّ مراراً.

الرابع قوله: [**وإقامة الصلاة فإنّها الملّة**] وإنّما وصف بالملّة مع أنّها بعض أركان الدين لأنّها الركن القوي من أركانه من إطلاق الكلّ على الجزء وفي النبوي: «الصلاة عمود الدين فإن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدَّت رُدّ ما سواها» وفي آخر: «مفتاح الجنّة».

[**وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة**] قيل: أراد بالفريضة السهم المقتطع من المال للفقراء المسمّى زكاة، وهو عرف شرعي لا الفريضة بمعنى الواجب، فإنّ كلّ العبادات الواجبة كذلك، ولأنّ الفرض والواجب بمعنى.

وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العذاب وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب وصلت الرحم فإنّها مثراة في المال ومنساة في الأجل

[**وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة**] بضمّ الجيم أي: وقاية [**من العذاب**] خصّ الصوم باستعارة الجُنّة وإن كان سائر العبادات كذلك لأنّه أشدّها وقاية في كسر النفس الأمّارة وقطع وسائل الشيطان التي هي الشهوات ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الشيطان لجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» فكان الصوم على الخصوص أشدّ قمعاً للشيطان من سائر العبدات فكان أقوى جنّة في دفع ما يلزم بسببه من العقاب.

[**وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان**] أي: يغسلان [**الذنب**] أشار إلى أنّ فيه منفعة الدنيا والآخرة ونفيهما الفقر لحكمة خفيّة لا نعلمها أو بسبب التجارة الحاصلة في موسم الحج. وفي القرآن الكريم ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قيل هي منافع الدنيا من التجارة وقيل هي منافع الدنيا والآخرة.

[**وصلت الرحم فإنّها مثراة في المال**] المثراة: المكثرة، وهي محلّ كثرة المال.

[**ومنساة**] أي: محلّ النساة، وهو التأخير [**في الأجل**] قيل كونها مثراة للمال له سببان:

أحدهما: أنّ العناية الإلهيّة قسّمت لكلّ حيٍّ قسطاص من المرزق مدّة حياته فإذا أعدت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة وكفلته بإمدادهم وجب في العناية إفاضة أرزاقهم بحسب استعداده لذلك، وهو معنى كونه

وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء وصنايع المعروف فإنّها تقي مصارع الهون

مثراة في المال.

والثاني: أنّ صلة الرحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق ويستجلب عاطفتهم فيكون سبباً لإمداده ومعونته من ذوي الإمداد والمعونات كالملوك وغيرهم، فكان مثراة، وأمّا كونها منساة في الأجل؛ فلأنّها توجب تعاطف ذوي الأرحام ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الأعداء ابعد وذلك مظنّة طول العمر وتأخيره، ولأنّها توجب تعلّق هممهم ببقائه وإمداده بالدعاء الذي يكون شرطاً في بقائه فكانت صلتهم منساة، والمنساة محلّ النسيء وهو التأخير.

[**وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة**] وخُصّت بذلك مع أنّ سائر العبادات كذلك لكونها أبعد عن الرياء ومخالطة ما لا يراد به وجه اللّه فكانت أتمّ في الإخلاص وأولى بالتقرّب من اللّه ويمحو الخطيئة.

[**وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء**] لاستلزامها الشهرة بفعل الخيرات والذكر الجميل ومحبّة المتصدِّق، وذلك يمنع غالباً من ميتات السوء كالقتل والحريق، وكلّما يكون بقصد الغير وفعله لمكان محبّته واشتهاره بعفل الجميل.

[**وصنايع المعروف فإنّها تقي مصارع الهون**] كأسر الروم للمسلم أو كأخذ الظلمة لغير المستحقّ للأخذ إذ كان اصطناع المعروف مستلزماً لتأليف القلوب وجامعاً لهم على محبّة المصطنع فينجيه ذلك من مصارع الهوان، هذه أحد عشر خصلة من مكمّلات الإيمان.

أفيضوا في ذكر اللّه فإنّه أحسن الذكر وارغبوا فيما وعد المتّقين فإنّ وعده أصدق الوعد واقتدوا بهدى نبيّكم فإنّه أفضل الهدى واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السنن وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور فإنّه أنفع

ثم ذكر عليه السلام خصالاً أُخَر تؤكّده في القلوب وتثبّته فقال: [**أفيضوا**] أي: اندفعوا [**في ذكر اللّه فإنّه أحسن الذكر**] لما يستلزمه من حصول الكمالات المعدّة في الآخرة والوصول إلى اللّه [**وارغبوا فيما وعد المتّقين**] من ثواب الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [**فإنّ وعده أصدق الوعد**] فكيف لا يرغب فيما وعد به؟

[**واقتدوا بهدى نبيّكم**] أي: سيرته [**فإنّه أفضل الهدى**] يقال: هدى فلان هدي فلان، أي: سار سيرته.

[**واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السنن**] إذ لمّا كان صلى الله عليه وآله أفضل الأنبياء كانت سُنّته أشرف السنن والاقتداء به واتّباع سنّته أهدى الطريق إلى اللّه تعالى.

[**وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾.

[**وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب**] واستعار له لفظ الربيع كون القرآن جامعاً لأنواع العلوم الشريفة والأسرار العجيبة اللّطيفة التي هي متنزّه القلوب كما أنّ زمن الربيع محلّ الأزهار الرائقة التي هي مستمتع النظر ومطرح السرور.

[**واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور**] لأنّ حسن تلاوته مظنة لفهم معانيه وتدبّرها وبحسن تلاوته تظهر فائدته وتحصل منفعة قصصه [**فإنّه أنفع**

القصص وإنّ العالم العامل لغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجّة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند اللّه ألوم

القصص] إذا تُلي حقّ تلاوته.

ثمّ أكّد الأوامر المذكورة بالأعمال التي عدّدها فقال: **[وإنّ العالم العامل لغير علمه كالجاهل الجائر]** أي: العادل عن سواء السبيل **[الذي لا يستفيق من جهله]** لاشتراكهما في ثمرة الجهل وهو الجور عن قصد السبيل وفي عدم الانتفاع بفائدة العلم وثمرته وهي الأعمال الصالحة.

ثمّ ترقّى فقال: **[بل الحجّة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند اللّه ألوم]** إذ للجهّال أن يقولوا ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ وليس للعالم ذلك، وفي النبوي: «العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجّة اللّه على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع» أي: الذي يستلزم الطاعة بالعمل. وأمّا كون الحسرة له ألزم فلأنّ النفوس الجاهلة غير عالمة بمقدار ما يفوتها من الكمال بالتفصيل، فإذا فارقت أبداننا فهي وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنّة وما أعدّ اللّه فيها لأوليائه إلاّ أنّها لم تجد لذّاتها ولم تطعم حلاوة المعارف الإلهية لم تكن لها كثير حسرة عليها ولا أسف على التقصير في تحصيلها، بخلاف العارف بها العالم بنسبتها إلى اللّذات الدنيويّة فإنّه بعد المفارقة إذا علم وانكشف له أنّ الصارف له والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال اللّه هو تقصيره في العمل بما علم مع علمه بمقدار ما فاته من الكمالات والدرجات كان أسفه وحسرته على ذلك أشدّ الحسرات وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة يساوي جملة من المال ثمّ أشغل عن تحصيلها ببعض لعبه حتّى فاتته فإنّه تعظم حسرته عليها وندمه على التفريط فيها

بخلاف الجاهل بقيمتها. وأمّا كونه عند اللّه الوم واشدّية اللائمة له بعد المفارقة مجاز في انقطاع لسان حاله عن العذر في معصيته عن علم وإنّما يكون الوم لأنّ إقدام العالم على المعصية التي علم قبحها إنّما يكون عن نفس في غاية الانقياد للنفس الأمّارة بالسوء والطاعة لإبليس وجنوده طاعة تفضل على طاعة الجاهل وانقياده لقيام الصارف عنها في حقّ العالم وهو علمه بقبحها وترجّح الداعي إليها عليه وعدم الصارف في حقّ الجاهل، ولاشكّ أنّ أشدّية اللائمة تابعة لأشدّية الانقياد لإليس سيّما مع العلم بما تستلزمه متابعته من الهلاك وظاهر كونه إذاً عند اللّه ألوم.

ومن خطبة له عليه السلام في ذمّ الدنيا والتنفير عنها

[**أمّا بعد فإنّي أُحذِّركم الدنيا فإنّها حُلوة خضرة**] أي: ناضرة، وفي النبوي: «الدنيا حلوة خضرة وإنّ اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» واستعار الحلاوة والخضرة المتعلّقين بحسّي الذوق والبصر لما يروق منها ويلذّ النفس ووجه الشبه المشاركة في الالتذاذ به وخصّهما الأكثرية تأديتهما إلى النفس والالتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواس.

[**حُفَّت بالشهوات**] وفي الخبر «حفّت الكنّة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات» كأنّ الشهوات مستديرة بها وحولها كما يحفّ الهودج بالثياب وحضوا حوله يحضون حظّاً طافوا به قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾.

وتحبّبت بالعاجلة وراقت بالقليل وتحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لا تدوم حبرتها ولا يؤمن فجعتها غرّارة ضرّارة حائلة نافذة أكّالة غوّالة لا تعدوا إذا تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها أن تكون كما قال الله تعالى

وقوله: [**وتحبّبت بالعاجلة**] أي: اللّذات الحاضرة التي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها، فأشبهت المرأة المتحبّبة بمالها وجمالها إذ استعير لها وصف التحبّب.

[**وراقت بالقليل**] أي: أعجبت بزينتها القليلة الحقيرة بالنسبة إلى متاع الآخرة كمّية وكيفية.

[**وتحلّت بالآمال**] الكاذبة المنقطعة.

[**وتزيّنت**] عند الناس [**بالغرور**] الذي لا حقيقة له.

[**لا تدوم حبرتها**] اي: سرورها والحبرة السرور.

[**ولا يؤمن فجعتها غرّارة**] تغرّ أهلها [**ضرّارة**] تضرّ طالبها [**حائلة**] أي: متغيرة فانية زائلة بائدة منقضية.

[**نافذة أكّالة**] أي: قتّالة [**غوّالة**] أي: مهلكة، والغول ما غال أي: أهلك استعار لها أوصاف الخدوع وهي كونها غرّارة وغوّالة أي: كثيرة الاسغفال لأهلها والخداع لهم ووصف السبع العقور ولكونها أكّالة لهم وكنّى بالأوّلين عن كونه كالمخادع في كونها سبباً لغفلتهم عمّا خلقوا لأجله بالاشتغال بها والانهماك في لذّاتها، وبالأكّالة عن كونها كالسبع في إفنائهم بالموت وطحنهم تحت التراب [**لا تعدوا**] أي: لا تتجاوز.

[**إذا تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها أن تكون كما قال الله تعالى**

﴿وضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كلّ شيء مقتدراً﴾ لم يكن أمرؤ منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها ظهراً ولم تطله منه ديمة رخاء

﴿وضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كلّ شيء مقتدراً﴾] أي إنّ غاية صفائها للراغبين فيها والراضين بها وموافقتها لهم لا يتجاوز المثل وهو أن تزهر في عيونهم ويروقهم محاسنها ثمّ عن قليل تزول عنهم فكأنّها لم تكن والهشيم في الآية ما تهشّم وتحطّم، الواحدة هشيمة، وتذروه الرياح: تطيّره، وكان اللّه على ما يشاء من الإنشاء والإفشاء مقتدراً.

[**لم يكن أمرؤ منها في حبرة إلّا أعقبته بعدها عبرة**] كنّى بالعبرة عن الحزن المعاقب للسرور.

[**ولم يلق من سرائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها ظهراً**] قال ابن أبي الحديد: إنّما خصّ السرّاء بالبطن والضرّاء بالظهر لأنّ الملاقي لك بالبطن ملاق بالوجه فهو مقبل عليك والمعطيك ظهره مدبر عنك وقيل لأنّ الترنو بطنه إليك وظهره إلى عدوّك وقيل لأنّ المشي في بطون الأودية أسهل من السير على الظرب والآكام وقيل لأنّ العادة فيمن يلقى صاحبه بالبشرى أن يلقاه بوجهه وبطنه وفيمن يلقى بالتنكّر والإدبار أن يلقى بظهره مولّياً عنه، فاستعير ذلك للدنيا، وعبّر عن إقبالها وإدبارها.

[**ولم تطله منه ديمة رخاء**] يقال: طلّه السحاب يطله إذا امطره مطراً قليلاً أي: لم تبلّه منها ديمة رخاء.

إلّا هتنت عليه مزنة بلاء وحري إذا أصبحت منتصرة أن تمسي له منكرة وإن جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى لا ينال امرؤ من غضارتها رغبة إلّا أرهقته من نوائبها تعباً ولا يصبح منها في جناح أمن إلّا أمسى على قوادم خوف

[**إلّا هتنت**] أي: سالت [**عليه مزنة بلاء**] والهتان المطر الكثير من هتن يهتن بالكسر هتوناً وهتاناً، واستعار لفظ الديمة للرخاء ولفظ المزنة للبلاء والمراد أنّ كلّ خير ناله المرء فيها فإنّه غالباً يستعقب شرّاً أكثر منه.

[**وحري**] أي: جدير وخليق [**إذا أصبحت**] الدنيا له [**منتصرة أن تمسي له منكرة**] أي: متغيّرة.

[**وإن جانب منها اعذوذب واحلولى**] أي: صار عذباً حلواً وهما مبالغة في العذوبة والحلاوة.

[**أمرّ منها جانب**] أي: صار مرّاً[**فأوبى**] أي: أمرض.

[**لا ينال امرؤ من غضارتها**] أي: طيب عيشها [**رغبة**] مصدر رغيب في الأمر رغبة ورغباً أي: أراده [**إلّا أرهقته**] أي: حملته وكلّفته [**من نوائبها تعباً**] أي: لا ينال الإنسان منها أدواته إلّا بمقاساة التعب الشديد.

[**ولا يصبح منها في جناح أمن إلّا أمسى على قوادم خوف**] نبّه باستعارة لفظ الجناح للأمن ولفظ القوادح للخوف إرادته ما من آمن فيها إلّا ويستعقب خوفاً أقوى وللقوادم مقاديم الريش وأكبّ عليها معرض بخطر عظيم وسقوط قريب والجناح يستر وبقي البرد والأذى وهذا هو السرّ في تخصيص الأمن بالجناح والخوف بالقوادم.

وقيل: خصّ الأمن بالجناح لأنّ الجناح محلّ التنفير بسرعة، فنبّه به

غـرّارة غـرور ما فـيها، فـانية فـان من عليـها لا خـيـر في شيء من أزوادها إلّا التقـوى من أقلَّ منهـا اسـتكثـر ممّا يؤمنـه ومن اسـتكثـر منـهـا استكثـر ممّا يوبقـه وزال عـمّا قليل عنه كم من واثق بهـا قـد فـجعتـه وذي طمأنينة إليها قد صرعته وذي أُبّهة

على سرعـة تغيّراتهـا وخـصّ الخـوف بقـوادم الجناح لأنّ الـقـوادم هي رأس الجناح وهي الأصل في سرعة حـركته وتغيّره وهو في مسـاق الذمّ والمراد أنّه وإن حصل منهـا أمن فـهـو في مـحلّ الـتـغـيّر السـريع والخـوف إليـه أسـرع لتخصيصه بالقوادم ثمّ قال عليه السلام:

[**غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها**] قال تعالى: ﴿فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنّكم باللّه الغرور﴾ وقال تعالى: ﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ وقال تعالى: ﴿كلّ شيء هالك إلّا وجهه﴾.

[**لا خير في شيء من أزوادها إلّا التقوى**] كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ [**من أقلَّ منها**] أي تناول القليل منهـا واقـتصر على المقدار الضروري.

[**استكثر ممّا يؤمنه**] وهو الأعمال الصالحة.

[**ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه**] أي: يهلكه وهو ملكات السوء الحاصلة من حبّ بقائها ولذّاتها الفانية الموجبة للهلاك بعد مفارقتها وزوالها. كما أشار بقوله:

[**وزال عمّا قليل عنه كم من واثق بها قد فجعته**] بفقد أحبّائه وأصحابه وأولاده وآبائه.

[**وذي طمأنينة إليها قد صرعته وذي أُبّهة**] أي: كبر وعظمة.

قد جعلته حقيراً وذي نخوة قد ردّته ذليلاً سلطانها دول وعيشها رنق وعذبها أُجاج وحلوها صبر وغذائها سمام وأسبابها رمام حيّها بعرض موت

[قد جعلته حقيراً وذي نخوة] أي: ذي كبر.

[قد ردّته ذليلاً] إلى أصله إذ كان نطفة قذرة من ماء مهين **[سلطانها دول]** ينتقل من واحد إلى آخر.

[وعيشها رنق] بفتح النون: مصدر رنق الماء أي: تكدّر وبالكسر الكدر وقد روي هنا بالكسر والفتح فالكسر ظاهر والفتح على حذف مضاف أي ذو رنق.

[وعذبها أُجاج] أي: جمع المرورة والملوحة أجّ الماء يؤجّ أُجوجاً.

[وحلوها صبر] بكسر الباء وهو نبت مرّ معروف ثمّ سمّي كلّ مرّ صبراً.

[وغذائها سمام] جمع سم وهو القاتل المعروف.

[وأسبابها رمام] أي: بالية، استعار لفظ العذب والحلو للذّاتها والأُجاج والصبر والصبر لماى شوب لذّاتها من الكدر بالأمراض والتغيّرات ووجه الاستعارة الاشتراك في الإيذاء والإيلام، واستعار لفظ الغذاء وكنّى به عن لذّاتها أيضاً وكذا السمام ووجه الاستعارة ما يستعقب الانهماك في لذّاتها من الهلاك في الآخرة كما يستعقب شرب السمّ.

ثمّ عقب ذلك بالتحذير والتنفير عنها فقال:

[حيّها بعرض موت] أي: أحيائها معرّضون للموت لا يدرون في أيّ ساعة يطرقهم.

وصحيحها بعرض سقم ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب وجارها محروب ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً؟! وأبقى آثاراً وأبعد آمالاً وأعدّ عديداً وأكثف جنوداً تعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد وآثروها أيّ إيثار

[**وصحيحها بعرض سقم**] معرّض للأسقام والأمراض [**ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها**] أي ذو الوفرة والثروة.

[**منكوب وجارها محروب**] أي: مسلوب لا تحمي جاراً ولا تمنعه.

[**ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً؟!**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ ودلّ قوله تعالى ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً﴾ على طول أعمارهم.

[**وأبقى آثاراً**] فإنّ من جملة آثارهم الإيوان ومنارة الاسكندرية وغيرهما.

[**وأبعد آمالاً**] إذ بُعد الآمال مرتّب على طول الأعمار فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعد وإن أُريد به علوّ الهمّة فلا ريب أنّهم كانوا أعلا همماً من أهل هذا الزمان وقد كان فيه من ملك معمورة الأرض كلّها، وكذا القول في قوله:

[**وأعدّ عديداً**] أي: أكثر منهم عدداً.

[**وأكثف جنوداً تعبّدوا للدّنيا أيّ تعبّد**] أي: تعبّدوا لها تعبداً أيّ تعبّد

[**وآثروها**] إيثاراً [**أيّ إيثار**] على الدار الآخرة، ﴿أولئك الذين اشتروا الدنيا بالآخرة﴾.

ثمّ ظعنوا عنها بغير زاد مُبلغ ولا ظهر قاطع فهل بلغكم أنّ الدنيا سخت لهم نفساً بفدية وأعانتهم بمعونة وأحسنت لهم صحبة بل أرهقتهم بالفوادح وأوهنتهم بالقوارع وضعضعتهم بالنوائب وعفّرتهم للمناخر ووطئتهم بالمناسم وأعانت عليهم ريب المنون فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها وآثارها

[**ثمّ ظعنوا عنها بغير زاد مُبلغ**] يبلغهم الدار الآرة [**ولا ظهر قاطع**] لمسافة الطريق.

[**فهل بلغكم أنّ الدنيا سخت لهم نفساً بفدية وأعانتهم بمعونة وأحسنت لهم صحبة**] كما تعبّدوا لها وآثروها على غيرها.

[**بل أرهقتهم**] أي: غشيتهم ورمتهم [**بالفوادح**] أي: المثقلات من فدحه الدّين أي أثقله، ويروى بالقاف وهي آفة تظهر في الشجر وصدوع تظهر في الأسنان.

[**وأوهنتهم**] جعلتهم في الوهن بفتح الهاء وهو جبل كالطول ويجوز التسكين مثل نهر ونهر [**بالقوارع**] أي: المحن والدواعي، وسمّيت القيامة قارعة لهذا المعنى.

[**وضعضعتهم**] أذلّتهم [**بالنوائب**] جمع نائبة.

[**وعفّرتهم للمناخر**] أي: ألصقت أنوفهم بالعفر وهو التراب.

[**ووطئتهم بالمناسم**] جمع منسم بكسر السين وهو خف البعير.

[**وأعانت عليهم ريب المنون فقد رأيتم تنكّرها لمن دان**] أي: ذلّ [**لها**] وأطاعها.

[**وآثارها**] على الدار الآخرة.

وأخلد إليها حين ضعنوا عنها الفراق الأبد هل زوّدتهم إلّا السغب أو أحلّتهم إلّا الضنك أو نوّرت لهم إلّا الظلمة أو أعقبتهم إلّا الندامة أفهذه؟! تؤثرون أم إليها تطمئنون أم عليها تحرصون فبئت الدار لمن لم يتّهمها ولم يكن فيها على وجل منها

[**وأخلد إليها**] أي: مال، كما قال تعالى: ﴿ولكنّه أخلد إلى الأرض﴾ [**حين ضعنوا**] أي: ارتحلوا [**عنها الفراق الأبد هل زوّدتهم إلّا السغب**] أي: الجوع.

[**أو أحلّتهم إلّا الضنك**] أي: الضيق.

[**أو نوّرت لهم إلّا الظلمة**] أي: ما تنورت لهما ولكن أوجبت لهم الظلمة، إشارة إلى ما يكتسبه طالبوها من الجهل وملكات السوء.

[**أو أعقبتهم**] شيئاً [**إلّا الندامة**] وهذا من باب إقامة الضدّ مقام ضدّه، أي: لم تسمح لهم بمرادهم بل بضدّه والغرض من هذه المذام التنفير عنها وأسند إليها الأفعال الاختيارية على الاستعارة ملاحظةً لتشبيهها بالمرأة المتزيّنة لخداع الرجال عن أنفسهم وأحوالهم.

ثمّ عاد إلى السؤال على سبيل الإنكار بقوله: [**أفهذه؟!**] الدنيا الفانية المتّصفة بهذه الصفات الذميمة وهي في الحقيقة عدوّ لكم [**تؤثرون**] على الآخرة الباقية [**أم إليها تطمئنون**] وتركنون مع تقلّبها وغدرها وخداعها.

[**أم عليها تحرصون**] مع زوالها وفنائها وتخلّفوها لغيركم بحيث يكون لهم المهنّى وعليك الوزر [**فبئت الدار**] هي [**لمن لم يتّهمها ولم يكن فيها على وجل منها**] أي: من لم يسؤ ظنّاً بها وركن إليها إذ كانت سبب هلاكه في الآخرة بخلاف من اتّهمها بالخديعة والغرور وكان على حذر منها واغتنم

فاعملوا وأنتم تعلمون بأنّكم تاركوها وظاعنون عنها واتّعظوا فيها بالذين ﴿قالوا من أشدّ منّا قوّة﴾ حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وأُنزلوا فلا يدعون ضيفاناً وجعل الأجداث من الصفيح اجنان ومن التراب أكفان

الفرصة فيها فاتّخذ زاداً لآخرته فإنّها محمودة له ولذا قال ﷺ «نِعم العون على الآخرة الدنيا».

ثمّ شرع ﷺ في الأمر بالعمل على وفق العلم بمفارقتها فقال:

[**فاعملوا**] فيها لآخرتكم [**وأنتم**] أي: والحال انّكم [**تعلمون**] مفارقتها، فإنّ ترك العمل للآخرة إنّما يكون للاشتغال بالدنيا فالعالم بضرورة مفارقتها له وما أُعدّ لتاركي العمل من العذاب الأليم إذا نبّه أو تنبّه لتلك الحال كان ذلك صارفاً له عنها ومستلزماً للعمل لغيرها.

[**بأنّكم تاركوها وظاعنون عنها**] والعاقل لا يركن إلى ما هذه صفته.

[**واتّعظوا فيها بالذين ﴿قالوا من أشدّ منّا قوّة﴾**] واغترّوا بقوّتهم [**حُملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وأُنزلوا فلا يدعون ضيفاناً**] الغرض من ذلك تأكيد التنبيه على مفارقة الدنيا وعدم الركون إليها بالتذكير بأحوال المفارقين لها بعد مفارقتها المضادّة لأحوال المعتادة للأحياء التي ألفوها واستراحوا إليها إذ كان من عادتهم إذ حملوا أن يسمّوا ركباناً وإذا نزلوا أن يدعوا ضيفاناً.

[**وجعل الأجداث**] أي: القبور لهم [**من الصفيح**] أي الحجارة [**اجنان**] جمع جنّة وهي الستر وقيل هي القبور والواحد جنن والمجنون المقبور.

[**ومن التراب أكفان**] وروي أكنان جمع كن وهو السترة، قال تعالى:

ومن الرفاة جيران فهم حَيَرَةٌ لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً، ولا يبالون مندبة إن جيدوأ لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا جميع وهم آحاد وجيرة وهم أبعاد متدانون لا يتزاورون وقرينون لا يتقاربون حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لا يخشى فجعهم ولا يُرجى دفعهم استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنور ظلمة فجائوها كما فارقوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا

﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾.

[**ومن الرفاة**] أي: العظام البالية [**جيران فهم حَيَرَةٌ لا يجيبون داعياً ولا يمنعون**] عن أحد [**ضيماً، ولا يبالون مندبة**] أي: ندباً على الميت لا يبالون بذلك ولا يكترثون به [**إن جيدوأ**] أي: أمطروا، وجاد لهم الغيث [**لم يفرحوا وإن قحطوا**] انقطع المطر عنهم فأصابهم القحط [**لم يقنطوا جميع**] أي: تراهم مجتمعين.

[**وهم آحاد وجيرة وهم أبعاد**] إذ لا نفع في اجتماعهم وتجاورهم [**متدانون**] متقاربون بعضهم من بعض.

[**لا يتزاورون وقرينون لا يتقاربون حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لا يخشى فجعهم ولا يُرجى دفعهم**] والغرض من ذلك أنّهم سُلبت عنهم تلك الصفات وعُرفوا بأضداد تلك السمات.

[**استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة وبالنور ظلمة فجائوها كما فارقوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا**

فاعلين﴾هل تحسّ به إذا دخل منزلاً؟

فاعلين﴾] أي: أشبه مجيئهم إلى الدنيا ووجودهم فيها خروجهم منها يوم مفارقتهم لها.

ووجه الشبه كونهم حفاة عراة وهو كناية عن الفقر منها، ودلّ على ذلك استشهاده بالآية وموضع قوله (قد ضعنوا عنها) النصب على الحال كما انتصب حفاة عراة والعامل فارقوها ولا يقدّر مثله (جائوها) وإن قدّر مثل الحالين السابقين وقيل فراقهم من الدنيا إن خلقوا منها ومجيئهم إليها إن دفنوا فيها كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ إذ لو كان المراد بمجيئهم إليها دخولها فيها حين الولادة مع أنّه في ظاهر الأمر هو المشبّه ومفارقتهم هي المشبّه به لانعكس الغرض إذ المقصود تشبيه المفارقة بالمجيء وذلك يستلزم كون المشبّه هو المفارقة والمشبّه به هو المجيء وأورد عليه أنّ المشابهة إذا حصلت بين الشيئين في نفس الأمر جاز أن يحصل أصلاً والآخر فرعاً وجاز أن يقصد أصل المساواة بينهما و(من) في الآية لبيان الجنس فلا تدلّ على المفارقة والانفصال.

ومن كلام له عليه السلام

من جملة خطبة طويلة ذكر فيها ملك الموت وتوفّيه الأنفس والغرض من ذكر هذه الكلمات تنزيه اللّه تعالى عن إحاطة العقول به كما قال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ قال عليه السلام: [**هل تحسّ به إذا دخل منزلاً؟**] استفهام إنكاري عن الإحساس به إذا دخل منازل المتوفّين إشارة إلى أنّه ليس جسماً كهذه

أم هل تراه إذا توفى أحداً؟! بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أُمّه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بأمر ربّها أم هو ساكن معها في أحشائها كيف يصف إلههُ من يعجز عن صفة مخلوق مثله

الأجسام وشخصاً كهذه الأشخاص إذ لو كان كذلك لأحسّ بإحدى الحواسّ وكذا قوله:

[**أم هل تراه إذا توفى أحداً؟!**] ثمّ ذكر ما هو أعجب من ذلك فقال:

[**بل كيف يتوفّى الجنين في بطن أُمّه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بأمر ربّها أم هو ساكن معها في أحشائها**] وخير الأُمور أوسطها وهو إجابتها بإذن ربّها وذكر الأقسام الثلاثة ليبقى الجاهل في محلّ الحيرة متردّداً.

ثمّ لمّا أبان عليه السلام عجز الإنسان عن إدراك ملك الموت الذي هو خلق من خلق اللّه، أشار إلى أنّه إذا لم يعرف كنه مخلوق مثله فبطريق أولى لا يعرف كنه خالقه فقال:

[**كيف يصف إلههُ من يعجز عن صفة مخلوق مثله**] وتقدير الدليل أنّ الإنسان عاجز عن وصف مخلوق مثله كملك الموت وعن معرفة كيفية تصرّفه في قبض النفوس الإنسانية وكلّ من كان كذلك كان عاجزاً عن صفة إلهه الذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة بل أعجز.

وأُحـذِّركم الدّنيا فـإنّه منزل قلعـة وليـست بدار نجـعـة قـد تزيّنت بغـرورها وغـرّت بزينتـهـا دار هانت على ربّها فـخلط حـلالهـا بحـرامـهـا وخيرها بشرّها وحلوها بمرّها

ومن خطبة له عليه السلام

[**وأُحـذِّركم الدّنيا فـإنّه منزل قلعة**] بضم القـاف وسكون اللام أي: لا يصلح للاستيطان، يقال القـوم على قلعـة أي: رحلة، وفـلان قلعة إذا كـان ينقطع عن سرجه والقلعة أيضاً المال العارية وفي الخبر بئس المال القلعة.

[**وليست بدار نجعة**] النجعة طلب الكلأ في موضعه وفلان ينتجع الكلأ والمنتجع المنزل في طلب الكـلأ وانتجعت فلاناً إذا أتيته تطلب معروفه إشارة إلى أنّها لا تصلح للاستيطان وطلب الكلأ وكنّى به عـمّا ينبغي أن يطلب من الخيرات البـاقيـة التي هي محلّ السـرور الدائم والأمن [**قد تزيّنت بـغرورها**] لاستغفالها الخلق.

[**وغرّت بزينتها**] أي بسبب استـحسانها فاندفع الـدور المتوهم من جعل الزينة سبباً للغـرور والغرور سبباً للزينة وذلك لأنّه عليه السلام إنّما جعل الزينة سبباً للاستغرار والغرور سبباً لاستحسانها وعدم التنبّه لمعايبها.

[**دار هانت على ربّها**] إذ لو كان لـهـا قدر عند اللّه لما سقى الكافر مـنهـا شربة ماء ولما حماها أوليائه كما يحمي الطبيب المريض.

[**فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرّها وحلوها بمرّها**] فليس فيها لذّة صافية ولا خير محضور وهذا من جملة هوانها فإنّ الدار الآخرة عضو من

ولم يصفها لأوليائه ولم يضن بها على أعدائه خيرها أزهد وشرّها عتيد وجمعها ينفد وملكها يسلب وعامرها يخرب فما خير دار تنقض نقض البناء وعمر يفنى فناء الزاد ومدّة تنقطع انقطاع السير اجعلوا ما فرض اللّه عليكم طلبتكم

هذه الكدورات أو قيل من هوان الدنيا على اللّه أنّه لا يعصى إلّا فيها ولا ينال ما عنده إلّا بتركها ولذا قال عليه السلام.

[**ولم يصفها لأوليائه**] وخصّهم لأنّها وبما كانت في صورة الصافية لغير الأولياء في بعض الأوقات استدراجاً.

[**ولم يضن**] أي: لم يبخل [**بها على أعدائه**] بل بذلها لهم لأنّها سجن المؤمن وجنّة الكافر.

[**خيرها أزهد**] أي: قليل: بالنسبة إلى خير الآخرة، وكذا قوله:

[**وشرّها عتيد**] أي: مهيّئ معدّ حاضر.

[**وجمعها ينفد وملكها يسلب وعامرها يخرب فما خير دار تنقض نقض البناء**] استفهام إنكاري أي: أيُّ خير في دار تنقض كنقض البناء.

[**وعمر يفنى فناء الزاد ومدّة تنقطع انقطاع السير**] أي: سير المسافر إلى ذلك أشار من قال إلّا انّما الدنيا كنزل راكب أناخ عشيّاً وهو في الصبح راحل.

ثمّ شرع عليه السلام في تأديبهم ونصحهم وبيان ما ينتظم به معاشهم ومعادهم فقال:

[**اجعلوا ما فرض اللّه عليكم**] من بعض [**طلبتكم**] أي: من جملة ما تطلبونه منه إشارة إلى أن تصير فرائضه محبوبة عندهم كمحبّتهم لمطالبهم

واسألوه من أداء حقّه ما سألكم وأسْمِعوا دعوةَ الموت آذانكم قبل أن يُدعى بكم إنّ الزاهدين في الدّنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ويشتدّ حزنهم وإن فرحوا ويكثر مقت أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا

التي يسئلون اللّه فيها من مال وعزّ وجاه ونحوها فيواظبوا على العمل بها.

[**واسألوه من أداء حقّه ما سألكم**] أي: اسألوه الإعانة والتوفيق والإعداد لذلك كما سألهم أداء حقّه والمقصود أن يصير الأداء مهمّاً لهم محبوباً إليهم ونحوه في الدعاء: «اللّهمّ إنّك سألتني من نفسي ما لا املكه إلاّ بك فأعطيني منها ما يرضيك عنّي».

[**وأسْمِعوا دعوةَ الموت آذانكم قبل أن يُدعى بكم**] أي: أسمعوا أنفسكم دعوة الموت قبل أن يحلّ بكم وذلك بتذكّر الموت المنقض للّذات كما قال ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللّذات».

ثمّ شرع في بيان حال الزهّاد في الدنيا ليقتدى بهم فقال:

[**إنّ الزاهدين في الدّنيا تبكي قلوبهم**] لخوفهم من اللّه ومعرفتهم بقصود أعمالهم وعدم علمهم بالعاقبة.

[**وإن ضحكوا**] ظاهراً استيناساً بالخلق وجلباً لمودّتهم وملاطفة بهم ومداراة لهم.

[**ويشتدّ حزنهم**] على أمور الآخرة وسوء أعمالهم.

[**وإن فرحوا**] ظاهراً.

[**ويكثر مقت أنفسهم**] أي: بغضهم لها فلا يلتفتوا إليها بالزينة وطاعتها فيما تدعوهم إليه من متاع الحياة الظاهرة.

[**وإن اغتبطوا بما رزقوا**] وإن غبطهم غيرهم بما قسم لهم من الأرزاق.

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال وحضرتكم كواذب الآمال فصارت الدنيا بكم من الآخرة والعاجلة أذهب بكم من الآجلة وإنّما أنتم اخوان على دين اللّه ما فرق بينكم إلّا خبث السرائر وسوء الضمائر فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادّون ما بكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه

ثم أخذ عليه السلام في تعنيف السامعين على غفلتهم عمّا يراد بهم فقال:

[**قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال وحضرتكم**] عن ذكر الدار الآخرة والسعي لها.

[**كواذب الآمال**] أي: الآمال الكاذبة [**فصارت الدنيا**] أملك [**بكم من الآخرة**] وذلك بسبب الغفلة وطول الأمل وكذا قوله عليه السلام:

[**والعاجلة أذهب بكم من الآجلة**] أي: ذهبت بكم الدنيا العاجلة واستولت عليكم أكثر ممّا ذهبت الآخرة واستولت عليكم.

[**وإنّما أنتم اخوان على دين اللّه**] لأنّكم فطرتم على الفطرة التي فطر الناس عليها وهي دين اللّه وتوحيده [**ما فرق بينكم**] وأوقع فيم الاختلاف [**إلّا خبث السرائر وسوء الضمائر فلا توازرون**] بحيث صرتم على حال لا تتوازرن، كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾.

[**ولا تناصحون**] أي: لا ينصح بعضكم بعضاً.

[**ولا تباذلون**] أي: لا يجود بعضم على بعض بماله ولا يبذله له.

[**ولا توادّون**] لا يودّ بعضكم بعضاً.

[**ما بكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه**] ولا يحزنكم باليسر من الدنيا حين ينوبكم ويقلقكم.

ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم و قلّة صبركم عمّا زوي منها عنكم كأنّها دار مقامكم وكأنّ متاعها باق عليكم وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلّا مخافة أن يقابله بمثله قد تصافيتم على رفض الآجل وحبّ العاجل وصادر دين أحدكم لعقة على لسانه صنيعَ من قد فرغ من عمله وأخّر رضاء سيّده

[ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتّى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم و] في [قلّة صبركم عمّا زوي] أي: غيّب [منها عنكم كأنّها دار مقامكم وكأنّ متاعها باق عليكم] ومحل تدركونه وتحرمونه ويفوتكم النصب على الحال.

[وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلّا مخافة أن يقابله بمثله] أي: ليس المانع لكم من لقاء أخيكم لا يمين له على عيبه إلّا الخوف منه أن يلقاكم بمثل ما تلقوه به لمشاركتكم إيّاه في ذلك.

[قد تصافيتم على رفض الآجل وحبّ العاجل وصادر دين أحدكم لعقة على لسانه] وأصل اللّعقة شيء قليل يؤخذ بالملعقة من الإناء يصف دينهم بالنزارة والقلّة ولم يقنع بأن جعله لعقة حتّى جعله على ألسنتهم فقط أي: ليس في قلوبهم، واستعار اللّعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشهادتين ونحوهما دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه [صنيعَ] نصب على المصدر، أي: صنعتم مثل صنيع.

[من قد فرغ من عمله وأخّر رضاء سيّده] بفعل ما أمره به ووجه الشبه الاشتراك في الترك والإعراض عن العمل.

الحمد للّه الواصل الحمد بالنعم وواصل النعم بالشكر ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أُمرت السراع إلى ما نُهيت عنهة

ومن خطبة له

[الحمد للّه الواصل الحمد] الصادر من عباده [بالنعم] منه عليهم حيث قال: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ فإنّ العبد مستعدّ لإفاضة النعم واتّصالها وزيادته بحمده وشكره.

[وواصل النعم بالشكر] إذ لمّا وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقرّراً وبعد أن أقدرهم عليه صار كأنّه الفاعل له فإضافة إلى نفسه توسّعاً وقيل أراد بوصله النعم بالشكر إفاضة صورة الشكر على قلوب المنعم عليهم واعترافهم بالنعمة وتلك الإفاضة نعمة أُخرى من فضله بل الاعتراف بالنعمة هو حقيقة الشكر ويحتمل أن يريد أنّه تعالى يصل نعمته على حامديه بشكره لهم كما قال تعالى: ﴿واللّه شاكر عليم﴾ نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه جعل الحمد على البلاء أصلاً في التشبيه لأنّ الابتلاء نعمة عظيمة على الخلق يترتّب عليها أجر جزيل سيّما في حقّ أولياء اللّه بل هو في حقّهم أولى من النعم المشهورة تنبيهاً أو ترغيباً في استسهال كلّ صعب في سبيل اللّه وطريقه.

[ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أُمرت] لموافقة لطبيعتها [السراع إلى ما نُهيت عنهة] لموافقة هواها، وفيه إشارة إلى أنّا لو وُكِلنا إلى أنفسنا لهلكنا، فلابدّ من طلب الاستعانة من اللّه عليها. [

ونستغفره ممّا أحاط به علمه وأحصاه كتابه علم غير قاصر وكتاب غير مغادر ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب وقف على الموعود إيماناً نفى إخلاصه الشرك ويقينه والشكّ ونشهد ان لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله شهادتين يصعدان القول ويرفعان العمل

ونستغفره ممّا أحاط به علمه] من ذنوبنا وخطايانا سرّها وعلانيتها كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها بما علمنا أو جهلنا أو نسينا أو تعمّدنا أو أخطأنا.

[**وأحصاه كتابه**] المبين [**علم غير قاصر**] عن الإحاطة بشيء دون شيء بل قد ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾.

[**وكتاب غير مغادر**] ﴿لا يغادر صيغرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً﴾.

[**ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب**] أي: شاهدها لأنّ إيمان العيان أخلص وأوثق من إيمان الخبر فليس الخبر كالعيان.

[**وقف على الموعود**] أي: على ما وعد به المتّقون من الجنّة والنعيم بعين الكشف والعيان، إشارة إلى إيمان العارفين المقرّبين وهو سيّدهم القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وهذا هو المسمّى في الاصطلاح بعين اليقين [**إيماناً نفى إخلاصه الشرك ويقينه والشكّ**] هذا صفة الإيمان الخالص أو بحسب الإخلاص فيه ينفي الشك وبحسب اليقين يعني انّ الأمر كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن أن يكون إلاّ كذا ينفي الشكّ.

[**ونشهد ان لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله شهادتين يصعدان القول ويرفعان العمل**] إلى محلّ القبول

لا يخفّ ميزان يوضعان فيه ولا يثقل ميزان يرفعان منه أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه التي هي الزاد وبها المعاذ زاد مُبلغ ومعاد منجح دعى إليها أسمع داع ووعاها خير واع

ويخرقان الحجب، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفع﴾ وفي نسخة سعدان بالسين أي: هما شادتان بالقلب يعضدان ويسعدان الشهادة باللسان.

[**لا يخفّ ميزان يوضعان فيه**] إذ هاتان الشهادتان مقيّدتان بقيود تدلّ على الإيمان الكامل ولا ريب أنّ الإيمان الكامل الذي هو إقرار باللّسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ينجي صاحبه ولا يضرّ معه شيء أصلاً، وكذا قوله:

[**ولا يثقل ميزان يرفعان منه**] إذ العمل بدون الإيمان يكون هباءً منثوراً.

[**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه التي هي الزاد**] المبلغ إلى الآخرة كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**وبها المعاذ**] مصدر، عذت بكذا أي: لجأت إليه واعتصمت به.

ثمّ وصف الزاد والمعاد بقوله:

[**زاد مُبلغ**] أي: يبلغ للقصد والغاية التي يسافر إليها.

[**ومعاد منجح**] أي: يصادف عنده نجاح المطلوب ونيل المرغوب [**دعى إليها أسمع داع**] أي: أشدّ الداعين إسماعاً وتبليغاً وهو النبي صلى الله عليه وآله.

[**ووعاها**] عقل تلك الدعوة وفهمها [**خير واع**] وعنى نفسه عليه السلام لما روي أنّ قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وآله قال:

فاسمع داعيها وفاز واعيها عباد اللّه إنّ تقوى اللّه حمت أولياء اللّه محارمه وألزمت قلوبهم مخافته حتّى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم

سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا علي فأجابني وقيل خير داع هو اللّه وخير واع من وعاها عنه تعالى.

[**فاسمع داعيها**] جميع المكلّفين ولم يبق أحد إلاّ شملته تلك الدعوة ولو بواسطة.

[**وفاز واعيها**] أفلح من فهمها وأجاب إليها وتقوى اللّه وخشيته في السرّ والعلانية وهي أصل الطاعات وعليها يتوقّف القبول وكفى بها قوله تعالى: ﴿إنّما يتقبّل اللّه من المتّقين﴾ وقوله: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقوله: ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾.

[**عباد اللّه إنّ تقوى اللّه حمت أولياء اللّه محارمه**] فاحتموا من المحرّمات المفوّتة لحياة الأبد كما يحتمي المريض من المضرّات المفوّتة لصحّة الجسد.

[**وألزمت قلوبهم مخافته**] فإذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم [**حتّى أسهرت لياليهم**] بالتهجّد والقيام بين يدي اللّه قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً.

[**وأظمأت هواجرهم**] فهم في الهواجر صيام تاركون للشراب والطعام يتهجدون والناس نيام ووصف الليالي بالسهر والهواجر بالظمأ من باب نهاره صائم وليله قائم نقلوا الفعل إلى الظرف من باب الاتساع الذي يجرون

فأخذوا الراحة بالنصب والري بالظمأ واستقربوا الأجل فبادروا العمل وكذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل ثمّ إنّ الدنيا دار فناء وعناء وغِير فمن الفناء أنّ الدهر موتر قوسه

فيه الظرف مجرى المفعول به ومنه قوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾.

[**فأخذوا الراحة**] الأخرويّة الباقية [**بالنصب**] أي: بتعب الأبدان بالطاعة في هذه الدنيا الفانية.

[**والري**] من حوض الكوثر [**بالظمأ**] في هذه الأيّام القليلة فهم ﴿يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد اللّه يفجّرونها تفجيراً﴾.

[**واستقربوا الأجل**] علموا قربه فهم في كلّ آن يترقّبوه.

[**فبادروا العمل**] باغتنام الفرصة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فسارعوا إلى مغفرة من ربّكم﴾.

[**وكذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل**] الفاء فيه وفيما قبله للتعليل فإنّ استقراب الأجل مستلزم للعمل له ولما بعده وكذا تكذيب الأمل وانقطاعه ملازم لملاحظة الأجل والأجل الثاني بمعنى الموت والأول بمعنى المدّة فلا تكرار.

[**ثمّ إنّ الدنيا دار فناء وعناء**] أي: تعب ومشقّة لما مرّ من وصف أحوالها.

[**وغِير**] تتغيّر من حال إلى حال من الصحّة إلى السقم ومن الشباب إلى الهرم ومن الوجود إلى العدم.

[**فمن الفناء أنّ الدهر موتر قوسه**] يروى مؤتّر بالتخفيف والتشديد.

ولا تؤسى جراحه ترمي الحيّ بالموت والصحيح بالسقيم والناجي بالعطب آكل لا يشبع وشارب لا ينقع ومن العناء أنّ المرء يجمع ما لا يأكل يبني ما لا يسكن ثمّ يخرج إلى اللّه لا مالاً حمل ولا بناء نقل ومن غيرها إنّك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً

[**ولا تؤسى جراحه**] أي: لا تطب ولا تصلح من أسوت الجرح أصلحته، واستعار وصف الإيتار لآثار الدهر ورشح بذكر القوس، ووجه الاستعارة أنّ الدهر يرمي مصائبه المستندة إلى القضاء الإلهي الذي لا يتغيّر كما يرمي الرامي الذي لا يخطي واستعار الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام ورشح بذكر عدم المداواة ثم قال: [**ترمي الحيّ بالموت والصحيح بالسقيم والناجي بالعطب**] أي: الهلاك [**آكل لا يشبع وشارب لا ينقع**] أي: لا يسكن عطشه استعار له الأكل والشرب لأنّه يأتي على الخلق فيفنيهم كما يأتي الآكل والشارب على الطعام والشراب فيفنيهما.

[**ومن العناء**] الذي أُشير إليه بقوله: والدنيا دار فناء وعناء، أي: تعب ومشقّة [**أنّ المرء يجمع**] فيها [**ما لا يأكل**] بل يجمعه ويتركه لغيره يأكله وكذا [**يبني ما لا يسكن ثمّ يخرج إلى اللّه**] مجرّداً ممّا جمعه وبناه [**لا مالاً حمل ولا بناء نقل**] كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة﴾ وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم.

[**ومن غيرها**] وتنقل احوالها [**إنّك ترى المرحوم**] من أهل المسكنة والفقر [**مغبوطاً**] غنيّاً.

[**والمغبوط مرحوماً**] أي: يتبدّل فقر الفقراء المرحومين بالغنى فيغبطون وغنى أهل الغنى بالفقر فيرحمون بحسب تصاريف الدهر وغير الدنيا

ليس ذلك إلاّ نعيماً زلَّ وبؤساً نزل ومن غيرها أنّ المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله فلا أمل يدرك ولا مؤملٍ يترك فسبحان اللّه ما أغرّ سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها لا جاءٍ يُردُّ ولا ماضٍ يُرتدّ

وتقلّباتها وقيل أراد أنّك ترى من هو في باطن الأمر مرحوم مغبوطاً وترى من هو في باطن الأمر مغبوطاً مرحوماً أي: تحسب ذلك وتتخيّله وفيه بعد إذ لا يناسبه قوله:

[**ليس ذلك إلاّ نعيماً زلَّ**] أي: عن المغبوطين وصار للمرحومين.

[**وبؤساً نزل**] بالأغنياء فصاروا مرحومين محرومين.

[**ومن غيرها أنّ المرء يشرف على أمله**] فيقرب حصول مأموله [**فيقتطعه**] عن الوصول إليه [**حضور أجله**] ويحول بينه وبينه، وبذلك عُرف اللّه كما قال عليه السلام: «عرفت اللّه بفسخ العزائم ونقض الهمم» لما هممت فحيل بيني وبين همي وعزمت فخالف العنقاء والقدر عزمي علمت أنّ المدبّر غير.

[**فلا أمل يدرك ولا مؤمل يترك**] بل لا يدرك أمله ولا يترك طلب ما لم يدركه [**فسبحان اللّه ما أغرّ سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها**] أتى بلفظ التعجّب وكنّى بريّها عن استتمام لذّاتها وبفيئها الركون إلى فنياتها والاعتماد عليها وذاك لأنّ سرورها وفيئها يصرفان عن الآخرة والعمل لها فسرورها أقوى سبب للغرور بها وريّها وفيئها أقوى الأسباب لظمأ المنهمك فيها ولذا جاز إضافة الغرور والضمأ والضحى إلى سرورها وريّها وفيئها والضحى البروز لحرّ الشمس وقوله:

[**لا جاءٍ يُردُّ**] أي: من آفات الدهر كالموت والقتل ونحوهما [**ولا ماضٍ يُرتدّ**] اي: يسترد ويسترجع ما فات من الأموال ونحوها كما قيل:

فسبحان اللّه ما أقرب الحيّ من الميّت للحاقه به وأبعد الميّت من الحي لانقطاعه عنه إنّه ليس شيء بشرٍّ من الشرّ إلاّ عقابه وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه وكلّ شيء من الدنيا سماعه عظيم من عيانه وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه فليكفكم من العيان

فلا أنا راجع ما قد مضى لي ولا أنا دافع ما سوف يأتي

[**فسبحان اللّه ما أقرب الحيّ من الميّت للحاقه به وأبعد الميّت من الحي لانقطاعه عنه**] كما قيل:

يا بعيداً عني وليس بعيداً من لحاقي به سميع قريب
صرت بين الورى غريباً كما أنّك تحت الثرى وحيد غريب

ومن ذلك بأنّ وجه تقسيمه ﷺ أمور الدنيا إلى الفناء والعناء والغير والعبر حيث ذكر في الفناء رمي الدهر الإنسان عن قوس الردى وفي العناء جمع ما لا يأكل وبناء ما لا يسكن وفي الغير الفقر بعد الفناء والعناء بعد الفقر وفي العبر اقتطاع الأجل الأمل فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها ثمّ قال:

[**إنّه ليس شيء بشرٍّ من الشرّ إلاّ عقابه وليس شيء بخير من الخير إلاّ ثوابه**] يريد الخير والشر المتصوّرين بالقياس إلى شرور الدنيا وخيراتها فإنّها أمور مستحقرة في جنب عقاب اللّه وثوابه أو الخير والشرّ المطلقين للمبالغة إذ يقال هذا أشدّ من الشدائد وجود من الجيد.

[**وكلّ شيء من الدنيا سماعه عظيم من عيانه**] ولذا يحرص الإنسان على أمر فإذا بلغه برد وفتر ولم يحده كما كان يظنّ ويوصف لنا البلد البعيد بالأوصاف الحسنة فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وُصف ويوصف لنا الإنسان بالعلم والعمل فإذا عاشرناه لم نجده كما وُصف، ولذا قال الشاعر:

السماع ومن الغيب الخبر واعلموا أنّ ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة

اهتزّ عند تمنّي وصلها طرباً ورُبّ أمنية أحلى من الظفر

وكذا أعظم شرّ يتصوّره الإنسان بالسماع ويستهوله ويستكره صورة القتل والجراح فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها أو اضطرّ إلى المخاصمة والمحاربة سهل عليه ماكان يستعصيه منها وهان في عينه ذلك الوقع والخوف وكذا لايزال الإنسان يتخوّف المثول بين يدي الملوك ويتصوّر عظمتهم وبطشهم إلى أن يصل إلى مجالسهم فإنّه يجد من نفسه زوال ذلك الخوف ويهون عليه الأمر وكذا حال الخير فلايزال الإنسان يحرص على تحصيل الدرهم والدنيار وسائر مطالب الدنيا ويكون قلبه مشغولاً بتحصيله فإذا وصل إليه هان.

[وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه] لأنّ الذي يسمعه الإنسان من خيرها وشرّها إنّما يلاحظه بالنسبة إلى خير الدنيا وشرّها وربّما كانت في أوهام بعضهم أهون من خيرات الدنيا وشرورها لقرب الخلق من المحسوس وقرب الدنيا منهم مع أنا نعلم أنّ الأمر فيها أعظم ممّا يتوهّم وإذا كان الأمر كذلك.

[فليكفكم من العيان] أي: بدله **[السماع ومن الغيب]** أي: بدله **[الخبر]** حيث لا يمكن الاطلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذا العالم.

ثمّ نبّه عليه السلام على أفضليّة الآخرة بقوله:

[واعلموا أنّ ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة] من بذل مال وجاه

خيـر مما نقص من الآخـرة وزاد في الدنيـا فكم من منقـوص رابح ومزيـد خاسـر إنّ الذي أُمرتم به أوسع من الذي نُهيتم عنه وما أحلّ لكم أكثر ممّا حرّم عليكم

[**خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا**] كإمساك المال وعدم بذله في سبيل الله والحرص على جمعه.

[**فكم من منقـوص رابح ومـزيـد خاسـر**] ولذا قـال تعـالى: ﴿إنّ الله اشـترى من المؤمنين أنفسـهم وأمـوالهم بأنّ لهم الجنّة﴾ وقـال: ﴿مـثل الّذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله كمـثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبة مائة حبّة﴾ وقال: ﴿الـذين يكنزون الذهب والفـضّة ولا ينفـقونـها في سـبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم﴾.

ثمّ قـال: [**إنّ الذي أُمرتم به أوسع من الـذي نُهيتم عنه**] لأنّ كـبائر مـا نهينـا عنه خـمس: القـتل وفي الحلم والعفـو والصبـر التـي هي من أشـرف الأخـلاق التي أمروا بهـا سعـة عنه، ثمّ الظلم وفي العـدل والاقـتصـار على تناول الأمور المباحة التي هي أكثر وأوسع سعة عنه ثمّ الكذب الذي هو رأس النفاق وعليه يبنى خراب العالم وفي المعاريض والصـدق الذي هو بضدّه في عـمـارة العالـم مندوحة عنه ثمّ الزنا ولا ريب أنّ في سـائر وجـوه النكاح من الدائم والمنقطع وملك اليمين وتحليل الجوار سـعة عنه، ثمّ شرب الخـمر التي هي أُمّ الخبائث وأصل الفساد وفي سائر الأشربة المباحة المفرّحة المقوّية النافعة للروح والبدن والعقل مغناة عنه وكذا قوله:

[**وما أحلّ لـكم أكثر ممّا حـرّم عليكم**] فإنّ الحلال يصـدق على الأقسام الأربعة الواجب والمستحبّ والمكروه والمباح والحرام قسم واحد. ثمّ لمّا بيّن

فذروا ما قلّ لما كثر وما ضاق لما اتّسع وقد تكفّل لكم بالرزق وأُمرتم بالعمل فلا يكون المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله مع أنّه والله قد اعترض الشكّ ودخل اليقين حتّى كأنّ الذي ضمن لكم فرض عليكم وكان الذي فرض عليكم

وجه المصلحة في ترك المنهي والمحرّم أردف ذلك بالأمر بتركهما فقال:

[**فذروا ما قلّ**] من الحرام [**لما كثر**] من الحلال.

[**وما ضاق**] من الأمور المهلكات [**لما اتّسع**] من المنجيات.

[**وقد تكفّل لكم**] ربّكم [**بالرزق**] الدنيوي بقوله: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فوربّ السماء إنّه لحق مثل ما أنّكم تنطقون﴾ وبقوله: ﴿وما من دابّة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾.

[**وأُمرتم بالعمل**] بقوله: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وقوله: ﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وقوله: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ وقوله: ﴿واتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ إلى غير ذلك.

[**فلا يكون المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله**] فالعجب العجب منا مع ادّعاء العقل كيف نصرف أعمارنا وأوقاتنا فيما ضمنه الله لنا ونعقل عمّا فرضه علينا وأراده منّا [**مع أنّه والله قد اعترض الشكّ**] لكم فيما أجزتكم به من ضمان الرزق وفرض العبادة.

[**ودخل اليقين**] أي: فسد وصار مدخولاً [**حتّى كأنّ الذي ضمن لكم فرض عليكم**] حيث بذلتم جدّكم وجهدكم في تحصيله.

قد وضع عنكم فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فإنّه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من رزق يرجى غداً زيادته وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته

[**وكان الذي فرض عليكم**] من العمل [**قد وضع عنكم**] حيث كسلتم عن العمل ولم تبادروا إليه ولم تقبل قلوبكم عليه وذلك مبالغةً منه ﷺ في قلّة احتفالهم بفرائض اللّه عليهم واشتغالهم عنها بطلب الدنيا وإذا كان الأمر كذلك.

[**فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل**] أي فجئته ولا تسوّفوا أنفسكم فإنّك لا تدون أيّ ساعة يطرقكم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات فاغتنموا الفرصة [**فإنّه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق**].

ثمّ أوضح ذلك بقوله: [**ما فات اليوم من رزق يرجى غداً زيادته**] باستعادته أو اكتساب مؤمنه أو أكثر منه.

[**وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته**] لأنّ الماضي ذهب فيستحيل عوده والغد وما بعد الغد محسوب من العمر وليس عوضاً من الأمس الذاهب ولقد أجاد من شبّه العمر بالماء الجاري فإنّ الواقف عليه يرى ماءً واحداً مع أنّه في كلّ آن وقع النظر على جزء منه ذهب ذلك الجزء فلا يعود والمنظور إليه في الآن الثاني غير ذلك الذاهب، ولعلّ الناظر في عقله من ذلك كما أنّه عقله من ذهاب عمره يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهنّ له ذهاباً ولمّا كان العمر الذي من شأنه أن لا يعود ما فات منه ظرفاً للعمل ويفوت بفواته وجب تدارك العمل بتداركه.

الرجاء مع الجائي والياس مع الماضي اللّهمّ قد انصاحت جبالنا واغبرّت أرضنا وهامت دوابّنا وتحيّرت في مرابضها

وقوله: [**الرجاء مع الجائي**] أي: الرزق [**والياس مع الماضي**] أي: العمر وهذا تأكيد لما قبله [فاتّقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ اقتباس من القرآن، ووجه المناسبة أنّ الكلام في معرض جذب السامعين إلى العمل الذي هو سبب تطويع النفس الأمّارة للعقل والتقوى عبارة عن خشية اللّه والزهد في الدنيا بخلاف الموانع الداخلة والخارجة عن القلب والإسلام مركّب من ذينك الجزئين فحسن إيراد الآية المشتملة على الأمر بالتقوى والموت على الإسلام بعد الأمر بالعمل ليكون ذلك أمراً بإكمال الدين وإتمامه.

ومن خطبة له عليه السلام
في الاستسقاء

أي طلب السقي من اللّه بالامطار وزيادة الأنهار:

[**اللّهمّ قد انصاحت جبالنا**] أي: تشقّقت وجفّت ويبست من عدم المطر المياه.

[**واغبرّت أرضنا**] أي: استولى عليها الغبار كما يشاهد لعدم الأمطار.

[**وهامت دوابّنا**] أي: عطشت أو ذهبت على وجوهها لشدّة المحل كما يقال: هام فلان على وجهه.

[**وتحيّرت في مرابضها**] المرابض مبارك الغنم كالمعاطن للإبل واحدها

وعجّت عجاج الثكالى على أولادها وملّت التردّد في مراتعها الحنين إلى مواردها اللّهمّ فارحم أنين الآنّة وحنين الحانّة اللّهمّ فارحم حيرتها في مذاهبها وأنينها في موالجها خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين

مربض بكسر الباء كمجلس.

[**وعجّت**] أي: صرخت [**عجاج الثكالى على أولادها**] ومرجع الضمير في أولادها إلى الثكالى والدواب أي: عجّت على أولادها كعجيج الثكالى وإنّما وصفها بالتحيّر في مرابضها لأنّه لشدّة المحلّ لا تدري ماذا تصنع إن نهضت من مباركها لترعى لم تجد رعياً لأنّها أكثرت من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فلم تجد مرتعاً ومنه يعلم معنى قوله:

[**وملّت التردّد في مراتعها**] وملّت [**الحنين إلى مواردها**] من الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب، فحيث فقدتها حنّت إليها حتّى ضجرت.

[**اللّهمّ فارحم أنين الآنّة**] أي: الناقة الكثيرة الأنين [**وحنين الحانّة**] التي تحنّ إلى ولدها وفصيلها، وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوصب، يقال: أنّ أنيناً وأناناً، وابتدء بذكر الأنعام وما أصابها من الجدب للنبوي: «لولا بهائم رتّع وصبيان رضّع ومشايخ ركّع لصبّ عليكم العذاب صبّاً» ولأنّ عادة العرب إذا أصابهم المحل استسقوا بالبهائم فيُسقون.

[**اللّهمّ فارحم حيرتها في مذاهبها وأنينها في موالجها**] أي: المحال التي تدخل فيها وتلجها [**خرجنا إليك حين اعتكرت**] أي: ترادفت وكرّت [**علينا حدابير السنين**] أي: جدبها وشدّتها كما يأتي إن شاء اللّه في كلام السيد (رض).

وأخلفتنا مخايل الجود فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس ندعوك حين قنط الأنام ومنع الغمام وهلك السؤام أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا اللّهمّ وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق والربيع المغدق

[**وأخلفتنا مخايل الجود**] جمع مخيلة وهي السحابة التي ترجى للمطر والجود بالفتح المطر الغزير أي: كلّما شمنا برقاً أو أخيلنا سحاباً أخلفنا ولم يمطر.

[**فكنت الرجاء للمبتئس**] أي: الحزين ذي البؤس.

[**والبلاغ للملتمس**] أي: الكفاية للطالب [**ندعوك حين قنط الأنام**] يقال: قنط بالفتح يقنط وبالكسر والضمّ فهو قانط وقد يقال قنط بالكسر قال تعالى: ﴿ولا تكن من القانطين﴾.

[**ومنع الغمام**] على بناء المفعول كراهة إضافة المنع إلى اللّه لأنّه منبع النعم ويروى بالبناء للمعلوم أي: منع الغمام القطر.

[**وهلك السؤام**] أي: المال الراعي [**أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا**] وفيه تنبيه على أنّ للذنوب والأعمال السيّئة تأثيراً في ربع الرحمة وإلّا فالجود الإلهي فائض لا قصور فيه ولا منع من قبله ولذا ورد إنّ الذنوب منها ما ينزل النقم ومنها ما يزيل النعم قيل والفرق بين تؤاخذنا وبين تأخذنا أنّ المؤاخذة دون الأخذ لأنّ الأخذ استئصال والمؤاخذة عقوبة.

[**اللّهمّ وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق**] أي: المنبعج بالمطر ومثله المتبعق والبعاق.

[**والربيع المغدق**] أي: الكثير.

والنبات المونق سحّاً وابلاً تحيي به ما قد مات وترو به ما قد فات اللّهمّ سقياً منك محيية مروية تامّة عامّة طيّبة مباركة هنيّة مريّة زاكياً نبتها ثامراً فرعها ناضراً ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك اللّهمّ سقياً منك تعشب بها نجادنا وتجري بها وهادنا وتخصب بها جنابنا وتندي بها أقاصينا

[**والنبات المونق**] أي: الحسن المعجب [**سحّاً**] نصب على المصدر.

[**وابلاً**] أي: مطراً شديداً [**تحيي به ما قد مات**] من الزرع.

[**وترو به ما قد فات**] أي يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحرث.

[**اللّهمّ سقياً منك**] سقياً بالضمّ مؤنة اسم من سقى أي سقيته منك.

[**محيية**] لما مات [**مروية**] لما عطش من الزرع [**تامّة**] لا يحتاج معها إلى غيرها [**عامّة**] للبلاد والعباد.

[**طيّبة مباركة هنيّة مريّة زاكياً نبتها ثامراً فرعها**] أي: ذو ثمر كما قيل لابن وتامر أي ذو لبن وتمر [**ناضراً**] أي: حسناً [**ورقها**] أي: يعجب الناظرين لصفاته وحسنه.

[**تنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك اللّهمّ سقياً منك تعشب بها نجادنا**] جمع نجد وهو المرتفع من الأرض.

[**وتجري بها وهادنا**] جمع وهدة وهو المطمئن منها.

[**وتخصب**] أي: ترحض [**بها جنابنا**] وتقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا.

[**وتندي**] أي: تنتفع [**بها أقاصينا**] أي: الأباعد منّا، يقال: نديت بكذا

وتستعين بها ضواحينا من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة على بريّتك المرملة ووحشك المهملة وأنزل علينا سماء مخضلة مدراراً هاطلة يدافع الودق منها الودق ويخضرّ القطر منها القطر وغير خلّب برقها ولا جهام عارضها ولا قزع ربابها ولا شقان ذهابها

أي انتفعت.

[**وتستعين بها ضواحينا**] أي: نواحينا الباذرة أي: أهل نواحينا، وقيل الضواحي النواحي القريبة من المدينة العظمى [**من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة على بريّتك المرملة**] أي: قليلة المطر أو الفقيرة، من أرمل أي افتقر ونفد زاده.

[**ووحشك المهملة**] أي: التي لا راعي لها ولا صاحب ولا مشفق.

[**وأنزل علينا سماء مخضلة**] أي رطبة تخضل النبات أي: تبلّه وروي مخضلة أي: ذات نبات وزرع مخضلة يقال اخضل النبت اخضلالاً أي ابتلّ وإنّما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكّر لأنّه ذكر الأمطار [**مدراراً**] أي: كثيرة المطر [**هاطلة يدافع الودق منها الودق**] والودق القطر.

[**ويخضرّ القطر منها القطر**] يخضر أي: يدفع بشدّة وإذا واقع القطر القطر كان أعظم وأغزر.

[**وغير خلّب برقها**] برق خلّب أي: لا مطر معه، والخلّب الذي يكذب الظنّ فيها.

[**ولا جهام عارضها**] الجهام: المظلم الذي لا ماء فيه.

[**ولا قزع ربابها ولا شقان ذهابها**] يأتي معناهما في كلا السيد (رض).

حتى يخصب لامراعها المجدبون ويحيى ببركتها المستنون فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد

[**حتى يخصب لامراعها المجدبون**] أي: أهل الجدب والقحط.

[**ويحيى ببركتها المستنون**] الذين أصابتهم السنة وهي المحل والقحط الشديد:

[**فإنّك تنزل الغيث من بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد**] اقتباس من القرآن مناسب للمقام، قال السيد (رحمه اللّه) تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب قوله عليه السلام «قد انصاحت جبالنا» أي: تشقّقت من المحول، يقال انصاح الثوب أي انشقّ ويقال أيضاً: انصاح النبت وصاح وصوح إذا جفّ ويبس. وقوله: «هامت دوابنا» اي: عطشت والهيام العطش. وقوله: «حدابير السنين» جمع حدبار وهي الناقة التي أنضاها السير فشبّه بها السنة التي فشى فيها الجدب. قال ذوالرمة:

حدابير ما تنفكّ إلاّ مناخة

على الخسف أو ترمي بها بلداً قهر قهراً

وقوله: «ولا قزع ربابها القزع» القطع الصفار المتفرّقة من السحاب، وقوله: «ولا شقّن ذهابها» أي: ولا ذات شقان ذهابها والشقان الريح الباردة والذهاب الأمطار اللّينة فحذف ذات العلم السامع به.

أرسله داعياً إلى الحقّ وشاهداً على الخلق فبلّغ رسالات ربّه غير وانٍ ولا مقصّر، وجاهد في اللّه أعدائه غير واهن ولا معذّر إمام من اتّقى وبصر من اهتدى ولو تعلمون ما أعلم ممّا طوى عنكم غيبه

ومن خطبة له عليه السلام

[**أرسله داعياً إلى الحقّ وشاهداً على الخلق**] الذين بعث إليهم للمطيع بالطاعة والتسليم وعلى العاصي بالعصيان إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بكل على هؤلاء شهيداً﴾ وقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

[**فبلّغ رسالات ربّه غير وان**] أي: فاتر كال.

[**ولا مقصّر، وجاهد في اللّه أعدائه غير واهن**] أي: ضعيف.

[**ولا معذّر**] بالتشديد هو المقصّر الذي يعتذر من تقصيره بغير عذر قال تعالى: ﴿وجاء المعذّرون من الأعراب﴾.

[**إمام من اتّقى**] لاستناد أهل التقوى في كيفيّة سلوك سبيل اللّه التي هي التقوى إليه.

[**وبصر من اهتدى**] استعار لفظ البصر له ووجه الشبه كونه سبباً لاهتداء الخلق إلى سبيل الرشاد كما يهتدي صاحب البصيرة في طريقه المحسوس.

ومنها

[**ولو تعلمون ما أعلم ممّا طوى عنكم غيبه**] من الأمور الأخروية

إذا لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها ولكنّكم نسيتم ما ذُكِّرتم

وأحوال الحشر والنشر والعرض على اللّه والصراط والميزان والحساب والعقاب والجنّة والنار [**إذا لخرجتم إلى الصعدات**] جمع صعيد وهو التراب أو وجه الأرض كطريق وطرقات.

[**تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم**] والالتدام ضرب الوجه ونحوه وضرب النساء صدورهنّ في النياحة.

[**ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف**] أي: ولا مستخلف [**عليها، ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها**] أي: إذابته وأنحلته، يقال: هممت الشحم أيك أذبته، ويروى ولأهممت وهو أبلغ من الأوّل أي: ولشغل كلّ أحد عن نفسه لا يهمّه أمرها لما يرى من هول ذلك اليوم، نظير قوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللّه شديد﴾ وأهمّي الأمر أي: أحزنني، وقيل: أراد بما طوى عنهم غيبه جهلهم بما سيقع من الفتن في الإسلام بحيث لو تصوّروا علمه منها لاحتال كلّ منهم في خلاص نفسه، ولهاموا على وجه الأرض باكين على تقصيرهم في أعمالهم على وفق أوامره التي بها يكون نظام العالم إلى الأبد والأمن من تلك الفتن لو فعلوها.

[**ولكنّكم نسيتم ما ذُكِّرتم**] به من آيات اللّه.

وأمنتم ما حُذّرتم فتاه عنكم رأيكم وتشتّت رأيكم لوددت أنّ اللّه فرّق بيني وبينكم وألحقني بمن هو أحقّ فيَّ منكم قوم واللّه ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحقّ متاريك للبغي مضوا قدماً على الطريقة وأوجفوا على المحجّة فظفروا بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة

[**وأمنتم ما حُذّرتم**] من عقابه وعذابهوحسابه [**فتاه عنكم رأيكم**] أي: عزب عنهم وضلّت آرائهم الصالحة التي بها يكون نظام أمورهم.

[**وتشتّت رأيكم**] فاستعقب ذلك تشتّت أُمورهم وغلبة العدوّ على بلادهم، ثمّ عقّب ذلك بالتبرّم منهم والتضجّر فقال:

[**لوددت أنّ اللّه فرّق بيني وبينكم وألحقني بمن هو أحقّ فيَّ منكم**] كابن عمّه سيّد المرسلين وخاتم النبيّين وحمزة وجعفر وأمثالهما [**قوم**] أي: هم قوم.

[**واللّه ميامين الرأي**] أي: رأيهم مبارك ميمون [**مراجيح الحلم**] أي: حلمهم رزين ثقيل راجح لا يستخفّهم جهل الجهّال.

[**مقاويل بالحقّ**] ملازمون للصدق ونصيحة الدِّين [**متاريك للبغي**] من شأنهم ترك البغي والظلم على أنفسهم وعلى غيرهم.

[**مضوا قدماً**] بضمّ الدال أي: متقدّمين في سبيل اللّه [**على الطريقة**] التي هي هدى اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله لم ينثنوا عنها.

[**وأوجفوا**] أي: أسرعوا [**على المحجّة**] أي طريق اللّه الواضحة.

[**فظفروا بالعقبى الدائمة**] من الثواب الجسيم والنعيم المقيم والعقبى وزن كانت أعمّ من الثواب والعقاب إلاّ أنّ قرينة الظفر تخصّصها بالثواب.

[**والكرامة الباردة**] يقال غنيمة باردة وكرامة باردة أي: لم تؤخذ بحرب

والله ليسلّطنّ عليكم غلام ثقيف الذيّال الميّال يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم إيه

ولا عنف وذلك لأنّ المكتسب بالحرب حار في المعنى لما يلاقي أو يعاني في حصوله من المشقّة.

[والله ليسلّطنّ عليكم] عقوبة أعمالكم هذه وتقاعدكم عن نصرة إمامكم وتخاذلكم واختلاف قلوبكم.

[غلام ثقيف] هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ابن مسعود بن عامر بن معتب بن ملك بن كعب من الأحلاف قوم من ثقيف وكان ضعيف العين رقيق الصوت.

[الذيّال] أي: طويل الذيل يسحله تبختراً وتجبّراً.

[الميّال] يكثر التمايل كبراً والميّال الظالم والذيّال التائه أصله من ذال أي تبختر وجرّ ذيله على الأرض.

[يأكل خضرتكم] أي يستأصل أموالكم.

[ويذيب شحمتكم] مثله، وكلتا اللّفظتين استعارة وكنّى بخضرتهم عن دنياهم وكذا استعار الشحمة لثرائهم وقوّتهم ووصف الإذابة لإفناء ذلك بالقتل والاهانة، ولقد صدق عليه السلام في ذلك فإنّ فعل الحجّاج بأهل العراق مشهور وفي الكتب مسطور.

ثمّ قال عليه السلام كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه:

[إيه] اسم فعل يستدعى بها الحديث المعهود من الغير إن سكّنت وإن نوّنت كانت لاستدعاء قول أو فعل ما، وقيل التسكين للوقف والتنوين للدرج وقوله:

أبا وذحة

[أبا وذحة] والوذحة بفتح الذال: ما يتعلّق بذنب الشاة من بعرها، واستعار لفظها للخنفساء، نقل أنّ الحجاج رأى خنفساء دبّت إلى مصلاّه فطردها فعادت ثمّ طردها فعادت فأخذها بيده وحذف بها فقرصته قرصاً وَرِمَتْ يده منها ورماص كان فيه حتفه فقتله اللّه بأهون مخلوقاته كما قتل النمرود بالبقّة التي دخلت في أنفه فكان فيها هلاكه وقيل كان الحجاج إذا رأى خنفساء تدبّ قريبة منه يأمر غلمانه بإبعادها ويقول هذه وذحة من وذح الشيطان تشبيهاً له بالبعرة قيل وكان معزى بهذا القول وقيل إنّه رأى خنفساء فقال: واعجباً ممن يقول إنّ اللّه خلق هذه! قيل: فمن خلقها؟ قال: الشيطان، إنّ ربّكم لأعظم شأنا أن يخلق هذه الوذح.

وقال ابن أبي الحديد: إنّه كان مثفاراً أي مأبوناً وكان يمسك للخنفساء حيّة ليشفى بحركتها في الموضع حكاكه، قالوا: ولا يكون صاحب هذا الداء إلاّ شانئاً مبغضاً لأهل البيت عليهم السلام، قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء وإنّما قلنا كلّ من به هذا الداء فهو مبغض، قالوا: وقد روى أبو عمرو الزاهد ولم يكن من رجال الشيعة في أماليه وأحاديثه عن السيّاري عن أبي خذيمة الكاتب قال: ما فتّشنا أحداً فيه هذا الداء إلاّ وجدناه ناصباً، قال أبو عمرو: أخبرني العطا عن رجاله قالوا: سُئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصنف من الناس، فقال: رحم منكوسة يؤتى ولا يأتي وما كانت هذه الخصلة في ولي اللّه تعالى ولا تكون أبداً، وإنّما تكون في الكفّار والفسّاق والناصب المطاهرين، إنتهى.

ثمّ قال: لمّا كان اميرالمؤمنين عليه السلام يعلم من حال الحجّاج نجاسته

فلا أموال بذلتموها للّذي رزقها ولا أنفساً خاطرتم بها للذي خلقها

بالمعاصي والذنوب التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاة، كنّاه بذلك ويكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لذمامته في نفسه وحقارة منظره وتشويه خلقته فإنّه كان قصيراً ذميماً نحيفاً أخفش العينين معوجّ الساقين قصير الساعدين مجدور الوجه أصلع الراس فكنّاه بأحقر الأشياء وهو البعرة، وقد روي أبا ودجة واحدة الأوداج إشارة إلى أنّه كان قتّالاً سفّاكاً، وروي أبا وجره وهي دويبّة تشبه الحرباء قصيرة الظهر شبّه بها.

ومن كلام له عليه السلام

في توبيخ قومه على البخل بالأموال والأنفس كما أنّ مداد الذي قبله التوبيخ على جبنهم والتضجّر من تقاعدهم فقال:

[**فلا أموال بذلتموها للّذي رزقها**] انتصاب الأموال بفعل مقدّر دلّ عليه بذلتموها وكذا الأنفس في قوله:

[**ولا أنفساً خاطرتم بها للذي خلقها**] أي: لم تبذلوا انفسكم في رضاء من رزقكم إيّاها ولم تخاطروا بانفسكم في رضى الخالق لها وكان الأولى والأليق بكم أن تبذلوا المال في رضاء رازقه والنفيس في رضاء خالقها لأنّه ليس أحد أحقّ منه بالنفس والمال وبذلهما في رضاه وفي ذلك استدراج حسن لهم إذ امتناع البخيل من البذل لخوف الفقر او زعم أنّه لا مستحقّ للمال غيره والشحيح إنّما يشحّ بنفسه خوف الموت وأن لا يكون له عوض هذه الحياة فإذا علم أنّه بذل المال لرازقه زال عذره لعلمه بأنّه يعوّضه خيراً منه

تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده فاعتبروا بنزولكم منازل من كان من قبلكم وانقطاعكم عن وصل اخوانكم أنتم الأنصار على الحق والاخوان في الدين والجنن ويوم البأس والبطانة دون الناس

ويضاعفه له أضعافاص مضاعفة وأنّه أحقّ به منه إذ العبد وما في يده لمولاه وكذا هو أحقّ بنفسه ويعوّضه الحياة الباقية عوض هذه الحياة الفانية وقوله:

[**تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده**] أي: من العجب أنّكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيفوكم لأجل أنّكم عباد الله مطيعون له، ثمّ إنّكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده والإحسان إليهم ومحصول هذا القول كيف تسومون الناس أن يطيعوكم لأجل الله ثمّ إنّكم لا تطيعون الله الذي تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله.

[**فاعتبروا بنزولكم منازل من كان من قبلكم وانقطاعكم عن وصل اخوانكم**] لأنّكم أمثالهم تلحقون بمن سلف وتنقطعون عمّن بقى وروي عن أصل اخوانكم أي: قربهم أصلاً إليكم وذلك بموت الأب فإنّه ينقطع أصل الأخ الواشح بينه وبين أخيه والفقرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾.

ومن كلام له عليه السلام

[**أنتم الأنصار على الحق والاخوان في الدين والجنن**] جمع جنّة وهو ما استتر به من سلاح.

[**ويوم البأس**] الحرب والشدّة [**والبطانة**] أي: الخاصّة [**دون الناس**]

بكم أُقرِّب المدبر وأرجو طاعة المقبل فأعينوني بمناصحة خالية عن الغشّ سليمة عن الريب فإنّي والله لأولى الناس بالناس فسكتوا مليّاً فقال عليه السلام ما بالكم أمخرسون أنتم فقال قوم منهم يا أميرالمؤمنين إن سرت سرنا معك فقال عليه السلام ما بالكم

الذين يعتمد عليهم في الأمور ولذا قال:

[بكم أُقرِّب المدبر وأرجو طاعة المقبل فأعينوني بمناصحة خالية عن الغشّ سليمة عن الريب] أي: الشكّ.

[فإنّي والله لأولى الناس بالناس] وأشار بقوله أرجو طاعة المقبل أنّ المخالف إذا رأى ما عليه شيعته وبطانته من الأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة إطاعة بقلبه باطناً بعد أن كان انضوى إليه ظاهراً.

قال ابن أبي الحديد: هذا الكلام قاله أميرالمؤمنين للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل وقد ذكر المدائني والواقدي في كتابيهما.

ومن كلام له عليه السلام

وقد جمع الناس وحضّهم أي حرّضهم وحثّهم على الجهاد

[فسكتوا مليّاً] أي: ساعة طويلة ومنه قوله تعالى: ﴿واهجرني مليّاً﴾.

[فقال عليه السلام ما بالكم أمخرسون أنتم] بصيغة اسم المفعول.

[فقال قوم منهم يا أميرالمؤمنين إن سرت سرنا معك فقال عليه السلام ما بالكم

لا سُدِّدتم لرُشد ولا هُديتم لقصد أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج إنّما يخرج في مثل هذا رجل ممّن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم ولا ينبغي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثمّ أخرج في كتيبة أتبعُ أُخرى أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ وإنّما أنا قطب الرحى تدور عليّ وأنا بمكاني

لا سُدِّدتم لرُشد ولا هُديتم لقصد أفي مثل هذا] الحال **[ينبغي لي أن أخرج]** استفهام إنكار عليهم **[إنّما يخرج في مثل هذا رجل ممّن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم]** ثمّ بيّن وجه المفسدة في خروجه بنفسه بقوله:

[ولا ينبغي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثمّ أخرج في كتيبة أتبعُ أُخرى] والكتيبة: قطعة من الجيش.

[أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ] التقلقل: الحركة في اضطراب، والقدح: السهم، والجفير: الكنانة، وقيل: وعاء للسهام أوسع من الكنانة، ووجه الشبه لخروجه معهم بالقدح أنّه كان قد نفد الجيش قبل ذلك وأراد أن يجهّز من بقي من الناس في كتيبة أُخرى فشبّه نفسه عليه السلام في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدّم أكابر جماعته وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل.

[وإنّما أنا قطب الرحى تدور عليّ وأنا بمكاني] استعار عليه السلام لنفسه لفظ القطب ملاحظاً لدوران الإسلام ومصالحه عليه كما تدور الرحى على قطبها واستلزم ذلك تشبيهه الإسلام وأهله بالرحى وانّه إذا أهملها بخروجه إلى

واستحار مدارها واضطرب ثفالها هذا لعمر اللّه الرأي السوء واللّه لولا رجائي بالشهادة عند لقائي العدو ـ ولو قد حمّ لي لقاؤه، لقرّبت ركابي ثمّ شخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال طعّانين عيّابين حيّادين روّاغين أنّه لا غنى في كثرة عددكم مع قلّة اجتماع قلوبكم

الحرب اضطربت كاضطراب الرحى.

[**واستحار مدارها**] أي: اضطرب والمدار هنا مصدر أي استحار مدارها عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة.

[**واضطرب ثفالها**] والثفال بكسر الثاء: جلد يبسط وتوضع الرحى فوقه فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.

[**هذا لعمر اللّه الرأي السوء**] حكم بردائة رأيهم مؤكّداً بالقسم.

[**واللّه لولا رجائي بالشهادة عند لقائي العدو ـ ولو قد حمّ**] أي قدّر [**لي لقاؤه، لقرّبت ركابي**] الركاب: الإبل.

[**ثمّ شخصت**] أي: خرجت [**عنكم فلا أطلبكم**] بعد ذلك.

[**ما اختلف جنوب وشمال**] أي: دائماً تبرّماً من سوء صنيعهم وكثرة مخالفتهم لأوامره، ولقربت جواب لولا، وجواب لو مقدّر فيما قبلها.

ثمّ وصفهم عليه السلام بما فيهم من العيوب فقال:

[**طعّانين عيّابين**] أي: كثيري الطعن والعيب على الناس.

[**حيّادين**] أي: يحيدون وينحرفون عن الحقّ.

[**روّاغين**] يروّغون عن الحرب كما يروّغ الثعلب.

[**أنّه لا غنى في كثرة عددكم مع قلّة اجتماع قلوبكم**] والغناء بالفتح

لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلّا هالك من استقام فإلى الجنّة مآله ومن زلَّ فإلى النار تاللّه لقد عَلمتُ تبليغ الرسالات وإتمام العدات

والمدّ النفع كما قال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلّا هالك**] ذكر ضمير الطريق وأنّها لأنّها تُذكّر وتُؤنّث فاستعمل عليه السلام اللّغتين معاً.

[**من استقام**] على هذا الطريق الذي أرشدُ إليه في العقائد والأعمال.

[**فإلى الجنّة مآله**] ومرجعه.

[**ومن زلَّ**] عنه [**فإلى النار**].

ومن كلام له عليه السلام

[**تاللّه لقد عَلمتُ**] بفتح العين وتخفيف اللام أو بالتشديد على البناء للمجهول أو المعلوم، أي: علّمت الناس [**تبليغ الرسالات**] أي: تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يبلّغون رسالات اللّه ولا يخشون أحداً إلّا اللّه﴾ وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصّة براءة: «لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي».

[**وإتمام العدات**] أي: مجاز الوعد ووفاء العهد مع الحقّ والخلق إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقّه «أنت قاضي ديني ومنجز موعدي».

وتمام الكلمات وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر

[**وتمام الكلمات**] أي: تأويل القرآن والعلم بمحكمه ومتشابهه ومجمله ومؤوّله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً﴾.

قال ابن أبي الحديد: خلاصة هذا أنّه اقسم باللّه أنّه قد علم أو عُلِّم على اختلاف الروايتين أداء الشرائع إلى المكلّفين والحكم بينهم بما أنزل اللّه وعلم مواعيد رسول اللّه ﷺ التي وعد بها فمنها ما هو وعد لواحد من الناس بأمر نحو أن يقول له سأُعطيك كذا، ومنها ما هو وعد بأمر يحدث كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة وعلم لمات اللّه أي تأويلها وبيانها الذي يتمّ به لأنّ في كلامه تعالى المجمل الذي لا يستغني عن متمّم ومُبيّن وقال المحقّق البحراني: صدر هذا الفصل بذكر فضيلته وهي علمه بكيفيّة تبليغ الرسالات وأدائها وعلمه بإتمام اللّه تعالى ما وعد به المتّقين في دار القرار فتمام وعده أن لا خلف فيه وتمام إخباره أن لا كذب فيها وتمام أوامره ونواهيه اشتمالها على المصالح الخالصة والغالبة وهكذا ينبغي أن يكون أوصياء الأنبياء وخلفائهم في أرض اللّه وعباده.

ثمّ أردف ذلك بالإشارة إلى فضل أهل البيت عموماً فقال:

[**وعندنا أهل البيت أبواب الحكم**] أي: الشرعيّات والفتاوى أو الحكمة التي أُشير إليها بقوله ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً﴾.

[**وضياء الأمر**] أي: أنوار العلوم التي تبنى عليها الأمور والأعمال الدينية وما ينبغي أن يهتدي الناس به في حركاتهم من قوانين الشريعة وما يستقيم به نظام الأمر عن قوانين السياسات وتدبير المدن والمنازل ونحوهما إذ كان كلّ أمر شرع فيه على غير ضياء وهدى من اللّه ورسوله أو أحد أهل بيته

ألا وإنّ شرائع الدِّين واحدة وسبله قاصدة من أخذ بها لحق ومن وقف عنها ضلّ وندم اعملوا ليوم تذخر فيه الذخائر

فهو محلّ التيه والزيغ عن سبيل اللّه.

وقال ابن أبي الحديد: ضياء الأمر يعني العقليّات والعقائد، وهذا مقام عظيم لا يجسر أحد من المخلوقين يدّعيه سواه عليه السلام ولو أقدم أحد غيره على ادّعائه لكذب وكذّبه الناس.

[**ألا وإنّ شرائع الدِّين واحدة وسبله**] أي: طرقه [**قاصدة**] أي: قريبة سهلة، قيل استعار لفظ الشرائع وهي موارد المياه لأهل البيت ووجه الاستعارة كونهم موارد لطلاّب العلم كما أنّ الشرائع موارد طلبة الماء وكونها واحدة إشارة إلى أنّ أقوالهم لا تختلف في الدِّين لما علموا أسراره لم تختلف كلمتهم فيه، فكلّم كالشريعة الواحدة وكذا استعار لهم لفظ السُّبُل ووجه المشابهة كونهم موصلين إلى المطالب على بصيرة وقصد كما توصل الطريق الواضح.

ثمّ قال: [**من أخذ بها**] أي: أخذ عنهم واقتدى بهم [**لحق**] بالسابقين المقرّبين.

[**ومن وقف عنها**] ولم يلحق بها [**ضلّ وندم**] على تفريطه بتخلّفه، وقيل: أراد بشرائع الدين وسبله قوانينه الكلّية، إذ العلم بكلّ قانون منها مستلزم لثواب اللّه فهي واحدة في ذلك وموصلة إلى رضوان اللّه وجنّته من غير جور ولا عدول وهو معنى كونها قاصدة.

ثمّ شرع عليه السلام في حثّهم على العمل فقال:

[**اعملوا ليوم تذخر فيه الذخائر**] المراد به يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال

وتبلى فيه السرائر ومن لا ينفعه حاضر لبّه فعازبه عنه أعجز وغائبه أعوز واتّقوا ناراً حرّها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد وشرابها صديد ألا وإنّ اللّسان الصالح يجعله اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده

ولا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلب سليم﴾ وكنّى بالذخائر عن الأعمال الصالحة.

[**وتبلى**] أي: تختبر [**فيه السرائر ومن لا ينفعه حاضر لبّه فعازبه عنه أعجز وغائبه أعوز**] أي: من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى وحاصله أنّ من لم يكن له من نفسه ومن ذاته رادع وزاجر من القبيح فبعيد أن ينجزر وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة أو المراد اعتبروا حال حضور عقولكم فزنّكم إن لم تنتفعوا بها اليوم عند حضورها فأولى أن لا تنتفعوا بها إذا غربت عنكم عند حضور الموت ومقاساة أهواله.

ثمّ ذكر عليه السلام النار التي تنتج من المعاصي وحذّر عنها بقوله:

[**واتّقوا ناراً حرّها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد**] كنّى بحليتها عمّا أُعدّ فيها للعصاة من الأغلال والأصفاد والمقامع والسلاسل التي تشبه الحلية.

[**وشرابها صديد**] وهو ما يخرج من فروج الزناة من القيح.

ثمّ حثّ عليه السلام على مكارم الأخلاق التي تجلب المودّة وتدفع النفرة وفيها خير الدنيا والآخرة بقوله:

[**ألا وإنّ اللّسان الصالح**] أي: الذكر الجميل بين الناس [**يجعله اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده**] من الورثة، ويكون لهم

....

المهنّى وعليه الوزر والوبال فلو أنقصه في سبيل اللّه اكتسب به الذكر الجميل في الدنيا وعوض عنه اضعافاً مضاعفة وأثيب عليه في الآخرة، وقد فسّر قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ بالذكر الجميل بين الناس إذ ما من أحد من أهل الملل إلاّ ويفتخر بالانتماء إليه والانتساب إلى أتباعه.

ومن كلام له عليه السلام
في صفّين

والأصل فيه أنّ معاوية لمّا أحسّ بالعجز وظفر عليّ به ليلة الهرير راجع عمرو بن العاص في الرأي فقال له: إنّي خبّأت لك رأياً لمثل هذا الوقت وهو أن تأمر أصحابك برفع المصاحف على الأرماح ويدعون أصحاب علي إلى المحاكمة إلى كتاب اللّه فإنّهم إن فعلوا افترقوا وإن لم يفعلوا افترقوا وكان الأشتر في صبيحة تلك الليلة قد أشرف على الظفر، فلمّا أصبحوا رفعوا المصاحف والمصحف الكبير بالجامع الأعظم على عشرة أرماح وهم يستغيثون معاشر المسلمين اللّه امّة في اخوانكم في الدّين حاكمونا إلى كتاب اللّه، اللّه في النساءوالبنات، فقال أصحاب علي: إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب اللّه والرأي التنفيس عنهم.

فغضب عليه السلام وقال: إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل، كما مرّ في كلامه، فافترق أصحابه منهم من رأى رأيه في الإصرار على الحرب، ومنهم من رأى

وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا فما ندري أيّ الأمرين أرشد فصفق بإحدى يديه على الأُخرى ثمّ قال هذا جزاء من ترك العقدة، أما واللّه لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم

تركها والرجوع إلى الحكومة وهم الأكثر، فأصرّوا عليه وقالوا: إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان، فأكرهوه على ذلك وأمر بردّ الأشتر عن الحرب، ثمّ كتبوا كتاب الصلح وطافوا به في أصحابه واتّفقوا على الحكومة ثمّ ندموا.

[**وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال نهيتنا عن الحكومة**] أوّلاً.

[**ثمّ أمرتنا**] بها ثانياً [**فما ندري أيّ الأمرين أرشد**] فإنّها إن كانت حسنة فأنت مخطيء بنهيك عنها وإن كانت قبيحة فأنت مخطيء بأمرك بها وهذا غير وارد عليه عليه السلام لأنّه لم يكن راضياً بها أوّلاً وبعد أن أكرهوه عليها وألجئوه إليها ووقع الصلح والعهد فلا يسوغ له نقضه مع أنّه إنّما رضي بالحكم بكتاب اللّه وهم قد خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم ولو حكموا به لما خالفوه لقوله: ﴿أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

وقوله: ﴿إنّما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا...﴾ إلخ.

وقوله: ﴿كونوا مع الصادقين﴾ على أنّه لو سلّم جميع ذلك فلا اعتراض عليه لتغيّر المصالح بتغيّر الأزمان والأوقات والحالات كالطبيب الذي ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمر بمثله غداً ولذا قيل:

[**فصفق بإحدى يديه على الأُخرى**] فعل المغضب عليهم.

[**ثمّ قال هذا جزاء من ترك العقدة**] اي: عقدة الأمر الذي عقده وأحكمه وهو الرأي في الحرب وإصرارهم عليها.

[**أما واللّه لو أنّي حين أمرتكم بما أمرتكم**] به من البقاء على الحرب.

حملتكم على المكروه الذي يجعل اللّه فيه خيراً فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قوّمتكم وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى ولكن بمن وإلى من نرجع أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أنّ ضلعها معها

[**حملتكم على المكروه**] الذي كرهته نفوسكم مع أنّه [**الذي يجعل اللّه فيه خيراً**] من الظفر وسلامة العاقبة كما قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾.

[**فإن استقمتم**] على طاعتي واتّباعي والمبادرة إلى أمري [**هديتكم**] إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**وإن اعوججتم**] وزغتم عن الطريق السوي [**قوّمتكم**] بالقتل والضرب.

[**وإن أبيتم**] وامتنعتم عن ذلك [**تداركتكم لكانت الوثقى**] أي الفعلة المحكمة التي فيها الصواب وخير الدنيا والآخرة.

[**ولكن بمن**] كما نستعين عليكم.

[**وإلى من نرجع**] في ذلك [**أريد أن أداوي بكم**] أي: أُريد أن أُداوي ما بي من بعضكم ببعض [**وأنتم دائي**] فأكون من ذلك حينئذ [**كناقش الشوكة بالشوكة**] أي: مستخرجها بها [**وهو يعلم أنّ ضلعها**] بفتح الضاد وسكون اللام أي: ميلها [**معها**].

وهذا مثلٌ مشهور لا تنقش الشوكة بالشوكة فإنّ ضلعها لها أي لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة أُخرى مثلها فإنّ أحدهما في القوّة والضعف كالأُخرى فكما أنّ الأولى انكسرت لما وطئتها فدخلت في

اللّهمّ قد ملّت أطبّاء هذا الداء الدوي وكلّت النَّزَعَة بأشطان الركى

لحمك فالثانية إذا حاملت اسخراج الأولى بها تنكسر وتدخل في لحمك وحاصل كلامه عليه السلام أنّكم لو أطعتموني لحملتكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة ابن العاص من رفع المصاحف فإن استقمتم لي هُديتم بي وإن لم تستقيموا فأمّا أن تعوجّوا أي يقع منكم بعض الالتواء واليسير من العصيان كفتور الهمّة وقلّة الجدّ في الحرب فأُقوِّمكم بالتأديب والإرشاد والوعظ والحثّ على الجهاد بما فيه من خير الدنيا والآخرة والتشجيع وإن وقع منكم الإباء عن الحرب والامتناع المطلق تداركنا الأمر معكم إمّا بالاستنجاد من غيركم أو بما أراه من المصلحة واستعانتي ببعضكم في إصلاح بعض كنقش الشوكة بالشوكة ووجه الشبه طباعكم يشبه بعضها بعضاً ويمتل إليها بما انكسرت معها في العضو واحتاجت إلى منقاش آخر فينبغي لي ان أستعين عليكم بغيركم.

ثمّ رجع عليه السلام إلى الشكاية إلى اللّه:

[اللّهمّ قد ملّت أطبّاء هذا الداء الدوي] أي: الشديد، كقولهم ليل أليل.

[وكلّت النَّزَعَة] جمع نازع وهو الذي يستقي الماء **[بأشطان الركى]** والاشطان جمع شطن وهو الحبل والركي جمع ركية وهي البئر وتجمع أيضاً على ركايا، استعار عليه السلام لفظ الداء الدوي لما هم عليه من الجهل والضلال في مخالفة أمره فإنّ داء القلب أعظم من داء البدن، واستعار لفظ الأطبّاء لنفسه وأعوانه فإنّ أطبّاء النفوس أشرف من أطباء الأبدان كشرافة النفوس على الأبدان، واستعار لفظ النزعة له لأنّه ينزع لهم وجوه الآراء الصالحة النافعة

أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيّجوا إلى الجهاد فولهوا اللّقاح أولادها وسلبوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً صفّاً صفّاً مصدران مؤكّدان، فأمّا مقام الحال أي مصطفّين في الحرب

كما ينزع المستقي الدلو من البئر وكأنّهم من المصلحة في قعر بئر عميق وقد كلّ وعجز من جذبهم ــــــ.

ثمّ شرع في التأسّف على فقد معنى ممن يقوم بهم عمود الدين فقال:

[**أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه**] استفهام على سبيل التوجّع لفقدهم.

[**وقرأوا القرآن فأحكموه**] كأنّهم تعريض بهم حيث دعو إلى الحكم بكتاب اللّه فلم يتعقّلوا ذلك.

[**وهيّجوا إلى الجهاد**] أي: شجّعوا عليه ودعوا إليه [**فولهوا**] أي: تشوّقوا وأحبّوا [**اللّقاح**] بكسر اللام أي: للإبل الحلوب [**أولادها**] منصوب بنزع الخافض والوله شدّة لحبّ حتّى يذهب العقل من وله الرجل وواحد اللقاح لقوح وهي الناقة الحلوب كقلاص وقلوص وتوليهم لها بركوبهم إيّاها عند خروجهم إلى الجهاد وتفريقهم بينها.

[**وسلبوا السيوف أغمادها**] بدل من السيوف أو منصوب بنزع الخافض.

[**وأخذوا**] على الناس [**بأطراف الأرض**] أي: حصروهم [**زحفاً زحفاً**] منصوب على المصدر، أي يزحفون زحفاً والثانية تأكيد للأُولى وهذا يقال لمن استولى على عدوّه وضيّق عليه قد أخذ بأطراف الأرض وكذا قوله:

[**صفّاً صفّاً**] **مصدران مؤكّدان، فأمّا مقام الحال أي مصطفّين في الحرب**

صفّاً صـفّاً حبعض هلك وبعض نجى لا يبـشرون بالأحـياء ولا يعزّون عن القتلى مُره العيون من البكاء خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين

صفّاً صفّاً حبعض هلك] في الحرب بالشهادة وفاز بالسعادة.

[**وبعض نجى]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾.

ثمّ وصفهم بأنّهم [**لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن القتلى]** أي أنّهم في حال الجهاد لا يلتفتون إلى حيّهم ولا يراعون حياته حتّى يبشروا ببقائه وأنّه لم يهلك في الجهاد ولا يجزعون لموته وشهادته فيعزون عليه بل لعلّهم يفرحون بشهادته وإن كان والداً لولده أو بالعكس، ويحتمل أن يكون المعنى أنّهم تجرّدوا لطاعة مولاهم وانقطعوا عن العلائق فأنّى ولد لأحدهم مولود لم يسرّ به وإذا مات له ميّت لم يجزع عنه والأوّل أظهر.

[**مُره العيون من البكاء]** المره جمع مارهة وهي العين التي فسدت لترك الكحل أو غيره أي عيونهم مارهة من البكاء من خشية اللّه.

[**خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر]** إذ كانوا قليلاً من الليل يهجعون ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وإنّما كان السهر موجباً للصفرة لأنّه يهيّج الحرارة وينحف البدن وتكثر فيه المرة ويلزم من ذلك الصفرة لا سيّما في الأبدان النحيفة كما في أهل مكّة والمدينة والحجاز.

[**على وجوههم غبرة الخاشعين]** وعنى بهم مثل جعفر بن أبي طالب وسلمان وأبي ذر وعمّار والمقداد والحارثة بن النعمان وعبداللّه بن رواحة

أولئك إخواني الذاهبون فحقّ لنا أن نظمأ إليهم ونعضّ الأيدي على فراقهم إنّ الشيطان يُسَنِّي لكم طرقه ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة فأصدفوا عن نزغاته ونفثاته

وسعد بن معاد وأمثالهم ممّن جمعوا بين الزهد والشجاعة.

[**أولئك إخواني الذاهبون**] تعريض وإزراء بالسامعين حيث لم يكونوا على مثل حالهم وأوصافهم.

[**فحقّ لنا أن نظمأ إليهم**] أي: يحقّ لنا أن نتعطّش إلى لقائهم.

[**ونعضّ الأيدي على فراقهم**] استعار لفظ الظمأ للشوق إليهم ملاحظة لشبههم بالماء في شدّة الحاجة إليه وتنزيل الشوق إليهم والحاجة إلى لقائهم منزلة المتعطّش إلى الماء [**إنّ الشيطان يُسَنِّي**] أي: يحسّن ويسهّل [**لكم طرقه**] الموصلة إلى النار والموجبة لغضب الجبّار.

[**ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة**] وعقد الدِّين ما أُحكم منه من القواعد والقوانين وحلّه لها تزيينه للعباد ترك قانون قانون تدريجاً حتّى يطبع على قلبه.

[**ويعطيكم بالجماعة**] أي: بدل الاجتماع في القلوب والأبدان الذي حثّ عليه الشارع لمصالح عظيمة ومنافع جسيمة [**الفرقة**] حتّى يختلّ أمر الدين و—— وتنحلّ عقد الإسلام والمسلمين.

[**فأصدفوا**] أي: أعرضوا وانصرفوا [**عن نزغاته**] أي: حركاته بالإفساد [**ونفثاته**] أي: إلقائه الوسوسة في القلوب مرّة بعد أُخرى وكرة غبّ أولى يقال نزع ينزع بالفتح أي يفسد ويغري ونفث ينفث بالضمّ والكسر أي: يخيّل ويسخّر.

واقبلوا النصيحة ممّن أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم قاله للخوارج قد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة فقال عليه السلام : أكلّكم شهد معنا صفّين فقالوا منّا من شهد ومنّا من لم يشهد فامتازوا فرقتين فليكن من شهد صفّين فرقة ومن لم يشهدها فرقة أُخرى حتّى أُكلِّم كلاً منكم بكلامه ونادى أيّها الناس أمسكوا عن الكلام وأنصتوا

[**واقبلوا النصيحة ممّن أهداها إليكم**] يعني نفسه عليه السلام [**واعقلوها على أنفسكم**] أي : اربطوها والزموها .

ومن كلام له عليه السلام
[قاله للخوارج]

والحال أنّه [**قد خرج إلى معسكرهم**] بفتح الكاف أي : موضع عسكرهم ومحطّه .

[**وهم مقيمون على إنكار الحكومة**] التي أكرهوه عليها وألجئوه إليها [**فقال عليه السلام أكلّكم شهد معنا صفّين**] أي : حضرها كما قال تعالى : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ .

[**فقالوا : منّا من شهد**] صفّين [**ومنّا من لم يشهد**] .

قال عليه السلام : [**فامتازوا**] اليوم أيّها المجرمون [**فرقتين فليكن من شهد صفّين فرقة ومن لم يشهدها فرقة أُخرى حتّى أُكلِّم كلاً منكم بكلامه**] الذي يليق به .

[**ونادى**] عليه السلام قائلاً [**أيّها الناس أمسكوا عن الكلام وأنصتوا**] أي :

لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليّ فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها ثمّ كلّمهم عليه السلام بكلام طويل من جملة أن قال: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة اخواننا في الدين وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب اللّه تعالى فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم فقلت لكم هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان

استمعوا وأصغوا [**لقولي وأقبلوا بأفئدتكم**] وقلوبكم [**إليّ**] ولا تكونوا ممّن قال اللّه ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها**] فإنّ الشهادة على مثل الشمس الطالعة إنّما تسند إلى العلم واليقين دون الظنّ والتخمين ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه.

[**ثمّ كلّمهم عليه السلام بكلام طويل من جملة أن قال: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة**] علّمهم إيّاها ابن العاص ليفرّقوا كلمتكم ويشتّتوا آرائكم [**اخواننا**] مقول القول أي: ألم تقولوا عند فعلهم ذلك هؤلاء إخواننا [**في الدين وأهل دعوتنا**] بالإسلام الشاملة لجميع المسلمين [**استقالونا**] طلبوا منا أن نقيلهم في الحرب.

[**واستراحوا إلى كتاب اللّه تعالى**] بأن يكون حكماً بيننا وبينهم.

[**فالرأي**] الصائب والعزم الثاقب [**القبول منهم والتنفيس**] أي: التفريج [**عنهم**] يقال نفّس كربه أي: فرّجها [**فقلت لكم هذا أمر ظاهره إيمان**] بدعوتهم إلى القرآن ليحكم بينهم [**وباطنه عدوان**] لأنّهم قصدوا به الخديعة والظلم والغلبة والمكر ورفع الاستيلاء.

وأوّله رحمة وآخره ندامة فأقيموا على شأنكم والزموا طريقتكم وعضّوا على الجهاد بنواجذكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أُجيب أضلّ وإن تُرك ذلّ ولقد كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وإنّ القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة إلاّ إيماناً ومضياً على الحقّ وتسليما للأمر

[**وأوّله رحمة**] لهم منكم برجوعكم إلى قولهم قبول مسئولهم.

[**وآخره ندامة**] لكم عند تمام الحيلة وحصول مطلوبهم.

[**فأقيموا على شأنكم**] أي: على ما كنتم عليه من الاجتهاد في الحرب.

[**والزموا طريقتكم**] التي كنتم عليها.

[**وعضّوا على الجهاد بنواجذكم**] قد مرّ شرحه.

[**ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق**] إشارة إلى طالب الحكومة أو المشير عليهم بذلك الرأي وهو عمرو بن العاص وأخرجه في أوصاف إبليس بقوله:

[**إن أُجيب**] إلى ما يدعو إليه [**أضلّ**] من أجاب دعوته [**وإن تُرك**] ودعوته ولم يصغ إليها ولم يعوّل عليها [**ذلّ**] وخسر.

ثمّ أشار عليه السلام إلى حاله وحال أصحابه تحريضاً لهم على التأسّي به وبهم فقال:

[**ولقد كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وإنّ القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كلّ مصيبة وشدّة إلاّ إيماناً ومضياً على الحقّ**] الذي أمر اللّه به من الجهاد وعدم الالتفات إلى قريب أو بعيد.

[**وتسليما للأمر**] أي: أمر اللّه.

وصبراً على مضض الجراح ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتل اخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل فإذا طمعنا في خصلة يلمّ اللّه بها شعثنا ونتدانى إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عمّا سواها

[**وصبراً على مضض الجراح**] أي: ألمها وضرّها، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل إن كان آبائكم وأبنائكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحبّ إليكم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آبائهم وأبنائهم﴾ الآية.

ثمّ أشار عليه السلام إلى جواب شبهة ربّما عرضت لهم أو تعرض، وهي أنّه إنّما فعل اخواننا السابقون ما فعلوا ليقينهم بما هم عليه من دين الإسلام وتيقّنهم ضلال أعدائهم حيث أنّهم مصرّون على الكفر والشرك فامّا نحن فإنّما يقاتل بعضنا بعضاً فكيف يسوغ لنا قتال قوم مسلمين وهم اخواننا في الدين وقد استسلموا إلينا ودعونا إلى كتاب اللّه فأجاب عليه السلام بقوله:

[**ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتل اخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل**] وغرضنا من ذلك قيام الدِّين ورفع زيغه ورفع اعوجاجه [**فإذا طمعنا في خصلة يلمّ اللّه بها شعثنا**] ويجمع بها تفرّقنا [**ونتدانى**] أي: نتقارب بها [**إلى البقية**] أي إلى ما بقي [**فيما بيننا**] من الإسلام والدين [**رغبنا فيها وأمسكنا عمّا سواها**] وكأنّه عليه السلام عنى بالخصلة رجوع محاربيه إلى طاعته واتّفاقهم عليه ما كان يرجوه من ذلك تمام الصلح ورجوع الفئة الباغية إلى الحقّ.

وأيّ امرئ منكم أحسّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذبّ عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه فلو شاء اللّه لجعله مثله فإنّ الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب

ومن كلامه له عليه السلام

قاله لأصحابه في وقت الحرب يحثّهم على مساعدة بعضهم بعضاً

[**وأيّ امرئ منكم أحسّ**] أي: علم ووجد [**من نفسه رباطة جأش**] أي: شدّة قلبه [**عند اللقاء**] لعدوّه والماضي ربط كأنّه يربط نفسه عن الفرار والمروي رباطة بالكسر.

[**ورأى من أحد من إخوانه فشلاً**] أي: جبناً وخوفاً [**فليذبّ عن أخيه**] وليساعده [**بفضل نجدته**] أي: شجاعته أي: ليكثر الدفع والمنع عن أخيه بما فضل عنده من القوّة والشجاعة زيادة على ما قابل به منها من أراده [**التي فضل**] أي تفضّل اللّه [**بها عليه**] إشارة إلى أنّ ذلك من اللّه فليصرفه في سبيل اللّه [كما يذبّ عن نفسه فإنّ المؤمنين كنفس واحدة بني أب وأم إذا ضرب عرق على أحدهم سهر له الباقون.

[**فلو شاء اللّه لجعله مثله**] فأصابه ما أصابه من الفشل فليحصل شكر هذه النعمة إعانة أخيه ومساعدته.

ثمّ شرع عليه السلام في تسهيل الأمر عليهم بقوله: [**فإنّ الموت طالب حثيث**] أي: سريع [**لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب**] إشارة إلى قوله تعالى:

إنّ أكرم الموت القتل والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش في غير طاعة اللّه

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ وقوله تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم.

[**إنّ أكرم الموت القتل**] في سبيل اللّه لاستلزامه الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجسيم والنعيم المقيم في العقبى.

ثمّ أكدّ ذلك بالقسم في قوله: [**والذي نفس ابن أبي طالب بيده**] وهو اللّه الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة [**لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش في غير طاعة اللّه**] وذلك معلوم حقّ بالنسبة إلى من نظر إلى الدنيا بعين الاستحقاق في جنب النعيم الأبدي والثواب السرمدي والذكر الجميل في الدنيا وفي الملأ الأعلى.

قال ابن أبي الحديد: أقسم أنّ القتل أهون من الموت حتف الأنف على مقتضى ما منحه اللّه من الشجاعة الخارقة لعادة البشر وهو يحاول أن يحضّ أصحابه ويحرّضهم فيجعل أطباعهم مناسبة لطباعه وإقدامهم على الموت مماثلاً لإقدامه على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم وهيهات ليست النفوس من جوهر واحد ولا الطباع والأمزجة من جنس واحد وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه اللّه من عباده في الأدوار المتطاولة وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان فإنّ التواريخ من قبل الطوفان مجهولة عندنا إنّ أحداً أُعطي من الشجاعة والإقدام ما أُعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم، والمعلوم من حاله أنّه كان يؤثر الحرب على السلم والموت على الحياة.

ومن كلام له عليه السلام وكأني أنظر إليكم تَكِشُّون كشيش الضباب لا تأخذون حقّاً ولا تدفعون ضيماً قد خليتم والطريق فالنجاة للمتقحّم والهلكة للمتلوِّم

ومن كلام له عليه السلام

[**وكأني أنظر إليكم تَكِشُّون كشيش الضباب**] الكشيش الصوت يشوبه مثل الخشخشة وكشيش الأفعى صوتها من جلدها لا من فمها أي: كأني أنظر إليكم وأصواتكم همهمة بينكم من الهلع قد اعتراكم فهي شبه شيء بأصوات الضباب المتجمّعة.

ثمّ أكّد وصف جهنم وجورهم بقوله [**لا تأخذون حقّاً**] من الظالم.

[**ولا تدفعون ضيماً**] عن المظلوم وهذه غاية ما يكون من الذل، وقيل: أشار عليه السلام بهذا الكلام إلى أنّه ستلحقهم غلبة من العدوّ وتعضّهم الحروب بحيث يضعون ويأخذون في الهرب والتخفّي فلا ينتفع بهم أحد في أحد حق أو دفع ضيم ووصف الكشيش مستعار لهم باعتبار هيئتهم في الحيد عن العدوّ والهرب منه وهو وجه الشبه، وقوله:

[**قد خليتم والطريق**] منصوب على المفعول معه أي خليتم وطريق النجاة عند الحرب [**فالنجاة للمتقحّم**] فيها [**والهلكة للمتلوِّم**] والمتوقّف عنها أو المراد خُلِّيتم وطريق الآخرة فالنجاة للمبادر إلى سلوكها والهلكة للمتوقّف عنها.

فقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام والتووا في أطراف الرماح فإنّه أمور للأسنّة وعضّوا الأبصار فزنّه أربط للجأش وأسكن للقلوب وأميتوا الأصوات فإنّه طرد للفشل ورايتكم فلا تميلوها

ومن كلام له عليه السلام
في حضّ أصحابه على القتال وحثّهم على النضال

[**فقدّموا الدارع**] أي: لابس الدرع [**وأخّروا الحاسر**] أي: العاري من الدرع [**وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبأ للسيوف عن الهام**] وقد مرّ شرحه في قوله استشعروا الخشية وفي قوله لمحمد بن الحنفية تزول الجبال ولا تزل.

[**والتووا في أطراف الرماح**] أي: التووا مع الرمح حال إرساله [**فإنّه أمور**] أي: أشدّ حركة ونفوذاً [**للأسنّة**] لحركة صدر الإنسان بعد التوائه مع حركة يده عند الإرسال فكانت حركته أشدّ وأقوى نفوذاً.

[**وعضّوا الأبصار**] وقت المحاربة [**فزنّه أربط للجأش**] الجاش: روعة القلب واضطرابه.

[**وأسكن للقلوب**] ومدّ البصر مظنّة الخوف والفشل وعلامة لهما عند العدوّ وربّما خيف على البصر من بريق النصال والأسنّة.

[**وأميتوا الأصوات فإنّه طرد للفشل**] إذ كانت كثرة اللّغط والصياح علامة لخوف الصائح وذلك مستلزم لطمع العدوّ فيه وجرئته عليه.

[**ورايتكم فلا تميلوها**] فإن أمالتها مما يظنّ به العدوّ وتشويشاً

ولا تخلوها إلاّ بيد شجعانكم والمانعين الذمار منكم فإنّ الصبر على الحقائق في حلولها هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها حفافيها ورائها وأمامها لا يتأخّرون عنها فيسلّموها ولا يتقدّمون عليها فيفردوها أجزأ امرئ قرنه وآسى أخاه بنفسه وليواس أخاه بنفسه فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه وأيم اللّه لئن فررتم من سيف

واضطراب حال فيطمع ويقدم ولأنّها إذا أُميلت تغيب عن عيون الجيش فلا يهتدي أكثر الجيش إلى المطلوب.

[**ولا تخلوها**] وفي نسخة ولا تجعلوها [**إلاّ بيد شجعانكم والمانعين الذمار منكم**] الذمار: ما وراء الرجل مما يجب عليه حمايته والسبب في ذلك أن نظام العسكر على الراية وبها تقوى قلوبهم مادامت قائمة فيجب في ترتيب الحرب أن يكون حاملها أشجع القوم وأثبتهم جناناً.

[**فإنّ الصبر على الحقائق**] أي: الأمور الشديدة التي حقّ نزولها ولا شكّ [**في حلولها هم الذين يحفون براياتهم ويكتنفونها**] أي يحيطون بها [**حفافيها**] وحفافا الشيء جانباه [**ورائها وأمامها لا يتأخّرون عنها فيسلّموها**.

ولا يتقدّمون عليها فيفردوها] هذا معنى التخلية المنهي عنها ويسلّموها ويفردوها نصب بإضماران بعد الفاء في جوانب النفي.

[**أجزأ امرئ قرنه وآسى أخاه بنفسه**] فعلان ماضيان بمعنى الأمر أي: ولجزي امرؤ قرنه وهو خصمه وكفوه في الحرب أي: ليقارنه.

[**وليواس أخاه بنفسه**] في الذبّ عنه ولا يفرّ من قرينه اعتماداً على أخيه في دفعه.

[**فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه وأيم اللّه لئن فررتم من سيف**

العاجلة لا تسلمون من سيف الآجلة، أنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم زنّ في الفرار موجدة اللّه والذلّ اللازم والعار الباقي فإنّ الفارّ غير مزيد في عمره بفراره ولا محجوز بينه وبين يومه من رائح إلى اللّه

العاجلة لا تسلمون من سيف الآجلة] تحذير من الفرار لعدم فائدة فيه إذ الغاية المقصودة منه السلامة من الموت الذي لابدّ منه كما قال تعالى: ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلاً﴾.

وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾.

وقال تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾ واستعار لفظ سيف الآخرة للموت ووجه الشبه إبطالهما الحياة، وإنّما كان سيف الآخرة لأنّها غايته.

[**أنتم لهاميم العرب**] أي: أجوادهم وأشرافهم جمع لهموم.

[**والسنام الأعظم**] استعار لهم لفظ السنام لمشاركتهم إيّاه في العلوّ والرفعة ثمّ أكّد قبح الفرار بقوله: [**إنّ في الفرار موجدة اللّه**] أي: غضبه لأنّ الفار منه عاص لأمر اللّه والعاصي له ستحقّ لغضبه وعقابه.

[**والذلّ اللازم والعار الباقي**] في الأعقاب [**فإنّ الفارّ غير مزيد في عمره بفراره**] إذ هو بفراره لم يبلغ أجله المكتوب له فكان بقائه في مدّة الفرار من عمره لا زيادة فيه.

[**ولا محجوز بينه وبين يومه**] أي إنّ له يوماً قضي فيه أجله لا يحجز بينه وبينه فرار، وممّا ينسب إليه عليه السلام أي يومي من الموت أفر أيوم لا قدر أم يوم قدر فيوم لا قدر لا أرهبه ويوم قد قدر ما منه مفر [**من رائح إلى اللّه**

كالظمآن يرد الماء الجنّة تحت أطراف العوالي اللّهمّ فإن ردّوا الحقّ فافضض جماعتهم وشتّت كلمتهم وأبسلهم بخطاياهم إنّهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسم

كالظمآن يرد الماء] استفهام عمّن يسلك سبيل اللّه ويروح إليه كما يروح الظمآن استفهماً على سبيل العرض لذلك الرواح ووجه الشبه القوّة في السير والسعي الحثيث وكالظمآن في محلّ الرفع صفة الرائح أي من يروح إلى اللّه بهذه الصفة وقوله:

[**الجنّة تحت أطراف العوالي]** جمع عالية: القناة والرمح قيل هو إشارة إلى أنّ مطلوبه الرواح إلى اللّه بالجهاد وجذب إليه بذكر الجنّة وخصّها بجهة تحت لأنّ دخول الجنّة غاية من الحركات بالرماح في سبيل اللّه وتلك الحركات إنّما هي تحت العوالي وقد أطلق لفظ الجنّة على تلك الأفعال التي هي غاية منها مجازاً تسمية للشيء باسم غايته ثمّ أعقب ذلك بالدعاء فقال:

[**اللّهمّ فإن ردّوا الحقّ]** الذي يدعوهم إليه ويحضّهم عليه من المسارعة إلى الجهاد والاستعداد للقاء العدو.

[**فافضض جماعتهم]** أي: فرّقها.

[**وشتّت كلمتهم]** بأن لا يجتمعوا فعلاً وقولاً على أمر.

[**وأبسلهم]** أي: أسلمهم للهلاك [**بخطاياهم]** علّل ذلك بقوله [**إنّهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك]** أي: طعن متدارك يدرك بعضه بعضاً [**يخرج منه النسم]** أي: النفس كناية عن كونه يخرق الجوف والأمعاء بحيث يتنفّس للطعون من الطعنة وروي النسيم أي الريح وروي القشم بالقاف والشين المعجمة وهو اللحم والشحم.

وضرب بفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام حتّى يرموا بالمناشير تتبعها المناسر ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس وحتّى تدعق الخيول نواحر أرضهم وبأعنان مساربهم ومسارحهم لما أنكروا تحكيم الرجال ويذمّ فيه أصحابه إنّا لم نحكّم الرجال

[**وضرب بفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام حتّى يرموا بالمناشير تتبعها المناسر**] والمنسر القطعة من الجيش.

[**ويرجموا بالكتائب**] أي: الخيل [**تقفوها**] تتبعها [**الحلائب**] جمع حلوبة وهي الإبل.

[**وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس**] والخميس: الجيش، سُمّي بذلك لاشتماله على خمسة، مقدّمة وميمنة وميسرة وقلب ومؤخّرة.

[**وحتّى تدعق الخيول**] أي: تدخل وتجول [**نواحر أرضهم**] أي: أواخرها وأقاصيها جمع نحيّرة وهي آخر ليلة من الشهر مع يومها كأنّها تنحر الشهر المستقبل فتكون كناية عن أقاصيها [**وبأعنان مساربهم**] أي: مراعيهم واحدتها مسربة [**ومسارحهم**] مكان سرح أنعامهم.

ومن كلام له عليه السلام مع الخوارج

[**لما أنكروا تحكيم الرجال ويذمّ فيه أصحابه**] على ترك الجهاد والقتال قال عليه السلام:

[**إنّا لم نحكّم الرجال**] من حيث هم رجال.

وإنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطور بين الدفّتين لا ينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان وإنّما ينطق عنه الرجال ولما دعانا إلى ان يحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب اللّه وقال اللّه تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فردّه إلى اللّه أن نحكم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته فإذا حكم بالصدق في كتاب اللّه فنحن أحقّ الناس به وإن حكم بسنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فنحن أولاهم به

[**وإنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطور بين الدفّتين لاينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان وإنّما ينطق عنه الرجال**] الذي يعرفون تفسيره ويعقلون تأويله.

[**ولما دعانا**] القوم [**إلى ان يحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب اللّه**] بل أجبناهم إلى ذلك.

[**وقال اللّه تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول﴾ فردّه إلى اللّه أن نحكم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته فإذا حكم بالصدق في كتاب اللّه فنحن أحقّ الناس به وإن حكم بسنّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فنحن أولاهم به**] فلااعتراض علينا في تحكيمنا الرجال بعد شرطنا عليهم أن يحكموا بكتاب اللّه وسنّة رسوله فإذا لم يحكموا بذلك فاللّوم عليهم لا علينا ولو حكموا بكتاب اللّه أو سنّة نبيّه ﷺ لبان أنّ الأمر لنا دون غيرنا.

قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحديهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر اللّه

وأمّا قولكم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنّما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل ويثبت العالم ولعلّ اللّه أن يصلح

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

ومن المعلوم كونه عليه السلام أولي الأمر الذي تجب طاعته عقلاً ونقلاً أمّا النقل فللأخبار المتظافرة وأمّا عقلاً فلأنّه يقبح فرض إطاعة جميع الخلق لمخلوق يخطيء ويصيب وفيهم من هو أعلم منه وافضل واتقى وأورع وأصلح وأشجع ويقبح وجوب اتّباع جائز الخطأ ولا أحد جامعاً لهذه الأوصاف غير علي وأولاده المعصومين.

قال تعالى: ﴿إنّما وليّكم اللّه ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ وقد اتّفق المفسّرون على نزولها في عليّ مضافاً إلى الأخبار المتواترة.

وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين﴾ والصادق كالصدّيق هو المعصوم وإلاّ لوجب اتباع كلّ صادق فتعيّن وجوب اتّباعه واتّباع أولاده الطاهرين.

وأمّا النقل فلما تواتر عنه صلى الله عليه وآله بين الفريقين من قوله: «يا علي سلمك سلمي وحربك حربي» وقوله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار»، وقوله صلى الله عليه وآله لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية» إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة والآثار المتظافرة.

[**وأمّا قولكم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنّما فعلت ذلك ليتبيّن الجاهل**] وجه الحقّ.

[**ويثبت العالم**] في أمره بحيث يخلص من الشبهة [**ولعلّ اللّه أن يصلح**

في هذه الهدنة أمر هذه الأمّة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأوّل الغي إنّ أفضل الناس عند اللّه من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه وإن نقصه وكرثه من الباطل فأين يتاه بكم ومن أين أُتيتم استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به جفاة عن

في هذه الهدنة] أي: الصلح **[أمر هذه الأمّة ولا تؤخذ بأكظامها]** والكظم مجرى النفس والأخذ به كناية عن الإعجال والأخذ بغتة **[فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأوّل الغي]** فإنّه ﷺ لو أخذهم بالقتال بغتة ألجأهم إلى لزوم ضلالهم من غير ترو، وذلك يخالف مقصود الشارع من جمع الخلق على الدين.

ثم قال ﷺ: **[إنّ أفضل الناس عند اللّه من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه وإن نقصه وكرثه]** أي: حزبه **[من الباطل]** متعلّق بأحبّ إليه، وإن نقصه وكرثه اعتراض بينهما والحكم في ذلك ظاهر إذ كان ملازم الحق أتقى الخلق والأتقى أفضل عند اللّه، كما قال تعالى: ﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ وقوله:

[فأين يتاه بكم] أي: إلى أي غاية يكون هذا التيه والضلال الذي أخذتم فيه، وفيه إشارة إلى أنّ ذلك التيه فعل الغير بهم.

[ومن أين أُتيتم] أي: من أيّ وجه دخلت عليكم هذه الشبهة، والسؤال من باب تجاهل العارف، ثمّ أعقب ذلك بالأمر بالجهاد وقال:

[استعدّوا للمسير إلى قوم حيارى عن الحقّ لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به] يقال: أوزع بكذا فهو موزع إذا أغرى به **[جفاة عن**

الكتاب نُكَّب عن الطريق ما أنتم بوثيقة يُعلَق بها ولا زوافر عزٍّ يعتصم إليها لبئس حُشّاش نار الحرب أنتم أُف لكم لقد لقيت منكم برحاً يوماً أُناديكم ويوماً أُناجيكم فلا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء

الكتاب] متجافين عنه وعن أحكامه قد نبذوه وراء ظهورهم **[نُكَّب]** بتشديد الكاف جمع ناكب وهو العادل **[عن الطريق]** القويم والصراط المستقيم وكلّ ذلك إعراء بهم وقوله:

[ما أنتم بوثيقة] أي: بعروة وثيقة **[يُعلَق بها]** يتمسّك بها.

[ولا زوافر عزٍّ يعتصم إليها] وزوافر الرجل أنصاره وعشيرته وهو عتاب لهم وتضجّر منهم على قلّة طاعته.

[لبئس حُشّاش نار الحرب أنتم] الحُشّاش جمع حاش وهو موقد النار وكذلك الحشّاش بكسر الحاء وتخفيف الشين كنائم ونوّام ونيام وقيل هو ما يحشّ به النار أي: يوقد.

[أُف لكم] كلم تضجّر منهم ومن أفعالهم **[لقد لقيت منكم برحاً]** بسكون الراء: الشدّة والأذى، يقال: ألقيت منه برحاً بارحاً وروي ترحاً وهو الحزن **[يوماً أُناديكم]** أي: أدعوكم إلى النصرة وأستغيث بكم **[ويوماً أُناجيكم]** أي: أُعاتبكم وأُجادلكم على تقصيركم **[فلا]** أنتم **[أحرار عند النداء]** إذ الحرّ من شأنه إجابة الداعي وإغاثة المستغيث والوفاء بالوعد ولستم كذلك **[ولا إخوان ثقة عند النجاء]** لأنّ أخا الثقة إذا ذلّ وعوتب من أخيه انعتب وإذا أجرح واعتذر إليه رجع إلى صفاء الآخرة لمكان وثاقتها ولستم من ذلك في شيء.

لمّا عُوتب على تصيره الناس اسوة بالعطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف فقال عليه السلام : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف وإنّما المال مال الله ولهم

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا عُوتب على تصيره الناس اسوة**] أي: متساويين [**بالعطاء من غير تفضيل أولي السابقات والشرف فقال عليه السلام : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه**] كأنّهم قالوا له: إن فضّلت هؤلاء كانوا معك بقلوبهم ونصروك فأجابهم بذلك، والجور العدول عن سبيل الله بالتفضيل، حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول صلى الله عليه وآله.

[**والله لا أطور به**] أي: لا أقربه والضمير للتفضيل في العطاء [**ما سمر سمير**] السمير: الدهر أي: لا أقربه الدهر كلّه وكذا يقال لا أفعله ما سمر بنا سمير وابتاه الليل والنهار.

[**وما أمّ نجم في السماء نجماً**] كذلك هو كناية أن لا يفعله أبداً [**لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف**] لا أسوّي بينهم.

[**وإنّما المال مال الله ولهم**] قيل ووجه ذلك أنّ التسوية هي العدل الذي به تجتمع النفوس على النصرة وتتآلف لهم على مقاومة العدوّ دون التفضيل المستلزم لانكسار قلوب المفضولين مع كثرتهم فلو كان المال له مع كونه بطباع البشريّة الميّالة إلى شخص دون شخص ليسوي بينهم فكيف والمال لله الذي

ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند اللّه ولم يضع امرئ ماله في غير حقّه وعند غير أهله إلّا حرمه اللّه شكرهم وكان لغيره ودّهم وإن زلّت به النعل يوماص فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خليل وألأم خَدين

تساوى نسبة الخلق إليه وما لهم الذي فرضه اللّه لهم على سواء.

ثمّ قال عليه السلام [**ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف**] وهما طرفا الإفراط من فضيلة السخاء ﴿إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ ﴿وإنّ اللّه لا يحبّ المسرفين﴾.

[**وهو يرفع صاحبه في الدنيا**] بذكر الكرم ومدحه بين العوام المعامّة ومن لا يعرف حقيقة الكرم.

[**ويضعه في الآخرة**] إذ كان به على طرف زويله وقد فعل خلاف ما أمره اللّه به.

[**ويكرمه في الناس ويهينه عند اللّه ولم يضع امرئ ماله في غير حقّه**] الذي لم يفرضه الشارع ولم يسوّغه [**وعند غير أهله**] الغير المفروض لهم [**إلّا حرمه اللّه شكرهم وكان لغيره ودّهم وإن زلّت به النعل يوماص فاحتاج إلى معونتهم**] ومساعدتهم.

[**فشرّ خليل وألأم خَدين**] والخدين الصديق، وذلك معلوم بحسب الاستقراء والوجدان وربّما بلغ التجربة، وقيل أراد بالذين يمنعه اللّه شكرهم الذين أعطاهم المال من غير أهله ويلوح من سرّ ذلك أنّ عطاء غير المال لغير أهله يكون إمّا رغبة أو رهبة للمعطى من دون اللّه ويصير الأخذ إلى تلك الجهة يمنعه عن الشكر ويصرفه عن معاونة المعطي.

فإن أبيتم إلّا أن تزعموا أنّي أخطأت وضللت فلم تضللون عامّة أمّة محمد صلّى اللّه عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطأي وتكفّرونهم بذنوبي وسيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البراءة والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب وقد علمتم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله رجم الزاني ثمّ صلّى

ومن كلام له عليه السلام
أيضاً للخوارج

لمّا أصرّوا على تكفيره وتكفير أصحابه [**فإن أبيتم إلّا أن تزعموا أنّي أخطأت وضللت**] فإنّهم كانوا يزعمون أنّهم ضلّوا بالتحكيم وكلّ ضال كافر ينتج أنّهم كفّار، فأبان عليه السلام سابقاً أنّ التحكيم لم يكن منه خطأً ولا ضلالاً، ثمّ استدرجهم هنا بأنّه هب أنّي أخطأت أو ضللت كما زعمتم.

[**فلم تضللون عامّة أمّة محمد صلّى اللّه عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطأي وتكفّرونهم بذنوبي وسيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البراءة والسقم**] أي تقتلون البريء والسقيم.

[**وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب**] فإنّهم كانوا يقتلون حين اعتزالهم عنه كلّ من خالف اعتقادهم ثمّ استشهد عليهم بفعل الرسول صلّى الله عليه وآله فيمن أخطأ وأنّه لم يكفّرهم بذنوبهم فقال:

[**وقد علمتم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله رجم الزاني ثمّ صلّى**

عليه ثمّ ورّثه أهله وقتل القاتل وورّث أهله ميراثه وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثمّ قسّم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات فأخذهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بذنوبهم ولم يخرج أسمائهم من بين أهله ثمّ أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه وسيهلك فيَّ صنفان محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحقّ

عليه ثمّ ورّثه أهله وقتل القاتل] للنفس قصاصاً **[وورّث أهله ميراثه وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثمّ قسّم عليهما من الفيء ونكحا]** أي: السارق والزاني **[المسلمات]** أي: لم يمنعهم استحقاق القطع والجد من حصّتهما من الفيء ولا من نكاح المسلمات.

[فأخذهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله بذنوبهم ولم يخرج أسمائهم] ضمير الجمع فيه وفيما قبله يرجع إلى كلّ من جرى ذكره من المذنبين وضمير **[من بين أهله]** يرجع إلى الإسلام.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان ذمّهم فقال:

[ثمّ أنتم شرار الناس] حيث تجرّأتم على قتل من لا يستحقّ القتل وتكفير المسلمين.

[ومن رمى به الشيطان مراميه] يرامي الشيطان الخطايا والمعاصي.

[وضرب به تيهه] حيث لا يهتدي الضال لوجه الحق.

[وسيهلك فيَّ صنفان محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ] إشارة إلى الذين اتّخذوه إلهاً وإلى الغلاة ونحوهم.

[ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحقّ] كالخوارج والنواصب

وخير الناس النمط الأوسط فالزموه والزموا السواد الأعظم فإنّ يد الله على الجماعة وإيّاكم والفرقة فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب ألا من دعى إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه

ونحوهما.

[**وخير الناس النمط الأوسط فالزموه**] وهم أهل العدل في الحب والنمط الأوسط الجماعة من الناس أمرهم واحد وفي الخبر «خير هذه الأُمّة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم القالي» فالتالي هو المقصّر الواقف في طرف التفريط والغالي الصائر زلى طرف الإفراط.

[**والزموا السواد الأعظم**] وهو ما عليه جمهور المسلمين والمتّفقين على عمود الإسلام المتمسّكين بالكتاب والسنّة.

[**فإنّ يد الله على الجماعة**] أراد باليد عناية الله وقدرته مجازاً، إذ كانوا أمنع وأبعد عن الانفعال للعدوّ وآمن من الغلط لكثرة آرائهم واتّفاقها فلا تكاد تتفق على أمر لا مصلحة فيه مع كثرتها واختلافها.

[**وإيّاكم والفرقة**] والاختلاف.

[**فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب**] لتطرّق الهلاك إلى المنفرد باستغواء الشيطان له كما أنّ الشاة المنفردة في مظنّة الهلاك لانفرادها ووحدتها للذئب.

[**ألا من دعى إلى هذا الشعار**] وهو مفارقة الجماعة والاستبداد بالرأي [**فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه**] مبالغة في الكلام كنّى بها عن أقصى القرب من عنايته أي ولو كان ذلك الداعي إلى هذا الحدّ من عنايتي به وقيل

وإنّما حكم الحكمان ليُحْيِيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحيائه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه فلم آت ـ لا أباً لكم ـ بُجْراً ولا ختلتكم عن أمركم ولا لبّسته عليكم إنّما اجتمع رأي ملائكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعدّيا القرآن فتاها عنه وتركا الحقّ وهما يُبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما

أراد ولو كان ذلك الداعي أنا.

ثمّ أشار عليه السلام إلى الجواب عن شبهة التحكيم بقوله:

[**وإنّما حكم الحكمان ليُحْيِيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحيائه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه**] وهو إطلاق مجازي والعلاقة فيهما باعتبار كونهما في الاجتماع والعمل به مظهرين لمنفعته وفائدته كما يفعله موجد الحياة وكونهما في تركه والإعراض عنه سبباً لبطلان منفعته وعدم فائدته كما يفعله مميت الشيء ومبطل حياته وقوله:

[**فلم آت ـ لا أباً لكم ـ بُجْراً**] البجر: الشر والأمر العظيم، لمّا بيّن عليه السلام وجه عذره في التحكيم أنكر أن يكون فعله ذلك مشتملاً على قصد شرّ أو خديعة وتلبيس كما قال:

[**ولا ختلتكم عن أمركم**] والختل: الخديعة [**ولا لبّسته عليكم**] من غير اتفاق منكم ومراجعة لكم بل [**إنّما اجتمع رأي ملائكم**] أي: أشرافكم وكبرائكم الذين يملئون النظر والصدر [**على اختيار رجلين أخذنا عليهما**] العهد والميثاق [**أن لا يتعدّيا القرآن فتاها عنه وتركا الحقّ وهما يُبصرانه**] تنبيهاً على أنّ تركهما لا عن سهو ونسيان.

[**وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما**

في الحكومة بالعدل والصمد للحقّ سوء رأيهما وجور حكمهما مما يخبر به عن الملاحم بالبصرة يا أحنف كأنّي به وقد سار بالجيش

في الحكومة بالعدل والصمد] أي: القصد **[للحقّ سوء]** مفعول به لسبق أي: سبق استثنائنا سوء **[رأيهما]** الفاسد **[وجور حكمهما]** الكاسد وحاصل الأمر أنّا إنّما رضينا بالحكمين بشرط أن يحكما بكتاب اللّه والمشروط يعدم بعدم شرطه فحيث خالفا الشرط عمداً وجبت مخالفتهما.

ونسب عليه السلام اختيار الحكمين إلى الملأ منهم وأخذ العهد في اتباع الكتاب إلى نفسه تنبيهاً على أنّ أخذ العهد عليهما كان منه أو بشركته دون تعيينهما للحكومة لما تواتر أنّه صلى الله عليه وآله لم يكن راضياً بنصب أبي موسى الأشعري وإنّما أكره عليه.

ومن كلام له عليه السلام

وهو **[مما يخبر به عن الملاحم بالبصرة]** يخاطب الأحنف بن قيس لأنّه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه ونسبه كان إسلام بني عتيم حين دعاهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى الإسلام فلم يجيبوا فقال لهم الأحنف إنّه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملائمها فأسلموا وأسلم الأحنف وشهد مع عليّ عليه السلام صفّين ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين.

[يا أحنف كأنّي به] أي صاحب الزنح واسمه عليّ بن محمد علوي **[وقد سار بالجيش]** وهم الزنج وواقعتهم بالبصرة مشهورة وقوله:

الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لُجُم ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام النعام ويل لسككم العامرة والدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة

[**الذي لا يكون له غبار**] إشارة إلى أنّهم لم يكونوا أهل خيل [**ولا لجب**] أي صوت هائل.

[**ولا قعقعة لُجُم**] جمع لجام معروف أي: أصواتها.

[**ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم**] كناية عن كونهم حفاة في الأغلب مشقّقي الأقدام فهي من اعتياد الحفا ومباشرة الأرض كالخشب ونحوه فكانت مظنّة إثارة التراب عوضاً من حوافر الخيل [**كأنّها**] أي: أقدامهم [**أقدام النعام**] قيل إنّ أقدامهم في الأغلب قصار عراض منتشرة الصدور ومفرّقات الأصابع فهي من عرضها لا يتبيّن لها طول فأشبهت أقدام النعام في بعض تلك الأوصاف.

قال السيد: يومي بذلك إلى أنّ صاحب الزنج.

ثمّ قال: [**ويل لسككم العامرة**] أخبر بالويل لمحال البصرة والسكّة المحلّة [**والدور المزخرفة**] أي: المزوّقة [**التي لها أجنحة كأجنحة النسور**] وقيل استعار الأجنحة للقطانيات التي تعمل من الأخشاب والبواري بادرة عن السقوف كالوقاية للمشارف والحيطان عن آثار الأمطار وهي أشبه الأشياء في هيئتها وصورة وصفها بأجنحة كبار الطيور كالنسور.

أقول: والظاهر أنّ هذه تسمّى الآن باصطلاح هذا الزمان طرّه و——

وقوله: [**وخراطيم كخراطيم الفيلة**] استعارة للميازيب التي تعمل من الخشب والخوص على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقير تكون نحواً من

من أُولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفقد غائبهم أنا كابُّ الدنيا لوجهها وقادرها بقدرها وناظرها بعينها

خمسة أذرع او أزيد تدلّى من السطوح حفظاً للحيطان من أذى السيل أيضاً، وهي أشبه الأشياء في صورتها بخراطيم الفيلة، وقوله:

[**من أُولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفقد غائبهم**] قيل هذا وصف لهم بشدّة البأس والحرص على الحرب والقتال وأنّهم لا يبالون بالموت ولا يأسفون على من فُقد منهم، وقيل: وصفوا بذلك لأنّهم لا أصول لهم ولا أهل لأكثرهم من أُمّ او أُخت ممّن عادته أن ينوح ويندب قتيله ويفقد غائبه لكون أكثرهم غرباء في البصرة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى زهده في هذه الدنيا ورغبته عنها بقوله: [**أنا كابُّ الدنيا لوجهها**] يقال: كببت فلاناً لوجهه: إذا تركته ولم التفت إليه.

[**وقادرها بقدرها**] أي: معادل لها بمقدارها ولمّا كان مقدارها حقيراً عنده كان العناية إليها التفاتاً حقيراً حسب ضرورة البقاء فيها.

[**وناظرها بعينها**] أي: معتبرها بالعين التي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كون غرّراة ضرّارة زائلة خائلة إلى غير ذلك من أوصافها وأنّها مزرعة الآخرة وطريق إليها غير مطلوبة لذّاتها وأنّها جسر ينبغي أن تعبر ولا تعمّر.

يرمي إلى وصف الأتراك كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجانُّ المطرقة يلبسون السرق الديباج ويعتقبون الخيل والعتاق ويكون هناك استحرار قتل حتّى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت أقلّ من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أميرالمومنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل وكان كلبيّاً: يا أخاكلب ليس هو بعلم غيب

ومن كلام له عليه السلام

[**يرمي إلى وصف الأتراك كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجانُّ**] بالفتح جمع مجن بكسر الميم وهو الترس أو [**المطرقة**] بضمّ الميم وتخفيف الراء وفتحها التي اطرقت بالجلود وقيل التي تطبق وتخصف كطبقات النعل ووجه الشبه بالتروس الاستدارة والعظم والانبساط وفي كونها مطرقة الخشونة والغلظ.

[**يلبسون السرق**] بفتح السين والراء شفق الحرير واحدتها شرقة قال أبو عبيدة: هي البيض منها وهو فارسيّ معرّب أصله سرماي جيد كالاستبرق الغليظ من [**الديباج ويعتقبون الخيل**] أي: يحتبسونها ويربطونها [**والعتاق**] يقال فرس عتيق أي: رابع.

[**ويكون هناك استحرار قتل**] أي: اشتداده، استحرّ القتل وحرّ أي: اشتدّ [**حتّى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت**] من القتل [**أقلّ من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أميرالمومنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل وكان كلبيّاً: يا أخاكلب ليس هو بعلم غيب**

وإنّما هو تعلُّمٌ مـن ذي علم وإنّما علم الغيب علـم الساعة ومـا عدّد الله سبحانه بقوله ﴿إنّ اللّه عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون في النّار حطباً وفي الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا اللّه وما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه وآله فعلَّمنيه ودعى لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي

[**وإنّما هو تعلُّمٌ من ذي علم وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدّد اللّه سبحانه بقوله ﴿إنّ اللّه عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى وقبيح أو جميل وسخيّ أو بخيل وشقي أو سعيد ومن يكون في النّار حطباً**] أي: أهل النار، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾.

[**وفي الجنان للنبيين مرافقاً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أُولئك الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً﴾.

[**فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلّا اللّه وما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه وآله فعلَّمنيه ودعى لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي**] كنّى بالجوارح عن القلب لاشتماله عليه، وحاصل فرقه عليه السلام بين علم الغيب وغيره بما يعود خلاصته إلى ما كان بواسطة معلّم ومفيد فليس بعلم غيب ومن كان من دون واسطة فهو علم الغيب.

عباد اللّه إنّكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجّلون ومدينون مقتضون أجل منقوص وعمل محفوظ فرُبّ دائب مضيّع وربٍّ كادح خاسر

ومن خطبة له عليه السلام
في ذكر المكاييل والموازين

[**عباد اللّه إنّكم وما تأملون من هذه الدنيا أثوياء**] جمع ثوي على فعيل وهو الضيف [**مؤجّلون**] استعار لفظ الضيف ووجه شبههم للضيف في تأجيل الإقامة وانقطاع وقته وقرب رحيله ومؤجّلون ترشيح للاستعارة.

[**ومدينون**] اي عليهم دين، وأراد كونهم مكلّفين بأمور تقتضي منهم وتطلب ورشح ذلك بقوله [**مقتضون**] لأنّ شأن المدين أن يقتضى منه الدين.

ثمّ لمّا ذكر كونه مؤجّلين ومدينين كوّر ذكر الأجل بوصف النقصان فقال:

[**أجل منقوص**] ولا شكّ في نقصان ما لا يبقى.

[**وعمل محفوظ**] عليهم لا يتطرّقه زيادة ونقصان ولا سهو ولا نسيان وأجل وعمل خبر مبتدأ محذوف أي: أملكم أجل منقوص وعملكم عمل محفوظ [**فرُبّ دائب**] اي: مجدٌّ في العمل [**مضيّع**] لعمله [**وربٍّ كادح**] أي: عامل [**خاسر**] تنبيه على أنّ العمل وإن قصد به الصلاح إلاّ أنّه قد يقع على وجه الغلط وقد يكون فاسداً وشبّه على صاحبه زعمه صحيحاً وقد زيّن له سوء عمله كما قال تعالى: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ وقال

قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً ولا الشرّ إلّا إقبالاً ولا الشيطان في إهلاك الناس إلّا اطماعاً فهذا أوان قويت عُدَّته وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تنظر إلّا فقيراً يكابد فقراً

تعالى: ﴿قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في التشكّي من الزمان وأهله فقال:

[**قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً ولا**] يزداد فيه [**الشرّ إلّا إقبالاً**] لأنّه كلّما بعد عن وقت ظهور الشريعة وطراوتها ضعف الدِّين وتجرّى الناس على معاي اللّه أكثر وما من يوم إلّا وتموت فيه سنّة وتحى فيه بدعة.

[**ولا**] يزداد [**الشيطان في إهلاك الناس إلّا اطماعاً**] أي: في هلاك دينهم الذي يكون غايته هلاكهم في الآخرة [**فهذا أوان قويت عُدَّته**] أي: استعداده وسلطانه.

[**وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته**] استعار الفريسة لمطاوعي الشيطان والمغفّلين عنه، ووجه الاستعارة بلوغه منهم مراده وتصريفه لهم لغاية هلاكهم كالأسد مع فريسته.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان ما أجمله من ازدياد الشرّ يوماً فيوماً وقال:

[**اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تنظر إلّا فقيراً يكابد فقراً**] ويقاسي شدائد الفقر والفاقة.

أو غنيّاً بدّل نعمة اللّه كفراً أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ اللّه وفراً أو متمرّد كأنّ بأُذنه عن سماع المواعظ وقراً أين خياركم وصلحائكم وأين أحراركم وسمحائكم وأين المتورّعون في مكاسبهم والمتنزّهون في مذاهبهم أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنيّة والعالة المنقصة

[**أو غنيّاً بدّل نعمة اللّه كفراً**] بأن ترك شكر ربّه وأعرض عن شكر نعمه التي لا تحصى بل جعل موضع الشكر كفران النعم.

[**أو بخيلاً اتّخذ البخل بحقّ اللّه وفراً**] أي: إنّ البخيل يقصد ببخله بحقّ اللّه على مستحقّه توفير المال والزيادة فيه.

[**أو متمرّد**] عن طاعة ربّه [**كأنّ بأُذنه عن سماع المواعظ وقراً**] يمنعه من السماع، شبّه عليه السلام تجافي قلبه ونبو ذهنه المانعين من إصغائه واستماعه لما يصلحه بالوقر والصمم الذي يكون في الاذن.

[**أين خياركم وصلحائكم**] سؤال من باب تجاهل العارف تنبيهاً لهم على ما صاروا إليه من الفناء وفراق الدّنيا.

[**وأين أحراركم وسمحائكم**] وأراد بالأحرار: الكرماء.

[**وأين المتورّعون في مكاسبهم**] الملازمون للأعمال الجميلة فيها من التقوى والمسامحة وإخراج حقوق اللّه [**والمتنزّهون في مذاهبهم**] عن المحارم والشبهات في مسالكهم وحركاتهم.

[**أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنيّة والعالة المنقصة**] للذات بالآلام حتّى ادّعى جملة من العارفين أنّ كلّ لذّة في الدنيا إنّما هي خلاص من ألم.

وهل خلّفتم إلاّ في حثالة لا تلتقي بذمّهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون ظهر الفساد فلا منكر مغيّر ولا زاجر يزدجر أفبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه وتكونوا أعزّ أوليائه عنده هيهات لا يخدع اللّه عن جنته ولا تنال

[**وهل خلّفتم إلاّ في حثالة**] وهي في الاصل الثفل ويراد به الردى من كلّ شيء [**لا تلتقي بذمّهم الشفتان**] أي: إنّهم أحقر من أن يشتغل الإنسان بذمّهم [**استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم**] منصوبان على المفعول له واستعار لفظ الحثالة لرعاع الناس وهمجهم [**فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون**] حسن إيراد الآية لأنّ فقد الأخيار وبقاء الأشرار مصاب عظيم ورزء جسيم ينبغي عنده الاسترجاع.

[**ظهر الفساد**] في البحر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

[**فلا منكر مغيّر**] للفساد.

[**ولا زاجر يزدجر**] إشارة إلى أنّه وإن كان فيهم من ينكر ويزجر إلاّ أنّه لا يغيّره ما ينكره ولا يزدجر عن مثله، وذلك من قبائح الأعمال والرياء فيها.

[**أفبهذا**] أي: أفبهذه الأعمال الفاسدة والأحوال الكاسدة والأخلاق الرذيلة [**تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه**] وجنّته التي هي مقام الطهارة عن نجاسات الهيئات البدنية تنزيه ذات اللّه والطهارة عن اتّخاذ الشركاء والأنداد [**وتكونوا أعزّ أوليائه عنده هيهات**] هيهات [**لا يخدع اللّه عن جنته**] إشارة إلى أنّ أعمالهم وأحوالهم خداع حيث حسنوا ظواهرهم وخبثوا بواطنهم واللّه تعالى لا ينخدعلعلمه بالسرائر وإحاطته بالضمائر [**ولا تنال**

مرضاته إلّا بطاعته لعن اللّه الآمرين بالعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به.

لأبي ذرّ رحمه اللّه لما أُخرج إلى الربذة يا أباذر إنّك غضبت للّه

مرضاته إلّا بطاعته] الحقيقة الخالصة دون الظاهرة ثمّ قال:

[لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به] لأنّهم بذلك منافقون ولمن يقتدى بهم معرون.

ومن كلام له عليه السلام

[لأبي ذرّ رحمه اللّه لما أُخرج إلى الربذة] وهو موضع قريب إلى المدينة أخرجه عثمان إليها لإغلاظه في الكلام وإنكار المنكر منهم وكان يتجاهر بموالاة أهل البيت وبغض أعدائهم قويّاً في اللّه شديداً يأمر بالمعروف وينكر المنكر بلسانه وقلبه وهو الذي قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر» وكان يأخذ بحلقة الكعبة ويقول: أنا أبوذر الغفاري فمن لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول اللّه صلى الله عليه وآله سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق» ولم يزل ينكر على عثمان أفعاله ويغلّظ معه القول حتّى نفاه إلى الربذة فأتى أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده وأصحابه مشيّعين له وقال له عليه السلام:

[يا أباذر إنّك غضبت للّه] يكفيه شهادته عليه السلام له بأنّ إنكاره هذا عليهم

فَارْجُ ما غضبت له إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك واهرب منهم بما خفتهم فما أحوجهم إلى ما منعتم منه وما أغناك عمّا منعوك عنه وستعلم من الرابح غداً الأكثر حسداً ولو أنّ السموات والأرضين كانت على عبد رتقاً ثمّ اتّقى اللّه لجعل له منهما مخرجاً

كان خالصاً لوجه اللّه ولم يكن لغرض ولا في قبه مرضه [**فَارْجُ ما غضبت له**] ولا تبال بإعراضهم وأذيّتهم إيّاك [**إنّ القوم خافوك على دنياهم**] وعلى زوال الخلافة والإمارة بتنفيرك الناس عنهم.

[**وخفتهم على دينك**] باجتناب موافقتهم وأخذ عطائهم.

[**فاترك في أيديهم ما خافوك**] عليه.

[**واهرب منهم بما خفتهم**] أي: بدينك الذي خفتهم عليه.

[**فما أحوجهم إلى ما**] أي: إلى دينك الذي [**منعتم منه**] إذ قوام نظام الإنسان وحقن دمه وماله بالدِّين فلا يُستغنى عنه في نظام معاشه ومعاده.

[**وما أغناك عمّا منعوك عنه**] من دنياهم فإنّ الرزق مقدّر من اللّه يأتي الإنسان بحسب ما قُدِّر له لا محالة وإن سدّ دونه باب فتحت له أبواب وأبى اللّه أن يجعل رزق المؤمن إلاّ من حيث لا يحتسب.

[**وستعلم من الرابح**] ومن الخاسر [**غداً**] أي: يوم القيامة أي: علم عيان فلا ينافي علمه اليوم بذلك بالبرهان، وستعلم أيضاً [**الأكثر حسداً**] إذ تارك الدنيا أربح من المقبل عليها وأكثرية الحسد من لواحق أكثرية الربح.

وقولهك [**ولو أنّ السموات والأرضين كانت على عبد رتقاً**] أي: في غاية الضيق وشدّته [**ثمّ اتّقى**] العبد [**اللّه**] ربّه [**لجعل**] اللّه [**له منهما مخرجاً**]

لا يؤنسنّك إلّا الحقّ ولا يوحشنّك إلّا الباطل ولو قبلت دنياهم لأحبّوك ولو قَرَضْتَ منها لأمَّنُوكَ أيّها النفوس المختلفة والقلوب المتشتّتة الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم أظأركم على الحقّ

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، قال ابن عباس: قرء رسول اللّه صلى الله عليه وآله ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً﴾ قال من شبهات الدنيا وعن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة.

ثمّ أمر عليه السلام بالاستئناس بالحقّ والاستيحاش من الباطل فقال عليه السلام: [**لا يؤنسنّك إلّا الحقّ ولا يوحشنّك إلّا الباطل**] وأكّد الحصر في المؤمنين بقوله وحسن تنفيراً عن أن يستوحش من حقّ ما فيترك وينفر عنه وإن صعب وشقّ على النفس ويستأنس بباطل ما أو يسكت عليه.

ثمّ نبّه عليه السلام على علّة بغضهم وإخافتهم له بقوله: [**ولو قبلت دنياهم لأحبّوك**] لموافقتك لهم بحبّك ما يحبّون وكراهتك ما يكرهون [**ولو قَرَضْتَ منها**] كنّى بالقرض عن الأخذ منهم وقبول عطاياهم [**لأمَّنُوكَ**] واطمأنّوا منك فلم يخرجوك.

ومن كلام له عليه السلام

[**أيّها النفوس المختلفة والقلوب المتشتّتة**] أي: المتفرّقة عن مصالحها وما خلقت لأجله [**الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم**] لذهولهم عن رشدهم وعدم التفاتهم إلى مصالح دنياهم وأُخراهم [**أظأركم**] أي: أعطكم [**على الحقّ**] وأحثّكم عليه وأستجلبكم إليه.

وأنتم تفرّون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد هيهات أن أطلع بكم سرار العدل وأُقيم اعوجاج الحقّ اللّهمّ إنّك تعلم إنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك، اللّهمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلاّ رسول اللّه بالصلاة وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم

[**وأنتم تفرّون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد**] أي: صوته، ووجه الشبه شدّة نفارهم عن الحقّ [**هيهات**] هيهات [**أن أطلع بكم سرار العدل**] أي: ما خفي منه.

[**وأُقيم اعوجاج الحقّ**] استبعاد لإظهاره العدل وإقامة الدِّين بمثلهم على ما هم عليه من قلّة طاعته. ثمّ عقّب ذلك باستشهاد اللّه سبحانه فقال:

[**اللّهمّ إنّك تعلم إنّه لم يكن الذي كان منّا**] من هذه الحرب والمقاتلة [**منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنردّ المعالم من دينك**] وهي الآثار التي يهتدى بها [**ونظر الإصلاح في بلادك**] بإعانة المظلوم وردع الظالم [**فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدودك، اللّهمّ إنّي أوّل من أناب**] أي: رجع إلى اللّه تعالى عمّا لعلّه كان يعدّ في حقّه ذنباً من خلاف الأولى [**وسمع**] أي: أطاع اللّه [**وأجاب**] داعي اللّه [**لم يسبقني إلاّ رسول اللّه**] ﷺ [**بالصلاة**] أشار عليه السلام إلى تميّز الإمام بفضائل يجب أن تكون فيه وإلى رذائل يجب تنزيهها عنه.

[**وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم**

والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلّهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الخائف فيتّخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع الحقّة ولا المعطّل للسنّة فتهلك الأُمّة

والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته] والنهمة الحرص على الدنيا، وذلك لشدّة حرصه على الدّنيا ورغبته فيما في أيدي الناس ويستلزم ذلك نفارهم عنه وعدم انتظام الأحوال به.

[**ولا الجاهل]** بقوانين الدّين وتدبير أمر العالم لأنّه ضال [**فيضلّهم بجهله]** وذلك ضدّ مقصود الشارع من الاتفاق والاجتماع على الحقّ [**ولا الجافي فيقطعهم بجفائه]** لأنّ جفائه يستلزم الثغرة والانقطاع عنه وذلك عند الأُلفة والاجتماع المطلوب من الشارع.

[**ولا الخائف]** من الدول [**فيتّخذ قوماً دون قوم]** ويعتني بمن يخافه دون غيره وذلك ظلم لا ينتظم معه نظام العالم [**ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها]** على الحيف [**دون المقاطع الحقّة]** فتراه إذا أراد فعل قضية دافع بها طويلاً وصبّ الحقّ وعرّض بغموضه وأشار بالصلح بين الخصمين مع ظهور الحقّ لأحدهما ومطلبه من ذلك تخويف صاحب الحقّ من فواته ليميل إلى الصلح والرضا ببعض حقّه مع أنّه قد يأخذ منه رشوة أيضاً وربّما كانت في المقدار كرشوة المبطل منهما.

[**ولا المعطّل للسنّة فتهلك الأُمّة]** بتضييعه قوانين الشريعة وإهمالها وذلك يستلزم فساد نظام الدنيا والهلاك الدائم في العقبى.

وأشار عليه السلام برذيلة الجهل وخوف الدول وتعطيل السنّة إلى خروج معاوية عن الصلاحيّة لها وبالبخل خرج الزبير وبالجفاء خرج طلحة.

الحمد للّه على ما أخذ وأعطى وعلى ما أبلى وابتلى الباطن لكلّ خفيّة الحاضر لكلّ سريرة العالم بما تكنّ الصدور وما تخون العيون ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمداً نجيبه وبعيثه شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان والقلب اللّسان فإنّه واللّه الجدّ لا اللّعب والحقّ لا الكذب وماهو

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه**] وفي نسخة نحمده والضمير يعود إلى اللّه سبحانه [**على ما أخذ وأعطى وعلى ما أبلى وابتلى**] نبّه بذلك على وجوب شكره تعالى في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء.

[**الباطن لكلّ خفيّة**] أي: المطّلع على خفايا السرائر.

[**الحاضر لكلّ سريرة**] أي: المحيط بما في الضمائر، قال تعالى: ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾ [**العالم بما تكنّ الصدور**] أي: تخفيها.

[**وما تخون العيون**] أي: خائنة الأعين واستراقها كما مرّ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

[**ونشهد أن لا إله غيره وأنّ محمداً نجيبه وبعيثه**] أي: منتجبه وبمعوثه فعيل بمعنى مفعول [**شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان والقلب اللّسان**] أي: شهادة خالصة من الرياء والنفاق كما مرّ.

ومنها

[**فإنّه واللّه الجدّ لا اللّعب والحقّ لا الكذب**] مرجع الضمير ما يستفاد من معنى كلامه وهو التحذير والإنذار وكذا الذي في قوله [**وما هو**

إلاّ الموت أسْمعَ داعيه وأعجل حاديه فلا يغرنّك سواد الناس من نفسك قد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال وحذر الإقلال وامن العواقب طول الامل واستبعاد الأجل كيف نزل به الموت فأزعجه من وطه وأخذ من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا تتعاطى به الرجال حملاً على المناكب وإمساكاً بالأنامل أما رأيتم الذين يأملون بعيداً ويبنون مشيداً

إلاّ الموت] أي: وما الذي أحذّركم هجومه عليكم إلاّ الموت [**أسْمعَ داعيه وأعجل حاديه]** الجملتان نصب على الحال من معنى الإشارة.

[**فلا يغرنّك سواد الناس]** أي: كثرتهم [**من نفسك]** الأمّارة بالسوء والحال انّك [**قد رأيت من كان قبلك ممّن جمع المال]** بدل بعض من كل من قوله من كان أي كما نزل بأولئك الموت وأزعجهم عن أوطانهم فكذلك أنتم.

[**وحذر الإقلال وأمن العواقب طول الأمل]** بالنصب مفعول له أي: فعلوا ذلك لأجل طول الأمل ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال وأن يكون ظرفاً والعامل أمن وقيل بدل من قوله من كان قبلك أي رأيت طول أمل من كان قبلك.

[**واستبعاد الأجل كيف نزل به الموت فأزعجه من وطه وأخذ من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا]** أي: النعوش [**تتعاطى به الرجال]** أي: يسلّمه الحاملون له بعضهم إلى بعض [**حملاً على المناكب وإمساكاً بالأنامل]** والخطاب بالكاف لنوع المخاطب أو لشخص على طريقة إيّاك أعني واسمعي ياجارة ثمّ استفهم على سبيل التقرير بقوله: [**أما رأيتم الذين يأملون]** أملاً [**بعيداً ويبنون]** بناءً [**مشيداً]** أي: عالياً مرتفعاً.

ويجمعون كثيراً كيف أصبحت بيوتهم قبوراً ما جمعوا بوراً وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين لا في حسنة يزيدون ولا من سيّئة يُستعتبون فمن أشعر التقوى قلبه برَّز مهله وفاز عمله فاهتبلوا هبلها واعملوا للجنّة عملها فإنّ الدنيا لم تخلق لكم دار مقام بل خلقت لكم لتتزوّدون

[**ويجمعون كثيراً كيف أصبحت بيوتهم قبوراً**] وأصبح [**ما جمعوا**] من الأموال [**بوراً**] أي: هالكاً مضمحلاً.

[**وصارت أموالهم للوارثين وأزواجهم لقوم آخرين لا في حسنة يزيدون**] أي: لا يستطيعون زيادة في حسنة [**ولا من سيّئة يُستعتبون**] أي: لا يُطلب منهم العتبى وهو الرجوع عن السيّئة وذلك العدم إمكان ذلك منهم لأنّ محلّ الأعمال هي الدنيا دون ما بعدها.

[**فمن أشعر التقوى قلبه**] استعار وصف الإشعار لاتّخاذ التقوى كالشعار في ملازمتها للقلب والشعار ما يلي الجسد من الثياب [**برَّز مهله**] أي: ظهرت ـــــ أي: ظهرت عليه آثار الرحمة الإلهيّة في السكينة والوقار والحلم والأناة عن التسرّع إلى مطالب الدنيا أو علمت راحته في الآخرة [**وفاز عمله**] فيها بالجزاء الأوفى.

ثمّ نبّههم على وجوب العمل للجنّة فقال: [**فاهتبلوا هبلها**] الاهتبال في الأمر: السعي في إحكامه، وهبلها مصدر مضاف إلى ضمير التقوى مؤكّد للفعل أي: احكموها أحكامها.

[**واعملوا للجنّة عملها فإنّ الدنيا لم تخلق لكم دار مقام**] أي: دار إقامة [**بل خلقت لكم**] طريقاً يعبر بها إلى الآخرة كما يعبر المسافرون [**لتتزوّدون**

منها الأعمال إلى دار القرار فكونوا منها على أوفاز وقرّبوا الظهور للزيال وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمّتها وقذفت إليه السموات والأرض مقاليدها

منها الأعمال] الصالحة الموصلة [إلى] الجنّة **[دار القرار فكونوا منها على أوفاز]** جمع وفزة وهي العجلة، أي: كونوا على سرعة في قطع عقباتها وعجل في الارتحال منها لأنّ التأنّي فيها يستلزم الالتفات إلى لذّاتها والغفلة عن المقصد الحقّ.

[وقرّبوا الظهور للزيال] استعار لفظ الظهور وهي الركاب لمطايا الآخرة وهي الأعمال الصالحة وتقريبها للزيال هو العناية بالأعمال المقرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدنيا والإعراض عنها ومفارقتها.

ومن خطبة له عليه السلام
تشتمل على تمجيد الله سبحانه وإظهار عظمة سلطانه

[وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمّتها] كناية عن دخولها في ذلّ الحاجة والإمكان بحسب تصريف قدرته ولفظ الأزمّة مستعار للإمكان المحوج إلى الصانع.

[وقذفت إليه السموات والأرض مقاليدها] أي: مفاتيحها جمع مقلّد بكسر الميم ومقلاد وهي الخزائن.

قال ابن عباس ومقاتل: المراد مفاتيح السموات والأرض بالرحمة والرزق وقيل المقلاد والخزانة ومقاليد السموات والأرض خزائنها ولفظ

وسجدت له بالغدوّ والآصال الأشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها النيران المضيئة وآتت أُكلها بكلماته الثمار اليانعة

القذف مجاز في تسليمها وانقيادها بزمام الحاجة والإمكان إلى قدرته مع جميع ما هو سبب في وجود هذا العالم مما هو رزق ورحمة للخلق ولفظ المفاتيح على تفسير ابن عبّاس مستعار للأسباب المعدّة للأرزاق والرحمة وتلك السموات كحركات السموات واتصالات بعض الكواكب ببعض وكاستعداد الأرض للنبات وغيره ووجه الاستعارة أنّ هذه الأسباب بإعدادها المواد الأرضية يفتح بها خزائن الجود الإلهي كما يفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها وكلّها مسلّمة إلى حكمه وجريانها بمشيّته وعلى تقدير تفسير المقاليد بالخزائن فالخزائن استعارة في موادها واستعداداتها، ووجه الاستعارة أنّ تلك المواد والاستعدادات تكون فيها بالقوّة والفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما يكون في الخزئان ما يحتاج إليه.

[وسجدت له] أي: خفضت وذلّت تحت قدرته **[بالغدوّ والآصال]** أي: بكرة وعشياً، والمراد بذلك الدوام لأنّ الذي يدركه الإنسان الزماني هو البكرة والعشي **[الأشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها]** أي: قضبان الأشجار وأغصانها **[النيران المضيئة]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ونسب قدح النيران إليها لأنّها السبب المادّي وإن كان القدح حقيقة في فعال السبب الفاعلي قريب وجعل ذلك له تعالى لأنّه الفاعل الأوّل.

[وآتت أُكلها بكلماته] أي: بأوامره وأحكام قدرته المعبّر عنها بقوله كن **[الثمار اليانعة]** أي المدركة، ووجه الاستعارة نفوذ تلك الأحكام في

وكتاب اللّه بين أظهركم ناطق ولا يعي لسانه وبيت لا تهدّم أركانه وعزٌّ ولا تهزم أعوانه أرسله على حين فترة من الرسل

المخلوقات كنفوذ الأوارم القولية في المامورية وأراد بإتيان الثمان دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾.

ومنها

[وكتاب اللّه بين أظهركم] أي: موجود بينكم **[ناطق]** استعار للكتاب لفظ الناطق لما فيه من بيان المقصود كما أنّ الناطق كذلك **[ولا يعي لسانه]** ترشيخ للاستعارة كنّى بها عن استمرار بيانه على مرور الأزمان ويحتمل أن يريد باللّسان نفسه صلى الله عليه وآله مجازاً إذ هو الكتاب الناطق وهو لسان الكتاب المترجم لمقاصده والمبيّن لمطالبه بلا فتور ولا عي.

[وبيت لا تهدّم أركانه] استعار له لفظ البيت لحفظه من حفظه وعمل به كما يحفظ البيت أهله وأركانه قواعده الكلّية التي يبنى عليها نظام العالم من الأوامر والنواهي والمواعظ والحكم وتلك القواعد لا تكاد تنهدم في وقت من الأوقات إذ الحكم الكلّية كتحريم الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر ونحوها صالحة لجميع الأوقات **[وعزٌّ]** من إطلاق اللازم على الملزوم إذ كان حفظه والعمل به مستلزماً للعزّ الدئم الذي لا يعرض له ذلّ **[ولا تهزم أعوانه]** أي: العالمون به وأعوانه هم اللّه وملائكته ورسله وأوليائه.

ومنها

في وصف النبي صلى الله عليه وآله: **[أرسله على حين فترة من الرسل]** وهو الزمان المتطاول الذي تندرس فيه الشريعة السابقة والقوانين التي بها نظام العالم لخفاء الحجّة وعدم تمكّنه لا لخلوّ الزمان منه فإنّ عندما لا تخلو الأرض من

وتنازع من الألسن فقفّى به الرسل وختم به الوحي فجاهد في اللّه المدبرين عنه والعادلين به وإنّما الدّنيا منتهى بصر الأعمى أي: الجاهل استعار الأعمى لأنّه لا يدرك بعين بصيرته الحقّ كما لا يدرك الأعمى بعين بصره، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وقوله: ﴿لا يبصر ممّا ورائها شيئاً﴾

حجّة وإلّا لساخت بأهلها وكانت الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ستمائة وعشرين سنة.

[**وتنازع من الألسن**] بحصول الاختلاف في العقائد والأعمال بسبب اتباع الأهواء والآراء [**فقفّى**] أي: اتبع [**به الرسل**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقفّينا من بعده بالرسل﴾.

[**وختم به الوحي**] قال تعالى: ﴿لكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾ [**فجاهد في اللّه المدبرين عنه**] أي: المعرضين عن اتباع أوامره ونواهيه.

[**والعادلين به**] أي: الجاعلين له عديلاً وهو الندّ والمثل كالمشركين.

ومنها: في ذمّ الدّنيا

[**وإنّما الدّنيا منتهى بصر الأعمى**] أي: **الجاهل استعار الأعمى لأنّه لا يدرك بعين بصيرته الحقّ كما لا يدرك الأعمى بعين بصره، قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ وقوله: ﴿لايبصر ممّا ورائها شيئاً﴾**] إشارة إلى جهله بأحوال الموت وما بعده ولا ينافي إبصاره الدنيا عماه لأنّ إبصاره بالبصر وعماه بالقلب ويحتمل أن يريد

والبصير ينفذها بصره ويعلم أنّ الدار ورائها فالبصير منه شاخص والأعمى إليها شاخص والبصير منها متزوّد والأعمى لها متزوّد

ببصره أيضاً بصر بصيرته لأنّ منتهى بصر بصيرة الجاهل التصرّف في أحوال الدنيا وكيفيّة تحصيلها والتمتّع بها دون أن يفيده عبرة لما ورائها ومن أحوال الآخرة.

[**والبصير**] ضدّ الأعمى أي: العالم [**ينفذها بصره**] كناية عن إدراكه ما وراء الدنيا من أحوال الآخرة وعلمه بأنّها دار القرار ومسكن الأبرار وكما قال:

[**ويعلم أنّ الدار**] الحقيقية [**ورائها**] أي: وراء الدنيا، وإنّما الدنيا جُعلت قنطرة لعبورها لا لتُتّخذ وطناً ومسكناً، كما قال عليه السلام: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمّروها» [**فالبصير منها شاخص**] أي: راحل مسافر قد جعلها طريقاً له إلى الآخرة:

ألا إنّما الدّنيا كمنزل راكب أناخ عشيّاً وهو في الصبح راحل

[**والأعمى إليها شاخص**] متطلّع إليها بعين بصيرته ووهمه كتطلّع العاشق إلى المعشوق وإن كان أعمى عن مصالحه الحقيقية وعن آفاتها وطرقها المخوّفة وفي هذه الكلمة مع التي قبلها من أقسام البديع التجنيس التام والمطابقة بين الأعمى والبصير. [**والبصير منها متزوّد**] أي: بالتقوى والأعمال الصالحة في سفره إلى الله.

[**والأعمى لها متزوّد**] اتخذ لذّاتها الفانية وشهواتها زاداً له وفيه من البديع كسابه.

واعلوا أنّه ليس شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميّت

ومنها

[واعلوا أنّه ليس شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة فإنّه لا يجد له في الموت راحة] قيل: إنّ فقدان الراحة في الموت مخصوص بأهل الشقاوة في الآخرة، فأمّا أولياء اللّه وعباده الصالحون فلهم في الموت الراحة الكبرى، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء اللّه» وقيل بل هو باق على عمومه إذ بالموت يفوت متجر الآخرة وينقطع الاستعداد لكمال أشرف مما حصل عليه الميّت وإن كان وليّاً فلا جرم لا يجد الراحة التي تلحقه بما يفونه من ذلك الكمال ولأنّ النفوس البشريّة لما لم تكن معارفها ضروريّة ولم تتمكّن مادامت في هذه الأبدان من الاطلاع على ما بعد الموت من سعادة وشقاوة فبالحري أن لا نجد لها راحة تتصوّرها في الموت ولا ينافي ذلك الخبر لأنّ الراحة الحاصلة من الكمال الفائت بالموت لا تحصل له وإن حصل على راحة ما بحسب طاعته السابقة ولأنّ المؤمن لا يجد له مادام في الدنيا راحة في الموت وذلك لا ينافي أن تحصل الراحة عند لقاء اللّه.

[وإنّما ذلك] اي: الأمر الذي هو أحقّ بأن لا يميل ولا يشبع منه **[بمنزلة الحكمة]** اي: ما كان بمنزلة الحكمة وهي العلم النافع في الآخرة **[التي هي حياة للقلب الميّت]** استعار للحكمة لفظ الحياة ووجه الشبه كون الحياة بها وجود القلب وبقائه كما أنّ الحكمة بها بقاء الإنسان وسعادته في الدارين

وبصر للعين العمياء وسمع للإذن الصمّاء وريّ للظمآ

ولذا استعار لفظ الميت لقلب الجاهل باعتبار أنّه ير مطلع على وجوه مصالحه ومفاسده في الدارين وغير مهتد لانتفاع أو دفع تضرّر كالميت.

[**وبصر للعين العمياء**] استعار وصف البصر للحكمة ووصف العمياء لعين الجاهل ويجوز كون العين استعارة في بصيرة الجاهل وان يكون المراد الحقيقية ووجه الاستعارة الأولى أنّه بالحكمة يبصر الإنسان مقاصده ويهتدي إلى وجوه مصالحه الدنيوية والأُخرويّة كما يهتدي البصير بعينه إلى وجوه مسالكه ومقاصده ووجه الثانية أنّ بصيرة الجاهل لا تهتدي لتلك الوجوه كما لا تهتدي العين العمياء إلى شيء ووجه الثالثة أنّ بصر الجاهل تابع لبصيرته فإقدامه وإحجامه وتصرّفاته المنسوبة إلى حسن البصر وغيره تابعة لما يتصوّره ولمّا كانت تلك التصرّفات غير نافعة في الأكثر بل قد تكون ضارّة لا جرم أشبهت عينه الباصرة التي وقع بها سوء ذلك التصرّف العين العمياء فاستُعير لها لفظها وقوله:

[**وسمع للإذن الصمّاء**] فيه استعارة كسابقه فإنّ المراد بالسمع إدراك البصيرة والاذن يحتمل أن يراد بها البصيرة استعارة أو الاذن المحسوسة وقوله:

[**وريّ للظمآ**] استعار الريّ للحكمة لأنّ الحكمة تملأ النفس وتجدها شفاء لها من داء الجهل كما يملا الماء جوف الظمآن وينقع غلّته ويشفى به من ألم الظمآن واستعار لفظ الظمآن للجاهل لأنّ ألم الجهل سبب لموته في الآخرة كما يلحق الظمآن الظمأ.

وفيها الغنى كلّه السلامة كتاب اللّه تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض ولا يختلف في اللّه ولا يخالف بصاحبه عن اللّه

[**وفيها**] أي: في الحكمة [**الغنى كلّه**] أي: غنى النفس عن كلّ شيء وكمالها به لأنّه إذا عرف الحقّ استغنى به عن كلّ شيء عمّا سواه وفيها [**السلامة**] من عذاب الجهل الذي هو السبب الأعظم في الهلاك الأخروي وقوله:

[**كتاب اللّه**] خبر مبتدأ إمّا خبر ثان لذلك وبمنزلة الحكمة خبر أول أو لمبتدأ محذوف تقديره وهو أي الذي بمنزلة الحكمة كتاب اللّه، ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة وقوله:

[**تبصرون به**] إشارة إلى اشتمال الكتاب على الحكمة ووجه الشبه بها أنّ إبصار الجاهلين لمقاصدهم الدنيويّة والاخرويّة لما فيه من الحكمة وكذا قوله:

[**وتنطقون به وتسمعون به وينطق بعضه ببعض**] أي: مفسّر بعضه ببعض كالمبيّن المفسّر للمجمل والمقيّد المبيّن للمطلق والمخصّص المبيّن للعام.

[**ويشهد بعضه على بعض**] أي: ويستشهد ببعضه على أنّ المراد بعض آخر وهو قريب ممّا قبله [**ولا يختلف في اللّه**] أي: لا يختلف في الدلالة على المقاصد الموصلة إلى اللّه بل كلّها متطابقة على ذلك وإن تعدّدت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصد.

[**ولا يخالف بصاحبه عن اللّه**] أي: لا يعدل بمن يهتدي به في سبيل اللّه عن الوصول إليه وقوله:

قد اصطلحتم على الغلّ فيما بينكم وبنت المرعى على دمنكم وتصافيتم على حبّ الآمال وتعاديتم في كسب الأموال لقد استهام بكم الخبيث وتاه بكم الغرور واللّه المستعان على نفسي وأنفسكم

[**قد اصطلحتم على الغلّ فيما بينكم**] توبيخ للسامعين على ارتكاب رذائل الأخلاق واستعار لفظ الاصطلاح لسكوتهم عن إنكار بعضهم على بعض ما يصدر عنه من المنكر كالغشّ والحقد والحسد واشتراكهم في تلك الرذائل وقوله:

[**وبنت المرعى على دمنكم**] هو مثل يضرب للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب ووجهه أنّ ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل له كالنبات في الدمن وهي ما تلبّد من آثار الناس ومرابط أنعامهم جمع دمنة وقوله:

[**وتصافيتم على حبّ الآمال**] إشارة إلى وجه الصلح الذي مرّ ذكره والآمال ما يؤمل كلّ من صاحبه من نفع عاجل وهو الجامع بينهم وسبب صفائهم في الظاهر.

[**وتعاديتم في كسب الأموال**] زشارة إلى وجه الغلّ الذي أشار إليه لأنّ الأحقاد والعداوات أغلب ما تكون على محادثة أحوال الدنيا وقنياتها.

[**لقد استهام بكم الخبيث**] يعني الشيطان قد اشتدّ عشقه لكم ولازمكم إشارة إلى ما يظهر منهم من آثار وسوسته وملازمتهم لما ينهون عنه.

[**وتاه بكم الغرور**] أي: استغفلكم فتهتم في استغفاله لكم عن سواء السبيل والغرور هو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ولا يغرّنكم باللّه الغرور﴾ ثمّ ختم باستعانة اللّه له ولهم على النفوس الأمّارة بالسوء، فقال:

[**واللّه المستعان على نفسي وأنفسكم**] أمّا في حقّهم فمعلوم وأمّا في حقّه عليه السلام فلما مرّ أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وقد شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم وقد توكّل على اللّه لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم**] بنفسه حين خرج قيصر الروم في جماهير أهلها إلى المسلمين وانزوى خالد بن الوليد فلازم بيته وصعب الأمر على أبي عبيدة وشرحبيل وغيرهما من أُمراء سرايا الإسلام فقال عليه السلام:

[**وقد توكّل على اللّه لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة**] أي: عاهدهم وتكفّل لهم بالنصر والإعزاز وقال: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ وقال: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ وحوزة كلّ شيء بيضته وناحيته.

[**وستر العورة**] بأن لا يهتك سترهم في الدنيا ويحتمل أن يكون استعارة لما يظهر عليهم من الذل والقهر لو أُصيبوا ولعلّ ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً﴾ قال:

[**والذي نصرهم**] مبتدأ [**وهم قليل**] جملة حاليّة [**لا ينتصرون**] صفة أو حال آخر.

[**ومنعهم**] عطف على نصرهم [**وهم قليل لا يمتنعون**] حالية كسابقتها

حيّ لا يموت إنّك متى تسر إلى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم وليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً مجرّباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة فإن أظهر اللّه وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين

[**حيّ لا يموت**] خبر أي: إنّ الذي نصرهم حال قلّتهم ومنعهم من عدوّهم حيّ لا يموت فهو ينصرهم حال كثرتهم، وفيه إشارة إلى وجوب التوكّل عليه والالتجاء إليه، كما أشار إليه في صدر الفصل ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾، ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ﴿أليس اللّه بكاف عبده﴾، ثمّ أشار عليه السلام بالرأي فقال:

[**إنّك متى تسر إلى هذا العدوّ بنفسك فتلقهم فتنكب**] أي: تصيبك نكبة وصدمة [**لا تكن للمسلمين كانفة**] أي: حافظة تحفظهم، من كنفه أي: حفظه وآواه، [**دون أقصى بلادهم وليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً مجرّباً**] قد مارس الحروب وعرف بالشجاعة والثبات ليكون على بصيرة في أمر الحرب وفي أكثر النسخ محرباً بالحاء المهملة وكسر الميم وفتح الراء أي: رجل صاحب حروب.

[**واحفز**] أي: ادفع [**معه أهل البلاء والنصيحة**] يقال: حفز كذا أي: دفعه وحفزه ضمّه إلى غيره وأهل البلاء أي: المبتلون المختبرون في النصيحة المجرّبون في الوقائع [**فإن أظهر اللّه**] على العدو أي نصر عليه وعدل عن قوله فإن أظهرك اللّه كما هو مقتضى السياق لأنّ النصر إنّما كان للإسلام [**وإن تكن الأخرى**] من الانكسار وعدم الانتصار [**كنت ردءاً**] أي: عوناً [**للناس ومثابة**] أي: مرجعاً ومأمناً [**للمسلمين**].

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان فقال المغيرة بن الاحنس لعثمان أنا أكفيفكه فقال أميرالمؤمنين عليه السلام للمغيرة يابن اللّعين الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع أنت تكفيني فواللّه ما أعزّ اللّه من أنت ناصره ولا قام من أنت منهضه أُخرج عنّا أبعد اللّه نواك

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان**] في زمان الفتنة في خلافته وكان الناس يستنفرونه عليه السلام إليه:

[**فقال المغيرة بن الأحنس لعثمان أنا أكفيفكه فقال أميرالمؤمنين عليه السلام للمغيرة يابن اللّعين الأبتر**] الأبتر: كلّ امرء انقطع من الخير أثره [**والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع**] ذمّه عليه السلام بسقوط الأصل ولعنه واستعار لبيته لفظ الشجرة وكنّى بنفي أصلها وفرعها عن سقوط بيته وشرفه وعن دنائته وحقارته في النار ثمّ استفهمه عليه السلام عمّا ادّى من الكناية إنكاراً عليه واستحقاراً له فقال:

[**أنت تكفيني**] مع حقارتك ودنائتك أنت أحقر من ذلك وأذلّ.

[**فواللّه ما أعزّ اللّه من أنت ناصره**] وإنّما يعزّ اللّه أوليائه وأهل عنايته.

[**ولا قام من أنت منهضه**] قال تعالى: ﴿إن ينصركم اللّه فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ [**أُخرج عنّا**] مذموماً مدحوراً [**أبعد اللّه نواك**] والنوى القصد الذي ينويه المسافر وروي نوءك والنوء لغة في النأي وهو البعد.

ثمّ بلغ جهدك فلا أبقى اللّه عليك إن أبقيت لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة وليس أمري وأمركم واحداً إنّي أُريدكم للّه وأنتم تريدونني لأنفسكم أيّها الناس أعينوني على أنفسكم وايم اللّه

[**ثمّ بلغ جهدك**] أي في الأذى بما قدرت عليه [**فلا أبقى اللّه عليك**] بقيّة [**إن أبقيت**] من قدرتك وجهدك في أذاناً شيئاً أي: لا رعاك اللّه ولا رحمك إن رحمت وراعيت يقال: أبقيت على فلان إذا راعيته ورحمته.

ومن كلام له عليه السلام

[**لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة**] أي من غير تدبّر ولا رويّة بل كانت عن تدبّر واجتماع فلا عذر للناكثين والقاسطين والمارقين وفيه تعريض ببيعة أبي بكر وقول عمر فيها كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى اللّه شرّها.

[**وليس أمري وأمركم واحداً**] أي: ليس مقصدي ومقصدكم واحداً، ثمّ أبان ذلك بقوله [**إنّي أُريدكم للّه**] أي: أُريد طاعتكم وبيعتكم لإقامة دين اللّه وحدوده ونظام الإسلام.

[**وأنتم تريدونني لأنفسكم**] أي: للحظوظ النفسانيّة من العطاء والتقريب والولاية وسائر المنافع العاجلة وبين المقصدين بون بعيد تفاوت شديد.

[**أيّها الناس أعينوني على أنفسكم**] الأمّارة بالسوء بردعها عن هواها وطاعتها لمولاها.

[**وايم اللّه**] أقسم باللّه وهو الصادق والصديق تأكيداً لاطمئنانهم حيث

لأنصفنّ المظلوم ولأقودنّ الظالم بخزامته حتّى أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً في معنى طلحة والزبير، واللّه ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلاّ قِبَلَهُم وأنّ أوّل

كانوا في غفلة وإعراض [**لأنصفنّ المظلوم ولأقودنّ الظالم بخزامته**] والخزامة حلقة من شعر تجعل في أنف البعير واستعار لفظ القود في تذليل الظالم وإذعانه للحقّ ورشحه بذكر الخزامة [**حتّى أورده منهل الحقّ وإن كان كارهاً**] والمنهل المورد، استعارة للحقّ لكونه مورداً يستقى به ألم المظلوم كما يسقي ألم العطشان.

ومن كلام له عليه السلام

[**في معنى طلحة والزبير، واللّه ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً**] أي: نصفة ولو أنصفوا لما فعلوا ما فعلوا ولكنّهم اتّبعوا أهوائهم وأغواهم شيطانهم فتركوا الحقّ وهم يعلموه وارتكبوا الباطل وهم يعاينوه.

[**وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه**] يعني دم عثمان فإنّه من المعلوم للنائي والداني أنّهم هم الذين حرّضوا الناس على قتله بل باشروا ذلك.

[**فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم**] الأوفر وحظّهم الأكثر [**منه وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة**] أي: ما المطلوب [**إلاّ قِبَلَهُم وأنّ أوّل**

عدلهم للحكم على أنفسهم وإنّ معي لبصيرتي ما لُبّست ولا لُبِّس عليّ وإنّها للفئة الباغية فيها الحمأ والشبهة المغدفة إنّ الأمر لواضح

عدلهم] حيث يدّعون إنّهم عادلون طالبون للحقّ **[للحكم على أنفسهم]** لأنّهم هم القاتلون فإن كان لهم عدل وطلب حقّ فليطلبوه من أنفسهم.

[وإنّ معي لبصيرتي] وبصيرته عقله وعلمه والبصيرة أيضاً البرهان **[ما لُبّست ولا لُبِّس عليّ وإنّها للفئة الباغية]** قيل في تعريف الفئة بالألف واللام تنبيه على أنّه كان عنده علم من الرسول صلى الله عليه وآله أنّه ستبغي عليه فئة من غير تعيين لها فلمّا خرجت هذه الفئة علمها بإثاراتها.

[فيها الحمأ] بألف مقصورة وهو في الأصل الطين المنتن الأسود كما قال تعالى: ﴿من حمإ مسنون﴾ والحمة بضمّ الحاء وتخفيف الميموفتحها اسم العقرب استعار عليه السلام لفظ الحماء للغلّ والحسد في صدور القوم ووجه الشبه استلزام ذلك لتكدير صفاء الإسلام والمسلمين وإثارة الفتنة بينهم كما يكدر الحماة الماء واستعار الحمة لذلك باعتبار استلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب وروي الحمّة مشدّداً وهو السواد وأراد به ظلمة جهلهم وشبهتهم ولذا قال:

[والشبهة المغدفة] بالذال والفاء أي: المظلمة يقال: أغدف الليل إذا اشتدّ ظلامه وروي المغدفة بفتح الدال الخفيّة وأصله أنّ المرأة تغدف زوجها بالقناع واستعار لها وصف الظلمة لعدم اهتداء أكثر الخلق فيها حتّى قتلوا بسببها كما لا يهتدي في الليل المظلم وقوله:

[إنّ الأمر لواضح] نفي لتلك الشبهة أي: أمرها واضح وكذا قوله:

وقـد زاح البـاطل عن نصـاب وانقطع لسـاه عن شـغـبـه وأيم اللّه لأفـرطنّ لهم لهم حوضـاً أنا ماتحه لا يصـدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعـده في حسي فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقـولون البيعـة البيعة

[وقد زاح الباطل عن نصاب] والنصاب الأصل، وأراد انّ باطلهم لا أصل له.

[وانقطع لساه عن شغبه] الشغب بالتسكين المشاغبة وتهييج الشرّ أي: لا لسان ــــ به ولفظ اللّسان استعارة والشغب ترشيح لها.

[وأيم اللّه لأفـرطنّ لهم] أي: لأملئنّ **[لهم حـوضـاً أنا مـاتحـه]** الماتح بنقطتين من فوق: المستقي وبنقطتين من تحت: الذي يملأ الدلو في البئر، واستعار لفظ الحوض لاستعداده في حربهم **[لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعده في حسي]** العبّ شرب الماء من غير مصّ، والحسي بكسر الحاء وسكون السين الماء الذي يشربه الرمل فينتهي إلى أرض صلبة يحفظه ثمّ يحفر عنه فيستخرج.

ومنها

[فاقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها] العوذ جمع عوذة وهي الناقة المسنّة والمطافيل جمع مطفل بضمّ الميم وهي قريبة العهد بالتناج وقيل العوذ جمع عائذ بالدال المعجمة وهي كلّ انثى قريبة العهد بالولادة وهي لسبعة أيام إلى عشرة أيام وخمسة عشر ثمّ هي مطفل أي ذات طفل.

[تقولون البيعة البيعة] نصب على الإغراء وفائدة التكرير في الإغراء تاكيد الأمر الدال على شدّة الاهتمام بالمامور به وقيل التكرار لدلالة الأوّل

قبضت كفّي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها اللّهمّ إنّهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألّبا الناس عليَّ فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا

على تخصيص الأمر الأول بالحال والثاني على تخصيص الأمر الثاني بالمستقبل أي: خذ البيعة في الحال وخذها للاستقبال والخطاب لطلحة والزبير ومتابعيهما وشبّه إقبالهم عليه لطلب البيعة بإقبال مسنّات النوق على أطفالها ووجه الشبه شدّة الإقبال والحرص على متابعته وخصّ المسنّات لأنّها أقوى حنّة على أولادها.

[**قبضت كفّي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها**] والمقصود أنّكم اجتهدتم في طلب البيعة حتّى بايعتكم بإصرار منكم وكلّ من اجتهد في طلب البيعة كذلك وجب عليه الوفاء وعدم الغدر والصغرى مسلّمة وبرهان الكبرى ﴿يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.

ثمّ شرع في شكايتهم إلى اللّه والدعاء عليهم فقال:

[**اللّهمّ إنّهما قطعاني**] ومن قطع الرحم قطعه اللّه من رحمته.

[**وظلماني**] بخروجهما عليّ ومطالبتهما لي بغير حقّ.

[**ونكثا بيعتي وألّبا الناس عليَّ**] التأليب: التحريض [**فاحلل ما عقدا**] من غزومهما الفاسدة وآرائهما الكاسدة التي فيها إهلاك المسلمين.

[**ولا تحكم لهما ما أبرما**] في حربي، يقال: أبرمت الأمر أي: أحكمته.

[**وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا**] أي: أرهما عكس أغراضهما ومقاصدهما وأعمالهم وقد استجاب اللّه دعائه فيهما فوراً في تلك الحال.

ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت بهما أمام الوقاع فغمطا النعمة وردّا العافية يومي فيها إلى ذكر الملاحم يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى

[**ولقد استثبتهما قبل القتال**] بالثاء المعجمة بثلاث نقط أي: طلبت إثابتهما ورجوعهما إلى الحقّ ويروى بالتاء المثنّاة من التوبة أي من ذنبهما في نكث بيعتي وهذا الكلام إظهار لعذره ﷺ مع الناس في حقّهما [**واستأنيت بهما**] أي: انتظرت وتأنّيت [**أمام الوقاع**] قبل الحرب [**فغمطا النعمة**] أي: احتقراها وبطراها ولعلّه كنّى بها عمّا قسم لهما من الفيء إذ كان عدم تفضيلهما في العطاء على غيرهما عمدة أسباب الحرب [**وردّا العافية**] من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدّين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما العافية عن الحرب وبإصرارهما على المنابذة.

ومن خطبة له ﷺ

[**يومي**] أي: يشير [**فيها إلى ذكر الملاحم**] والوقائع المستقبلة من وصف الإمام المنتظر والحجّة الثاني عشر الذي بشّر به سيّد البشر وأولاده الميامين الغرر.

[**يعطف الهوى على الهدى**] فيردّ النفوس الأمّارة المتبعة لظلمات أهوائها والمنغمرة في جهالاتها إلى سلوك سبيل اللّه وطرق هدايته وكتابه وسنّة نبيّه ﷺ.

[**إذا عطفوا الهدى على الهوى**] إشارة إلى أنّ وقت خروجه إذا مُلئت

ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي حتّى تقوم الحرب بكم على ساق بادياً نواجذها مملوّة أخلافها حلواً رضاعها

الأرض ظلماً وجوراً وحين يعرض الناس عن الشريعة وينبذون كتاب اللّه وراء ظهورهم ويجعلون الحقّ ما وافق هواهم والباطل ما خالف رأيهم فإنّ أكثر أهل الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة يخترعون لهم رأياً ومذهباً ثمّ يأوّلون الكتاب والسنّة على موافقته لا أنّهم يجعلون الشريعة هي الميزان فالموافق لها حقّ والمخالف باطل، كما أشار ﷺ بقوله:

[**ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي**].

ومنها

في ذمّ أصحابه على التقاعد عن الحرب والتخاذل في الجهاد

[**حتّى تقوم الحرب بكم على ساق**] كأنّه يقول لا تزالون متخاذلين متقاعدين حتّى يشتدّ العدوّ وتقوم الحرب بكم على ساق وقيامها على ساق كناية عن غاية شدّتها وكذا قوله:

[**بادياً نواجذها**] كناية عمّا تستلزمه من الشدّة والأذى وهو من أوصاف الأسد عند غضبه كأنّه حاول أن يستعير لها لفظ الأسد فأتى بوصفه وقيل المراد بدوّ النواجذ في الضحك أي تبلغ بكم الحرب الغاية كما أنّ غاية الضحك أن تبدوا النواجذ وهي أقصى الأضراس فكنّى بذلك عن إقبالها.

[**مملوّة أخلافها**] وأخلاف الناقة حلمات ضرعها، استعار وصف الناقة لحال استعداد الحرب واستكمالها عدّتها ورجالها كاستعمال ضرع الناقة اللّبن وقوله:

[**حلواً رضاعها**] استعارة لوصف المرضع لها وكنّى بحلاوة رضاعها

علقماً عاقبتها الأوفى غد وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالهاوتخرج له الأرض أفاليذ كبدها وتلقي إليه سلماً مقاليدها

عن إقبال أهل النجدة في أول الحرب عليها فكلّ منهما يجب أن يناجر قرنه ويستحلي مغالبته كما يستحلي الراضع لبن أُمّه.

وقوله: [**علقماً عاقبتها**] استعار لفظ العلقم لعاقبتها لما فيه من المرارة العقلية كالمرارة الحسّية والمنصوبات الأربعة أحوال والمرفوعات بعدها فاعلها وعلقم وإن كان إسماً لكنّه قائم اسم الفاعل أي: مريرة عاقبتها.

وقوله: [**الأوفى غد**] إخبار عن بعض الأُمور التي ستكون.

وقوله: [**وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون**] إشارة إلى تعظيم شأن الموعود بمجيئه وهو جملة اعتراضيّة.

وقوله: [**يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالها**] أي: يؤاخذهم بذنوبهم ويعاقبهم بما كسبت أيديهم.

[**وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها**] الأفاليذ جمع الجمع الفلذة وهي القطعة من الكبد وجمعها فلذا استعار لفظ الكبد لما في الأرض من الكنوز والخزائن ووجهها مشابهة الكنوز للكبد في العزّة والخفاء ورشح بذكر الأفاليذ.

[**وتلقي إليه سلماً**] أي: طوعاً وانقياداً [**مقاليدها**] أسند لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لانّ الملقى للمقاليد مسالماً أهل الأرض وكنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعين لأوامره وتحت حكمه وسلماً مصدر سدّ مسدّ الحال.

فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميّت الكتاب والسنّة كأنّي به وقد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان فعطف عليها عطف الضروس

[**فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميّت الكتاب والسنّة**] استعارة لما ترك منهما ولم يعمل به بتشبيهه بالميّت الذي لا ينتفع به لا يقال قوله ويريكم يدلّ على انّ المخاطبين يدركونه مع انّه إنّما يظهر في آخر الزمان لأنّا نقول خطاب الحاضرين من الأمّة كعالم لكلّ الأمة كسائر خطابات القرآن للحاضرين المتناول لمن وجد إلى يوم القيامة.

ومنها

يخبر عن رجل يظهر بهذه الأوصاف الآتية:

[**كأنّي به وقد نعق بالشام**] يقال: نعق الغراب: ونعق الراعي بغنمه بالعين والغين أي: صاح.

[**وفحص براياته في ضواحي كوفان**] الفحص: البحث، وفحص المطر التراب قلبه وكوفان اسم للكوفة وضواحيها نواحيها البارزة.

[**فعطف عليها عطف الضروس**] أي: الناقة السيّئة الخلق تعض حالبها، قيل: هذا الرجل عبدالملك بن مروان لأنّه ظهر بالشام حين جعله ابوه الخليفة من بعده وسار إلى الكوفة لقتال مصعب فقتله وفعل الكوفة وبعث الحجاج إلى ابن الزبير فقتله وهدم الكعبة وقتل خلقاً كثيراً من العرب في وقائع عبدالرحمن بن الأشعث ورمى الناس بالحجاج بن يوسف وأطلق لفظ النعيق لظهور أوامره ودعوته بالشام مجازاً وكذا استعار لفظ الفحص لغلبة أهل الكوفة بعضهم على بعض ونقضه لحالاتهم التي كانوا عليها.

وفرش الأرض بالرؤوس قد فغرت فاغرته وثقلت في الأرض وطأته بعيد الجولة عظيم الصولة واللّه ليشرّدنكم في أطراف الأرض حتّى لا يبقى منكم إلاّ قليل كالكحل في العين فلا تزالون كذلك حتّى تؤب إلى العرب عوازب أحلامها

ثمّ شبّه عطفه وحمله عليها بعطف الناقة الضروس ووجه الشبه شدّة الغضب والحنق والأذى الحاصل منهما.

[**وفرش الأرض بالرؤوس**] كناية عن كثرة قتله فيها وقوله [**قد فغرت فاغرته**] أي: انفتح فوه، وأكّد الفعل بذكر الفاعل من لفظه استعارة لبعض أوصاف السبع الضاري كنّى به عن شدّة إقدامه على القتل وإقباله على الناس بشدّة الغض والأذى.

وكذا قوله: [**وثقلت في الأرض وطأته**] كناية عن شدّة بأسه وتمكّنه في الأرض.

[**بعيد الجولة**] كناية عن اتساع ملكه وجولان خيله ورجله في البلاد البعيدة.

[**عظيم الصولة**] وبعيد وعظيم حالان وروي رفعهما خبر مبتدا محذوف، ثمّ لما فرغ من صفاته العامّة شرع في بيان ما سيفعله بهم من التشريد والطرد في أطراف البلاد مؤكّداً بالقسم فقال:

[**واللّه ليشرّدنكم في أطراف الأرض حتّى لا يبقى منكم إلاّ قليل كالكحل في العين**] ووجه الشبه الاشتراك في القلّة.

[**فلا تزالون كذلك**] أي: بهذه الحال الموصوفة [**حتّى تؤب إلى العرب عوازب أحلامها**] أي: حتّى يعود إلى العرب ما كان ذهب من عقولها

فالزموا السنن القائمة والآثار البيّنة والعهد القريب الذي عليه باقي النبوّة فاعلموا أنّ الشيطان إنّما يُسنّي لكم طرقه لتتّبعوا عقبه في وقت الشورى لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم فأسمعوا قولي وعوا منطقي

العمليّة في نظام أحوالهم.

[فالزموا السنن القائمة] فيكم من بعده **[والآثار البيّنة]** فيكم **[والعهد القريب]** بينكم وبينه **[الذي عليه باقي النبوّة]** أي: إذا نزل بكم منه ماوصف فلتكن وظيفتكم لزوم ما ذكرت.

[فاعلموا أنّ الشيطان إنّما يُسنّي] أي: يسهّل **[لكم طرقه]** الباطلة وسبله العاطلة **[لتتّبعوا عقبه]** العقب بكسر القاف مؤخر القدم، تنبيه لهم على ما في سهولة المعاصي وفي تسهيل نفوسهم الأمّارة بالسوء عليهم طرق المحارم من المحذور وهو أن ينقاد لها النفوس العاقلة فتضلّها عن سبيل اللّه ويقودها الضلال إلى الهلاك الاخروي.

ومن كلام له ﷺ

[في وقت الشورى لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم] تقرير لفضيلته ﷺ ليسمع قوله ولذا قال بعده:

[فأسمعوا قولي وعوا منطقي] وذكر من فضائله ثلاثاً الدعوة إلى الحقّ الذي لن يسارعه أحد إليها إلاّ كان أسرع منه وهي ثمرة العدالة وصلة الرحم وعائدة الكرم وهما فضيلتان تحت ملكة العفّة والذي أمرهم بسماعه هو

عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتّى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة في النهي عن غيبة الناس وإنّما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة

التنبيه على عاقبة أمر الخلافة وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناء على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنّه عليه السلام يقول إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجازية من لا يستحقه لمن يستحقّه والتقليب فيه على أهله.

فحينئذ [**عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا اليوم**] بحال نحيقم فيه الناس [**تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود**] وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين بعهد بيعته.

وقوله: [**حتّى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة**] غاية للتغالب على هذا الأمر وأشار بالأئمة إلى طلحة والزبير وبأهل الضلالة إلى اتباعهم وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر أمراء بني أميّة وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم.

ومن كلام له عليه السلام

[**في النهي عن غيبة الناس وإنّما ينبغي لأهل العصمة**] قيل هم الذين أعانهم اللّه سبحانه على قهر نفوسهم الأمّارة بالسوء حتّى صارت أسيرة في أيدي نفوسهم العاقلة فحصّلوا من ذلك على ملكة ترك الذنوب [**والمصنوع إليهم في السلامة**] أي: الذين اصطنع اللّه إليهم السلامة من الذنوب

أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم فكيف العائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه أمّا ذكر موضع ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم

والوقوع في مهاوي الهلاك [**أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية**] بكفّهم عن عيوبهم وإنقاذهم من المهالك وإعانتهم على الخروج منها.

[**ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم**] بأن يعتبروا عند مشاهدة أهل المعاصي ما أنعم اللّه عليهم به من إعانته لهم على قهر نفوسهم الأمّارة وشياطينهم الغدّارة.

[**فكيف العائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه**] أي: إذا كان أهل السلامة ينبغي لهم أن يرحموا أهل الذنوب ويشتغلوا بشكر اللّه عن رميهم بالعيوب فكيف يليق العيب من غيرهم من الناس بل ينبغي لمثله أن يترك الغيبة ويشكر اللّه بطريق أولى باعتبار ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم ممّا غيّر أخاه به وتلك نعمة للّه يجب شكره عليها.

[**أمّا ذكر موضع ستر اللّه عليه من ذنوبه ما هو أعظم من الذنب الذي عابه به**] وأشار بموضع ستر اللّه عليه إلى النعمة المصطنعة عنده وهي تأهيله وإعداده لها والاستفهام على سبيل الانكار والتعجّب من العائب لأخيه بعيب هو يرتكبه أو يرتكب مثله أو أكبر منه، ولذا قال:

[**فكيف يذمّه بذنب قد ركب مثله فإن لم يكن ركب مثل ذلك الذنب بعينه فقد عصى اللّه فيما سواه ممّا هو أعظم منه**] يعني بغيبته لأخيه لأنّ الغيبة من الكبائر.

ثمّ أكّد ذلك بياناً بقوله:

من الذنب الذي عابه به فكيف يذمّه بذنب قد ركب مثله فإن لم يكن ركب مثل ذلك الذنب بعينه فقد عصى اللّه فيما سواه ممّا هو أعظم منه وأيم اللّه لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أعظم يا عبد اللّه لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعلّه مغفور له ولا تأمن على

[وأيم اللّه لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أعظم] وخلاصة الاحتجاج أنّه لايجوز لأحد أن يعيب أخاه لأنّه إمّا أن يكون بذنب قد ركب العائب مثله أو أكبر منه أو أصغر فإن كان بذنب قد ركب مثله أو أكبر كان له في عيب لنفسه شغل عن عيب غيره، وإن كان ارتكب أصغر منه فهو ممنوع على تقدير جرئته على الغيبة وصدورها عنه لأنّها من الكبائر وإنّما قال هي أكبر ما عند اللّه إمّا مبالغة أو لأنّ المفاسد التي يشتمل عليها ارتكاب سائر المهيّات جزئية ومفسدة الغيبة كلّية لأنّه لمّا كان من المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحدة وهي سلوك سبيل اللّه بسائر وجوه الأوامر والنواهي ولا يتمّ ذلك إلّا بالألفة والتعاون، والغيبة مثيرة للأضغان والأحقاد ولذا أكّد اللّه في النهي عنها في الكتاب والسنّة قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

ثمّ قال عليه السلام: **[يا عبد اللّه لا تعجل في عيب أحد بذنبه]** بأن تعيّره به وتذكّر في غيابه.

[فلعلّه مغفور له] بتوبة أو ندامة أو حسنة كفّرت خطاياه **[ولا تأمن على**

نفسك صغر معصيته فلعلّك معذّب عليه فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره أيّها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطي السّهام ويحيك الكلام

نفسك صغر معصيته فلعلّك معذّب عليه فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره].

ومن كلام له عليه السلام
في النهي عن التسارع إلى استماع الغيبة

[أيّها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق] بأن كان مستور الظاهر مشهوراً بالصلاح والتديّن **[فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال]** كما قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إن جائكم فاسق بنبإ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

ثمّ نبّه عليه السلام على جواز الخطأ على المتسرّعين إلى الغيبة فقال:

[أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطي السّهام] أي: قد يكون الذي يرمي بعيب برياً منه ويكون الكلام في حقّه غير مطابق ولا صائب كما لا يصيب السهم الذي يرمي به فيخطي الغرض وقوله:

[ويحيك الكلام] من أحاك الكلام إذا عمل وأثّر وكذا حاك يعني أنّ السهم قد يخطي فلا يؤثّر والكلام يؤثّر على كلّ حال وإن لم يكن حقّاً

وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلّا أربع أصابع فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أُذنه وعينه ثمّ قال الباطل أن تقول سمعت والحقّ أن تقول رأيت

وروي يحيل باللاّم أي يبطل ولا يصيب وقوله:

[**وباطل ذلك يبور**] أي: الغرض والثمرة من ذلك القول الكاذب من تحصيل مال أو جاه أو نحوهما ويهلك ويفنى ويضمحل وتبقى العقوبة عليه والوزر، كما أُشير إليه بقوله:

[**والله سميع وشهيد**] عليه فإنّ سمعه وشهادته مستلزمان لغضبه المستلزم لعقوبته فيكون قوله وباطل... إلخ، جارياً مجرى التهديد وتحقير ثمرة ذلك القول ويحتمل أن يكون المعنى أنّ الباطل من ذلك القول يهلك ولا ينفع به وتبقى شهادة الله وجزائه.

ثمّ قال عليه السلام:

[**أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلّا أربع أصابع فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أُذنه وعينه ثمّ قال الباطل أن تقول سمعت والحقّ أن تقول رأيت**] قيل: قوله الباطل أن تقول سمعت لا يستلزم الكلّية حتّى يكون كلّ ما سمعه باطلاً فإنّ الباطل والمسموع مهملان والحقّ ليس هو قوله رأيت بل المرئي له والباطل ليس سمعت بل القول المسموع له وإنّما قوله رأيت وسمعت اخبار عن وصول المرئي والمسموع إلى بصره وسمعه فأقام هذين الخبرين مقام المخبر عنهما مجازاً.

وليس لواضع المعروف في غير حقّه وعند غير أهله من الحظّ فيما أتى إلّا محمدة اللّئام وثناء الأشرار ومقالة الجهّال مادام منعماً عليهم ما أجود يده

ومن كلام له عليه السلام
في التنبيه على مواضع المعروف الذي ينبغي صرف المال فيها

قال: [**وليس لواضع المعروف في غير حقّه**] أي: غير وجهه الذي ينبغي صرفه فيه [**وعند غير أهله**] أي: المستحقّين له [**من الحظّ فيما أتى**] أي: فيما فعل من المعروف [**إلّا محمدة اللّئام**] من الناس أي: ساقطي الأصول.

[**وثناء الأشرار**] عليه ومدحهم إيّاه.

[**ومقالة الجهّال**] لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العدل الذي به نظام أمر الدنيا والدين وقوام نوع الإنسان ورضى ربّ العالمين وقوله [**مادام منعماً عليهم**] أي: أنّ المحمدة من اللّئام والثناء من الأشرار والجهالة إنّما يتحقّق مادام منعماً عليهم فإذا انقطع إنعامه انقطع حمدهم ومدحهم، وقوله:

[**ما أجود يده**] متعلّق بمقالة، أي: ذلك هو الأمر الذي يقولونه مادام منعماً عليهم وإنّما قيد بهذا القيد لأنّ الجاهل قد يعتقد أنّ ما يسدي إليه قوله فربّما دام حمده بدوام ذلك الإنعام لكن ينقطع بانقطاعه وأمّا الجاهل الشرير فكثيراً ما يعتقدونه إنّما يُسدي إليه لشرّ أو خوف أذاه فربّما يشكر المنعم مادام

وهو عن ذات اللّه بخيل فمن آتاه اللّه مالاً فليصل به القرابة وليحسن منه الضيافة وليفكّ به الأسير والعاني وليعط منه الفقير والغارم وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب

منعماً حتّى إذا انقطع إنعامه جعل شرّه عوض شكره استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع واستعادة له، وقوله:

[**وهو عن ذات اللّه بخيل**] أي: الذي يصنع المعروف في غير محلّه وإن حصل الحمد والثناء من اللّئام ولكنّه في الحقيقة عند أُولي الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب اللّه تعالى.

ثمّ نبّه ﷺ على مواضع المعروف وأمر بوصفه فيها وذكر منها خمسة فقال:

[**فمن آتاه اللّه مالاً**] فيه تنبيه على أنّ ما في يده نعمة من اللّه يجب شكرها ووصفها في محلّها كما أشار إليه بقوله:

[**فليصل به القرابة**] وهذه صلة الرحم التي هي أفضل مواضع المعروف.

[**وليحسن منه الضيافة**] فإنّ إطعام الطعام وبذله في محلّه من أفضل الأعمال وأكمل الأحوال.

[**وليفكّ به الأسير والعاني**] عطفه تفسير، لأنّ الأسير هو العاني.

[**وليعط منه الفقير والغارم**] وهو من عليه دين.

[**وليصبر نفسه على الحقوق**] الواجبة كالخمس والزكاة وسائر الحقوق.

[**والنوائب**] وهي ما يلحق الإنسان من المصادرات والغرامات التي يفكّ به الإنسان من أيدي الطالبين وألسنتهم والإنفاق في ذلك من جملة

فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء اللّه ألا وإنّ الأرض التي تحملكم والسماء التي تظلّكم مطيعان لربّكم وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعاً لكم

الحقوق الواجبة على الإنسان من والفضائل الخمس داخلة تحت ـــــ الكرم وقوله ابتغاء الثواب مفعول له للأفعال المتقدّمة إشارة إلى أنّ الإنفاق في هذه الوجوه إنّما يكون وضعاص للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه اللّه تعالى والتقرّب إليه فإذا كان قصده الرياء والسمعة فلا أجر له بل عليه الوزر والعقاب.

وقوله: [**فإنّ فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة إن شاء اللّه**] تعالى، إشارة إلى الفارق بين وضع المعروف في محلّه ووضعه في غير محلّه، والمراد بمكارم الدنيا الذكر الجميل والجاه العريض وفضائل الآخرة الثواب الأبدي والنعيم السرمدي وتنكير الفوز للتعظيم.

ومن خطبة له عليه السلام
في الاستسقاء

[**ألا وإنّ الأرض التي تحملكم**] وهي كالأمّ للنبات والزرع [**والسماء التي تظلّكم**] التي هي كالأب، والمراد بالسماء المعروفة لكونها بحركاتها أسباباً معدّة لكلّ ما في هذا العالم والسحاب الذي يكون المطر منه [**مطيعان لربّكم**] داخلان تحت قدرته.

[**وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجّعاً**] أي: رحمة [**لكم**] ورقّة

ولا زلفة إليكم ولا لخير ترجوانه منكم ولكن أُمرتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا إنّ اللّه يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس

عليكم.

[ولا زلفة إليكم] أي: لا لأجل قرابة ومنزلة بينكم وبينها **[ولا لخير ترجوانه منكم]** كما هو المتعارف من منافع الناس بعضهم لبعض لأنّ السموات والأرض غنية عن الناس.

[ولكن أُمرتا بمنافعكم فأطاعتا وأُقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا] فهما ليسا مبدئين أوّلين للرزق بل هما مطيعان للّه في إخراجهما أرزاق الحيوانات وهو الذي جعل السماء كالأب بإرسالها مدراراً وجعل الأرض كالأمّ في قبولها للماء واستعدادها به للنبات وأخرج منها رزق العباد كما قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه...﴾ إلى قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامِ﴾ وإقامتهما على حدود مصالحهم عبارة عن حكم العناية الإلهية عليهما بإخراج هذه المنافع وجعلها وفق مصالح الحيوان وقيامهما وطاعتهما وجود ذلك منهما حسب مقتضى القدرة الإلهية والمطلوب من ذلك تقرير عظمة اللّه في النفوس وأنّ الأرزاق وأسبابها منسوبة إليه ومنه حتّى تتوجّه النفوس إليه بالإقلاع عن الذنوب.

ثمّ بيّن أنّ ذلك ليس من قصور في الفيض الإلهي بل بما كسبت أيديهم ابتلاءً، فقال:

[إنّ اللّه يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس

البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويقلع مقلع ويتذكّر متذكّر ويزدجر مزدجر وقد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سبباً لدوران الرزق ورحمةً للخلق

البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب] عن ذنبه **[ويقلع مقلع]** عن خطيئة.

[ويتذكّر متذكّر ويزدجر مزدجر] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون﴾.

[وقد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سبباً لدوران الرزق ورحمةً للخلق] قيل وذلك لأنّ الاستغفار طلب غفر الذنوب وسترها على العبد أن يفتضح بها وذلك إنّما يكون بمحوها من لوح نفسه لا جرم كان المستغفر المخلص ماحياً لخطيئته باستغفاره عن لوح نفسه وبذلك يكمل استعداده لإفاضة رحمة اللّه عليه في الدنيا بإنزال البركات وفي الآخرة برفع الدرجات وإلى ذلك الإشارة بقوله:

﴿فقال استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين﴾ الآيات.

وقال تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾.

فرحم اللّه امرء استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته اللّهمّ إنّا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان وبعد عجيج البهائم والولدان راغبين في رحمتك وراجين فضل نعمتك وخائفين من عذابك

وقال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾.

ثمّ شرع ﷺ في الدعاء للتائب والمستقبل فقال:

[**فرحم اللّه امرء استقبل توبته**] وشرع في الاستعداد لها.

[**واستقال خطيئته**] أي: طلب الإقالة مما يلزمه من عاقبتها وعقوبتها والمؤاخذة.

[**وبادر منيته**] أي: عاجلها قبل أن تنزل به بالتوبة وكلّ ذلك إشارة إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من الاستعداد للعمل قبل الأجل وإنّما حسن استعارة الاستقالة لأنّ المخطي كالمعاهد والملتزم لعقاب اخرويّ بلذّة عاجلة لما علم من استلزام تلك اللذّة المنهي عنها للعقاب فهو يطلب الإقالة من هذه المعاهدات كما يطلب المشتري الإقالة من البيع.

ثمّ لمّا قدّم الأمر بالاستعداد لرحمة اللّه رجع إليه في استنزالها عليهم فقدّم في الدعاء ما عادته أن يقدّم بين يدي الملوك من الكلام الموجب للتعطّف والرافة والرحمة، فقال:

[**اللّهمّ إنّا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان**] التي ليس من شأنها أن تفارق إلّا لضرورة شديدة وكذا قوله [**وبعد عجيج البهائم والولدان**] وأصواتها المرتفعة بالبكاء، والعجيج: رفع الأصوات بالحنين والبكاء.

ثمّ أشار ﷺ إلى العناية من ذلك بقوله:

[**راغبين في رحمتك وراجين فضل نعمتك وخائفين من عذابك**

ونقمتك اللّهم فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين ولا تهلكنا بالسنين ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا يا أرحم الراحمين اللّهمّ إنّا خرجنا فشكوا إليك ما لا يخفى عليك حين ألجأتنا المضايق الوعرة وأجاءتنا المقاحط المجدبة وأعيتنا المطالب المتعسّرة وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة اللّهمّ إنّا نسألك أن لا تردّنا خائبين ولا تقلبنا واجمين ولا تخاطبنا بذنوبنا ولا تقايسنا بأعمالنا

ونقمتك] وهذه هي جهات المساعي البشريّة ثمّ سئل المطلوب بقوله:

[اللّهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين] أي: اليائسين.

[ولا تهلكنا بالسنين] أي: بالجدب والقحط.

[ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا] من المعاصي المبعدة من رحمته إشارة إلى قوله تعالى عن موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾.

[يا أرحم الراحمين اللّهمّ إنّا خرجنا فشكوا إليك ما لا يخفى عليك حين ألجأتنا المضايق الوعرة] أي: الصعبة.

[وأجاءتنا] أي: ألجأتنا **[المقاحط]** أي: أماكن القحط **[المجدبة وأعيتنا]** أعجزتنا **[المطالب المتعسّرة وتلاحمت]** أي: اتصلت **[علينا الفتن المستصعبة]** وظاهر كون الجوع والعرى وسائر المسببات عن الحقط فتنة أي: صارفة للقلوب عمّا يراد بها. ثمّ عاد ﷺ إلى إجابة طلب دعائه:

[اللّهمّ إنّا نسألك أن لا تردّنا خائبين ولا تقلبنا واجمين] أي: محرومين والواجم الذي اشتدّ حزنه.

[ولا تخاطبنا بذنوبنا] أي: لا تجعل جرابنا الاحتجاج علينا بذنوبنا.

[ولا تقايسنا بأعمالنا] أي: لا تجعل فعلك بنا مقايستنا لأعمالنا السيّئة

اللّهمّ انشر علينا غيثك وبركتك واسقنا سقيا ناقعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات وتحيي بها ما قد مات نافعة الحيا كثيرة المجتنى تروي بها القيعان وتسيل بها البطنان وتستورق الأشجار وترخّص الأسعار إنّك على ما تشاء قدير بعث رسوله بما خصّهم به من وحيه وجعلهم حجّة له على خلقه لئلا تجب الحجّة لهم بترك الاعذار إليهم فدعاهم بلسان الصدق

ومشابهاً لها بأن يكون جزاء سيّئة سيّئة مثلها.

[**اللّهمّ انشر علينا غيثك وبركتك**] ورزقك ورحمتك.

[**واسقنا سقيا ناقعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات وتحيي بها ما قد مات نافعة الحيا**] النافعة المروية [**كثيرة المجتنى تروي بها القيعان**] جمع قوع وقاع وهو المستوي من الأرض.

[**وتسيل بها البطنان**] جمع بطن وهو ما انخفض من الأرض [**وتستورق الأشجار وترخّص الأسعار إنّك على ما تشاء قدير**] وبالإجابة جدير.

ومن خطبة له عليه السلام

[**بعث رسوله بما خصّهم به من وحيه وجعلهم حجّة له على خلقه لئلا تجب الحجّة لهم بترك الاعذار إليهم**] الضمير في لهم وإليهم يعود إلى الخلق، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾.

[**فدعاهم بلسان الصدق**] كنّى به عن لسان الشريعة الناطقة عن مصباح

إلى سبيل الحقّ الا إنّ اللّه قد كشف الخلق كشفة لا أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاء والعقاب بواء أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً؟!

النبوّة المشتعل عن نور الحقّ سبحانه [**إلى سبيل الحقّ**] أي: الصراط المستقيم والطريق القويم الموصل إلى رضاه تعالى.

وقوله: [**ألا إنّ اللّه قد كشف الخلق كشفة**] أي: اختبرهم وامتحنهم وابتلاهم لينكشف حالهم وتظهر حقيقة أمرهم ولا يبقى لهم حجّة [**لا أنّه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم**] بل هو العالم بالضمائر المحيط بالسرائر الخبير بالبصائر.

[**ولكن ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاء**] للمطيعين [**والعقاب بواء**] أي: كفؤاً للعاصين.

ثمّ عقّب ذلك بالاستفهام الإنكاري أو التوبيخي، عن الذين زعموا أنّهم أفضل منه لما قيل إنّ قوماً من الصحابة كان منهم من يدّعي الأفضليّة في فنٍّ من العلم، فمنهم من كان يدّعي أنّه أفرض أي: أعلم بالفرائض والمواريث، ومنهم من كان يدّعي أنّه أقر، ومنهم من كان يدّعي أنّه أعلم بالحلال والحرام، وفي رواياتهم المجعولة: أفرضكم زيد بن ثابت وأقرأكم أبي ـــ مع ذلك أيضاً وأقضاكم علي، ومعلوم أنّ القضاء يحتاج إلى جميع ما ادّعوه فضيلةً لهم، فثبت أنّه عليه السلام أفضلهم وجامع لما تفرّق فيهم فقال:

[**أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً؟!**] أي:

علينا إن رفعنا اللّه ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم بنا يستعطى الهدى وبنا يستجلى العمى إنّ الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على من سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم

ظلماً وعدواناً [**علينا إن رفعنا اللّه**] أي: لأنّ رفعنا اللّه فهو بيان العلّة الحاملة لهم على الكذب فيما ادّعوه أي: رفع درجاتنا في الدنيا والآخرة على الكافّة.

[**ووضعهم**] دوننا وإن وما بعدها نصب على المفعول له.

[**وأعطانا**] الملك والنبوّة.

[**وحرمهم**] ذلك.

[**وأدخلنا**] بعنايته الخاصّة بنا فيما أعطانا.

[**وأخرجهم**] من ذلك [**بنا يستعطى الهدى وبنا يستجلى العمى**] استعار لفظ العمى للجهل ورشحه بذكر الاستجلاء فبواسطة اعدادهم يفاض على النفوس هداها وبواسطة إعطاهم القوانين الشرعية الكلّية والجزئية يستجلى الجهل من واهب ذلك الجلاء وهو كناية عن الاستعداد أيضاً.

[**إنّ الأئمة من قريش**] نصّ متّفق عليه بين الفريقين عن سيّد الكونين وتخصيصه ذلك بقوله [**غرسوا في هذا البطن من هاشم**] نصّ منه يجب اتباعه أمّا عند الخاصة فمعلوم لعصمته وإمامته وأما عند العامة فلما رووه في صحاحهم مستفيضاً من قوله ﷺ: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه كيفما دار» وأشار بهذا البطن إلى وُلْده الأحد عشر الطاهرين المعصومين.

[**لا تصلح على من سواهم**] أي: لا يكون لها صلاح على يد غيرهم [**ولا تصلح الولاة من غيرهم**].

آثروا عاجلاً وأخّروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجنا كأنّي أنظر إلى فاسقهم قد صحب المنكر وألفه وبَسِيءَ به حتّى شابت عليه مفارقه

ومنها:

قوله عليه السلام في بني أُمية ونحوهم ممّن حذى حذوهم وسلك سبيلهم

[**آثروا عاجلاً**] من الحياة الدنيا [**وأخّروا آجلاً**] من ثواب الآخرة ونبذوه وراء ظهورهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

[**وتركوا صافياً**] من العلم الصادر عن أهل بيت الوحي والتنزيل وأرباب الحقائق والمعارف والمقاويل الذين نزل في بيوتهم جبرئيل.

[**وشربوا**] من العلوم الكدرة الممتزج باطلها بحقّها وعلمها بجهلها المأخوذة من غير أهلها [**آجنا**] أو المراد تركوا ما وعدوا به من لذّات الآخرة الصافية عن كدورات الدنيا والعلائق البدنية وأقبلوا على اللّذات الدنيوية الفانية المشوبة بالاعراض والأمراض والتغيّر والزوال، واستعار لفظ الآجن للذّات الدنيا ملاحظة لشبهها بالماء الذي لا يسوغ شربه ورشح بذكر الشرب.

[**كأنّي أنظر إلى فاسقهم**] قيل يحتمل أن يريد فاسقاً معيّناً كعبدالملك بن مروان ويكون الضمير عائداً إلى بني أُميّة ومن تبعهم وأن يريد مطلق الفاسق أي من يفسق من هؤلاء فيما بعد وكون بالصفات التي ذكرها بقوله:

[**قد صحب المنكر وألفه وبَسِيءَ به**] أي: ألفه واستأنس به ووافقه [**حتّى شابت عليه مفارقه**] كناية عن استمرار ذلك إلى آخر عمره.

وصبغت به خلائقه أقبل مزبداً لا يبالي ما غرق وكوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى الأبصار اللائحة إلى منار التقوى أين القلوب التي وهبت للّه وعُوقدت على طاعة اللّه ازدحموا على الحطام

[**وصبغت به خلائقه**] أي: صار المنكر ملكة له وخلقاً ثمّ [**أقبل مزبداً لا يبالي ما غرق**] استعار وصف الازباد تشبيهاً له بالبحر الطامي ووجه الشبه كونه عند غضبه لا يحفل بما يفعله في الناس من المنكرات كما لا يحفل البحر بمن غرق فيه.

[**وكوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق**] شبّه حركته في المنكرات والظلامات، بوقع النار في الحطب ووجه الشبه كونه لا يبالي بتلك الحركات كما لا تبالي النار بما أحرقته.

[**أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى**] أي: المستكملة بنور اللّه، واستعار لفظ مصابيح الهدى لأئمة الدين أو لقوانينه الكلّية والاستصباح بها الاقتداء بها.

وأين [**الأبصار اللائحة إلى منار التقوى**] أي: الناظرة إلى أعلام التقوى واستعار المنار كاستعارة المصابيح.

[**أين القلوب التي وهبت للّه**] أي: وهبها أهلها لربّهم وجعلوا هممهم مطالعة أنوار كبريائه والتوجّه إلى كعبة وجوب وجوره.

[**وعُوقدت**] أي: أخذ خلفاء اللّه وحججه عليهم العهود والمواثيق [**على طاعة اللّه**] والمواظبة عليها. ثمّ عاد إلى ذمّ السالفين وتوبيخهم بقوله:

[**ازدحموا على الحطام**] أي: حطام الدنيا، واستعار الحطام لمقينات

وتشاحّوا على الحرام ورفع لهم علم الجنّة والنار فصرفوا عن الجنّة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم دعاهم ربّهم فنفروا وولّوا ودعاهم الشيطان

الدنيا، ووجه الاستعارة سرعة فنائها وفسادها كما يسرع فساد النبت اليابس.

[**وتشاحّوا على الحرام**] أي: كلّ واحد منهم يشاح صاحبه على الحرام ويبخل به عليه.

[**ورفع لهم**] لائحاً واضحاً [**علم الجنّة والنار**] والمراد بعلم الجنّة أنبياء اللّه وحججه الدعاة إليه والأدلاّء عليه أو قانون الشريعة القائد إلى الجنّة وبعلم النار الشيطان والنفس الأمّارة وسائر جنود إبليس.

[**فصرفوا عن الجنّة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم**] قيل: لم يقل بوجوههم كما في سابقه لأنّ إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذّات الدنيا يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنّه وذلك يستلزم إعراضها عن الجنّة ثمّ لمّا كانت الغاية التي يطلبها الإنسان من الدنيا هو الحصول على لذّاتها وكانت النار ملازمة للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضيّاً لم تكن النار غاية ذاتيّة قد أقبلوا بوجوههم عليها بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم إذ كانت هي المستلزمة لها.

[**دعاهم ربّهم**] إلى ما يصلحهم وينفعهم وبه نظام دنياهم وآخرتهم.

[**فنفروا**] عن طاعته.

[**وولّوا**] عن إجابة دعوته.

[**ودعاهم الشيطان**] إلى ما فيه هلاكهم وخسرانهم في الدنيا والآخرة

فاستجابوا وأقبلوا أيّها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا مع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى

[**فاستجابوا**] إلى دعوته.

[**وأقبلوا**] إلى طاته وفيه إشارة إلى أنّ الرافع لعلم الجنّة هو اللّه بأيدي أنبيائه وحججه ولعلم النار هو الشيطان بأيدي أتباعه وأعوانه.

ومن خطبة له ﷺ

[**أيّها الناس إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض**] أي: هدف [**تنتضل فيه المنايا**] والانتضال: الرمي، واستعار لهم لفظ الفرض لكونهم مقودين بسهام المنيّة من سائر الأعراض والأمراض كما يقصد الغرض بالسهام وأسند الانتضال إلى المنايال مجازاً لأنّ فاعلها هو اللّه.

وقوله: [**مع كلّ جرعة شرق وفي كلّ أكلة غصص**] كنّى بالجرعة والأكلة عن لذّات الدنيا وبالشرف والغصص عمّا في كلّ منهما من شوب الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنغّصات لها.

وقوله: [**لا تنالون منها نعمة إلّا بفراق أُخرى**] إشارة إلى أنّ كلّ نوع من نعمة فإنّما يتجدّد شخص منها ويلتذّ به بعد مفارقة مثله كلذّة اللقمة مثلاً فإنّها تستدعي فوت اللّذة باختها السابقة وكذا لذّة ملبوس شخصي أو مركوب شخصي وسائر ما يعدّ نعماً دنيويّة ملتذاً بها فإنّها إنّما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها بل وأعمّ من ذلك فإنّ الإنسان لا يتهيّأ له الجمع

ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلاّ بهدم آخر من أجله ولا تجدّد له زيادة في أُكله إلاّ بنفاذ ما قبلها من رزقه

بين الملاذ الجسمانية في وقت واحد بل ولا اثنين منها فإنّه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً أو حال ما هو في لذّة الأكل لا يلتذّ بمشروب، ولا حال مايكون خالياً على فراشه يكون راكباً للنزهة ونحو ذلك.

وبالجملة: لا يكون مشغولاً بنوع من الملاذ الجسمانيّة إلاّ وهو تارك لغيره وما استلزم مفارقة نعمة أُخرى لايعدّ في الحقيقة نعمة ملتذاً بها فإنّه كما يلتذّ بهذه الحاضرة يتنغّص لفوت تلك الفائتة.

وكذا قوله: [**ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلاّ بهدم آخر من أجله**] لأنّ السرور بالبقاء إلى يوم معيّن لا يصل إليه إلاّ بعد انقضاء ما قبله من الأيام المحسوبة من عمره فإذا قد هدم من عمره يوماً فتكون لذّته في الحقيقة ببقائه مستلزمة لقربه من الموت وما استلزم القريب من الموت فلا لذّة فيه عند الاعتبار.

وكذا قوله: [**ولا تجدّد له زيادة في أُكله**] بالهاء وضمّ الهمزة أي: ماكولة [**إلاّ بنفاذ ما قبلها من رزقه**] المعلوم أنّه رزقه وهو ما وصل إلى جوفه مثلاً، فإنّ مالم يصل جاز أن يكون رزقاً لغيره ومعلوم أنّ الإنسان لا يأكل لقمة حتّى يفني ما قبلها فهو إذاً لا تتجدّد له زيادة في أكلة إلاّ بنفاد رزقه السابق وما استلزم نفاد الرزق لم يكن لذيذاً في الحقيقة ويحتمل أن يريد أنّه إذا تجدّدت له جهة رزق فتوجّه فيها طالباً له كان ذلك التوجّه مستلزماً لانصرافه عمّا قبلها من الجهات وانقطاع رزقه من جهتها والقضية مهملة.

ولا يحيى له أثر إلّا مات له أثر لا يتجدّد له جديد إلّا بعد أن يخلق له جديد لا تقوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة وقد مضت أُصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وما أحدثت بدعة إلّا تركت بها سنّة فاتّقوا البدع والزموا المهيع

وكذا قوله: [**ولا يحيى له أثر إلّا مات له أثر**] أراد بالأثر الذكر والفعل فإنّ كلّما يعرف به الإنسان في وقت ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح يذكر به بين الناس إلّا ويموت منه ما كان معروفاً به قبله من الآثار وينسى.

وكذلك [**لا يتجدّد له جديد**] من زيادات بدنه ونقصانه وأوقاته [**إلّا بعد أن يخلق له جديد**] بتخلّل بدنه ومعاقبة شيخوخته لشبابه ومستقبل أوقاته لسالفها.

وكذا [**لا تقوم له نابتة**] استعارة لما ينشأ من أولاده وأقربائه [**إلّا وتسقط منه محصودة**] استعار المحصودة لمن يموت من آبائه وأهله ولذا قال:

[**وقد مضت أُصول**] يعني الآباء [**نحن فروعها فما بقاء فرع بعد أصله**] استفهام على سبيل التعجّب أي: كيف يبقى الفرع بعد ذهاب أصله.

ومنها

[**وما أحدثت بدعة إلّا تركت بها سنّة**] وجه استلزامها الترك السنّة إنّ تركها من السنّة فارتكابها يستلزم ترك السنّة والبدعة كلّما أحدث في الدين ن غير حجّة شرعيّة.

[**فاتّقوا البدع والزموا المهيع**] أي: الطريق الواسع، وكنّى به عن الشريعة لسعتها وعدم الحرج فيها كما أُشير إليه بقوله: أتيتكم بالشريعة

إنّ عوازم الأمور أفضلها وإنّ محدثاتها شرورها وقد استشاره عمر بن الخطّاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

السهلة السمحة، وقوله تعالى: ﴿ما جعل عليك في الدِّين من حرج﴾ وقوله: ﴿يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

[**إنّ عوازم الأمور**] أي: قديمها وهو قدائم السنن التي كانت على عهد رسول اللّه ﷺ [**أفضلها**] ويحتمل كون المراد بها جوازمها وهي المقطوع بها دون المحدثات منها التي هي محلّ الشبهة.

[**وإنّ محدثاتها شرورها**] لكونها محلّ الشبهة خارجة عن قانون الشريعة فكانت مستلزمة للهجر والمرج وأنواع الشرور.

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد استشاره عمر بن الخطّاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه**] قال في غزاة القادسية كما عن المدائني أو في غزاة نهاوند كما عن الطبري.

وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة للهجرة استشار عمر المسلمين في خروجه فيها بنفسه فأشار بما مرّ ويأتي، فرجع عن المسير بنفسه وأمّر سعد بن أبي وقّاص على المسلمين ويروى في تلك الواقعة أنّ رستم أمير العسكر من قبل يزدجر أقام بريداً من الرجال الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن كلّما تكلّم رستم بكلمة أدّاها بعضهم إلى بعض حتّى يصل إلى سمع يزدجر.

إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتّى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله

وأمّا وقعة نهاوند فإنّه لمّا أراد عمر أن يغزو العجم وجيوش كسرى قد اجتمعت بنهاوند استشار أصحابه فأشار عثمان عليه بأن يخرج بنفسه بعد أن يكتب إلى جميع المسلمين من أهل الشام واليمن والحرمين والكوفة والبصرة ويأمرهم بالخروج، وأشار علي ﷺ بالأمر المذكور، فقال عمر: أجل هذا الرأي فأشيروا عليّ برجل أُولّيه ذلك الثغر فولّى النعمان بن مقرن وكان يومئذ بالبصرة، وهذا كلامه ﷺ:

[**إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة**] أي: أمر الإسلام ليس نصره بكثرة ولا خذلانه بقلّة.

[**وهو دين الله الذي أظهره**] ﴿على الدِّين كلّه ولو كره المشركون﴾.

[**وجنده**] جند الله [**الذي أعدّه وأمدّه**] بالملائكة والناس إلاّ أنّ جند الله هم الغالبون [**حتّى بلغ ما بلغ**] من العلو والرفعة والصيت والشرف.

[**وطلع**] في آفاق البلاد [**حيث طلع ونحن على موعود من الله**] بالنصر والغلبة والاستخلاف في الأرض، كما قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض ما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفاً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ [والله منجز وعده وناصر جنده﴾ جار مجرى النتيجة إذ من جملة وعده نصر جنده وهم المؤمنون، فالمؤمنون منصورون على كلّ حال قليلين كانوا أو كثيرين.

ومكان القيِّم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمّه فإن انقطع النظام تفرّق وذهب ولم يجتمع بحذافيره أبداً والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً للعرب واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب

وقوله عليه السلام: [**ومكان القيِّم بالأمر**] أي: الإمام والخليفة القائم بأمور الناس [**مكان النظام من الخرز**] أي: مكان الخيط من العقد.

وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**يجمعه ويضمّه فإن انقطع النظام تفرّق وذهب ولم يجتمع بحذافيره أبداً**] وحذافير الشيء أطرافه جمع حذفار أي: باشره وذلك أنّهم عند فساد نظامهم بقتل الإمام القيّم مثلاً يقع بهم طمع العدوّ وظفره فيكون ذلك سبب استئصالهم.

ثمّ دفع عنه الشبهة في عدم الحاجة إلى اجتماع كلّ العرب في هذه الواقعة فقال:

[**والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً**] عددهم [**فهم كثيرون**] أي: أقوياء غالبون [**بالإسلام عزيزون**] لا يغلبون [**بالاجتماع**] في الرأي والقلوب الذي هو خير من كثرة الأشخاص واجتماع الأبدان.

[**فكن قطباً**] أي: مرجعاً [**للعرب**] تؤول إليه.

[**واستدر الرحى بالعرب**] بحيث تدور عليه استعار له لفظ القطب ولهم لفظ الرحى ورشّح بالاستدارة وكنّى بذلك عن جعل العرب ترساً دونه وحيطة له ولذا قال:

[**وأصلهم دونك نار الحرب**] لأنّه إن سلموا وغنموا فذاك الذي ينبغي وإن انقهروا كان مرجعاً وسنداً يقوي يظهورهم به بخلاف شخوصه معهم

فإنّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتّى يكون ما تدع ورائك من العورات أهمّ إليك ممّا هو بين يديك إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا إنّ هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك وطمعهم فيك

فإنّه إن ظفروا فذاك وإن انقهروا لم يكن لهم ظهر يلجئون إليه.

ثمّ أبان عليه السلام وجه المفسدة في خروجه بقوله:

[**فإنّك إن شخصت من هذه الأرض**] بنفسك [**انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها**] لأنّ الإسلام غضّ وقلوب كثير من العرب ممّن أسلم غير مستقرّة بعد، فإذا انضاف إلى من لم يسلم منه وعلموا خروجه وتركه للبلاد وكبر طمعهم وهاجت فتنتهم على بلاد الإسلام.

[**حتّى يكون ما تدع ورائك من العورات**] أي: مواضع المخافة على الإسلام وأهله [**أهمّ إليك ممّا هو بين يديك**] مما تستقبله وتطلبه من المحاربات.

[**إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا إنّ هذا أصل العرب**] ومرجعهم الذي يرجعون إليه وقطبهم الذي تدور رحاهم عليه.

[**فإذا اقتطعتموه**] واستأصلتموه بالهلاك [**استرحتم**] من العرب ومحاربتهم ومعارضتهم.

[**فيكون ذلك أشدّ لكلبهم**] أي: شرّهم وتكالبهم [**عليك وطمعهم فيك**] ثمّ أجابه عليه السلام عمّا ذكره من مسير القوم الفرس في وقعة القادسية إلى قتال المسلمين وأنا أكره أن يغزونا قبل أن نغزوهم وذكر كثرة عددهم فقال:

فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإنّ اللّه سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالنصرة والمعونة فبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن بيّنه وأحكمه

[**فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإنّ اللّه سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره**].

وخلاصة الجواب أنّ مسيرهم إلى المسلمين وإن كان مفسدة إلاّ أنّ لقائهم له بنفسه فيه مفسدة أكبر وإذا كان كذلك فينبغي أن تدفع المفسدة العظمى ويكمل دفع المفسدة الأُخرى إلى اللّه فإنّه كاره لها ومع كراهيته لها فهو أقدر على إزالتها.

[**وأمّا ما ذكرت من**] كثرة [**عددهم**] وقلّة عدد المسلمين وعددهم [**فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى**] في صدر الإسلام [**بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالنصرة**] من اللّه [**والمعونة**] منه فينبغي أن يكون الحال الآن كذلك.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وآله بالحقّ**] إلى الخلق بشيراً ونذيراً [**ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته**] بسلوك الصراط المستقيم والطريق السوي القويم واتّباع الشريعة الغرّاء والملّة الحنيفية الزهراء [**بقرآن بيّنه**] لأهله [**وأحكمه**] في محلّه، قد اشتمل على

ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه وليقرّوا به بعد أن جحدوه فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته كيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات

ماكان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة:

﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

﴿وكلّ شيء أحصيناه في كتاب مبين﴾.

﴿وما من رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾.

ولكن لا تبلغه عقول الرجال ولا تناله أنظار الجهّال بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم.

فقوله: ليخرج... إلخ، بيان غاية البعثة وقوله بقرآن بيان سبب تلك الغاية.

ثمّ أشار إلى غاية تلك الغاية بقوله: [**ليعلم العباد ربّهم إذ جهلوه وليقرّوا به بعد أن جحدوه**] وهما متقاربان أو تحمل الأولى على الإقرار باللّسان والجحد به ويحمل الإثبات والإنكار على الإثبات بالقلب بعد الإنكار به.

[**فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوّفهم من سطوته**] قيل: اشار بتجلّيه في كتابه إلى ظهوره لهم في تذكيرهم فيه بما أراهم من عجائب مصنوعاته وبما خوّفهم به من وعيده وبتذكيرهم أنّه [**كيف محق من محق**] من القرون الماضية والأمم الخالية [**بالمثلات**] أي: العقوبات النازلة بهم.

[**واحتصد من احتصد**] منهم [**بالنقمات**] وجميع ذلك آيات باهرة

وأنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على اللّه ورسوله

ودلائل ظاهرة تنادي بوجوده وظهوره وتجلّيه من غير رؤية بالحواسّ وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد.

[وأنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على اللّه ورسوله] وهذا في المتصدّين للفتاوي والحكومات وفصل الخصومات كثير شائع ذائع تراهم يتسارعون في الأحكام وقول هذا حلال وهذا حرام وليس عندهم شيء أسهل من ذلك وهم في غفلة عظيمة، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام:

﴿أتقولون على اللّه ما لا تعلمون ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب أن لا تقولوا على اللّه إلاّ الحقّ﴾.

﴿إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾.

﴿أتقولون على اللّه ما لا تعلمون﴾.

﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمّ لقطعنا منه الوتين﴾.

وقال ﷺ: «حقّ اللّه على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون».

وقال ﷺ: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من اللّه لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه».

وقال ﷺ: «إيّاك وخصلتين ففيهما هلك من هلك إيّاك أن تفتي الناس

وليس عند أهل الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته فالكتاب وأهله يومئذ منفيان طريدان ومصطحبان في طريق واحدلا يؤويهما مؤوٍ

برأيك أو تقول ما لا تعلم».

[وليس عند أهل الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته] ورتّلت ألفاظه وتدبّرت معانيه.

[ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه] وحمل على غير معانيه المقصودة وأُوِّل بالتأويلات البعيدة.

[ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر فقد نبذ الكتاب حملته] بالإعراض عن قرائته وتدبّر معانيه وتفهّم مبانيه والعمل بما فيه.

[وتناساه حفظته] بالتعامي عن أوامره ونواهيه والتغافل عن اتباع ظاهره وخافيه.

[فالكتاب وأهله يومئذ منفيان طريدان] حيث لم يلتفت أهل ذلك الزمان إلى الكتاب، وإذا لم يلتفتوا إلى الكتاب لم يلتفتوا إلى أهله ومن يعمله به بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه ممّا تقتضيه أحكام الكتاب ويوجبه اتّباعه فكان إعراضهم عنهم إبعاداً لهم ونفياً وطرداً، وقوله:

[ومصطحبان في طريق واحد] أي: طريق الحقّ، إذ هو واحد لا تعدّد فيه ولا خلاف يعتريه وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال.

[لا يؤويهما مؤو] من أهل ذلك الزمان إلاّ إذا وافق غرضه وهواه.

فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم مع الناس وليسا معهم لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة كأنّهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه ولا يعرفون إلاّ خطّه وزبره

[**فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس**] بمجرّد الوجود الارجي.

[**وليسا فيهم**] في الحقيقة لعدم اتباعهما، والفاء احكامهما فأشبها ما ليس بموجود لأنّ فائدة الموجودان ينتفع به وكذلك هما [**مع الناس**] بالمصاحبة الاتفاقية في الوجود.

[**وليسا معهم**] في الحقيقة لأنّ ضلالتهم لا تجامع هدى الكتاب وأهله فكانا متضادّين وإن كان مجتمعين، كما أشار إليه بقوله:

[**لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة**] أي: اتفقوا على مفارقة الاجتماع.

[**وافترقوا عن الجماعة**] بالأخذ بآرائهم الفاسدة والاستناد إلى الأهواء الكاسدة فصاروا فرقاً وتشعّبوا شعباً ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**كأنّهم أئمة الكتاب**] تشبيهه لهم بالأئمة في الجرأة على مخالفة أحكامه وتفسيره على حسب أغراضهم وأهوائهم إذ شأن الإمام مع المأموم ذلك.

[**وليس الكتاب إمامهم**] الذي يجب أن يتّبعوه ويقتفوا أثره وحيث خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم.

[**فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه ولا يعرفون إلاّ خطّه وزبره**] دون اتباع مقاصده واقتفاء هدايته ومراشده.

ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين كلّ مثلة وسمّوا صدقهم على اللّه خزية وجعلوا في الحسنة عقوبة السيّئة إنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغييب آجالهم

وقوله: [**ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين كلّ مثلة**] إشارة إلى زمن بني أميّة الكائن قبل هذا الزمن الذي يخبر عنه ومثلوا بفتح الميم والثاء أي: نكّلوا، والاسم المُثلة بضمّ الميم وسكون الثاء إشارة إلى أمراء بني أُمية وولاتهم كعبيداللّه بن زياد والحجاج ونحوهما و(ما) مصدرية محلّها الرفع بالابتداء وخبرها (من قبل).

[**وسمّوا صدقهم على اللّه خزية**] أي نسبوهم إلى الكذب على اللّه وعلى رسوله.

[**وجعلوا في الحسنة عقوبة السيّئة**] فمن كان مؤمناً قتلوه ومن كان صالحاً فسّقوه فجعلوا الحسنة سيّئة وقابلوها بسيئة مثلها أو أعظم منها وبالعكس.

وقوله: [**إنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغييب آجالهم**] تنبيه على وجوب تقصير الأمان في الدنيا لاستلزام طلبها الهلاك الاخروي والذين قبلهم إشارة إلى القرون الماضية.

وأراد بالهلاك الهلاك الاخروي، وجعل سبب هلاكهم طول آمالهم في الدنيا، الموجب للاستغراق في لذّاتها، المبعّدة عن اللّه تعالى مع تغييب إجالهم عنهم، أي: غفلتهم عنها وقلّة فكرهم فيها، وعدم علمهم بتعيّنها، فإنّ استشعار الأجل موجب للإقلاع عن الانهماك في اللّذات الحاضرة ومنغّص لها.

حتّى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحلّ معه القارعة والنقمة أيّها الناس من استنصح اللّه وفِّق ومن اتخذ قوله دليلاً هُدي للتي هي أقوم وإنّ جار اللّه آمن وعدوّه خائف وإنّه لا ينبغي لمن عرف عظمة اللّه

[**حتّى نزل بهم الموعود**] أي: الموت، وهذا غاية طول آمالهم [**الذي ترد عنه المعذرة**] أي: لا تقبل فيه معذرة معتذر كما قال تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

[**وترفع عنه التوبة**] أي: تنسدّ بابها عند نزوله، كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للّذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن﴾.

[**وتحلّ معه القارعة**] أي: الشدائد والأهوال [**والنقمة**] أي: العقوبة الاخروية.

[**أيّها الناس من استنصح اللّه**] أي: اتخذه ناصحاً في قبول أوامره ونواهيه [**وفِّق**] للخير.

[**ومن اتخذ قوله دليلاً هُدي للتي**] أي: للطريق التي [**هي أقوم**] الطرق.

[**وإنّ جار اللّه آمن**] محفوظ [**وعدوّه خائف**] إذ ذلك غاية عداوة الملوك خصوصاً جبّار الجبابرة وملك الدنيا والآخرة وأُريد بجواره القرب منه بالطاعة وبعداوته البعد عنه بالمعصية ومخالفة أوامره ولا شكّ في كون الأوّل آمناً من أهوال الآخرة وفي كون الثاني في محلّ الخوف والخطر.

ثمّ أرشدهم إلى ما يصلحهم بقوله: [**وإنّه لا ينبغي لمن عرف عظمة اللّه**

أن يتعظّم فإنّ رفعة الذين يعلمون من عظمته أن يتواضعوا له وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له فلا ينفروا من الحقّ نفار الصحيح من الأجرب والباريء من ذي السقم واعلموا إنّكم لن تعرفوا الرشد حتّى تعرفوا الذي تركه

أن يتعظّم] إذ من عرف عظمة اللّه احتقر نفسه فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على اللّه.

[فإنّ رفعة الذين يعلمون من عظمته أن يتواضعوا له] إذ لمّا كان هو العظيم المطلق وكلّ عظمة ورفعة لعظيم فمستفادة من جوده والقرب منه وكانت العادة جارية من الملوك في حقّ من يتواضع لهم ويوفيهم حقّهم من الإجلال والإكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظّموه فبالحري أن يكون رفعة المتواضع للملك المطلق لازمة عن التواضع له وكذلك العادة جارية فيهم بسلامة من استسلم لهم عن معرفته باقتدارهم فبالحري أن يكون سلامة المستسلم للّه عن العلم بغلبة قدرته واستيلاء سلطانه لازمة عن استسلامه له، كما أشار إليه بقوله:

[وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له فلا ينفروا من الحقّ نفار الصحيح من الأجرب والباريء من ذي السقم] ووجه الشبه شدّة النفار، ثمّ عاد إلى نفيرهم عن أئمة الضلال فقال:

[واعلموا إنّكم لن تعرفوا الرشد] معرفةً تامّةً صحيحة **[حتّى تعرفوا الذي تركه]** وذلك لأنّ المعرفة التامّة للرشد بل لكلّ شيء تستدعي معرفة ما عليها من الشكوك والشبهات التي هي سبب التشكيك فيها وترك العمل على وفقها ولما كان الرشد هو ما عليه أميرالمؤمنين وتابعوه والتارك له مخالفوه

ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتّى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنّهم عيش العلم وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم

وصومه من أئمة الضلال كان من تمام معرفة الحقّ الذي في يده والمرشد الذي يدعو إليه معرفة خصومه وأنّهم على شبهة إذا عرفها طالب الحقّ تمّت معرفته بطريق الرشد فسلكها ونفر عمن نكب عنها.

وكذا قوله: [**ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتّى تعرفوا الذي نقضه**] أي انّ أخذهم بما يعمل به عليه‌السلام منه لا يتمّ منهم إلاّ أن يعرفوا شبهة ناقضة وهو العامل بخلاف حكمه عليه‌السلام على وفق الكتاب لشبهة حتّى إذا اطّلعوا على كيفيّة فسادها وضلالة بها أخذوا بميثاق الكتاب على بصيرة وعلموا أنّه ناقض له فنفروا عنه.

وكذا قوله: [**ولن تمسكوا به حتّى تعرفوا الذي نبذه**] وإنّه ضالّ لتحصّل النفرة عنه فيتمّ التمسّك به ويتأكّد لزوم ميثاقه والغاية من جميع ما ذكر التنفير عن أئمة الضلال بمعرفتهم ومعرفة ما هم عليه من الشبه والتبرّي منهم.

ثمّ بعد أن نبّه على تلك المعرفة أمر بطلبها من أهلها فقال:

[**فالتمسوا ذلك**] واطلبوه [**من عند أهله**] يعني نفسه وأهل بيته عليهم‌السلام [**فإنّهم عيش العلم**] أي: حياته.

[**وموت الجهل**] إذ بهم يكون وجود العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به وبهم يكون عدم الجهل وعدم التضرّر به كما يكون بموت الشرير عدمه وعدم مضرّته [**هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم**] أي:

وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق

يدلّكم منطقهم بالحكمة وسيرتهم على وفقها على كمال نفوسهم بالعلوم الحقّة.

[**وصمتهم عن منطقهم**] فإنّ المتكلّم اللّسن ذي الحكمة الغزيرة إذا صمت كان له هيبة وحالة تنادي يحسن منطقه وعلمه بما يقول وحيث كان صمت الحكيم في محلّه وموضعه كان من جملة حكمته.

وكذا قوله: [**وظاهرهم عن باطنهم**] فإنّ ظاهرهم هيئة الخاشعين العابدين يدلّ على اتّصاف نفهوسهم بكمال قولي العلم والعمل.

[**لا يخالفون الدين**] لملازمتهم لأوامر اللّه وطريق شريعته.

[**ولا يختلفون فيه**] لاتّفاقهم على الحقّ الذي لا اختلاف فيه ولا يضلّ أحدهم عن الحقّ حتّى يخالف صاحبه.

[**فهو بينهم شاهد صادق**] يستدلّون به على الأحكام والوقائع النازلة بهم وبغيرهم، لا يكذب من حيث هو شاهد.

[**وصامت ناطق**] لكونه حروفاً وأصواتاً وإنّما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق واستعار لفظي الصامت الناطق للدين باعتبار إفادة الأحكام الشرعية منه عند الرجوع إليه وعدمها مع السكوت عنه كإفادة الناطق وعدم إفادة الصامت.

في ذكر أهل البصرة كلّ واحد منهما يرجو الأمر له ويعطفه عليه دون صاحبه لا يمتّان إلى اللّه بحبل ولا يمدّان إليه بسبب كلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه

ومن خطبة له عليه السلام

[**في ذكر أهل البصرة كلّ واحد منهما يرجو الأمر له**] ضمير التنبيه يعود إلى طلحة والزبير بقرينة المقام والأمر المعهود أمر الخلافة.

[**ويعطفه**] أي: يجذب أمر الخلافة إلى نفسه ويعطفه [**عليه دون صاحبه**] وقد نقل إنّهما اختلفا في الأحقّ بالتقديم في الصلاة فاقامت عائشة محمد بن طلحة وعبداللّه بن الزبير يصلّي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن تنقضي الحرب ثمّ انّ عبداللّه بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار واحتجّ على ذلك باستخلافه له في الصلاة تارة وبنص صريح أُخرى واختلفا في تسليم الناس عليهما بالإمرة فامرت أن يسلّموا عليهما معاً، واختلفا في تولّي القتال فطلبه كلّ واحد منهما أولاً ثمّ نكل عنه.

[**لا يمتّان**] أي: لا يتقرّبان [**إلى اللّه بحبل**] يقال متّ إليه بكذا أي: تقرّب.

[**ولا يمدّان إليه بسبب**] أي: لا حجة لهما يعتذران بها إلى اللّه تعالى في قتالهما لمن قال فيه النبي صلى الله عليه وآله: «سلمك سلمي وحربك حربي» وقال فيه: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه كيفما دار».

[**كلّ واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه**] الضبّ الغلّ والحقد أي: في

قليل يكشف قناعه به والله لئن أصابوا الذي يريدان لينزعن هذا نفس هذا أو ليأتين هذا على هذا وقد قامت الفتنة الباغية فأين المحتسبون وقد سنّت لهم السنن وقدّم لهم الخبر ولكلّ ضلّة علّة ولكلّ ناكث شبهة

صدر كلّ منهما غلّ على الآخر ولكنّه مستور لا يبرزانه لمصلحة وعما [**قليل يكشف قناعه به**] أي: يظهر وينكشف ما ستراه من الغلّ والحقد، واستعار لفظ القناع لظاهره الساتر لباطنه وذلك مثل يضرب لمن ينافق صاحبه ويظهر له الصداقة مع حسده له في الباطن.

[**والله لئن أصابوا الذي يريدان**] منالملك والأمان [**لينزعن هذا نفس هذا أو ليأتين هذا على هذا**] أي: يسعى كلّ منهم في قتل صاحبه والوجدان يغني عن البرهان فإنّ الملك عقيم والعادة جارية بعدم قيام الأمر برئيسين معاً.

[**وقد قامت الفتنة الباغية**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله﴾ وإلى قول النبي ﷺ: «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية».

[**فأين المحتسبون**] الطالبون للأجر والثواب وفي رواية فأين المحسنون.

[**وقد سنّت لهم السنن**] جملة حالية أي: والحال أنّه قد أوضحت لهم الطرق وبان طريق الهدى وطريق الضلال فهذه الجادّة فأين السالك.

[**وقدّم لهم الخبر**] عطف عليه أي: والحال أنّه قد أخبرهم الرسول الصادق المصدّق بقوله: «يا عليّ إنّك ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» فمن سمع هذا الخبر من طالبي ثواب الله وجب عليه قتال هؤلاء لنكثهم البيعة.

وقوله: [**ولكلّ ضلّة علّة ولكلّ ناكث شبهة**] كالجواب لمن عساه يقول

والله لا أكون لمستمع اللدم يسمع الناعي ويحضر الباكي ثمّ لا يعتبر قبل موته ﷺ أيّها الناس كلّ امرىء منكم لاق ما يفرّ منه فراره

إنّهم يحتجون بكذا أي: لكلّ خروج عن الله علّة وعلّة خروجهم من الدين ما تقدّمت الإشارة إليه من البغي والحسد وحبّ الدنيا والرئاسة وكذا لكلّ ناكث للعهد والميثاق شبهة تغطّي بصيرته عن النظر إلى الحقّ كما تشبّثوا بطلب دم عثمان مع أنّهم لو أنصفوا لعلموا أنّ حظّهم منه الأوفر ونصيبهم أكثر وهو ﷺ بريءٌ منه وإن كان هو قاتله فويل له.

[**والله لا أكون لمستمع اللدم**] اللدم ضرب الصدر باليد فعل الحزين [**يسمع الناعي ويحضر الباكي ثمّ لا يعتبر**] أراد عليه السلام أنّه بعد علمه بقصد هؤلاء لقتاله وجلبهم عليه وتهديدهم إيّاه لا ينام عنهم ويصبر لهم حتّى يوافوه فيكون في الغرور كمن يسمع اللدم والضرب والبكاء الذي هو مظنّة الخطر ثمّ لا يصدق حتّى يحضر الباكي لمشاهدة الحال فيسلّم نفسه للعدوّ وقد كان الأولى أن يكتفي بذلك السماع ويستعدّ للقائه والهرب منه.

ومن كلام له عليه السلام

[**قبل موته ﷺ أيّها الناس كلّ امرىء منكم لاق ما يفرّ منه فراره**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾ وقوله: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولكم كنتم في بروج مشيّدة﴾ وإنّما قار فراره لأنّه لّما كان الإنسان دائماً فاراً من الموت ومتوقّياً له كان لابدّ له منه لا جرم كان ضروري اللقاء له في فراره.

والأجل مساق النفس والهرب منه موافاته كم اطّردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الامر فأبى اللّه إلّا اخفائه هيهات فهو علم مخزون أمّا وصيّتي فاللّه تعالى لا تشركوا به شيئاً

[**والأجل**] المضروب للإنسان وهو مدّة عمره [**مساق النفس**] لانّ مدّة بقائها في هذا البدن هو مساقها إلى غايتها.

[**والهرب منه موافاته**] لأنّ الفرار من الموت إنّما يتحقّق بالحركات والعلاجات ونحوها وذلك يستلزم فناء الأوقات وتصرّم الساعات وفي فنائها وتصرّمها موافاة الأجل فكان الهرب منه موافاة له.

[**كم اطّردت الأيام**] أي: صيّرتها طريدة لي أتبع بعضها بعضاً [**أبحثها عن مكنون هذا الأمر**] إشارة إلى ما وقع من ضربه وقتله عليه السلام المكنون وقته المعيّن بالتفصيل ومكانه وساعته فلا ينافي علمه به إجمالاً لأنّ ذلك مما استأثر اللّه بعلمه كقوله أنّ اللّه عنده علم الساعة إلى قوله: ﴿وما تدري نفس بأيّ أرض تموت﴾.

[**فأبى اللّه إلّا اخفائه**] ولعلّ ذلك البحث بالسؤال والفحص من النبي صلى الله عليه وآله مدّة حياته وكتمانه إيّاه أو بالفحص والتفرّس من قرائن الأحوال.

[**هيهات**] أي: بعد ذلك العلم بالتفضيل [**فهو علم مخزون**] لا يعلمه إلّا اللّه تعالى.

ثمّ شرع عليه السلام في الوصيّة فبدأ بالأهمّ فالأهمّ فقال:

[**أمّا وصيّتي فاللّه تعالى لا تشركوا به شيئاً**] وأخلصوا العبودية له بالإعراض عمّا سواه وفي ذلك يدخل لزوم أوامره ونواهيه وسائر ما نطق به كتابه المجيد وفرقانه الحميد.

ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذمّ إلاّ أن تشردوا

[ومحمّداً صلّى اللّه عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته] واعملوا بها وداوموا عليها في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم ولا تهملوها فإنّها لم تترك شيئاً من المصالح الدينية والدنيويّة حتّى ورد فيها في آداب التخلّي عشرة آداب أو أكثر أكّد الوصية في الأمر بإخلاص التوحيد والمواظبة على السنّة بقوله:

[أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين] استعار لهما لفظ العمودين ورشح بذكر الإقامة لفظ المصباحين ورشح بذكر الإيقاد لأنّ مدار الإسلام ونظام أمور المسلمين في معاشهم ومعادهم على توحيد اللّه ولزوم ما جاء به رسوله ﷺ، كما أنّ مدار الخيمة وقيامها بالعمود ولأنّ التوحيد وأخذ ما جاء به النبي ﷺ مستلزم للهداية من ظلمات الجهل قائد إلى الجنّة كما يهدي المصباح في الظلام إلى المطلوب.

[وخلاكم ذمّ] أي: عداكم، أي: عند لزومكم لتوحيد اللّه وسنّة رسوله ﷺ لا ذمّ عليكم وهو مثل يضرب لمن تبرّء من العيب قيل أوّل من قاله قصير مولى جذيمة حين حثّ عمرو بن عدي على طلب ثاره من الرياء فقال له عمرو: كيف لي بذلك والرياء أمنع من عقاب الجو فقال قصير: اطلب الأمر وخلاك ذم، وقوله مالم تشرووا استثناء من نفي لحوق الذم لهم أي: أوقدوا هذين المصباحين فما دمتم كذلك لا يلحقكم ذم.

[إلاّ أن تشردوا] أي: تتفرّقوا عمّا أنتم عليه، ثمّ لمّا أمرهم بلزوم هذين الأمرين الذين يدور عليهما التكليف أبان لهم تفاوت الخلق في التكاليف بقوله:

حمِّل كلّ امرىء منكم مجهوده وخفّف عن الجهلة ربّ رحيم ودين قويم وإمام عليم غفر اللّه لي ولكم انا بالأمس صاحبكم وأنا اليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم

[**حمِّل كلّ امرىء منكم مجهوده**] أي: زنّ كلّ واحد من أرباب العلوم والمعارف ومن هو بصدد العلم يحمل مجهوده وطاقته منه بالتنبيه على الأدلّة وتعليمها وأمّا الجهّال كالنساء وأهل البادية ونحوهم من أهل الغباوة فتكليفهم دون ذلك.

وإلى ذلك أشار بقوله: [**وخفّف عن الجهلة ربّ رحيم**] ذكر وصف الرحمة المناسبة ما سبق من ذكر التخفيف.

[**ودين قويم**] لا عوج فيه ولا زيغ عن القصد الحقيقي.

[**وإمام عليم**] إشارة إلى الرسول ﷺ العالم بكيفيّة سلوك طريق اللّه ومراحلها ومنازلها والهادي فيها بما تقتضيه حكمته من القول والعمل أو إلى نفسه لكونه وارث علمه وسالك مسالكه.

ثمّ ختم الوصية بالدعاء لهم فقال: [**غفر اللّه لي ولكم**] وبدء بنفسه لما روي عن النبي ﷺ إنّه كان إذا دعى بدء بنفسه.

[**انا بالأمس صاحبكم**] في الحرب ومنازعة الأقران وصاحب الأمر والنهي فيهم.

[**وأنا اليوم عبرة لكم**] بحال مصرعي.

[**وغداً مفارقكم**] بالموت وكلّ هذه التنفيرات محلّ الاعتبار يجب التنبّه لها وأراد بغد إمّا حقيقة إن كان قد غلب على ظنّه موت في تلك الواقعة أو ما يستقبل من الزمان.

إن تثبت الوطأة في هذه المنزلة فذاك وإن تدحض القدم فإنّا كنّا في أفياء أغصان ومهاب أرياح وتحت ظلّ غمام اضمحلّ في الجوّ مُتَلَفَّقُها

وقوله ﷺ: **[إن تثبت الوطأة في هذه المنزلة]** أي: إن يكون لي ثبات في الدنيا وبقاء في هذه الدنيا التي هي محلّ الزوال عن الحياة **[فذاك]** المراد.

[وإن تدحض القدم] بالموت **[فإنّا كنّا في أفياء أغصان ومهاب أرياح]** كنّى بهذه الأمور عن أحوال الدنيا ولذّاتها وبقائه فيها ومتاعبها وقيل استعار لفظ الأغصان للأركان الأربعة من العناصر ولفظ الأفياء لما تستريح فيه النفوس من تركها في هذا العالم ووجه الاستعارة الأُولى أنّ الأركان في مادّتها كالأغصان للشجرة ووجه الثانية أنّ الأفياء محلّ الاستراحة واللذّة كما أنّ الكوكب في هذا البدن حين صحّة التركيب واعتدال المزاج من هذه الأركان وكذا استعار لفظ مهاب الرياح للأبدان ولفظ الرياح للأرواح والنفحات الإلهية عليها في هذه الأبدان ووجه الأُولى قبول الأبدان لنفحات الجود كقبول مهاب الرياح لها استعارة لفظ المحسوس للمعقول ووجه الثانية ظاهر.

وقوله: **[وتحت ظلّ غمام]** استعار الغمام للأسباب العلويّة من الحركات السماويّة والاتصالات الكوكبيّة والأرزاق المفاضة على الإنسان في هذا العالم التي هي سبب بقائه ووجه الشبه الاشتراك في الإفاضة والسببيّة وكنّى بظلّها عمّا يستراح إليه منها كما يقال فلان يعيش في ظلّ فلان أي: في غيشه وعنايته.

وقوله: **[اضمحلّ في الجوّ مُتَلَفَّقُها]** قيل: كنّى باضمحلال متلفقها في الجو عن تفرّق الأسباب العلوية للبقاء وفنائها وبعضاً محطّها في قوله

وعفّى في الأرض مخطّها وإنّما كنت جاراً قد جاوركم بدني أيّاماً وستعقبون منّي جثّة خلا ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق ليعظكم هدوّي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي فإنّه أوعظ من المنطق البليغ والقول المسموع

[**وعفّى في الأرض مخطّها**] عن فناء آثارها في الأبدان والضمير في متلفّقها يعود إلى الغمام وفي مخطّها يعود إلى مهاب الرياح ولفظ المخطّ مستعار للأبدان أيضاً كالباب وعفائها فنائها.

وقوله: [**وإنّما كنت جاراً قد جاوركم بدني أيّاماً**] وهي مدّة الحياة الدنيا.

[**وستعقبون**] أي توجدون في العاقبة [**منّي جثّة خلا**] أي: خالية من الروح [**ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق**] أي: أقفرت من المعاني المعهودة لكم من العقل والنطق والقوّة فهي متبدّلة الحراك بالسكون وبالنطق السكوت وإنّما قال قد جاوركم بدني وخصّ المجاورة بالبدن تنبيهاً على أنّ مصاحبتهم له بمجرّد البدن وأنّ نفسه متصّلة بالملأ الأعلى كما قال ﷺ: «صاحبوا الناس بأبدان أرواحها متعلّقة بالملأ الأعلى» إشارة إلى نفسه الشريفة لم يكن لها ميل إلى البقاء في الدنيا ومجاورة أهلها.

وقوله: [**ليعظكم هدوّي وخفوت إطراقي وسكون أطرافي فإنّه أوعظ**] للمعتبرين [**من المنطق البليغ والقول المسموع**] لأنّ الطباع أكثر انفعالاً واعتباراً عن مشاهدة ما فيه العبرة من الوصف له بالقول المسموع ولو بأبلغ عبارة.

ثم أخذ عليه السلام في توديعهم:

ودّعتكم وداع أمرىء مرصد للتلاقي وغداً ترون أيّامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي يومي فيها إلى الملاحم وأخذوا يميناً وشمالاً

[**ودّعتكم**] أي: وداعي لكم [**وداع أمرىء مرصد للتلاقي**] أي: معدّ ومهيّا للقاء اللّه.

ثمّ ذكّرهم بفضيلته بقوله: [**وغداً ترون أيّامي**] أي: بعد موتي، أراد أنّهم لم يكونوا عارفين بحقّه في أمر الدين ومقاصده في حروبه وإنّما يعرفون قدره بعد موته فإنّما تعرف النعمة بزوالها وتعرف الأشياء بعد أضدادها.

[**ويكشف لكم عن سرائري**] ما كان مغطّى عن أعين بصائركم من لزوم القصد في سبيل اللّه.

[**وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي**] من خلفاء الجور فعند ذلك يعلمون أنّ وقائعه وحروبه وحرصه على هذا الأمر لم يكن لنيل دنياً بل لإقامة سنن العدل ورضا اللّه تعالى وممّا يناسب المقام قول الشاعر:

ستفقدني قومي إذا غبت عنهم وفي اللّيلة الظلماء يفتقد البدر

ومن خطبة له عليه السلام

[**يومي فيها إلى الملاحم وأخذوا يميناً وشمالاً**] الضمير لمن ضلّ من المسلمين عن طريق الهدى واليمين والشمال كناية عن طرفي الإفراط والتفريط من الفضائل التي تقدّم ذكرها، وتلك الأوصاف هي الرذائل وهي

في مسالك الغي وتركاً لمذاهب الرشد فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد فكم من مستعجل بما إن أدركه ودّ أنّه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد يا قوم هذا إيّان ورود كلّ موعود دنوٍّ من طلعة ما لا تعرفون ألا وإنّ من أدركها منّا

المرادة بقوله:

[**في مسالك الغي وتركاً لمذاهب الرشد**] وهي تلك الفضائل النفسانية وظعناً وتركاً مصدران قاما مقام الحال.

وقوله: [**فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد**] إشارة إلى ما كانوا يتوقّعونه من الفتن التي أخبر بها الرسول ﷺ وأنّها تقع في المستقبل وكانوا في أكثر الأوقات يسألونه عنها فقال لا تستعجلوا ما هو كائن لابدّ من وقوعه وهو مرصد معد.

[**ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد**] من الفتن والوقائع [**فكم من مستعجل بما إن أدركه ودّ أنّه لم يدركه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم﴾ وهو ذمّ للاستعجال والاستبطاء لهذا المدعو.

[**وما أقرب اليوم من تباشير غد**] أي: من البشرى بغد لقربه كما قيل: غد ما غد ما أقرب اليوم من غد، وقال الآخر وإنّ غداً للناظرين قريب.

ثمّ شرع عليه السلام في تقريب ذلك الموعود من الفتن فقال:

[**يا قوم هذا إيّان**] بكسر الهمزة وتشديد الياء أي: وقت [**ورود كلّ موعود**] به ووقت [**دنوٍّ من طلعة ما لا تعرفون**] أي: وقت القرب من ظهور ما لا تعرفون من تلك الأُمور بالتفصيل.

[**ألا وإنّ من أدركها**] أي: من أدرك هذه الفتن [**منّا**] معاشر أهل البيت

يسري فيها بسراج منير ويحذو فيها على مثال الصالحين ليلحّ فيها ربقاً ويعتق رقّاً ويصدع فيها شعباً ويشعب صدعاً في سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ولو تابع فيه نظره

[**يسري فيها بسراج منير**] استعار لفظ السراج لكمالات نفسه التي استفائت بها في طريق اللّه من العلوم والأخلاق الفاضلة ولفظ المنير ترشيح وهو إخبار عن معرفته للحقّ وتميّزه عن الباطل وأنّ تلك الفتن لا ترفع له شبهته ولا تأثير لها في عقيدته الصادقة الصافية بل يتصرّف فيها منقاداً لأوامر اللّه على صراطه المستقيم وطريقه النبوي القويم.

[**ويحذو فيها على مثال الصالحين**] ويقتفي فيه اثر آبائه الطاهرين ويلزم مكارم الأخلاق [**ليلحّ فيها ربقاً**] بكسر الراء وتسكين الباء: حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهائم، استعارة لما انعقد في النفوس من العقائد الباطلة والشبه والإمام يحلّها.

[**ويعتق رقّاً**] أي: يعتق الرقاب من رقّ آثامها ويطلقها من أسر جرائمها.

[**ويصدع فيها شعباً ويشعب صدعاً**] الصدع: الشق، والشعب: إصلاحه أي: يصدع، انشعب والتئم من ضلال يمكنه صدعه ويشعب مما انصدع من أمر الدين ما أمكنه شعبه [**في سترة عن الناس**] أي: مغمور في الناس.

[**لا يبصر القائف أثره**] والقائف قصاص الأثر أي: لا يعرفه من يتعرّفه.

[**ولو تابع فيه نظره**] وكرّره مرّة بعد أخرى وكرّة غبّ أولى وهذا أمر

ثمّ ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل تُجلى بالتنزيل أبصارهم ويرمي بالتفسير في مسامعهم ويعبقون كأس الحكمة بعد الصبوح

معلوم فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام لم يزالوا مغمورين في الناس لا يعرفهم إلّا من عرّفوه أنفسهم حتّى لو تعرفهم من لا يريدون معرفته لهم لم يعرفهم وليسوا المراد لم يعرف أشخاصهم بل المراد لا يعرف أنّهم أهل الحقّ والأحقّون بالأمر.

وقوله: [**ثمّ ليشحذن فيها قوم شحذ القين النصل**] الشحذ التحديد والقين: الحداد أي في أثناء ما يأتي من القين يشحذ أذهان قوم وتعدّ لقبول العلم والحكمة كما يشحذ الحدّاد النصل ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع، فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فيما يقطع به وهو وجه التشبيه المذكور، ثمّ أخذ في تفسير ذلك الشحذ والإعداد، فقال:

[**تُجلى بالتنزيل أبصارهم**] أي: تعدّ بالقرآن الكريم ودراسته وتدبّره أبصار بصائرهم لإدراك الحكمة وأسرار العلوم وذلك لاشتمال التنزيل الإلهي عليها.

[**ويرمي بالتفسير في مسامعهم**] أي: يلقي إليهم تفسيره على وجهه من إمام الوقت ثمّ عبّر عن أخذهم الحكمة ومواظبتهم على تلقّفها بعد استعدادهم لها بالغبوق والصبّوح فقال:

[**ويعبقون كأس الحكمة بعد الصبوح**] والعبوق الشراب بالعشي والعشي والصبوح الشرب بالغداة وهما مستعاران والمشار إليهم بالاستعداد للحكمة وأخذها علماء الأمّة من جاء منهم قبلنا ومن في آخر الزمان من

وحال الأمد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغِيَر حتّى إذا اخلولق الأجل واستراح قوم إلى الفتن وأشالوا عن لحقاح حربهم

المستجمعين لكمالات النفوس السالكين لسبيل اللّه المرتضين في نظره ونظر الأئمة من ولده بعده.

ومنها

[**وحال الأمد بهم**] قيل هذا الفصل يستدعي كلاماً منقطعاً قبله لم يذكره الرضي (رض) قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت وملكت وأملى لها اللّه سبحانه وقيل أشار بمن طال الأمد بهم إلى من كان من أهل الجاهلية ممّن طال أمدهم وامتدّ وقتهم.

[**ليستكملوا الخزي**] في الدنيا والآخرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين كفروا انّما نملي لهم خيراً لهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾.

[**ويستوجبوا الغِيَر**] أي: تغيّر النعم، قال تعالى: ﴿ذلك بأنّ اللّه لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ وقال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾.

[**حتّى إذا اخلولق الأجل**] أي: صار خلقاً وهو كناية عن بلوغهم غاية مدّتهم المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللّوح المحفوظ.

[**واستراح قوم إلى الفتن**] إشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحقّ وأنصاره ويستريح إليها أي يجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة في الانقطاع والعزلة والخمول.

[**وأشالوا عن لحقاح حربهم**] أي: رفعوا أنفسهم عن تهيّج الحرب

لم يمنوا على اللّه بالصبر لوم يستعظموا بذل أنفسهم في الحقّ حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء حملوا بصائرهم على أسيافهم ودانوا لربّهم بأمر واعظهم

وأعدّوا أنفسهم لهما كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها ورفعه للقاحها وتسمّى شائلاً واستعار اللقاح بفتح اللام لإثارة الحرب.

وقوله: [**لم يمنوا على اللّه بالصبر**] جواب حتّى إذا اخلولق والضمير في تمنّوا عائد إلى العارفين الذين مرّ ذكرهم في الفصل السابق يقول حتّى إذا القى هؤلاء السلم إلى هذه الفئة الضالّة عجزوا واستراحوا من منابذتهم إلى فتنتهم بقية منهم انهض اللّه أُولئك الذين خصّهم بحكمته وأطلعهم على أسرار العلوم ـــــ ولم يمنّوا على اللّه بالصبر في طاعته وفي رواية بالنصر، أي: بنصرهم له [**لوم يستعظموا بذل أنفسهم في**] طلب [**الحقّ حتّى إذا وافق**] القدر الذي هو.

[**وارد القضاء انقطاع مدّة البلاء**] أي: انقطاع مدّة هذه الفتنة وارتفاع ما كان شمل الخلق من بلائهم [**حملوا**] أي: هؤلاء العارفون [**بصائرهم على أسيافهم**] أي: أظهروا عقائد قلوبهم للناس وكشفوها وجرّدوها مع تجريد سيوفهم فكأنّهم حملوها على سيوفهم فترى في غاية الجلاء والظهور كما ترى السيوف المجرّد.

[**ودانوا لربّهم بأمر واعظهم**] وهو الرسول ﷺ وقيل الضمير في يمنوا وما بعده للقوم الذين استراحوا إلى الفتنة واشتالوا عن لقاح الحرب وذلك أنّهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنّه لم يؤذن لهم في القيام حين استراحتهم وإلقائهم السلم لهذه الفتنة ولم يتمكّنوا من مقاومتهم لعدم قيام القائم بالأمر فكانوا

حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وآله

حين مسالمتهم صابرين على مضض من ألم المنكر الذي يشاهدونه غير مستعظمين لبذل أنفسهم في نصرة الحقّ أو ظهر من يكون لهم ظهر يلجئون إليه حتّى إذا ورد القضاء الإلهي بانقطاع مدّة بلاء هذه الفئة وظهور من يقوم بنصر الحقّ ودعى إليه حمل هؤلاء بصائرهم على أسيافهم وقاموا لربّهم بأمر من يقوم فيه واعظاً ومخوّفاً وداعياً.

وقوله: [**حتّى إذا قبض اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وآله**]الخ، قيل إنّه منقطع عمّا قباله لأنّ صريحه ذكر غاية ـــــ حال حياة الرسول ﷺ وحال الناس قبله ومعه وليس في الكلام المتقدّم شيء من ذلك، اللّهم إلاّ أن يحمل من طال الأمد بهم في الكلام المتقدّم على من كان من أهل الضلال قبل الإسلام حتّى إذا أخلولق أجلهم واستراح قوم منهم إلى الفتن والوقائع بالنهب والغارة واشتالوا عن لقاح حربهم أي: أعدّوا أنفسهم لها كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها للقاحها أيك يرفعه، ويسمّى شايلاً، ويكون الضمير في قوله لم يمنوا راجعاً إلى ذكر سبق للصحابة في هذه الخطبة حين قام الرسول ﷺ فيهم بالحرب لم يمنوا على اللّه بصبرهم معه في نصرة الحقّ ولم يستعظموا بذل انفسهم له حتّى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدّة البقاء بدولة الجاهلية والكفر حمل هؤلاء الذين لم يمنّوا على اللّه بنصرهم بصائرهم أي: ما كانوا يخفونه من الإسلام في أوّله على سيوفهم أي: كشفوا عقائدهم كما سبق القول فيه، أو دمائهم وثاراتهم من الكفّار ودانوا لربّهم بأمر واعظهم وهو الرسول ﷺ وحينئذ يصلح قوله حتّى إذا قبض اللّه رسوله غاية ذلك الكلام.

رجع قوم على الأعقاب وغالتهم السبل واتّكلوا على الولائج ووصلوا غير الرحم وهجروا السبب الذي أُمروا بمودّته

وقوله: [**رجع قوم على الأعقاب**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً﴾ والرجوع على الأعقاب كناية عن الرجوع عمّا كانوا عليه من الانقياد للشريعة وأوامر اللّه ورسوله.

[**وغالتهم السبل**] كناية عن اشتباه طرق الباطل بالحقّ واستراق طرق الباطل لهم وإهلاكها إيّاهم وهي الشبه المستلزمة للآراء الباطلة كما يقال في العرف أخذته الطريق إلى مضيق قيل وهي مجاز في المفرد والمركّب، أمّا في المفرد فلأنّ سلوكهم لسبل الباطل لمّا كان عن غير علم منهم بكونه باطلاً ناسب الغيلة فأطلق عليه لفظها وأمّا في المركّب فلأنّ إسناد الغيلة إلى السبل ليس حقيقة إذ الغيلة من فعل العقلاء.

وقوله: [**واتّكلوا على الولائج**] جمع وليجة وهي بطانة الرجل وخاصّته من أهله وعشيرته كنّى به عن اعتماد كلّ من رأى منهم رأياً فاسداً على أهله وخواصّه في نصرة ذلك الرأي.

[**ووصلوا غير الرحم**] التي أمروا بصلتها وهي رحم الرسول ﷺ وبها فسّر قوله تعالى: ﴿فاتّقوا اللّه الذي تُسائلون به والأرحام﴾.

[**وهجروا السبب الذي أُمروا بمودّته**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل لا أسالكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾ وظاهر كونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى اللّه والسبب في اللغة الحبل إشارة إلى النبوي المتواتر: «إنّي خلّفت فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي حبلان ممدودان من السماء

ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه في غير موضعه معادن كلّ خطيئة وأبواب كلّ ضارب في غمره قد ماروا في الحيرة وذهلوا في السكرة فهم على سنّة من آل فرعون من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين

إلى الحوض لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض﴾.

[**ونقلوا البناء عن رصّ أساسه**] رص الأساس: إحكامه [**فبنوه في غير موضعه**] إشارة إلى العدول بأمر الخلافة عنه وعن أهل بيته إلى غيرهم وهذه الخصلة كسابقتها دخول في رذيلة الظلم من وضع الشيء في غير محلّه.

ثمّ وصفهم وصفاً إجمالياً بأنّهم [**معادن كلّ خطيئة**] أي: أنّهم مستعدّون لفعل كلّ خطيئة ومهيّؤن لها فهم مظانّها ولذا استعار لفظ المعادن.

وكذا قوله: [**وأبواب كلّ ضارب في غمره**] استعار لفظ الأبواب لهم باعتبار أنّ كلّ من دخل في غمرة جهالة أو شبهة يثيرها فتنة واستعان بهم فتحوا له ذلك الباب وساعدوه وحسّنوا له رأيه فكأنّهم بذلك أبواب له إلى مراده الباطل يدخل منها.

[**قد ماروا**] أي: تحرّكوا وتردّدوا [**في الحيرة**] فهم في أمرهم حائرون لا يعرفون جهة الحقّ فيقصدونه.

[**وذهلوا**] أي: غابت أذهانهم [**في السكرة**] في سكرة الجهل [**فهم على سنّة من آل فرعون**] وطريقته وإنّما انكر السنّة لأنّه يريد بها مشابهتهم في بعض طريقه وآل فرعون وأتباعه.

وقوله: [**من منقطع إلى الدّنيا راكن أو مفارق للدّين مباين**] تفصيل لهم باعتبار كونهم على سنّة من آل فرعون فمنهم المنقطع إلى الدنيا المنهمك

واستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره الاعتصام من حبائله ومخائله وأشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله ونجيبه وصفوته لا يوازى فضله

في لذّاتها المنكبّ على تحصيلها ومنهم المفارق للدين المباين له وإن لم يكن له ذنباً.

ومن خطبة له عليه السلام

[**واستعينه على مداحر الشيطان**] جمع مدحر وهي الأمور التي بها يدمّر ويطرد.

[**ومزاجره**] ما يزجر به من العبادات والأعمال الصالحة المستلزمة لطرده وزجره وتطويعه.

وعلى [**الاعتصام من حبائله**] وهي الشهوات واللذات الدنيوية استعار لها لفظ الحبائل وهي أشراك الصائد لمناسبتها إيّاها في استلزام الحصول فيهما للبعد عن السلامة والحصول في العذاب.

[**ومخائله**] أي: محال غروره التي يخيل إلى الناس بها وتوهّمهم أنّها نافعة.

[**وأشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله ونجيبه**] أي: مختاره من الخلق وفي رواية ونجيّه أي: اختصّه بالمناجاة.

[**وصفوته**] اصطفاه من خلقه [**لا يوازى فضله**] أي: لا أحد يماثله في

ولا يجبر فقده أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة الجفوة الجافية والناس يستحلّون الحريم ويستذلّون الحليم

فضائله النفسانية وملكاته الخلقيّة.

[**ولا يجبر فقده**] إذ لا مثل له يقوم مقامه وهو خاتم الأنبياء وأفضلهم فلا جبران لفقده.

[**أضاءت به البلاد**] بأنوار علومه الإلهيّة ومعارفه الربّانية وهداياته الساطعة وبراهينه القاطعة وآياته الواضحة ودلالاته اللائحة [**بعد الضلالة**] أي: ضلالة الكفر.

ووصفها بلفظ [**المظلمة**] لعدم الاهتداء فيها للحقّ فالوصف مستعار وكذا وصف الإضاءة به مستعان لاهتداء الخلق به في معاشهم ومعادهم وإسناد الإضاءة إلى البلاد مجاز.

[**والجهالة الغالبة**] على أكثر الخلق والمراد بالجهل بالطريق الموصل إلى رضاء اللّه تعالى وكيفية نظام المعاش ممّا أبانته الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء.

وأراد بقوله: [**الجفوة الجافية**] غلظة أطباع العرب وماكانوا عليه من قساوة القلوب وسفك الدماء ووصفهما بما اشتقّ منها مبالغةً وتأكيداً لها وأراد الجفوة القويّة.

[**والناس يستحلّون الحريم**] الواو للحال وعاملها أضاءت.

وكذا قوله: [**ويستذلّون الحليم**] لأنّ عادة العرب كما قيل إلى الآن استذلال من عقل منهم وحلم عن الغارة والنهب وإثارة الفتن واستهضامه ونسبته إلى الجبن والضعف.

يحيون على فترة ويموتون على كفرة ثمّ إنّكم معشر العرب أعراض بلايا قد اقتربت فاتّقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النعمة وتثبّتوا في قتام العشوة

[يحيون على فترة] أي: على حالة انقطاع الوحي والرسل وتلك حال انقطاع الخير وموت النفس بداء الجهل.

[ويموتون على كفرة] وزان فعلة من الكفر إذ لا هادي لهم وقد مرّ مراراً أنّ الفترة على مذهب أهل العدل عبارة عن خفاء الحقّ وعدم ظهوره لا عن خلوّ الأرض من حجّة.

ثمّ شرع في إنذار السامعين ووعظهم وتخويفهم فقال:

[ثمّ إنّكم معشر العرب أعراض بلايا قد اقتربت] واستعار لهم العرض لأنّهم يرمون بالحوادث والوقائع المستقبلة كما يرمى العرض بالسهام ولمّا كانت الفتن الحادثة كتدمير قوم وإهلاكهم مثلاً بحسب استعدادهم لذلك وكان أكبر الأسباب المعدّة له هي الغفلة عن ذكر اللّه بالانهماك في نعم الدنيا ولذّاتها استعار للغفلة السكرات أو أمر باتّقائها.

وقال: **[فاتّقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النعمة]** البوائق: جمع بائقة وهي الداهية حذّر من دواهيها بسبب كفر النعم.

[وتثبّتوا في قتام العشوة] القتام بفتح القاف الغبار والعشوة بكسر العين: الأمر على غير بيان ووضوح، وفي رواية: تبيّنوا أمر بالتثبّت أو التبيّن عند اشتباه الأمور فإنّ الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، واستعار القتام للأمر المشتبه لكونه ممّا لا يهتدي فيه خائصه كما لا يهتدي القائم في الغبار عند ظهوره وخوضه.

واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها وظهور كمينها وانتصاب قطبها ومدار رحاها تبدء في مدارج خفيّة وتؤول إلى فظاعة وجليّة

[**واعوجاج الفتنة**] إتيانها على غير وجهها [**عند طلوع جنينها**] أي: عند ظهور ما اجتنّ منها وخفى عليكم.

[**وظهور كمينها**] أي: ما كمن منها واستتر ويحتمل أن يكون النين والكمين استعارة.

[**وانتصاب قطبها**] أي: قيامه، وعنى بالقطب من تدور عليه من البغاة المنافرين استعارة.

وكذا استعار [**ومدار رحاها**] لدورانها على من تدور عليه من أنصار ذلك القطب وعسكره الذين يدور عليهم الفتنة.

ثمّ أخبر ﷺ أنّها [**تبدء في مدارج خفيّة**] وأراد بالمدارج صدور من ينوي القيام فيها ويعقد على آثارها قيل وكان هذا إشارة إلى فتنة بني أُميّة وقد كان مبدئها شبهة قتل عثمان ولم يكن أحد من الصحابة يتوهّم خصوصيّة هذه الفتنة وإنّما كانوا علموا من الرسول ﷺ حدوث وقائع وفتن غير معيّنة الأزمان ولا من يثيرها ويكون قطباً لها فخفاء مدارجها كتمان معاوية وطلحة والزبير وغيرهم لأُمورهم وما عزموا عليه من إقامة الفتنة والطمع في الملك والدولة حتّى آل ذلك الأمر إلى الأُمور القطيعة المشار إليها بقوله:

[**وتؤول إلى فظاعة**] وهي تجاوز الأمر الشديد الحدّ والمقدار.

[**وجليّة**] أي: واضحة بعد الخفاء.

شبابها كشباب الغلام إثارتها كآثار السِّلام يتوارثها الظَّلَمة بالعهود أوّلهم قـائد لآخـرهم وآخـرهم مـقـتـد بأوّلـهم يتنافـسـون في دنيـاً دنيّة ويتكالبون على جيفة مريحة

[**شبابها كشباب الغلام**] استعار لفظ الشباب لقيامها وظهورها في الناس ووجه الشبب السرعة في الظهور، ولذا أكّدها بتشبيه ذلك الظهور بشباب الغلام في السرعة ومع سرعتها [**إثارتها**] في هدم الإيمان والإسلام [**كآثار السِّلام**] بكسر السين الحجارة الصمّ واحدها أسلمة بكسر السين في الجلد، ووجه الشبه إفسادها للدين ونظام المسلمين كإفساد الحجر ما يقع عليه بالرضّ والكسر.

[**يتوارثها الظَّلَمة**] كبني أُميّة شرّابي الخمور ومرتكبي الفجور [**بالعهود**] بعهد الأب لإبنه.

[**أوّلهم قائد لآخرهم**] إلى النار والدخول في ظلم الضلالة وإثارة الفتن والجهالة، واستعار لفظ القود لتهيئة الأوّل منهم أسباب الملك لمن بعده.

[**وآخرهم مقتد بأوّلهم**] في ذلك وضمير المفعول في يتوارثونها يرجع إلى تلك الفئة.

[**يتنافسون في دنياً دنيّة**] وإشارة بالوصف إلى عدم قابليتها للتنافس وأنّه ينبغي أن يكون في الدائم الباقي العالي كما قال تعالى في نعيم الجنّة ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

[**ويتكالبون على جيفة مريحة**] أي: منتة استعار وصف التكالب لمجاذبة بعضهم لبعض عليها كالمجاذبة بين الكلاب على الميتة فاستعار لها لفظ الجيفة

وعن قليل يتبرّء التابع من المتبوع والقائد من المقود فيتزايلون بالبغضاء ويتلاعنون عند اللقاء ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف

ورشّح بذكر الريحة للتنفير عنها لاستلزامها أذى طالبها ولهرب العقلاء منها كما يهربون من الجيفة المنتنة وإليه أشير في النبوي «الدنيا جيفة وطالبها كلاب».

[**وعن قليل يتبرّء التابع من المتبوع والقائد من المقود**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذ تبرّء الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾.

[**فيتزايلون**] أي: يتفارقون ويتباينون [**بالبغضاء**] إذ لم تكن أُلفتهم ومحبّتهم إلاّ لغرض دنيوي قد زال وفنى.

[**ويتلاعنون عند اللقاء**] يلعن بعضهم بعضاً ويبرء بعضهم من بعض ﴿كلّما دخلت أمّة لعنة أختها﴾ ثمّ إنّ الظاهر أنّ التبرّي المذكور في القيامة وقيل هو عند ظهور الدولة العبّاسية فإنّ العادة جارية بتبرء الناس من الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممّن تولى عزل أولئك أو قتلهم وقيل قوله عن قليل إلى قوله عند اللقاء جملة اعتراضية مؤكّداً بها معنى تعجّبه منهم فكأنّه قال: إنّهم مع تكالبهم عليها عن قليل يتبرّء بعضهم من بعض وذلك أدعى لهم إلى ترك التكالب.

[**ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف**] قيل كأنّ هذه الفتنة فتنة التتار إذ الدائرة فيها على العرب وقيل هي إشارة إلى فتنة الدجّال كنّى عن أهوالها واضطرابه أمر الإسلام فيها بكونها وجوفاً أي: كثيرة الوجف وطالعها مقدّماتها وأوائلها.

والقاصمة الزحوف فتزيغ قلوب بعد استقامة وتضلّ رجال بعد سلامة عند هجومها وتلتبس الآراء عند نجومها من أشرف لها قصمته ومن سعى فيها حطمته يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة قد اضطرب معقود الحبل

[**والقاصمة**] للظهر كناية عن هلاك الخلق فيها [**الزحوف**] إشارة لشبهها بالرجل الشجاع الكثير الزحف في الحرب إلى أقرانه [**فتزيغ**] تلك الفتنة [**قلوب**] عن سبيل اللّه [**بعد استقامة**] كانّ منها على الحقّ.

[**وتضلّ رجال**] ويهلكون في الآخرة بالمعاصي [**بعد سلامة**] منهـ [وتختلف الأهواءخ عن إرادة اللّه تعالى وأوامره [**عند هجومها وتلتبس الآراء**] الصحيحة بالفاسدة [**عند نجومها**] أي: ظهورها على الناس فلا يعرفون وجه المصلحة من غيره [**من أشرف لها**] أي: تطلّع إلى مقاومتها [**قصمته**] أي: أهلكته.

[**ومن سعى فيها**] أي: في قيامها [**حطمته**] والمراد أنّ المتطلّع إلى دفعها ومقاومتها والساعي في قيامها أي قائلها ومقاومها يهلكان فيها [**يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة**] التكادم التعاض بأدنى الهمّ والعانة القطيع من حمر الوحش واستعار التكادم لمغالبة مثيري هذه الفتنة بعضهم لبعض أو لمغالبتهم لغيرهم وشبه ذلك بكادم الحمر في العانة ووجه الشبه المغالبة مع الإيماء إلى خلعهم ربق التكليف من اعناقهم وكثرة غفلتهم عمّا ـــــ في الآخرة.

[**قد اضطرب معقود الحبل**] استعار معقود الحبل لما انتظم من أمر الدين واستقام من دولة الإسلام ولفظ الحبل للدين وكنّى باضطرابه عن عدم

وعمي وجه الأمر تغيض فيها الحكمة وتنطق فيها الظلمة وتدقّ أهل البدو بمسحلها وترضّهم بكلكلها يعيض في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان

استقرار قواعد الدين عند ظهور أوّل هذه الفتنة.

[وعمي وجه الأمر] بحيث لا يهتدي فيه إلى وجه المصلحة **[تغيض فيها الحكمة]** أي: الحكمة الخليقة التي عليها مدار الشريعة وتعليمها واستعار لفظ الغيض لعدم ظهورها والانتفاع بها.

[وتنطق فيها الظلمة] أي: بالأمر والنهي وما تقتضيه آرائهم الخارجة عن العدل.

[وتدقّ أهل البدو بمسحلها] المسحل المبرد والمسحل حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها استعارة لما تؤذي به العرب وأهل البادية ووجه الشبه اشتراك المبرد أو شكيمة اللجام وما تؤذي به العرب من هذه الفتنة في الإيذاء فكأنّها شجاع ساق عليهم فدقّهم بشكيمة فرسه أو نحو ذلك.

[وترضّهم بكلكلها] استعار الكلكل لما يدهم البدو منها ملاحظة لشبهها بالناقة التي تبرك على الشيء فتسحقه.

وقوله: **[يعيض في غبارها الوحدان]** جمع واحد **[ويهلك في طريقها الركبان]** كناية عن عظمها، أي: لا يقاومها أحد ولا يخلص منها الوجدان أو الركبان ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها أي: أنّ القليل من الناس إذا ارادوا دفعها هلكوا في غبارها من دون أن يدخلوا في غمارها.

تَرِدُ بمُرِّ القضاء وتحلب عبيط الدماء ويثلم منار الدين وتنقض عقد اليقين تهرب منها الأكياس وتدبّرها الأرجاس مرعاد مبراق

وأمّا الركبان وكنّى بهم عن الكثير من الناس فإنّهم يهلكون في طريقها وعند خوضها وقيل اراد بالوحدان فضلاء الوقت كما يقال: فلان واحد وقته، وبالغبار الشبه التي تغطي الحقّ عن أعينهم ويكون الركبان كناية عن الجماعة أهل القوّة وإذا كان هؤلاء يهلكون في طريقها أي: عند الخوض في غمراتها فغرّهم بطريق أولى.

[**تَرِدُ بمُرِّ القضاء**] كناية عن القتل والأسر ونحوهما وظاهر كون الواردات المؤذية أو النافعة واردة عن القضاء الإلهي معلومة الكون.

[**وتحلب عبيط الدماء**] العبيط الخالص الطري استعار وصف الحلب للواردات النافعة والمؤذية ملاحظة لشبهها بالناقة وكنّى بذلك عن سفك الدماء فيها.

[**ويثلم منار الدين**] أي: أعلامه وهم العلماء أو قوانينه الكلّية وثلمها عبارة عن قتل العلماء وهدم قواعد الدين وترك العمل به.

[**وتنقض عقد اليقين**] ما انعقدت في النفس من الأُمور المتيقّنة الموصلة إلى جوار اللّه ورضوانه [**تهرب منها الأكياس**] وهم العلماء وأهل العقول السليمة.

[**وتدبّرها الأرجاس**] لأنّهم أرجاس النفوس برجس الشيطان أنجاس النفوس بالهيئات البدنية والملكات الرديّة أنجاس الأبدان بحكم الشريعة.

وكنّى عن شدّتها وكونها محلّ المخاوف بقوله: [**مرعاد مبراق**] المستعارين ملاحظة لشبههما بالسحابة كثيرة البروق والرعود.

كاشفة عن ساق تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام بريّها سقيم وظاعنها مقيم بين قتيل مطلول وخائف مستجير يختلون بعقد الإيمان وبغرور الإيمان فلا تكونوا أنصاب الفتن وأعلام البدع

وقوله: [**كاشفة عن ساق**] كناية عن إقبالها مجرّدة كالمشمّر للحرب أو لأمر مهمّ وظاهر كونها حينئذ [**تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام بريّها**] من تبرء منها وهرب عنها [**سقيم**] لأنّ العالم في هذه الفتنة من معصية اللّه أقلّ قليل، ولعلّه لا يوجد.

[**وظاعنها مقيم**] أي: الهارب عنها غير ناج منها، بل كأنّه مقيم فيها، وقيل أشار بظاعنها إلى من يعتقد أنّه متخلّف عنها وغير داخل فيها وظاهر كونه غير منحرف عنها ويحتمل أن يريد به أنّ من ارتحل عنها خوفاً لا ينجو منها.

ومنها

[**بين قتيل مطلول**] يقال: طلّ دم فلان فهو مطلول إذا هدر ولم يطلب به.

[**وخائف مستجير**] قيل يشبه أن يكون هذا الكلام صفة حال التمكين بالدّين في زمان الفتنة الأُولى.

[**يختلون**] صفة ما قبله أيك يجدعون [**بعقد الإيمان**] أي: يخدعون بإعطاء الأقسام والعهود الكاذبة كما خدعوا الحسين عليه السلام وأصحابه، وروي يختلفون بالبناء للفاعل فيكون وصف حال أهل الفتنة واتّباعهم.

[**وبغرور الإيمان**] أي: يغرّون الناس بظاهر الإيمان فيخدعوا به.

[**فلا تكونوا أنصاب الفتن**] وفي نسخة أنصار الفتن [**وأعلام البدع**]

والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة بنيت عليه أركان الطاعة وأقدموا على اللّه مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين واتّقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام

أي: رؤساء يشار إليكم ويقتدى بكم فيها كما يشار إلى الأعلام البيّنة وفي الخبر كن في الفتنة كابن اللّبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيُحلب.

[**والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة**] أي: نظام المسلمين بالدِّين وما عقدت عليه الألفة والتؤازر وذلك هو الذي [**بنيت عليه أركان الطاعة**] أي: طاعة اللّه بل أركان الإسلام.

[**وأقدموا على اللّه مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين**] ليس المراد الأمر بالانظلام لكونه رذيلة بل إذا تعارضت الظالمية والمظلومية فالمظلومية أولى والمعنى إذا كانت لكم مكنة من الظلم فلا تظلموا ولو استلزم ترك الظلم انظلامكم.

[**واتّقوا مدارج الشيطان**] أي: طرقه من الرذائل التي يحسّنها إليكم ويقودكم إليها.

[**ومهابط العدوان**] أي: محاله التي يهتبط فيها وهي من طرق الشيطان أيضاً.

[**ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام**] اللعق جمع لعقة وهي اسم لما تتناوله الملعقة كناية عمّا يكتسبه الإنسان من الدنيا ومتاعها على غير الوجه الشرعي ونبّه باللعق على حقارتها بالنسبة إلى متاع الآخرة ونبّه على وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه بقوله:

فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة
الحمد للّه الدالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته باشتباههم

[فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة] اي: بمرئى ومسمع منه فإنّه عالم بظاهركم وباطنكم وسرّكم وعلانيتكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم ونبّه على انّ العلم بذلك أردع لهم وأزجر عن المعصية.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الدالّ على وجوده بخلقه] كما قال تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وهذا طريق المتكلّمين في الاستدلال بحدوث العالم على محدثه.

[وبمحدث خلقه على أزليته] إذ جميع المحدثات صادرة عن قدرته تعالى ومنتهية عندها فلو كان هو محدثاً لكان محدثاً لنفسه وهو باطل ضرورة **[باشتباههم]** أي: بمشابهة بعضهم بعضاً في الاحتياج إلى المؤثّر والمدبّر [على انّ لا شبه له.

والمراد اشتباههم في الجسميّة والجنس والنوع والأشكال والمقادير والألوان ونحو ذلك وهو تعالى منزّه عن ذلك إذ ليس داخلاً تحت جنس لبرائته عن التركيب المستلزم للإمكان ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بالعوارض إلى غيره ولا بذي مادّة لاستلزامها التركيب ايضاً فليس بذي شبيه في شيء من الأمور المذكورة والأوّل أعمّ في نفي التشبيه.

لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والربّ والمربوب الأحد لا بتأويل عدد والخالق لا بمعنى حركة ولا نصب والسميع لا بأداة

[لا تستلمه المشاعر] لأنّ استلزامها مستلزم للجسمية والأعراض القائمة بها وهو منزّه عن ذلك وقد تنزّه عن إدراك المشاعر ولمسها.

[ولا تحجبه السواتر] لأنّ الحجاب والستر من لواحق ذي الجهة والجسمية وهو منزّه عنهما.

[لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والربّ والمربوب] إذ كان لكلّ منهما صفات تخصّه ويتميّز بها عن الآخر بالمخلوقيّة والحدوث والاشباه والملموسيّة بالمشاعر وحجب السواتر من لواحق الأمور المصنوعة ومما ينبغي لها ويليق بها والوجود الأزلي الذي لا شبه له المنزّه عن لمس المشاعر وحجب السواتر من لواحق الصانع الأوّل.

والمراد بالحاد: خالق الحدود والنهايات واعتبار الصانع غير اعتبار الأب لدخول الملاكية في مفهوم الربوبيّة دون الصنع.

[الأحد لا بتأويل عدد] أيك وحدانيّته ليس بمعنى كونه مبدء لكثرة تعد به كما يقال في أوّل العدد واحد بل واحديّته تعالى بمعنى أنّه لا ثاني له في الوجود ولا جزء له ولا كثرة في ذاته لا ذهناً ولا خارجاً.

[والخالق لا بمعنى حركة ولا نصب] اي: هو تعالى في خالقيّته منزّه عن الحركات والمتاعب لأنّهما من لواحق الأجسام المنزّه قدسه عنها.

[والسميع لا بأداة] يسمع بها كالاذن والصماخ بل بمعنى أنّه تعالى عالم بالمسموعات.

والبصير لا بتفريق آلة والشاهد لا بمماسّة والبائن لا بتراخي مسافة والظاهر لا برؤية والباطن لا بلطافة بان من الأشياء بالقهر والغلبة عليها وبانت الأشياء منها بالخضوع له والرجوع إليه

[**والبصير لا بتفريق آلة**] من بعث القوّة الباصرة وتوزيعها على المبصرات أو بتقليب الحدقة وتوجيهها مرّة إلى هذا المبصر ومرّة إلى ذاك وظاهر تنزيهه تعالى عن الأبصار بآلة الحسّ لكونها من توابع الجسميّة ولواحقها بل هو تعالى عليم بالمبصرات.

[**والشاهد**] أي: الحاضر عند كلّ شيء [**لا بمماسّة**] شيء كحضور الجسمانيّات المستلزمة للقرب المستلزم لمماسّة الأجسام بل هو تعالى الحاضر بعلمه عند كلّ شيء والشاهد لكلّ شيء من غير قرب ولا مماسّة.

[**والبائن**] أي: المباين للأشياء [**لا بتراخي مسافة**] كالبعد المكاني في الأشياء بل المراد بعد إدراك كنهه عن العقول والأفهام.

[**والظاهر**] وجوده بآياته وآثاره [**لا برؤية**] كالأجسام الظاهرة لحسّ البصر.

[**والباطن**] المطّلع على الأشياء الباطنية الخفيّة يعلم السرّ وأخفى [**لا بلطافة**] إذ الباطن من المخلوق ما كان لطيفاً إمّا لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء.

[**بان من الأشياء**] وامتاز عنها [**بالقهر والغلبة عليها**] والاستيلاء وكونه قادراً على اتحادها واعدامها.

[**وبانت الأشياء منها بالخضوع له والرجوع إليه**] أي: بكونها خاضعة في ذلّ الإمكان والحاجة لعزّته وقهره وراجعة في وجودها وكمالاتها إلى

من وصفه فقد عدّهُ ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله ومن قال كيف فقد استوصفه ومن قال أين فقد خيّزه عالم إذ لا معلوم وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور

وجوده وبذلك حصل التباين بينه وبينها.

[**من وصفه فقد عدّهُ**] قيل: المراد بوصفه هنا هو إشارة الوهم إليه واستثباته بكيفيّات وصفات.

[**ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله**] إذ عدّه عبارة عن جعله مبدء لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة وذلك من لواحق الممكن الحادث المبطل للأزليّة وقد مرّ تفسير هذه الفقرات في الخطبة الأُولى ومن وصفات.

[**ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله**] إذ عدّه عبارة عن جعله مبدء لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة وذلك من لواحق الممكن الحادث المبطل للأزليّة وقد مرّ تفسير هذه الفقرات في الخطبة الأُولى.

[**ومن قال كيف فقد استوصفه**] لأنّ كيف سؤال عن الكيفية والصفة وهو تعالى منزّه عنها.

[**ومن قال أين فقد خيّزه**] لأنّ أين سؤال عن الحيز والجهة اللذين هما من لواحق الأجسام وهو تعالى منزّه عنها.

[**عالم إذ لا معلوم وربّ إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور**] إذ هو تعالى متقدّم بذاته على معلوماته ومعلولاته وظاهر عند هذا الاعتبار أنّه لا معلوم في الوجود سوى ذاته لذاته ولا مربوب ولا مقدور موجود هناك بل هي

قد طلع طالع ولمع لامع ولا لائح واعتدل مائل واستبدل اللّه بقوم قوماً وبيوم يوماً وانتظروا الغير انتظار المجدب المطر

واجبة التأخّر عن ذلك الاعتبار.

ومنها

[**قد طلع طالع**] إشارة إلى ظهور أمر الخلافة له وانتقالها إليه.

[**ولمع لامع**] إشارة إلى ظهور نور العدل ولمعان برق الحق بحلولها محلّها ورجوعها إلى أهلها.

[**ولا لائح**] إشارة إلى ما يلحق انتقالها إليه من الفتن والحروب الموعودة التي لاحت إماراتها يومئذ وقيل المراد بالثلاثة معنى واحد وهو انتقال الخلافة إليه.

[**واعتدل مائل**] أي: الخلافة التي كانت في غير أهلها مائلة عن محلّها اعتدلت الآن برجوعها إلى مقرّها.

[**واستبدل اللّه بقوم**] سبقوا على إخراج الحقّ عن أهله [**قوماً**] أعانوا على ردّ الحقّ إلى أهله وهم شيعته وأنصاره وأعوانه.

[**وبيوم يوماً**] كناية عن زمانهم بزمانهم.

[**وانتظروا الغير**] أي: تغيّرات الدهر وتقلّبات الأحوال الموجبة لانتقال الأمر إليه ورجوع الحقّ لديه إذ كان موعوداً به.

[**انتظار المجدب المطر**] وفيه إشارة إلى انتظاره لذلك لا من حيث الرياسة الدنيويّة لشمول العدل وظهور الحقّ في موارده المشبه لوقع المطر في الأرض المجدبة واستلزمه للخير والبركة.

ثمّ شرع ﷺ في تعريف حال الأئمة ﷺ فقال:

وإنّما الأئمة قوّام اللّه على خلقه وعرفائه على عباده لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه إنّ اللّه قد خصّكم بالإسلام واستخلصكم وذلك لأنّه اسم سلامة وجماع كرامة

[**وإنّما الأئمة قوّام اللّه على خلقه**] القائمون بأوامره ونواهيه وشرائعه وأحكامه في بلاده.

[**وعرفائه**] وأمنائه وحججه [**على عباده**] والعرفاء جمع عريف، وهو النقيب وهو دون الرئيس.

[**لا يدخل الجنّة إلاّ من عرفهم وعرفوه**] إذ لا يمكن دخول الجنّة لأحد إلاّ باتّباع الشريعة ولزوم العمل بها ولا يمكن ذلك إلاّ بمعرفتها ومعرفة كيفية العمل بها ولا يمكن ذلك إلاّ ببيان صاحب الشريعة والقائم بها وإرشاده وتعليمه وذلك لا يمكن إلاّ بمعرفة المأموم للإمام ولأنّ الإمامة من أصول الدين على مذهب الإمامية، ولذا قال:

[**ولا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه**] وفي النبوي المتفق عليه: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

ثمّ شرع في بيان ما امتنّ اللّه عليهم به فقال:

[**إنّ اللّه قد خصّكم بالإسلام**] من بين سائر الملل.

[**واستخلصكم**] له وأعدّكم لقبوله من دون سائر الأمم.

[**وذلك لأنّه اسم سلامة**] ومشتقّ منها بالدخول في الطاعة الموصلة إلى رضى اللّه والنعيم الأبدي.

[**وجماع كرامة**] أي: مجموع كرامة من اللّه لخلقه لأنّ مدار جميع الآيات القرآنية على هداية الخلق إلى سبيل اللّه القائدة إلى جنّته.

اصطفى اللّه منهجه وبيّن حججه من ظاهر علم وباطن حكم لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه فيهم مرابيع النعم ومصابيح الظلم

[اصطفى اللّه منهجه] أي: طريقته الواضحة المؤدّية للسالكين بأيسر سعي إلى رضوان اللّه.

[وبيّن حججه] الواضحة وبراهينه اللائحة وآياته الباهرة ومواعظه الزاجرة.

ثمّ شرع في بيان ذلك وتقييمه بقوله:

[من ظاهر علم] وأشار به إلى ظواهر الشريعة وأحكامها من حلالها وحرامها.

[وباطن حكم] من البطون التي اشتملت عليها الآيات القرآنية والأسرار التي تضمنتها الأخبار النبوية والآثار المعصوميّة.

[لا تفنى غرائبه] وفي نسخة عزائمه أي: آياته المحكمة وبراهينه العازمة أي: القاطعة وعدم فنائها إشارة إلى إثباتها واستقرارها على طول المدّة وتغيّر الأعصار.

[ولا تنقضي عجائبه] لأنّه كلّما تأمّله الإنسان استخرج منه بفكره الثاقب ونظره الصائب لطائف معجبة من أنواع العلوم لم تكن عنده من قبل.

[فيهم مرابيع النعم] وهي الأمطار التي تأتي زمن الربيع فتحيي الأرض وتنبت الكلأ استعارها لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة تعلّم القرآن ولزوم أوامره ونواهيه وحكمه وآدابه.

[ومصابيح الظلم] استعار المصابيح لقوانينه وقواعده الهادية إلى اللّه

لا تفتح الخيرات إلّا بمفاتحه ولا تكشف الظلمات إلّا بمصابيحه قد أحمى حماه وأرعى مرعاه فيه شفاء المستشفي

في سبيله كما يهدي المصباح في الطريق المظلم.

[لا تفتح الخيرات] الحقيقية الباقية **[إلّا بمفاتحه]** استعار المفاتح لمناهجه وطرقه الموصلة إلى تلك الخيرات، ووجه الاستعارة كونها أسباباً موصلة إليها كما أنّ المفاتيح أسباب موصلة إلى خيرات الخزائن مثلاً.

[ولا تكشف الظلمات إلّا بمصابيحه] أراد بالظلمات ظلمات الجهل بعضها فوق بعض وبالمصابيح قوانينه كما سبق.

[قد أحمى حماه] أي: هيّئه وعرّضه لأن يحمى كما يقال: أقلبت فلاناً أي: هيّأته للقتل واستعار لفظ الحمّى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه إذ بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته امّا في الدنيا فلاحترام أهلها حملة القرآن، وأمّا في الآخرة فلحماية حفظته والعاملين به من العذاب كما يحمى الحمى من يلوذ به ونسبة الإحماء إليه مجاز إذ المعرض له أن يتدبّر ويعمل به هو اللّه ورسوله ﷺ وحملته.

وقيل: أراد بحماه محارمه وأحماه أي: منع بنواهيه وزاجره أن تستباح محارمه.

[وأرعى مرعاه] أي: هيّئه لأن يرعى، استعار المرعى للعلوم والحكم والآداب التي يشتمل عليها القرآن ووجه الشبه أنّ هذه مراعي النفوس الإنسانيّة وغذائها الذي به يكون نشوّها العقلي وتمامها الفعلي كما أنّ المراعي المحسوسة من النبات والعشب غذاء للأبدان الحيوانية التي بها يقوم وجودها.

[فيه شفاء المستشفي] أي: طالب الشفاء منه أمّا في الأبدان فبالتعوّذ به

وكفاية المكتفي وهو في مهلة من اللّه يهوي مع الغافلين ويعدو مع المذنبين بلا سبيل قاصد لا إمام قائد

مع صدق النيّة وسلامة الصدر وأمّا في النفوس فلشفائها به من امراض الجهل.

[وكفاية المكتفي] أي: طالب الكفاية أمّا في الدنيا فلأنّ حملة القرآن الطالبين به الدنيا أقدر أكثر الناس على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم وكفايتهم، وأمّا في الآخرة فلأنّ طالب الكفاية منها يكفيه تدبّر القرآن ولزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه.

ومن خطبة له عليه السلام
في صفة مطلق الضالّ

[وهو في مهلة من اللّه] إشارة إلى مدّة عمره المضروبة له من اللّه.

[يهوي مع الغافلين] إشارة إلى سقوطه وانخراطه في سلك الغافلين بسبب جهله وغفلته عمّا يراد به واستعار الهوي لذلك !لانخراط وتلك المتابعة لأنّ المنهمك في مجاري الغفلة ومسالك الجهل ينحطّ بها عن درجة أهل السلامة ويهوي في مهابط الهلاك وهي الرذائل المبعّدة من اللّه كما أنّ الهاوي من علوّ كذلك.

[ويعدو مع المذنبين] أي: يسرع إلى موافقتهم فيما هم فيه من المعاصي **[بلا سبيل قاصد]** للحقّ من آية محكمة او سنّة عادلة **[لا إمام قائد]** إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

حتّى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم واستخرجهم من جلابيب غفلتهم استقبلوا مدبراً واستدبروه مقبلاً فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم ولا بما قضوا من وطرهم فإنّي أُحذِّركم ونفسي هذه المنزلة

ومنها
في صفة الغافلين عن الآخرة المنهمكين في الدنيا الغادرة

[حتّى إذا كشف] أي: ربّهم **[لهم عن جزاء معصيتهم]** برفع حجب الشهوات وأستار الغفلات.

[واستخرجهم من جلابيب غفلتهم] استعار الجلابيب للأبدان والهيئات المكتسبة منها باعتار حجبها لأمور الآخرة عنهم كحجب الوجه بالجلباب من استعارة المحسوس للمعقول كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾، وقال تعالى: ﴿فيومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى تنفعه الذكرى﴾.

وقوله: **[استقبلوا مدبراً]** إشارة إلى العذاب الأُخروي والأهوال التي كانت غائبة عنهم **[واستدبروه مقبلاً]** أي: ما كانوا فيه من مأمولاتهم وأحوالهم الدنيويّة، ولذا قال:

[فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم] الدنيوية **[ولا بما قضوا من وطرهم]** وحاجاتهم، بل ربّما كانت وبالاً عليهم.

[فإنّي أُحذِّركم ونفسي هذه المنزلة] والحالة التي عليها هؤلاء من الغفلة عن الأُخرى والانهماك في الدنيا وشرك نفسه في التحذير لأنّه ادخل في

فلينتفع أمرؤ بنفسه فإنّما البصير من سمع فتفكّر ونظر فأبصر وانتفع بالعبر ثمّ سلك جدداً واضحاً يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي

نفوس السامعين إلى طاعته كما في قوله تعالى: ﴿وإنّا وإيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾.

[**فلينتفع أمرؤ بنفسه**] ﴿فليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾، ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾.

[**فإنّما البصير من سمع فتفكّر**] فيما سمعه من الآيات المحكمة والسنن القائمة والمواعظ البالغة والنصائح الكاملة إذ لا ينتفع بها بدون الفكر.

[**ونظر**] بعين حسّه [**فأبصر**] ببصيرته ما ينفعه وما يضرّه.

[**وانتفع بالعبر**] بأن عمل على وفق ما علم وأدرك.

[**ثمّ سلك جدداً**] أي: طريقاً [**واضحاً**] وهو ما ورد في الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء وتجنّب العدول عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي**] لأنّ من انحرف عن الشرع المبين وهُدى سيّد المرسلين وأولاده المعصومين انصرع في هواة وضلّ في مغواة وهذا مطابق للمثل النبوي.

قال ﷺ: «ضرب اللّه مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط أبواب مفتّحة وعليها ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داعي يقول جوزوا أو لا تعرجوا» قال: فالصراط هو الدين وهو الجدد الواضح هنا، والداعي هو القرآن، والأبواب المفتحة محارم اللّه وهي المهاوي والمغاوي هنا، والستور المرخاة حدود اللّه ونواهيه.

لا يعين على نفسه الغواة بتعسّف في حقّ وتحريف في نطق أو تخويف من صدق فأفق أيّها السامع من سكراتك واستيقظ من غفلتك واختصر من عجلتك وأنعم الفكر فبما جائك على لسان النبي الأُمّي صلّى

[**لا يعين**] الإنسان [**على نفسه الغواة**] الضالّين المضلّين [**بتعسّف في حقّ**] أي: يتكلّف ثبوت الأمر بالشبهة الضعيفة والاحتمال البعيد، فإنّ الغواة وهم تاركوا الحقّ إذا وجدوا ركيكاً فيه أو متكلّفاً للعمل به مقصّراً طمعوا في الانتهاء إلى الباطل فكان قد أعانهم على نفسه بذلك، ويحتمل أن يكون المراد لا يحملهم على مرّ الحق وصعبه فإنّ الحقّ له درجات والاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمّن يقوله ويأمر به والعداوة له.

[**وتحريف في نطق**] أي: تغييره بزيادة أو نقصان [**أو تخويف من صدق**] إذ ظاهر أنّ من عُرف بالكذب أو التخوّف من الصدق هان على الجهّال والغواة ودعاهم ذلك منه إلى الطمع في انفعاله عن باطلهم فكان معيناً لهم على نفسه والاحتجاج بمثل فعله بل الواجب لزوم الطريق الواضح في كلّ مشتبه والكفّ عمّا سواها.

[**فافق أيّها السامع من سكراتك**] في الجهالة.

[**واستيقظ من غفلتك**] ونومتك في دار الضلالة واستعار السكر للغفلة لكونها مستلزمة لترك أعمال العقل كما أنّ السكر كذلك.

[**واختصر من عجلتك**] اراد بعجلته سرعته في طلب الدنيا والاهتمام بها وباختصارها تخفيفها وتقليلها.

[**وأنعم الفكر**] ودقّق النظر [**فبما جائك على لسان النبي الأُمّي صلّى**

اللّه عليه وآله مما لابدّ منه ولا محيص عنه وخالف من خالف في ذلك إلى غيره ودعه وما رضي لنفسه وضع فخرك واحطط كبرك واذكر قبرك فإنّ عليه ممرّك وكما تدين تدان وكما تزرع تحصد وكلّما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً

اللّه عليه وآله] من ذكر الموت وما بعده من أحوال الآخرة **[مما لابدّ منه ولا محيص عنه]** من ذلك.

[وخالف من خالف في ذلك إلى غيره] ونظر فيما عنه بدّ من أحوال الدنيا وزينتها.

[ودعه] أي: اترك ذلك المخالف **[وما رضي لنفسه]** من ابتياع الآخرة الباقية بالدنيا الفانية.

[وضع فخرك واحطط كبرك] والفخر مستلزم للكبر إذ كلّ مفتخر متكبّر.

[واذكر قبرك] لأنّ في ذكره عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تبصّر.

[فإنّ عليه ممرّك] لأنّ السالك في طريق لابدّ من سلوكها إذا كان فيها منزل موحش مظلم وجب الاستعداد له بحمل الضوء للاستنارة فيه والقبر محلّ مرور الإنسان.

وقوله: **[وكما تدين تدان وكما تزرع تحصد]** إشارة إلى وجوب حسن المعاملة مع اللّه إذ كان حسن جزائه بقدر حسن معاملة العبد له وقبحه بقبحها وكذا الزرع والحصاد واستعار الزرع لما يفعله الإنسان ويكتسبه من الملكات خيراً أو شراً وكذا لفظ الحصد لما يثمره من تلك الآثار وتستلزمه من ثواب أو عقاب.

[وكلّما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً] وظاهره تجسّم الأعمال كما

فامهد لقدومك وقدّم ليومك فالحذر الحذر أيّها المستمع والجد الجد أيّها الغافل فإنّ الناقد بصير ولا ينبئك مثل خبير إنّ من عزائم اللّه في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب وبها يرضى ويسخط أنّه لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربّه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها

استفاضت به جملة من الأخبار والآثار ويمكن حمله على الجزاء أي: تقدّم على جزائه.

[**فامهد لقدومك**] أمر بأن يوطىء موضع قدمه في الآخرة بطيّب الأعمال وتقدّم صالحها ليوم قيامه.

كما أشار إليه بقوله: [**وقدّم ليومك فالحذر الحذر**] من عذاب اللّه.

[**أيّها المستمع**] لمواعظ اللّه [**والجد الجد**] في الأعمال الصالحة.

[**أيّها الغافل**] عن سوء الأعمال الفاضحة [**فإنّ الناقد بصير ولا ينبئك مثل خبير**] وأراد بالاقتباس من الآية إنّ الواعظ له خبير بأحوال طرق الآخرة وأهوالها وليس بمنزلة السامع وهو القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

ثمّ عاد عليه السلام إلى التحذير من بعض الكبائر التي نصّ القرآن على تحريمها، فقال:

[**إنّ من عزائم اللّه**] أي: من جملة نصوصه التي في محكم كتابه [**في الذكر الحكيم**] والقرآن العظيم [**التي عليها يثيب ويعاقب وبها يرضى ويسخط**] وقيل الذكر الحكيم هو اللّوح المحفوظ [**أنّه**] الضمير للشان [**لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لاقياً ربّه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها**] فاعل ينفع (أن يخرج) و(لاقياً) نصب على

أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته ويشفي غيظه بهلاك نفس أو يقرّ بأمر فعله غيره

الحال، أي: من جملة نصوص اللّه سبحانه التي في محكم كتابه التي باعتقادها والعمل على وفقها يثيب ويرضى وبتركها يعاقب ويسخط لأنّه لا ينفع عبداً خروجه من الدنيا لاقياً ربّه بإحدى الخصال المذكورة وإن أجهد نفسه في العمل وأخلص فيه.

[**أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته**]، قال تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾، وقوله فيما افترض عليه، إشارة إلى أنّ الرياء في العبادة والطاعة شرك أيضاً كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾.

[**ويشفي غيظه بهلاك نفس**] وفي رواية نفسه، والأوّل أعمّ وذلك الهلاك تارة في الدنيا كما يستلزمه السعي بالنميمة إلى الملوك ونحوه وفي الآخرة باكتساب الآثام المستلزمة لشفاء الغيظ، قال تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاءه جهنّم خالداً فيها﴾ وهذه الآية تلحقها بواسطة القوّة الغضبيّة.

[**أو يقرّ بأمر فعله غيره**] أي: ينمّ على غيره بأمر فعله ذلك الغير فيستلزم إهلاكه وأذاه فيدخل في قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا﴾ وفي بعض النسخ يعربا بالعين المهمة أي: يعيب غيره ويقذفه فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوه﴾ وهذه الآفة تلحق النفس بشركة الشهوة والغضب.

أو يستنج حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي بينهم بلسانين اعقل ذلك فإنّ المثل دليل على شبهته إنّ البهائم همّها بطونها وانّ السباع همّها العدوان على غيرها وإنّ النساء همُّهنَّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها

[**أو يستنج حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه**] كشاهد الزور لبعض المطالب الدنيويّة وكالمرتشي في الحكم والقضاء.

[**أو يلقى الناس بوجهين**] فيلقي كلاً من الصديقين بغير ما يلقى به الآخر ليفرّق بينهما أو بين العدوّين ليغري بينهما، وبالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فيدخل في زمرة المنافقين الذين ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

ونحوه قوله: [**أو يمشي بينهم بلسانين**]، ثمّ خاطبه بالتنبيه فقال: [**اعقل ذلك**] الذي أضربه لك من المثل.

[**فإنّ المثل دليل على شبهته**] فاحمل عليه ما يشبهه وذلك المثل قوله: [**إنّ البهائم همّها بطونها وانّ السباع همّها العدوان**] والظلم والتجاوز [**على غيرها وإنّ النساء همُّهنَّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها**] فالإنسان إذا كانت همّته بطنه كان بهيمة، ومن كانت همّته بطنه كان قدره عند الله ما يخرج منها، وإذا أحبّ الانتقام والغلبة على الغير كان سبعاً، وإذا تابع شهوته في زينة الحياة الدنيا وغضبه في الفساد فيها فهو بمنزلة المرأة، فالإنسان في كلّ حالة من حالاته يشبه حيواناً من الحيوانات، فتارةً تراه بهيمة، وتارةً سبعاً، وتارةً ذئباً، وتارةً ثعلباً، بل تارةً شيطاناً، قال تعالى: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾ وهو المشار إليه

وناظر قلب اللّبيب به يبصر أمده ويعرف غوره ونجده داع دعي وراع رعي فاستجيبوا للداعي واتّبعوا الراعي قد خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن

بقول أمير المؤمنين:

وتزعم أنّك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن خطبة له ﷺ

[وناظر قلب اللّبيب] أي: فكره **[به يبصر أمده]** أي: طريقه وغايته التي هو متوجّه نحوها ومطلوبه منها من الموت وما بعده.

[ويعرف غوره ونجده] أي: مرتفعه ومنخفضه كناية عن طريق الخير والشرّ في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وعبارة القرآن أخصر وكلامه ﷺ أنسب إلى المعنى فإنّ الغور هو المنخفض والمستقبل أنسب إلى أن يعبّر به عن رتبة النازلين في دركات الجحيم من النجد.

وقوله: **[داع دعي وراع رعي فاستجيبوا للداعي واتّبعوا الراعي]** يريد بالداعي رسول اللّه ﷺ وما جاء من الكتاب والسنّة، وبالراعي نفسه، وظاهر وجوب الاستجابة للّه ولرسوله لقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ فيجب اتباع من أوجبا اتباعه.

وقوله ﷺ: **[قد خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن]** يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى محاربيه ويكون التفاتاً إلى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج ويحتمل أن يكون منقطعاً عمّا

وأرز المؤمنون ونطق الضالّون المكذّبون نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً

قبله متصلاً بكلام لم يحكمه الرضى كما هي عادته ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب، ورشح بذكر الخوض والبدعة قد يراد بها ترك السنّة وقد يراد بها أمر آخر بفعل من تلك السنّة.

[**وأرز**] بفتح الزاء [**المؤمنون**] أي: انقبضوا وانضمّوا.

[**ونطق الضالّون المكذّبون**] لما وجدوا المساعد والمعين.

ثمّ التفت عليه السلام إلى ذكر جملة من فضائله فقال: [**نحن الشعار والأصحاب**] الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، استعارة لنفسه ولأهل بيته لملازمتهم للرسول صلى الله عليه وآله واختصاصهم به كما يلزم الشعار الجسد.

[**والخزنة**] للعلوم الإلهيّة والمعالم الربّانية، ففي النبوي: «عليٌّ خازن علمي» وفي آخر: «هو عيبة علمي» ويحتمل أن يكون المراد خزنة الجنّة، فمن جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنّة وإلّا فلا، وعلى كلّ حال فالخزنة مستعار، ووجه الشبه تصرّفهم بمنع العلم وإعطائه وبإدخال الجنّة والمنع، كما أنّ الخازن للشيء كذلك.

[**والأبواب**] إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «انا مدينة العلم وعليٌّ بابها»، [**ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها**] كما قال تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾.

[**فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً**] فمن طلب العلوم الحقّة والحكمة وأسرار الشريعة فليرجع إليهم ويعوّل عليهم، فكلّ مالم يخرج من

فيهم كرائم الإيمان وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا فليصدق رائد أهله

هذا البيت فهو باطل وكلّما لم يصدر عنهم فهو عاطل ولقد أجاد من قال:

إليكم وإلّا لا تشدّ الركائب ومنكم وإلّا لا تصحّ المواهب
وفيكم وإلّا فالحديث مزخرف وعنكم وإلّا فالمحدّث كاذب

ومنها
في بيان جملة من فضائل أهل البيت عليهم السلام

[فيهم كرائم الإيمان] أي: نفائسه المستلزمة لأشدّية القرب من اللّه تعالى كالأخلاق الفاضلة والعقائد الحقّة الكاملة.

[وهم كنوز الرحمن] أي: خزائن علمه ومستودع حكمته وتراجمة وحيه وحملة كتابه وعيبة دينه، وخصّ وصف الرحمن لأنّه مبدء بعثة الأنبياء والأولياء إذ جعلهم اللّه برحمته هداة خلقه.

[إن نطقوا صدقوا] لأنّهم لا ينطقون إلّا بالصدق والصواب.

[وإن صمتوا لم يسبقوا] لأنّهم أرباب الحكمة وأُولوا الألباب أي: عند صمتهم لا يسبقون إلى فضيلة نطق، إذ كان صمتهم في موضع الصمت حكمة، وذكر عليه السلام هذه الفضائل جذباً إلى سماع قوله ودعوته إلى اللّه، ولذا عقّبه بالمثل.

[فليصدق رائد أهله] وقد مرّ شرحه، أشار به إلى أنّ من يحضرنا طلباً لاختبارنا فليصدّق من يعنيه أمره ويخبرهم أنّنا أهل الحقّ وينابيع العلوم

وليحضر عقله وليكن من أبناء الآخرة فإنّه منها قدم وإليها ينقلب فالناظر بالقلب العامل بالبصيرة ينبغي أن يكون مبتدء عمله أن يعلم أعمله عليه أم هو له فإن كان له معنى فيه وإن كان عليه وقف عنه فإنّ العاقل بغير علم كالسائر على غير طريق

الإلهيّة والمعارف الربّانيّة والأدلاّء على اللّه كما يصدق الرائد لطلب الماء والكلأ أهله بُشراً بهما.

[**وليحضر عقله**] لما يقوله ليعرف صحّة ما ادّعيناه.

[**وليكن من أبناء الآخرة**] أي: أهلها الطالبين لها، ووجه استعارة البنوّة ما أشار إليه بقوله:

[**فإنّه منها قدم وإليها ينقلب**] أي: كما أنّ الابن ينقلب عن الام فإليها ـــــ ورجوعه كذلك الإنسان مبدئه من العالم العلوي ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾ فهو فيها ينقلب وإليها يعود فينبغي أن يكون من أبنائها بالرغبة فيها والوله إليها والعمل لها.

[**فالناظر بالقلب**] السليم والمتفكّر بالعقل المستقيم [**العامل بالبصيرة**] وعلى بصيرة من أمره.

[**ينبغي أن يكون مبتدء عمله أن يعلم أعمله عليه أم هو له فإن كان له معنى فيه وإن كان عليه وقف عنه**] فيتفقّد أحوال نفسه فيما يهمّ به ويبعث في طلبه أو تركه ويعلم إذ لك الخاطر وتلك الحركة مقربة له إلى اللّه تعالى فيكون له فينبغي أن يمضي فيها أو مبعّدة له عن رضاه ومستلزمة لسخطه فيكون عليه فيقف عنها.

[**فإنّ العاقل بغير علم كالسائر على غير طريق**].

فلا يزيده بعده عن الطريق إلاّ بعداً عن حاجته والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع واعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله فمن طاب ظاهره طاب باطنه وما خبث ظاهر مخبث باطنه

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بقوله:

[فلا يزيده بعده عن الطريق إلاّ بعداً عن حاجته] إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب.

[والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح] يصل إلى مطلوبه بسهولة.

[فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع] فإنّه إذا علم أنّه سائر وجب ان يعلم كيف يسير وشعل مصباح العلم ليسلم من الضلال والصرعة في مهاوي الهلاك والوبال.

[واعلم أنّ لكلّ ظاهر باطناً على مثاله فمن طاب ظاهره طاب باطنه وما خبث ظاهر مخبث باطنه] قيل هذه القضية الكلّية صادقة لأنّه لما صدر عن الوجود الإلهي عالماً الغيب والشهادة أو عالم الخلق والأمر أو العالم الروحاني والجسماني واقتضت الحكمة الإلهية كون عالم الشهادة طريقاً للنفوس البشريّة إلى عالم الغيب ولولاها لتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهيّة وانسدّ الطريق إلى اللّه فكان جميع ما ظهر في عالم الشهادة مثالاً مناسباً لأمر باطن من عالم الغيب هو الطريق إليه والدليل عليه.

ومن ذلك ما أشار إليه ﷺ من أشخاص الناس وأفعالهم الظاهرة فإنّها دالّة على ما يناسبها في بواطنهم من الأخلاق وأعمال القلوب دلالة أكثرية

وقد قال الرسول الصادق عليه وآله إنّ اللّه يحبّ العبد ويبغض عمله ويحبّ العمل ويبغض بدنه

فربّ حسن الصورة قبيح الباطن وبالعكس ولذا استشهد ﷺ بالحديث النبوي فقال:

[وقد قال الرسول الصادق عليه وآله إنّ اللّه يحبّ العبد ويبغض عمله ويحبّ العمل ويبغض بدنه] فيحبّه من حيث صورته الحسنة لكونها مقتضى الحكمة الإلهية وأنسب زلى الوجود من القبيحة التي هي أنسب إلى العدم ويبغض عمله من جهة ما هو شرٌّ مكروه بالذات ويحبّ ويبغض بالعكس من كان على العكس.

وقال تعالى: ﴿والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً﴾ استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموها ولفظ الماء للمادة القلبيّة من الإرادات والنيّات المخالفة.

وظاهر أنّ طيب الأعمال بطيّبها وخبثها بخبثها كالماء وما يسقى به وقيل هذا مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر شبّه فيه المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به فبان أثره عليه بحسن الأعمال وطيبها بالبلد الطيب إذ كان البلد الطيب يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه.

وشبّه الكافر الذي يسمع القرآن ولا يؤثّر فيه أثراً محموداً بالبلد الخبيث إذ كان لا يمرع ولا يخصب ولا يبين أثر المطر فيه والحبّ والبغض يعودان في اللّه إلى إرادته وكراهته فما كان خيراً محضاً أو الخيز غالب عليه فهو مراد له بالذات وماكان شرّاً محضاً أو غالباً فهو مراد له بالعرض مكروه له بالذات.

واعلم أنّ لكلّ عمل نباتاً وكلّ نبات لا غنى به على الماء والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرّت ثمرته يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش الحمد للّه الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته

وقوله: [**واعلم أنّ لكلّ عمل نباتاً**] استعار النبات لزيارة الأعمال ونموّها ورشح الاستعارة بذكر الماء في قوله:

[**وكلّ نبات لا غنى به على الماء**] وكنّى به عن المادّة القلبية للأعمال ووجه الشبه أنّ الحركات في العبادة إنّما تكون بالميول القلبية والنيّات كما أنّ حركة النمو للنبات إنّما تكون بالماء وظاهر أنّ اختلاف المياه في الحلاوة والملوحة سبب لاختلاف استعداد النباتات الطيب المغارس والثمار كما قال:

[**والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرّت ثمرته**] فكذا ما يشبه النباتات وهي الأعمال يكون طيب ثمرها وهي ثمار الجنّة وأنواع لذّاتها بحسب طيب مادّتها من الإخلاص للّه وخبثها بحسب خبث مادّتها من الرياء وحبّ الشهرة، وتكون ثمرتها أمرّ الثمار، إذ لا أمرّ مذاقاً من عذاب النار.

ومن خطبة له عليه السلام

[**يذكر فيها بديع خلقة الخفّاش**] مفرد جمعه خفافيش مشتق من الخشف وهو ضعف البصر خلقة.

[**الحمد للّه الذي انحسرت**] أي: كلّت [**الأوصاف عن كنه معرفته**

وردعت عظمة العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غاية ملكوته هو الله الحقّ المبين أحقّ وأبين ممّا ترى العيون

وردعت] أي: كفّت **[عظمة العقول فلم تجد مساغاً]** أي: مسلكاً **[إلى بلوغ غاية ملكوته]** إذ إدراك الأشياء بحقائقها إنّما يتمّ بإدراك حقائق عللها وعلّة العلل هو الواجب الحقّ المنزّه عن إدراك العقول والأفهام لأنّها إنّما تدرك الأمور الكلّية وهو تعالى منزّه عن أنحاء التراكيب ووصمة التعدّد وإذا لم تجد العقول مجالاً إلى إدراك كنه الملكوت وما عليه نظام الوجود الأعلى والأسفل فعدم مجالها في إدراك صانعها أوضح.

[هو الله الحقّ المبين] قيلك اشار إلى هويته المطلقة بقوله (هو) ولما لم يكن أن يدلّ عليها إلاّ بالاعتبارات من السلوب والاضافة اللازمة والعارضة واللوازم الإضافية أشدّها تعريفاً والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة والسلب وذلك كون تلك الهوية إلهاً، فإنّ الإله هو الذي ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره، فانتساب غيره إليه إضافي وعدم انتسابه إلى غيره سلبي، فلا جرم عقّب ذكر الهوية بما يدلّ على ذلك اللازم لاكمليّته في التعريف من غيره، ليكون كالكاشف لما دلّ عليه لفظ هو وفيه سرّ آخر وهو أنّه لما عرف تلك الهوية بلازمها وهو الإلهيّة نبّه على أنّه لا جزء لتلك الهويّة وإلاّ لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قصوراً.

ثمّ لّما شرح اسم الهويّة أشار إلى كونها حقّاً أي: موجوداً ثابتاً وجوده عند العقل **[أحقّ وأبين ممّا ترى العيون]** لأنّ العلم بوجود الصانع فطريّ للعقول وإن احتاج إلى تنبيه فإنّ العلوم التي مستندها الحسّ قد يقع الحسّ فيها بسبب ما يقع للوهم من اشتباه المحسوسات أو عدم ضبطها أو بسبب

ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً خلق الخلق على غير تمثيل ولا مورة مشير ولا معونة معين فتمّ خلقه بامره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع ومن لطائف صنعه وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكلّ شيء

تقصير الحسّ في كيفيّة الأداء لصورة المحسوس فكانت المعقولات الصرفة أحقّ لإدراك العقل لها بذاته.

لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً] لأنّه تعالى لو كان مما تدركه العقول وتستثبته بحدّ أو صفة لكان مشابها لغيره من الأجسام والجسمانيات في إثبات صورتها عند الذهن وقد تنزّه تعالى عن التشبيه بشيء منها.

[**ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً**] إذ الوهم لا يدرك إلّا المعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات ولابدّ في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيّلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانية، فلو وقع عليه وهم لمثله في صورة حية.

[**خلق الخلق على غير تمثيل**] سابق، بل خلقة إبداع واختراع.

[**ولا مورة مشير ولا معونة معين**] لكمال ذاته.

[**فتمّ خلقه**] ببلوغه الغاية في الكمال [**بأمره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع**] ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

ثمّ شرع في بيان غامض حكمة اللّه تعالى في خلق الخفافيش فقال:

[**ومن لطائف صنعه وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكلّ شيء**] من أبصار الحيوانات و

ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ وكيف عشيت أعينها بتلألو ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها وأكنَّها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها وجاعلة الليل سراجاص تستدلّ به في التماس أرزاقها فلا تردّ أبصارها أسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنّته فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أو ضاح نهارها ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم

ـــــ لانبساط النبات ونموّه وغيره [**ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ**] ولسائر الأبصار.

ثمّ أشار عليه السلام إلى علّة ذلك بقوله: [**وكيف عشيت أعينها بتلألو ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها**] أي: جلالته وبهائه وصفائه.

[**وأكنَّها**] أي: أخفاها وأسكنها [**في مكامنها**] الخفيّة [**عن الذهاب في بلج ائتلاقها**] والبلج جمع بلجة وهي أوّل ضوء الصبح، وقد يكون مصدراً، وائتلاقها: لمعانها.

[**فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها وجاعلة الليل سراجاص تستدلّ به في التماس أرزاقها فلا تردّ أبصارها أسداف ظلمته**] الأسداف مصدر أسدف الليل أي: أظلم.

[**ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنّته**] وغسق الدجنة: ظلام الليل.

[**فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أو ضاح نهارها**] وضح النهار: ضوئه [**ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها**] وجار الضبّ: بيته.

[**أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم**

ليلها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً من جعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شظايا الآذان

ليلها] والذي ذكر في علّة ضعف بصرها هو إفراط التخلّل في الروح الحامل للقوّة البصارة من هذا الحيوان إذا لقي حرّ النهار فيصيبه لذلك التحلل ضعف يحتاج معه إلى التقوّض عمّا يتحلّل فيرجع عن العضو الباصر منها طلباً لبدل ما يتحلّل فيستكمل البدل بقرب اللّيل لمكان برده وضعف حرارة النهار، فيعود الإبصار.

وقوله: وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها في غاية الفصاحة ومعارفها ما تعرفه من مذاهبها ووجوه تصرّفاتها وتتصل عطف على قوله (تستمد)، وأمّا اسدالها لجفونها على حداقها، فلأنّ تحلّل الروح الحامل للقوّة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم وكثيراً ما يلحق كثيراً من الحيوان، أو سببه ما ذكر، واستعار لفظ القناع للشمس ملاحظةً لشبهها بالمرأة ذات القناع، وكنّى بإلقائه عن بروزها من حجاب الأرض.

[فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً] عكس سائر الحيوانات وهذا من كمال القدرة التي تبهر العقول.

وسبحان **[من جعل لها أجنحة من لحمها]** بلا ريش ولا قصب كسائر أجنحة الطير.

[تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنّها شظايا الآذان] والشظايا: القطع، وشظايا الآذان: رؤوسها البارزة.

غيـر ذوات ريش ولا قـصب إلاّ أنّك تـرى مـواضع العـروق بيّنة اعلاماً لها جناحان لما يرقّا فينشقّا ولم يغلظا فيثقلا تطير وولدها لاصق بها لاجيء إليها يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها حتّى تشتدّ أركانه ويحمله للنهوض جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه فسبحان الباريء لكلّ شيء على غير مثال خلا من غيره

[غير ذوات ريش ولا قصب] بل من عروق وورق تبسطه وتقبضه على مفاصل مخصوصة من غير دقّه توجب له الانشقاق عند الطيران ولا غلظ يوجب له الثقل كما قال:

[إلاّ أنّك ترى مواضع العروق بيّنة اعلاماً لها جناحان لما يرقّا فينشقّا ولم يغلظا فيثقلا] ثمّ ثلّث العجب بحالها مع ولدها فقال: **[تطير وولدها لاصق بها]** لا يفارقها **[لاجيء إليها]** فيرضعها **[يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها]** في حالتي النهوض والجلوس والارتفاع والهبوط.

[حتّى تشتدّ أركانه ويحمله للنهوض] بنفسه **[جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه]** وهذا أيضاً أمر تخالف به سائر الحيوانات.

[فسبحان الباريء لكلّ شيء على غير مثال خلا] أي: سبق **[من غيره]** في خلق الطير عجائب لا تهتدي إليها العقول وحِكم ظاهرة تذعن لها أُولو المعقول والمنقول، فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه وأجلّ سلطانه.

فـمن استطاع عند ذلك أن يعـتقل نفـسـه على اللّه فليـفعل فـإن أطعتـموني فإنّي حـاملكم إن شاء اللّه على سبيل الجنّة وإن كان ذا مـشقّة شـديدة ومـذاقـه مـريرة وأمّا فـلانة فـأدركـهـا رأي النسـاء وضـغن غـلا في صدرها كمرجل القين

ومن خطبة له عليه السلام

خاطب بها أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

وهو يقـتـضي ذكـر فـتن وحـروب قـبل هذا الكـلام لم يذكـره الرضي (رحمه اللّه) كما هي طريقته:

[**فـمن استطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على اللّه**] أي: يحبس نفسه على طاعة اللّه [**فليفعل فإن أطعتموني فإنّي حاملكم إن شاء اللّه على سبيل الجنّة**] وهو الدِّين القيّم وإنّما شرط الاطاعة إذ لا رأي لمن لا يطاع.

ونبّه عليه السلام على أنّ من الدِّين الحقّ ما هو ذو مشقّة شديدة ومذاقه مريرة كالجهاد وسائر التكاليف، فقال: [**وإن كان ذا مشقّة شديدة ومذاقه مريرة**].

وأمّا قوله: [**وأمّا فلانة**] فهو كناية عن عائشة [**فأدركها رأي النساء**] في حربها له عليه السلام بالبصرة، ورأي النساء كناية عن الوهن والضعف وفي الخبر «لا يفلح قوم أسندروا أمرهم إلى أمرة».

وروي أنهنّ ضعيفات العقول ضعيفات الدِّين ضعيفات الحظ.

[**وضغن**] أي: حقد [**غلا في صدرها كمرجل القين**] والمرجل القدر لحسد وعداوة كانت بينها وبين فاطمة، ومن المعلوم الوجداني انّ المرأة لا

ولو دُعيتْ لتنال من غيري ما أتتي إلي لم تفعل ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله سبيل أبلج المنهاج

تحبّ أن يميل زوجها إلى أحد أكثر منها، ومحبّة النبيّ ﷺ لفاطمة وعليّ وإيثاره لهما على غيرهما أمر وجداني، وتقديم النبي ﷺ فاطمة عليها وعليّ على أبيها اثار ما أثار من الشحناء والعداوة.

[**ولو دُعيتْ لتنال من غيري ما أتتي إلي**] من الحرب وتجهيز الجيوش وبذل الجهد بلسانها ومالها ويدها وجاهها في إطفاء نوره.

[**لم تفعل**] ذلك لعدم الباعث من الحقد والحسد والعداوة والشحناء.

[**ولها بعد حرمتها الأُولى**] من الانتساب إلى النبي ﷺ [**والحساب على الله**] إشارة زلى أنّه وإن سامحها في الدّنيا بما فعلت لأجل حرمة رسول الله ﷺ فإنّ الله تعالى هو المتولّي لحسابها في الآخرة، وفيه وعيد لها وتهديد بعذاب الله وعقابه، حيث هتكت حرمة رسول الله ﷺ وخرجت من بيته بغير إذنه وتبعت الجاهلية الأُولى وهي صفراء بنت شعيب في حربها ليوشع وصي موسى بعد موته وكأنّها لم تسمع قوله تعالى: ﴿يا نساء النبي...﴾ إلى قوله ﴿وقُرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأُولى﴾.

ومنها

في وصف الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر

[**سبيل أبلج المنهاج**] الأبلج: الواضح، والمنهاج: المسلك أي: الإيمان واضح المسلك إلى الجنّة.

أنور السراج فبالإيمان يستدلّ على الصالحات وبالصالحات يستدلّ على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم وبالعلم يرهب الموت وبالموت تختم الدنيا وبالدنيا تحرز الآخرة وفي القيامة تزلف الجنّة للمتّقين وتبرز الجحيم للغاوين

[أنور السراج] في ظلمات الجهل، ولفظ السراج مستعار **[فبالإيمان يستدلّ على]** الأعمال **[الصالحات وبالصالحات يستدلّ على الإيمان]** العبادات ومكارم الأخلاق التي وردت بها الشريعة الغرّاء والملّة الزهراء معلولات للإيمان وثمرات له وكلّ من العلّة والمعلول يستلزم وجود الآخر لا محالة.

[وبالإيمان يعمر العلم] إذ لما كانت الأعمال الصالحة ثمرات وكمالات للإيمان فبالحريّ أن يكون بها عمارة العلم ولا تمام له ولا منفعة بدونها، فإنّ العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة بل لا ثمرة له، ولذا قال: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل».

وقوله: **[وبالعلم يرهب الموت]** إذ من جملة أفراد العلم العلم بأحوال المعاد واليوم الآخر وذلك يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته وذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده.

[وبالموت تختم الدنيا] لأنّ الدنيا عبارة عمّا فيه الإنسان قبل الموت من التصرّفات البدنية **[وبالدنيا تحرز الآخرة]** لأنّ الدنيا محلّ الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد وفيها تحصل الملكات النافعة في الآخرة، قال ﷺ: «نعم العون على الآخرة الدنيا».

[وفي القيامة تزلف الجنّة للمتّقين وتبرز الجحيم للغاوين] إذ بالموت

وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة مرقلين في مضمارها إلى الغاية القصوى قد شخصوا من مستقرّ الأجداث وصاروا إلى مصائر الغايات لكلّ دار أهلٌ

وطرح جلباب البدن يتبيّن ما للإنسان وما عليه وينكشف له ما قدّم من خير أو شرّ قال تعالى: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ ولفظ الإزلاف والبروز يشهدان بذلك لما فيهما من معنى الظهور، وقال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾.

[**وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة**] أي: لابدّ لهم من ورودها [**مرقلين**] حال، أي مسرعين. [**في مضمارها إلى الغاية القصوى**] ومضمارها مدّة الحياة الدنيا، ووجه الشبه كون تلك المدّة محلّ استعداد الفوس للسباق إلى الآخرة، كما أنّ المضمار محلّ استعداد الخيل للسباق، وإرقالهم كناية عن سيرهم المتوهّم في مدة أعمارهم إلى الآخرة وسرعة حثيث الزمان بهم في اعداد أبدانهم للحراب، والغاية القصوى هي السعادة أو الشقاوة الأخروية.

ومنها

في صفة حال أهل القبور في القيامة

[**قد شخصوا من مستقرّ الأجداث**] جمع جدث: وهو القبر، [**وصاروا إلى مصائر الغايات**] من الجنّة أو النار، [**لكلّ دار**] منهما [**أهلٌ**] يخلدون فيها

لا يستبدلون بها ولا ينتقلون عنها وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه تعالى لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق وعليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين والنور المبين والشفاء النافع والرأي الناقع

من المؤمنين والكفّار.

[**لا يستبدلون بها ولا ينتقلون عنها**] والمراد بأهل النار الكفّار إذ هي لهم خلود وللمسلمين العصاة وروداً لا خلوداً.

[**وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه تعالى**] مجاز كناية عن كونهما من صفات الكمال ونعوت الجلال التي بها نظام العالم وبقائه.

[**لا يقرّبان من أجل ولا ينقّصان من رزق**] دفعاً لما يتوهّمه ضعفاً النفوس من أنّه إذا أنهى من ينتفع منه عن منكر يفعله انقطع من رزقه منه أو إذا نهى الملوك عن المنكرات حصلت له أذيّة يقرب أجله.

ثمّ حثّ ﷺ على ملازمة كتاب اللّه والعمل به فقال: [**وعليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين**] استعار الحبل لكونه سبباً لنجاة المتمسّك به من الهوى في دركات الجحيم كالحبل في نجاة المتمسك به في البئر أو نحوها، ورشح الاستعارة بذكر المتانة.

[**والنور المبين**] للاهتداء به إلى المقاصد الحقيقية والمنافع الدنيوية والأخروية.

[**والشفاء النافع**] من الم الجهل. [**والرأي الناقع**] للعطشان من ماء الحياة الأبديّة كالعلوم النافعة والمعارف الحقّة فإنّ بها حياة القلوب والأرواح

والعصمة للمتمسّك والنجاة للمتعلّق لا يعوجّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب ولا يخلقه كثرة الردّ وولوج السمع من قال به صدق ومن عمل به سبق لمّا أنزّل اللّه سبحانه قوله ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا

من موت الجهل كما أنّ بالماء ريّ العطش الجسماني.

[**والعصمة للمتمسّك**] به [**والنجاة للمتعلّق**] به، كما مرّ في كونه حبلاً [**لا يعوجّ**] كسائر الآلات المحسوسة [**فيقام ولا يزيغ**] لا يميل عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**فيستعتب**] أي: يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ، كما يفعله سائر الحكّام من الناس. [**ولا يخلقه**] لا يجعله خلقاً كالجديد الذي يخلق بكثرة الاستعمال. [**كثرة الردّ**] أي: الترديد في الألسنة.

[**وولوج السمع**] أي: كثرة استماعه ودخوله في الأسماع، بل كلّما رُدّد واستمع كان غضّاً جديداً طريّاً وهذا من خواصّ القرآن، إذ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا كثرت تلاوته مجّته الأسماع واستهجنته الطباع بخلاف القرآن فهو المسك مهما كوّرته يتضوّع لكثرة أسراره وعمق أغواره وغاية فصاحته وعذوبة ألفاظه.

[**من قال به صدق**] إذ هو الحقّ الذي لا شبهة فيه ولا شكّ يعتريه [**ومن عمل به سبق**] إلى الجنّة والرضوان وفاز بالنعيم والجنان.

فقام إليه رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول اللّه ﷺ عنها؟ فقال:

[**لمّا أنزّل اللّه سبحانه قوله ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا**

وهم لا يفتنون﴾ علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللّه بها؟ فقال: يا علي! إنّ أمتي سيفتنون بعدي، فقلت: يا رسول اللّه أوليس قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحِيْزَت عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليّ فقلت لي ابشر فإنّ الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟ فقلت: يا رسول اللّه ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر والبشرى فقال: يا علي إنّ القوم سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم علي ربّهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية

وهم لا يفتنون﴾ علمتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللّه بها؟ فقال: يا علي! إنّ أمتي سيفتنون بعدي، فقلت: يا رسول اللّه أوليس قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحِيْزَت عنّي الشهادة فشقّ ذلك عليّ فقلت لي ابشر فإنّ الشهادة من ورائك؟ فقال لي: إنّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟ فقلت: يا رسول اللّه ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر والبشرى] لأنّها نعمة عظيمة ومنّة جسيمة يجب شكرها.

[فقال: يا علي إنّ القوم سيفتنون] بعدي.

[بأموالهم ويمنّون بدينهم علي ربّهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية] كما استحلّوا محاربة أميرالمؤمنين وقتال المسلمين ودماء المؤمنين بشبهة قتل عثمان.

ويستحلّون الخمر بالنبيذ والسحت الحرام بالهدية والربا بالبيع قلت: يا رسول اللّه! فبأيّ المنازل انزلهم عند ذلك بمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة قال: بمنزلة فتنة الحمد للّه الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره وسبباً للمزيد من فضله ودليلاً على آلائه وعلى عظمته

[**ويستحلّون الخمر بالنبيذ**] فيشربون النبيذ بزعم أنّه غير الخمر التي حرّمها اللّه، [**والسحت الحرام بالهدية**] فيسمّى القاضي والمرتشي ما يعطاه لأجل الحكم هدية.

[**والربا بالبيع**] كما ترى في زماننا.

[**قلت: يا رسول اللّه! فبأيّ المنازل انزلهم عند ذلك**] الذي يصدر منهم، [**بمنزلة فتنة**] فتنوا بها ولم يخرجوا بها عن الإسلام [**أم بمنزلة ردّة**] عن الإسلام وكفر بعد إيمان.

[**قال: بمنزلة فتنة**].

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره**] حيث ابتدء به في عدّة سور من القرآن ويكفي في ذلك الافتتاح به في أوّل الكتاب الكريم [**وسبباً للمزيد من فضله**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

[**ودليلاً على آلائه**] لاختصاص الشكر بمولى النعم، [**وعلى عظمته**] لاختصاصه باستحقاق ذلك إذ هو مبدء لكلّ نعمة ولأنّ الحمد لا ينبغي إلّا له.

عباد اللّه إنّ الدهر يجري بالباقين كجريانه بالماضين لا يعود ما قد ولّى ولا يبقى سرمداً ما فيه آخر فعاله كأوّله متشابهة أُموره متظاهرة أعلامه فكأنّكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله

[**عباد اللّه إنّ الدهر يجري بالباقين كجريانه بالماضين**] فليتذكّر الباقون أنّهم أمثال الماضين يجري عليهم ما جرى عليهم فليرتدعوا عن غيّهم وليعملوا لما بعد الموت.

ثمّ نبّه على حاله في تقيضه فقال: [**لا يعود ما قد ولّى**] اي: مضى وانقضى [**ولا يبقى سرمداً ما فيه**] إذ كلّ وقت منه له أهل ومتاع من الدنيا إنّما يكون في الوجود بوجود ذلك الوقت، وظاهر أنّه يتقضى بتقضّيه ولا يبقى سرمداً ما فيه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ آثاره كأجزائه متشابهة [**آخر فعاله كأوّله**] أي: يوجد ما يكون بإعداد وقت منه بوجود ذلك الوقت ويتقضى بانقضائه فحاله دائماً وتيرة واحدة وكذا قوله: [**متشابهة أُموره**] فإنّه كما كان أوّلاً يعقد قوماً للفقر وقوماً للغنى وقوماً للضعة وقوماً للرفعة وقوماً للوجود وقوماً للعدم كذلك هو آخراً.

وقوله: [**متظاهرة أعلامه**] أي: دلالته على شيمته وطبيعته وافعاله التي يعامل الناس بها قديماً وحديثاً متعاضدة يتبع بعضها بعضاً ونسبة هذه الأُمور إلى الدهر جرياً على ما في أوهام العرب وإن كان الفاعل هو اللّه ثمّ نبّههم على قرب الساعة فقال:

[**فكأنّكم بالساعة تحدوكم**] تسوقكم [**حدو**] أي: سوق [**الزاجر بشوله**] الشول: النوق التي خفّ لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها من نتاجها

فمن شغل نفسه بغير نفسه وارتبك في الهلكات ومدّت به شياطينه في طغيانه وزيّنت له سيّيء أعماله فالجنّة غاية السابقين والنار غاية المفرطين واعلموا عباد اللّه أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل

سبعة أشهر الواحدة شائلة على غير القياس، شبّه سوق الساعة لهم بسوق الزاجر للنوق في حثّه لها، ووجه الشبه السرعة والحثّ وإنّما خصّ الشول من النوق لخلوّها العشار فيكون سوقها بعنف وإسراع.

ولمّا نبّههم على قربها وأنّها تحدوهم، نبّههم على وجوب اشتغال كلٌّ بنفسه [**فمن شغل نفسه بغير نفسه**] تحيّر في الظلمات ولم يحصّل نوراً يهتدي به بل كان في أغطية الهيئات البدنية وأغشية الشهوات النفسانية التي تعشي نور البصيرة فلا جرم يحتر في تلك الظلمات.

[**وارتبك في الهلكات**] والارتباك: الاختلاط.

[**ومدّت به شياطينه**] ونفسه الأمّارة [**في طغيانه وزيّنت له سيّيء أعماله**] وصار ﴿من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾، وممن قال اللّه فيه: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

[**فالجنّة غاية السابقين والنار غاية المفرطين**] قرن ذكر الجنّة بذكر فضيلة السبق وذكر النار برذيلة التفريط لتقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين والهرب من أخسّهما، ولأنّ السبق والتفريط علّتان للوصول إلى غايتهما المذكورتين فهدى إلى طلب إحديهما والهرب من الأخرى بذكر سببيهما.

[**واعلموا عباد اللّه أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل**] استعار الدار الحصينة التي تعزّ من تحصّن بها لكونها تحصّن النفس في

لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى عباد اللّه! اللّه اللّه في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم

الدنيا من الرذائل الموبقة الموجبة للهلكات الدنيوية وفي الآخرة من ثمرات الرذائل وملكات السوء المستلزمة للعذاب الأليم، واستعار الدار الموصوفة بكونها حصن الذلّ للفجور لكونه مستلزماً لضدّ ما تستلزم التقوى.

[**لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه**] ويظهر منه أنّ المراد بالتقوى هنا خصوص فضيلة القوّة البهيمية وهي العفّة والزهد لمقابلة الفجور للعفّة.

ثمّ نبّه على فضيلة أخرى للتقوى فقال: [**ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا**] حمة العقرب: ابرتها، وهي محلّ سمّها، استعارها باعتبار كونها مستلزمة للأذى في الآرة كما يستلزم ابرة العقرب أو سمّها للأذى، ومن روى حمّته مشدّدة أراد شدّة الخطايا وبأسها لأنّ حمّة الحر: معظمه، وظاهر كون التقوى تقطع لباس الخطايا وتمحق آثارها [**وباليقين**] الذي به إصلاح القوّة النظريّة [**تدرك الغاية القصوى**] فإنّ الإنسان إذا حصل على كمال القوّة النظريّة باليقين وعلى كمال القوّة العمليّة بالتقوى بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنساني.

[**عباد اللّه! اللّه اللّه**] نصب على الاغراء أي: احذروا اللّه واتّقوه [**في أعزّ الأنفس عليكم وأحبّها إليكم**] إشارة إلى أنّ للإنسان نفوساً متعدّدة، أو هي واحدة ولها اعتبارات متعدّدة، وقد صرّح عليه السلام في حديث آخر بتعدّدها وهي:

المطمئنة: المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يا أيّتها النفس المطمئنة ارجعي

فإنّ اَللّه تعالى قد أوضح سبيل الحقّ وأنار طرقه فشقوة لازمة أو سعادة دائمة فتزوّدوا وأُمرتم بالظعن وحثثتم على المسير

إلى ربّك راضية مرضية﴾.

والأمّارة: المشار إليها بقوله: ﴿إنّ النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي﴾.

واللوّامة: المشار إليها بقوله: ﴿ولا أُقسم بالنفس اللوّامة﴾ وباعتبار آخر تنقسم إلى عاقلة وشهوية وغضبية، وأعزّ الأنفس النفس العاقلة الباقية بعد الموت التي لها الثواب وعليها العقاب وغاية هذا التحذير حفظ كلّ أحد نفسه مما يوبقها في الآخرة بالاستقامة على سبيل اللّه ولذا قال:

[**فإنّ اللّه تعالى قد أوضح**] لكم [**سبيل الحقّ وأنار طرقه**] وفي نسخة (وأبان) أي: أوضح طرقه، أي: بالآيات والنُّذُر.

ثمّ نبّه على غايتي سبيل الحقّ وسبيل الباطر المشار إليهما بقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين ...﴾ بقوله: [**فشقوة لازمة**] أي: لسبيل الباطل، [**أو سعادة دائمة**] لسبيل الحقّ.

[**فتزوّدوا**] التقوى، [**وأُمرتم بالظعن**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السموات والأرض﴾، وقوله تعالى ﴿ففرّوا إلى اللّه﴾.

[**وحثثتم على المسير**] قيل: إنّ كلّ أمر ورد بالإعراض عن الدنيا والتنفير عنها فهو مستلزم للحثّ على الظعن والأمر بالمسير عن الدنيا بالقلوب لأنّ الظعن قطع درجات المعارف والأعمال في سبيل اللّه وصراطه المستقيم ويحتمل أن يريد بالحثّ على المسير حثّ اللّيل والنهار بتعاقبهما على

فإنّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسير الا فما يضيع بالدنيا من خلق للآخرة وما يضيع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه عباد اللّه إنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترك ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب

الأعمال فهما سائقان حثيثان عنيفان فيجب التنبّه لسوقهما على اتخاذ الزاد لما يسوقان إليه.

[**فإنّما أنتم كركب وقوف لا تدرون متى تؤمرون بالسير**] ووجه الشبه أنّ الإنسان هو النفس والمطايا هي الأبدان والقوى النفسانية والطريق العالم الحسّي والعقلي والسير الذي ذكره قبل الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المسعدة، وهي الزاد لغاية السعادة الباقية.

وأمّا السير الثاني الذي هم وقوف ينتظرونه ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا وطرح البدن وقطع عقبات الموت والقبر، إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك، ومن ذلك يعلم عدم التنافي بين قوله (وأُمرتم بالظعن) وقوله (لا تدرون متى تؤمرون بالسير).

ثمّ شرع ﷺ في تزهيد الدنيا والتنفير عنها وكذا المال فقال: [**ألا فما يضيع بالدنيا من خلق للآخرة**] فإنّ مقتضى العقل أن يعمل الإنسان لما خلق له، [**وما يضيع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه**] فيكون لغيره المهنى وعليه الوزر.

[**عباد اللّه إنّه ليس لما وعد اللّه من الخير مترك**] أي: ليس منه عوض وبدل في النفاسة، [**ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب**] أي: ليس فيه مصلحة ينبغي أن يجعلها العاقل غاية مقصودة له، إذ هو تعالى أعلم

عباد اللّه احذوروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال تشيب فيه الأطفال اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم لا يستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج وإنّ غداً من اليوم قريب

بالمصالح فلا يليق بجوده أن ينهى العبد عمّا فيه مصلحة راجحة.

ثمّ عقّب ذلك بالتحذير من يوم الوعيد فقال: [**عباد اللّه احذوروا يوماً تفحص فيه الأعمال**] فيفحص فيه عن النقير والقطمير والصغير والكبير والجليل والحقير، قال تعالى: ﴿ولتسئلن عمّا كنتم تعملون﴾.

[**ويكثر فيه الزلزال**] قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها﴾ إلى قوله ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾، [**تشيب فيه الأطفال**] قال تعالى: ﴿يوم يجعل الولدان شيباً﴾ ﴿السماء منفطر به﴾.

[**اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم**] كما قال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللّه الذي أنطق كلّ شيء﴾.

[**وحفّاظ صدق**] إشارة إلى الكرام الكاتبين [**يحفظون أعمالكم**] ويحصون أقوالكم [**وعدد أنفاسكم**] ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾.

[**لا يستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج**] والرتاج: الغلق [**وإنّ غداً**] كناية عن وقت الموت [**من اليوم قريب**] فإنّ كلّ

يذهب اليوم بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به وكأنّ كلّ امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته ومخطّ حرفته فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومقرّ غربة وكأنّ الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم لو برزتم لفصل القضاء قد زالت عنكم الأباطيل واضمحلّت عنكم العلل واستحقّت بكم الحقائق فاتّعظوا بالعبر واعتبروا بالغِير وانتفعوا بالنذر

ما هو آت قريب.

[**يذهب اليوم بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به وكأنّ كلّ امرء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته**] كناية عن قبره الذي يصير إليه وحيداً فريداً [**ومخطّ حرفته فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومقرّ غربة وكأنّ الصيحة قد أتتكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أو قوله: فإذا نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

[**والساعة قد غشيتكم**] يعني القيامة الكبرى [**لو برزتم لفصل القضاء**] فوفّيت كلّ نفس ما لها من الثواب وما عليها من العقاب، [**قد زالت عنكم الأباطيل**] أي: الهيئات الباطلة من النفوس التي لها استكمال ما [**واضمحلّت عنكم العلل**] الباطلة [**واستحقّت بكم الحقائق**] ورجع كلّ امرىء إلى ثمرة ما قدّم.

[**فاتّعظوا بالعبر**] وهو كلّ ما يفيد تنبيهاً على أحوال الآخرة [**واعتبروا بالغِير**] جمع غيرة فعله من التغيّر واعتبارها طريق الاتعاظ والانزجار.

[**وانتفعوا بالنذر**] جمع نذير وهو كلّ أمر يخوّف أحوال الآخرة والانتفاع به.

أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم وانتقاض من المبرم فجائهم بتصديق الذي بين يديه والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه إلاّ انّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي

ومن خطبة له عليه السلام

[**أرسله على حين فترة من الرسل**] الضمير راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وقد مرّ معنى الفترة وأنّها على مذهب الإمامية عدم ظهور الحقّ إذ «لا تخلو الأرض من حجّة إمّا قائم مشهور أو غائب مستور».

[**وطول هجعة من الأمم**] كناية عن رقدتهم بمراقد الطبيعة ونوم الغفلة عمّا خلقوا لأجله [**وانتقاض من المبرم**] المبرم في الأصل: الحبل المفتول، واشار به إلى ما كان الخلق عليه من نظام الحال بالشرائع السابقة وابترام أمورهم بوجودها وانتقاضه عبارة عن فساد ذلك النظام بتغيّر الشرائع واضمحلالها.

[**فجائهم بتصديق الذي بين يديه**] من التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة﴾.

[**والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه**] باستفسار، ومعنه من أهله [**ولن ينطق**] هو [**ولكن أخبركم عنه**] إذ هو لسان الكتاب بل كتاب اللّه الناطق ونباه الصادق [**إلاّ انّ فيه علم ما يأتي**] إلى يوم القيامة [**والحديث عن الماضي**] نفسه علم الأوّلين والآخرين وما كان وسيكون وما هو كائن إلى

ودواء دائكم ونظام ما بينكم فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ وأدخله الظلمة ترحةً وأولجوا فيه نعمة فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر ينصرهم أصغيتم بالأمر غير أهله وأوردتموه غير ورده وسينتقم اللّه ممّن ظلم

يوم القيامة وإخبار القرون الماضية والأمم الخالية وما يقع من الفتن والحوادث في الدنيا وأحوال القبر والحشر والنشر والحساب في الآخرة **[ودواء دائكم]** من الرذائل المهلكة والأخلاق المردية ودوائها لزوم الفضائل العلميّة والعمليّة التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

[ونظام ما بينكم] من القوانين الشرعيّة والحكم السياسيّة التي بها نظام العالم واستقامة أموره.

ومنها

في بيان جملة من حال بني أميّة وما يحدث في دولتهم من الظلم والعدوان والجور والطغيان **[فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر]** كناية عن البدو والحضر.

[إلاّ وأدخله الظلمة ترحةً] أي: حزن **[وأولجوا فيه نعمة فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر]** يعذرهم في أفعالهم **[ولا في الأرض ناصر ينصرهم]** من دون اللّه **[أصغيتم بالأمر غير أهله]** استفهام توبيخي على اضفائهم بأمر الخلافة غير أهله **[وأوردتموه غير ورده]** والخطاب عام وإن خصّ عقلاً بالراضي بدولة معاوية وذرّيته ومن تقاعد عن القيام معه في قتاله لأنّ العقود عن ردع الظالم وقتاله مستلزم لقوته ويجري مجرى نصرته وإعانته على ظلمه **[وسينتقم اللّه ممن ظلم]** ﴿ولا تحسبن اللّه بغافل عمّا يعمل الظالمون﴾.

مـأكـلاً بمأكل ومشـرباً بمشـرب من مطاعـم العلقم ومشارب الصبر والمقـر ولباس شـعـار الخـوف ودثار السـيف وإنّمـا هم مطايا الخطيـات وزوامل الآثام فأقسم ثمّ أقسم لتنخمنها أُميّة من بعدي كما تلفظ النخامة ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرّ الجديدان

[**مـأكلاً بمأكل ومشرباً بمشـرب**] منصوبان بـفعل مضـمر تقديره يبدلهم مأكـلاً بمأكل واستـعار لفظ العلقة والصبر والمقر في قوله [**من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر**] وهو المرّ لما يتجرّعونه مـن شدائد القتل وأهوال العدوّ ومرارات زوال الدولة وكذا لفظ الشعار والدثار في قوله:

[**ولبـاس شعـار الخوف ودثار السيف**] للخوف والسيف ورشح الأُولى بذكر اللباس وأشار إلى أنّ الخـوف ملازم لهم كملازمة الشعـار للجسد وقيل خصّ الخـوف بالشـعار لأنّه باطن فـي القلوب والسيف بالدثار لأنّه ظاهر في البدن كما أنّ الشعارة ما كان يلي الجسد والدثار ما كان فوقه.

[**وإنّمـا هم مطايا الخطيـات وزوامل الآثام**] اسـتـعـار لهم لفـظ المطايا والزوامل لحملهم للآثام وأتى بلفظ (إنّمـا) إشـارة إلى أنّ جـمـيـع حركـاتهم وتصرّفاتهم على غير قانون شرعي فتكون خطيئة وإثماً والزوامل جمع زاملة.

[**فأقـسم ثمّ أقـسم لتنخمنهـا أُميّة من بعـدي**] الضمير راجع إلى الخلافة واستعار لـهم لفظ التنخّم لزوال الخلافة عنهم، [**كما تلفـظ النخامة**] فكأنّهم قائوها ولفظوها من صدورهم ملاحظة لشبهها بالنخامة.

[**ثمّ لا تذوقها ولا تطعم بطعـمها**] كناية عن عدم رجوعها إليهم، [**أبداً مـا كرّ الجـديدان**] ما مـصدريـة ظرفيـة، بمعنى المدّة، والجديدان اللّيل والنـهار وهو كناية عن الأبد.

ولقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم وأعتقتكم من ربق الذلّ وحلق الضيم شكراً مني للبرّ القليل وإطراقاً عمّا أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير أمره قضاء وحكمة

ومن خطبة له عليه السلام

[**ولقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم**] إشارة إلى حفظه وحراسته لهم [**وأعتقتكم من ربق الذلّ وحلق الضيم**] كناية عن حمايتهم من عدوّهم واغترارهم به، واستعار لفظ الربق والحلق لما يخاف عليهم من دولة غيره من الأرذال ثمّ نبّههم على شكره للقليل من برّهم فقال: [**شكراً مني للبرّ القليل**] أي: مقدار طاعتهم للّه في طاعته، [**وإطراقاً عمّا أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير**] إشارة إلى أغضائه عن كثير منكرهم ممّا شاهده منّاً عليهم بالمسامحة والعفو، ولعلّ المراد إساءتهم فيما يرجع إلى نفسه أو الإغضاء عن منكر يعلم أنّهم لا يرتدعون عنه أو أنّ الإمام له أن يعفو عن بعض الحقوق كما قرّر في محلّه.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أمره**] الضمير راجع إلى اللّه سبحانه وأمره هو حكم قدرته الإلهية [**قضاء**] أي: حكم لازم لا يردّ [**وحكمة**] أي: على وفق الحكمة الإلهية والنظام الأكمل.

ورضائه أمان ورحمته يقضي بعلم يجري ويعفو بحلم اللّهمّ لك الحمد على ما تأخذ ويعطي وعلى ما تعافي وتبتلي حمداً يكون أرضى الحمد لك وأحبّ الحمد إليك وأفضل الحمد عندك حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده فلسنا نعلم كنه عظمتك إلّا أنا نعلم أنّك حيٌّ

[**ورضائه أمان ورحمته**] رضاه يعود إلى علمه بطاعة العبد له في أمره ونهيه [**يقضي بعلم يجري**] مجرى التغيّر لقوله أمره قضاء [**ويعفو بحلم**] العفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدّم الذنب وإنّما يتحقّق العفو مع تحقّق القدرة على العقاب إذ الفجر لا يسمّى حلماً، فلذا قال يعفو بحلم.

[**اللّهمّ لك الحمد على ما تأخذ ويعطي وعلى ما تعافي وتبتلي**] أي: على كلّ حال من السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء [**حمداً يكون أرضى الحمد لك وأحبّ الحمد إليك وأفضل الحمد عندك**] أي: أشدّه وقوعاً على الوجه اللائق المناسب لعظمته [**حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت**] هذا باعتبار الكثرة وما قبله باعتبار الكمّية والأوّل باعتبار الكيفيّة ثمّ حمده باعتبار الغاية فقال:

[**حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك**] ثمّ باعتبار مادّته فقال:

[**حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده**] وقد يكون التفضيل في القول في بعض المواضع أبلغ وقعاً في النفوس و—— يكون الإجمال والاختصار أبلغ وأنفعز

ثمّ شرع في الاعتراف بالعجز عن إدراك كنه عظمته فقال: [**فلسنا نعلم كنه عظمتك**] ولا حقيقة صفات جمالك وجلالك [**إلّا أنا نعلم أنّك حيٌّ**

قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيّب عنّا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم فمن فرغ قلبه وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرئت خلقك وكيف علّقت في الهواء سماواتك

قيّوم] إشارة إلى الصفات الحقيقية وهما يستلزمان الوجود إذ كلّ حيّ موجود والقيّوم القائم بذاته المقيم لغيره وكلّ قائم بذاته موجود واجب الوجود.

وقوله: **[لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر]** عقلي **[ولم يدركك بصر]** حسّي، إشارة إلى الاعتبارات السلبية.

وقوله: **[أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام]** أي: أحاطت قدرتك بها اعتبارات إضافية، ثمّ عاد إلى استحقار ما عدّده مما أدركه بالنسبة إلى مالم يدركه من عظيم ملكوته بقوله: **[وما الذي نرى من خلقك]** (ما) استفهاميّة على سبيل الاستحقار لما استفهم عنهم.

[ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما] موصولة، بتدأ خبرها أعظم والواو للحال والجملة حالية وأي والحال انّ الذي **[تغيّب عنّا منه]** أي: من خلقك وسلطانك **[وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت سواتر الغيوب بيننا وبينه أعظم]** ممّا رأيناه وشاهدناه **[فمن فرغ قلبه وأعمل فكره]** ليصل إلى كنه معرفته وعلم كيفية نظامه للعالم العلوي **[ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرئت خلقك وكيف علّقت في الهواء سماواتك]**

وكيف مددت الأرض على مور الماء أرضك رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً وسمعه والهاً وفكره حائراً بزعمه أنّه يرجو اللّه كذب والعظيم ما باللّه لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى عرف رجائه في عمله إلاّ رجاء اللّه فإنّه مدخول

بلا عمد [**وكيف مددت الأرض على مور الماء أرضك**] بلا سند [**رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً**] مغلوباً [**وسمعه والهاً وفكره حائراً**].

ومنها

في ذمّ من يدّعي رجاء اللّه ولا يعمل له

فقال يدّعيه بلسان الحال أو المقال: [**بزعمه أنّه يرجو اللّه**] سبحانه وتعالى [**كذب والعظيم**] ردّ لتلك الدعوى مؤكّد بالقسم البار وذكر العظيم دون سائر الأسماء لانّه أنسب للرجاء.

وقوله: [**ما باللّه لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى عرف رجائه في عمله إلاّ رجاء اللّه فإنّه مدخول**] في صورة قياس من الشكل الثاني تبيّن أنّ مثل هذا غير راج في الحقيقة، وحاصله أنّ هذا المدّعي لا يتبيّن رجائه في عمله وكلّ من رجى يتبيّن رجائه في عمله فينتج أنّ هذا المدّعي للرجاء غير راج.

وأشار بقوله (فإنّه مدخول) إلى أنّ هذا الرجاء غير خالص، إذ كلّ من رجى أمراً من سلطان أو غيره فإنّه يخدمه الخدمة التامّة ويبالغ في طلب رضاه ويكون عمله بقدر قوّة رجائه وخلوصه ونرى هذا المدّعي للرجاء غير

وكلّ خوف محقّق إلاّ خوف اللّه فإنّه معلول يرجو اللّه في الكبير ويرجو العباد في الصغير فما بال اللّه عزّ وجلّ يقصر به عما يصنع بعباده أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لايعطي غيره ربّه

عامل فنستدلّ بتقصيره في الأعمال الدينيّة على عدم رجائه الخالص في اللّه.

وكذا قوله: [**وكلّ خوف محقّق إلاّ خوف اللّه فإنّه معلول**] توبيخ للسامعين في رجاء اللّه تعالى مع تقصيرهم في الأعمال الدينية وتقدير الاستثناء الأوّل مع المستثنى منه وكلّ رجاء لراج يعرف خلوص رجائه فيما يرجوه إلاّ رجاء الراجي للّه فإنّه غير خالص.

وقوله: [**يرجو اللّه في الكبير ويرجو العباد في الصغير**] وهو في قوّة قياس تقدير كبراه وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يعطي اللّه الذي هو ربّه من رجائه والعمل له ما لا يعطي المخلوقين الذين هم عباده.

وقوله: [**فما بال اللّه عزّ وجلّ يقصر به عما يصنع بعباده**] توبيخ وتشنيع على من يخالف العمل بالنتيجة المذكورة.

وقوله: [**أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً**] استفسار عن علّة التقصير المذكور في الرجاء للّه والعمل له بالنسبة إلى رجاء العباد والعمل لهم على سبيل الإنكار وتقريعاً على ما عساه تدّعي إحدى العلّتين المذكورتين وهما خوف الكذب في رجاء بعضهم لبعض أو ضعفه وانتفائهما في حقّه تعالى ظاهر.

وقوله: [**وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي غيره ربّه**] الضمير في عبيده للّه وفي خوفه للخائف أو العبد.

فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً وكذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على اللّه فانقطع إليها وصار عبداً لها ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لك كاف ودليل على ذمّ الدنيا وغيّها وكثرة مخازيها

وقوله: [**فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً**] الضمار الذي لا يرجى من الموعود، إشارة إلى أنّه في غاية القبح جعل الإنسان خوفه من عبد مثله لا يضرّ ولا ينفع حاضراً، وخوفه من خالقه الذي بيده أزمّة الأمور وعداً غير حاضر.

وقوله: [**وكذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على اللّه فانقطع إليها وصار عبداً لها**] إشارة إلى علّة إيثار الناس الحياة الدنيا على الآخرة عظمة الدنيا في أعينهم وتمام هذه العلّة حقارة ما تصوّروه من الوعد الاخروي بالنسبة إلى الدنيا وعلّة هذه العلّة هو تصوّرهم للذّات العاجلة كما هي وغيبوبة اللّذات الموعودة وتصوّرها الضعيف بحسب الموصف الذي غايته أن يوجب في أذهانهم مشابهة ما وعدوا به لما حضر لهم الآن، فلذا كانت العاجلة أعظم في نفوسهم وأكبر وقعاً في قولبهم ولذا آثروها وانقطعوا إليها فاستعبدتهم، وغاية هذا التوبيخ التنفير عن الدنيا والجذب والميل إلى ما وعد اللّه، ولذا عقّبه بذكر حال النبي ﷺ فقال:

[**ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لك كاف**] في الاسوة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أُسوة حسنة﴾، وقال تعالى: ﴿إن كنتم تحبّون اللّه فاتّبعوني يحببكم اللّه﴾.

[**ودليل على ذمّ الدنيا وغيّها وكثرة مخازيها**] جمع مخزاة: وهو الأمر

ومساميها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم من رضاعها وزوي عن زخارفها وإن شئت ثنيت بموسى كليم اللّه إذ يقول ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير واللّه ما سأله إلاّ خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه وإن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير وقاري أهل الجنّة

يشجي من ذكره لقبحه، [**ومساميها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها**] أي: جوانبها.

[**وفطم من رضاعها وزوي عن زخارفها**] جمع زخرف: وهو الذهب، روي عنه ﷺ قال: «عرضت عليّ كنوز الأرض ودفعت إليّ مفاتيح خزائنها فكرهتها واخترت الدار الآخرة»، وفي الأخبار الصحيحة عنه ﷺ أنّه كان يجوع ويشدّ حجراً على بطنه وأنّه ما شبع آل محمد ﷺ من لحم قط وأنّ فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير وأنّه ﷺ ما شبع من خبز الشعير قط ولا أكل من خبز البر قط.

[**وإن شئت ثنيت بموسى كليم اللّه إذ يقول ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير واللّه ما سأله إلاّ خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه**] وشفيفه: رفيعه الذي يستشفّ ما ورائه، والصفاق الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن [**لهزاله وتشذّب لحمه**] تشذّب اللّحم تفرّقه [**وإن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير**] جمع مزمار: وهي الآلة التي يزمر فيها.

[**وقاري أهل الجنّة**] روي أنّه أُعطي من طيب النغمة ولذّة ترجيع القراءة

ولقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه أيّكم يكفيني بيعها وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما ينبت في الأرض للبهائم ولم يكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذلّه دابّته رجلاه وخادمه يداه، فتأسَّ بنبيّك الأطهر الأطيب فإنّ فيه أُسوة لمن تأسّى وعزاء لمن تعزّى وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه المقتص لأثره قضم الدنيا قضماً

ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته.

[**ولقد كان يعمل سفائف الخوص**] جمع سفيفة وهي النسيجة [**بيده ويقول لجلسائه أيّكم يكفيني بيعها**] ويأكل قرص الشعير من ثمنها [**وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما ينبت في الأرض للبهائم ولم يكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذلّه دابّته رجلاه وخادمه يداه، فتأسَّ بنبيّك الأطهر الأطيب فإنّ فيه أُسوة لمن تأسّى وعزاء لمن تعزّى وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه المقتص لأثره**] أي: المتّبع له، قال تعالى: ﴿فقالت لاخته قصّيه﴾.

[**قضم الدنيا قضماً**] أي: تناول منها قدر الكفاف وما تدعو إليه الضرورة من حسن المعيشة وأصل القضم أكل الشيء اليابس بأطراف

ولم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم من الدنيا بطناً عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أنّ اللّه أبغض شيئاً فأبغضه وحقّر شيئاً فحقّره وصغّر شيئاً فصغّره ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه وتعظيمنا ما صغّر اللّه لكفى به شقاقاً للّه ولقد كان صلّى اللّه عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف نعله بيده ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه ويكون الستر على باب بيته فيكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة لإحدى

الأسنان والخضم أكل بكلّ الفم للأشياء الرطبة، وروي قصم بالصاد أي: كسر.

[**ولم يعرها طرفاً**] أي: لم يلتفت إليها ولم يلو طرفه وجانبه إليها [**أهضم أهل الدنيا كشحاً**] الكشح: الخاصرة.

[**وأخمصهم من الدنيا بطناً عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أنّ اللّه أبغض شيئاً فأبغضه وحقّر شيئاً فحقّره وصغّر شيئاً فصغّره ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أبغض اللّه وتعظيمنا ما صغّر اللّه لكفى به شقاقاً للّه**] والشقاق: الخلاف والمحادة والمعاداة.

[**ولقد كان صلّى اللّه عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف نعله بيده ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه**] ففي الأخبار الصحيحة عنه ﷺ: «إنّما أنا عبد، آكل أكل العبد، وأجلس جلسة العبد» وكان يأكل على الأرض ويجلس جلوس العبد يضع قصبتي ساقيه على الأرض ويعتمد عليهما بباطن فخذيه وركوبه الحمار العاري آية التواضع وهضم النفس وإرادف غيره خلفه آكد في الدلالة على ذلك.

[**ويكون الستر على باب بيته فيكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة لإحدى**

زوجاته غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيّبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصة وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقله ءأكرم اللّه محمّداً بذكل أم أهانه، فإن قال أهانه، فقد كذب والعظيم، وأتى بالإفك العظيم، وإن قال أكرمه، فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه

زوجاته غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيّبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصة وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته] فقد تظافر في الأخبار أنّ فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير وأنّهم آثروا سائلاً بأربعة أقرص منه كانوا عدّوها لفطورهم وباتوا جياعاً.

[فلينظر ناظر بعقله ءأكرم اللّه محمّداً بذكل أم أهانه، فإن قال أهانه، فقد كذب والعظيم، وأتى بالإفك العظيم، وإن قال أكرمه، فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه].

فتأسّى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه وإلاّ فلا يأمن الهلكة فإنّ اللّه تعالى جعل محمداً صلّى اللّه عليه وآله علماً للساعة

وخلاصة الاحتجاج أنّه ﷺ إذا كان جاع في الدنيا مع خاصّته وزوى اللّه عنه زخارفها فلا يخلو إمّا أن يكون ذلك إكراماً له أو إهانة، والقسم الثاني ظاهر البطلان لأنّه من المعلوم أنّه ﷺ أخصّ خواصّ اللّه وأشدّهم طاعة له ولذا كذّبه مؤكّداً بالقسم، وإن كان إكراماً له فمن المعلوم أنّ الشيء إذا كان عدمه إكراماً وكمالاً كان وجوده نقصاً وإهانة فكان وجود الدنيا في حقّ غيره وإزوائها عنه مع قرب منزلته إهانة لذلك الغير وذلك يستلزم حقارتها والنفرة عنها.

ثمّ عاد إلى الأمر بالتأسّي به في ترك الدنيا تأكيداً لما سبق بعد بيان وجوه التأسّي وهو أمر في صورة الخبر مع زيادة تنبيه على أنّ الميل إليها محلّ الهلكة فقال:

[**فتأسّى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه**] أي: دخل فيما دخل فيه وخرج ممّا خرج منه.

[**وإلاّ فلا يأمن الهلكة**] لأنّ اللّه تعالى أخرجه من الدنيا بهذه الأحوال المستلزمة للنفار عنها والبغض منها فلو لم يكن الركون إليها وارتكاب أضداد هذه الأحوال مظنّة الهلكة لما نفر النبي عنها ولم يركن إليها لكنّه نفر عنها فكانت مظنّة الهلكة، فوجب التأسّي به في نفاره عنها، وقد أشار إلى هذا بقوله:

[**فإنّ اللّه تعالى جعل محمداً صلّى اللّه عليه وآله علماً للساعة**] أي: أمارة على قربها، وروي علماً للساعة بكسر العين مجازاً إطلاقاً لاسم

ومبشّراً بالجنّة ومنذراً بالعقوبة خرج من الدنيا خميصاً ورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها عنك فقلت: اعزب عنّي فعند الصباح يُحمدُ القوم السُّرى

السبب على المسبّب إذ هو ﷺ سبب للعلم بالساعة.

[**ومبشّراً بالجنّة**] للمؤمنين، [**ومنذراً بالعقوبة**] للكافرين، [**خرج من الدنيا خميصاً**] لم يشبع من خبز الشعير قط وشدّ حجر المجاعة على بطنه [**ورد الآخرة سليماً**] من التلوّث بالدنيا [**لم يضع حجراً على حجر**] كناية عن أنّه لم يبن بناء.

[**حتّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه**] أي: نقتفي أثره.

ثمّ أردف ذلك ببعض أحواله التي تأسّى به ﷺ فيها فقال: [**واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها**] أي: تلقيها [**عنك فقلت: اعزب**] أي: ابعد [**عنّي فعند الصباح يُحمدُ القوم السُّرى**] مثل يضرب لمتحمّل المشقّة ليصل إلى الراحة وأصله أنّ القوم يسيرون في اللّيل ويذيقون أنفسهم ألم السهر والتعب ويحمدون ذلك بقرب المنزل إذا أصبحوا أو مطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لإعراضها عنه واتصالها بالملأ الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة، وزشراق نور العالم العلوي عليها التي عنده تحمد عواقب الصبر على مكاره الدنيا وترك لذّاتها ومعافاة شدائدها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها.

اتبعته بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي أسرته خير أسرة وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة

وروي أنّه ﷺ سُئل لِمَ رفعت قميصك فقال: يخشع لها القلب ويقتدي بها المؤمنون، وعن أبي النور قال: جائني عليّ إلى السوق ومعه غلام له وهو خليفة، فاشترى منّي قميصين وقال لغلامه اختر أيّهما شئت فأخذ أحدهما وأخذ عليّ الآخر ولبسه ومدّ يده فوجد كمّه فاضلة فقال اقطع الفاضل، فقطعه ثمّ كفّه وذهب.

وروي أنّه لمّا أرسل عثمان إلي عليّ وجدوه مؤتزراً بعباة محتجراً بعقال وهو يهنأ بعيراً له أي: يمسحه بالقطران وهو الهنا.

ومن خطبة له عليه السلام
في وصف النبي ﷺ

[**اتبعته بالنور المضيء**] أي: بالدين أو بالقرآن، استعار النور لهدى النبوّة [**والبرهان الجلي**] وهي المعجزات والآيات الموضحة لنبوّته [**والمنهاج البادي**] وهو شريعته ودينه الواضح.

[**والكتاب الهادي**] أي: القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

[**أُسرته خير أُسرة**] أي: أهله خير أهل.

[**وشجرته خير شجرة**] استعار الشجرة لأصله وظاهر كون قريش أفضل العرب وبني هاشم أفضل قريش وأهل بيته أفضل بني هاشم.

[**أغصانها معتدلة**] استعار الأغصان لأشخاص بيته كعليّ وزوجته

وثمارها منهدلة مولدة بمكّة وهجرته بطيبة علا بها ذكره وامتدّ منها صوته أرسله بحجّة كافية وموعظة شافية ودعوته متلافية أظهر به الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبيّن به الأحكام المفصولة فمن يبتغ

وأعمامه واخوته واعتدالهم كناية عن تقاربهم في الفضل والشرف.

[وثمارها] استعارة لفضائلهم العلميّة والعمليّة **[منهدلة]** كناية عن ظهورها وكثرتها وسهولة الانتفاع بها **[مولدة بمكّة]** المشرّفة زادها اللّه شرفا.

[وهجرته بطيبة] أي: المدينة، وكان اسمها يثرب فسمّها ﷺ طيبة وسمّاها يزيد بن معاوية خبيثة مراغمة لرسول اللّه ﷺ وإنّماكان في معرض المدح لشرف مكّة بالبيت العتيق وشرف المدينة بأهلها حيث آووه ونصروه حين هاجر إليه، **[علا بها ذكره]** لأنّه إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة.

[وامتدّ منها صوته] كناية عن انتشار دعوته، **[أرسله بحجّة كافية]** كناية عمّا جاء به من الآيات التي قهر بها أعداء اللّه **[وموعظة شافية]** ما اشتمل عليه القرآن العظيم والسنّة الكريمة من الوعد والوعيد وضرب الأمثال والتذكير بالقرون الماضية والأمم الخالية إلى غير ذلك مما فيه شفاء للقلوب من أدواء الجهل.

[ودعوته متلافية] أي: تتلافى ما فسد في الجاهلية من أديان البشر ويستدرك بها ما فسد من نظام الخلق واسودّ من ألواح نفوسهم.

[أظهر به الشرائع المجهولة] أي: طريق دينه وقوانين شريعته التي لم يكن يهتدى إليها إلاّ بظهوره **[وقمع به البدع المدخولة]** ما كان عليه أهل الجاهلية من الآثام والإفساد في الأرض، **[وبيّن به الأحكام المفصولة]** أي: ما فصّله وبيّنه لنا من أحكام دين الإسلام ومنها الحلال والحرام، **[فمن يبتغ**

غير الإسلام ديناً وتحقّق بشقوته وتنفصم عروته وتعظم كبوته ويكن مآبه وأتوكّل على اللّه توكّل الإنابة إليه وأسترشده السبيل المؤدّية إلى جنّته القاصدة إلى محلّ رغبته أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وطاعته فإنّها النجاة غداً والنجاة أبداً رهّب فأبلغ ورغّب فأسبغ

غير الإسلام ديناً] ضلّ عن الطريق القويم والصراط المستقيم، **[وتحقّق بشقوته]** في الدارين.

[وتنفصم عروته] من الجانبين أي: ينقطع متمسّك النجاة في يده **[وتعظم كبوته]** مصدر كبا الجواد: إذا عثر فوقع إلى الأرض.

[ويكن مآبه] ومرجعه [إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيلخ أي: ذو الوبال وهو الهلاك **[وأتوكّل على اللّه توكّل الإنابة إليه]** والإنابة: الرجوع، أي: الملتفت بقلبه عن غيره المسلم لجميع أموره إليه **[وأسترشده السبيل]** أي: أسأله الإرشاد إلى سبيله **[المؤدّية إلى جنّته القاصدة إلى محلّ رغبته]** التي هي محلّ الرغبة إليه وموقع الزلفة لديه.

ثمّ عقّب ذلك بالموعظة فقال: **[أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وطاعته فإنّها النجاة غداً]** أي: في القيامة، وإطلاق النجاة عليها مجاز من إطلاق المسبب على السبب لكونها معدّة لإفاضة النجاة من عذاب يوم القيامة وقيل النجاة الناقة التي ينحى عليها فاستعار لفظها للطاعة لأنّها كالمطيّة ينحو بها المطيع من العطب.

[والنجاة أبداً] أي: محلّ النجاة دائماً **[رهّب]** أي: اللّه سبحانه وتعالى.

[فأبلغ] في ترهيبه ووعيده **[ورغّب]** في طاعته وجنّته **[فأسبغ]**

ووصف لكم الدنيا وانقطاعها وزوالها وانتقالها فأعرضوا عمّا يعجبكم منها لقلّة ما يصحبكم منها أقرب دار من سخط اللّه وأبعدها من طاعة اللّه فغضّوا عنكم عباد اللّه غمومها وأشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرّف حالاتها فاحذروها حذار الشفيق الناصح والمجد الكادح واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم

الترغيب وأتمّه ببيان مصالحه ومنافعه والجذب إليه والإقبال عليه.

[**ووصف لكم الدنيا**] بالأوصاف الموجبة للرغبة عنها [**وانقطاعها وزوالها وانتقالها فأعرضوا**] بقلوبكم [**عمّا يعجبكم منها لقلّة ما يصحبكم منها**] وإنّما عبّر بقلّته ولم يعبّر بعدمه لأنّ السالكين لابدّ أن يستصحبوا منها شيئاً ولو قليلاً ويحتمل أن يريد بالقليل الكفر ونحوه.

[**أقرب دار من سخط اللّه**] كما قال النبي ﷺ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة [**وأبعدها من طاعة اللّه**] لأنّ الميل فيها إلى اللهو واللعب والاستمتاع والاستمتاع بزينتها المستلزم لسخط اللّه أغلب من الانتفاع بها في سلوك سبيل اللّه.

[**فغضّوا عنكم عباد اللّه غمومها وأشغالها**] أي: كفّوا عن أنفسم الغمّ لأجلها والاشتغال بها، [**لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرّف حالاتها**] من حال إلى حال، والغم إنّما ينبغي أن يوجّه نحو ما يبقى.

[**فاحذروها حذار الشفيق**] على نفسه [**الناصح والمجد الكادح**] المجدّ في السعي والعمل.

[**واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم**]

وزالت أسماعهم وأبصارهم وذهب شرفهم وعزّهم وانقطع سرورهم ونعيمهم فبدّلوا بقرب الأولاد بعدها وبصحبة الأزواج مفارقتها لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتجاورون فاحذروا عباد اللّه حذر الغالب لنفسه الناظر بعقله فإنّ الأمر واضح والعلم قائم والطريق إلى اللّه جدد والسبيل قاصد.

أي: أعضائهم [**وزالت أسماعهم وأبصارهم وذهب شرفهم وعزّهم وانقطع سرورهم ونعيمهم فبدّلوا بقرب الأولاد بعدها وبصحبة الأزواج مفارقتها لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتجاورون**] المحاورة: المخاطبة والمناجاة، وفي رواية بالجيم.

[**فاحذروا عباد اللّه**] هذه الدنيا الغدّارة والنفس الأمّارة، [**حذر الغالب لنفسه**] الأمّارة بالسوء المستعبد لها بالانقياد إلى عقله، [**الناظر بعقله**] مقابح شهوته المانع لها عن العود إلى حدّ الإفراط من فضيلة العفّة [**فإنّ الأمر واضح**] أي: أمر الدنيا والآخرة في غاية الوضوح لمن اعتبر حالهم، [**والعلم**] أي: علم الشريعة الهادي إلى الحقّ [**قائم والطريق إلى اللّه جدد**] واضح سهل مستقيم، [**والسبيل**] إلى رضوانه وجنانه [**قاصد**] معتدل فلا يكن أمركم عليكم غمّة.

وقد سأله بعض أصحابه كيف دفعكم قومكم عن هذا الأمر وأنتم أحقّ به فقال ﷺ: ياأخا بني أسد إنّك لقلق الوضين ترسل في غير سدد ولك ذمامة الطهر وقد استعلمت فاعلم أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام نحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرسول نوطاً

ومن كلام له عليه السلام

[**وقد سأله بعض أصحابه كيف دفعكم قومكم عن هذا الأمر وأنتم أحقّ به فقال ﷺ: يا أخا بني أسد إنّك لقلق الوضين**] الوضين: بطان القتب وحرام السرج، والقلق: الاضطراب، يقال للرجل المضطرب في أُمور إنّه لقلق الوضين.

[**ترسل في غير سدد**] أي: تتكلّم في غير قصد ولا صوب، والسدد والسداد: الاستقامة والصواب، والسديد: الذي يصيب السدّد [**ولك ذمامة الطهر**] الذمامة بالكسر: الحرمة، ويروى ماته الطهر أي: وسيلته وهي الصاهرة لأنّ زينب بنت جحش زوجة رسول اللّه ﷺ كانت أسديّة وأُمّها اميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم فهي بنت عمة رسول اللّه ﷺ.

[**وقد استعلمت فاعلم**] أدّب السائل أوّلاً بكونه قلق البطين لكون سؤاله عمّا لا يعنيه أو في غير موضعه، والوضين إذا قلق اضطرب القتب فلم يثبت فطابق حال من لا يثبت في مقاله وحركاته وأكّده وترسل في غير سداد تمّ أجابه لحقّ المصاهرة والاسترشاد فقال:

[**أمّا الاستبداد**] أي: التفرّد والاستئثار [**علينا بهذا المقام**] أي: مقام الخلافة والإمرة، والحال إنّا [**نحن الأعلون نسباً والأشدّون بالرسول نوطاً**]

فإنّها كانت أثرة وشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين والحكم للّه والمعود إليه القيامة ودع عنك نهباً صيح في حجراته

أي: تعلّقاً [**فإنّها**] الضمير يعود إلى معنى الأثرة في الاستبداد.

[**كانت أثرة**] الأثرة بالتحريك: الاستبداد والاستئثار.

[**وشحّت عليها نفوس قوم**] يوم السقيفة ويوم الشورى، [**وسخت عنها نفوس آخرين**] أشار إلى نفسه ﷺ، فالطالب للاستبداد موجود والمانع مفقود إذ لم ننازع فيها لعدم الناصر والمعين أو حزناً على هتك حرمة الإسلام [**والحكم للّه والمعود إليه**] أي: مرجع العباد إليه الظالم والمظلوم [**القيامة**] وهو تظلّم وتشكّي منه عليه السلام والمعود مبتدأ خبره القيامة.

[**ودع عنك نهباً صيح في حجراته**] البيت لامرء القيس وأصله أنّه تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه، فنزل على رجل من جذيلة طي يقال له ظريف، فأحسن جواره فمدحه وأقام معه، ثمّ إنّه خاف ان لا يكون له منعه فتحوّل عنه ونزل على خالد بن أصمع النبهاني، فأغارت بنو جذيلة عليه وهو في جوار خالد فذهبوا بإبله، فلمّا أتاه الخبر ذكر ذلك لخالد فقال له: أعطني رواحلك ألحق عليها فأردّ إليك إبلك، ففعل، فركب خالد في اثر القوم حتّى أدركهم فقال: يا بني جذيلة! أغرتم على إبل جاري، قالوا: ما هو لك بجار، قال: بلى واللّه، وهذه رواحله فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل، فقال امرء القيس القصيدة التي أوّلها:

فدع نهباً صيح في حجرات ولكن حديث ما حديث الرواحل

والنهب هنا ما ينهب وحجراته جوانبه، وحديث الثاني مبتدأ والأوّل خبره، و(ما) للتنكير إذا دخلت على الإسم زادته إبهاماً، أي: دع ذكر الإبل

وهلمّ الخطب في ابن أبي سفيان فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه ولا غرو واللّه فيا له خطباً يستفرغ العجب ويكبر الأود

فإنّه مفهوم ولكن حديث الرواحل حديث ما أي حديث منهم لا ندري كيف هو وذلك أنّه قيل إنّ خالداً هو الذي ذهب بالرواحل فكان عنده لبس في أمرها ووجه الاستشهاد بالشطر الأوّل أنّ السابقين من الخلفاء وإن استبدّوا بالخلافة فربّما كان لهم عذر من القدم في الإسلام والهجرة وقرب المنزلة فدع ذكرهم وهات ما نحن فيه الآن من خطب معاوية بن أبي سفيان كما قال:

[**وهلمّ**] أي: هات ذكر [**الخطب**] والخطب: الحادث الجليل، [**في ابن أبي سفيان**] حيث صار منازعاً له ومحارباً في الخلافة بحيث يكون مقابلاً ونداً له، ولم يزل عدواً للّه ولرسوله محارباً للإسلام والمسلمين معانداً لربّ العالمين.

[**فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه**] من تصرّف الدهر وتقلّبه، حيث جعل معاوية نظيراً له، ويقال: عليّ ومعاوية!!

[**ولا غرو**] أي: لا عجب، [**واللّه**] ثمّ فسّر ذلك فقال: [**فيا له خطباً يستفرغ العجب**] أي: يستنفذه ويفنيه حتّى صار كلا عجب.

[**ويكبر الأود**] أي: العوج، ويحتمل أن يكون قوله: ولا غرو واللّه، أي: إذا نظر الإنسان إلى حقيقة الدنيا وتصرّف أحوالها ويكون قوله: فياله، استئناف لاستعظام هذا الأمر وكونه كثير الاعوجاج ظاهر، فإنّ كلّ أمر بعُد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً.

حاول القوم إطفاء نور اللّه من مصباحه وسدّ فوّارة ينبوعه وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً فإن ترتفع عنّا وعنهم محن البلوى أحملهم من الحقّ على محضه وإن تكن الأُخرى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ اللّه عليم بما يصنعون

وقوله: [**حاول القوم إطفاء نور اللّه من مصباحه**] يعني بالقوم هذا قريشاً، ومصباح أنوار اللّه استعارة لخاصّة الرسول ﷺ من أهل بيته وكذا قوله: [**وسدّ فوّارة ينبوعه**] استعارة لهم باعتبار كونهم معادن العلوم الربّانية التي فيها حياة الأرواح والقلوب، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، أي: حاولوا إزالة هذا الأمر عن مستقرّه ومعدنه الأحقّ به وهو بيت الرسول ﷺ.

[**وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً**] الجدح بالجيم بعدها الحاء: الخلط والتخويض والتكدير، والشرب بالكسر: الحظّ من الماء والولي ذو الوباء المرض، استعارض لفظ الشرب الولي لذلك الأمر، ولفظ الجدح للكدر الواقع بينهم والمجاذبة لهذا الأمر، واستعار وصف الولي له باعتبار كونه سبب الهلاك والقتل بينهم.

[**فإن ترتفع عنّا وعنهم محن البلوى**] أي: يجتمعوا عليّ ويرتفع ما ابتلينا به من هذه المحن، [**أحملهم من الحقّ على محضه وإن تكن الأُخرى**] وأبوا إلّا ما هم عليه [**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ اللّه عليهم بما يصنعون**] اقتبس الآية المشتملة على تأديب نفسه وتوطينها على ترك الأسف عليهم إن لم يؤمنوا وعلى تهديدهم ووعيدهم باطلاع اللّه على أعمالهم السيّئة.

أقول: يعجبني نقل كلام بن أبي الحديد في الشرح، قال ما ملخّصه:

....

سألت أباجعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة وقت قرائتي عليه هذا الكلام، وكان على ما يذهب عليه من المذاهب العلويّة منصفاً وافر العقل، فقلت له: من يعني بقوله: (كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم) ومن القوم الذين عناهم الأسدي؟ وهل المراد يوم الشورى ويوم السقيفة، وقلت: إنّ نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان الرسول ﷺ ودفع النصّ، فقال: وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول ﷺ إلى إهمال أمر الأمّة وأن يترك الناس سُدى مهملين وقد كان لا يغيب عن المدينة إلاّ ويؤمّر عليها أميراً وهو حيّ ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت ولا يقدر على استدراك ما يحدث، ثمّ قال: ليس يشكّ أحداً من الناس أنّ رسول اللّه ﷺ كان عاقلاً كامل العقل، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم، وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة سديد الرأي أقام ملّة وشرع شريعة واستجدّ ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثارات ولو بعد الأزمان المتطاولة ولو من العشائر والقبال والأولاد والأحفاد، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل وتر العرب سيّما قريش وساعده على سفك الدماء وإزهاق الأنفس ابن عمّه وهو يعلم أنّه يموت ويتركه بعده وعنده ابنته وولداه ثمرتا كبده ونورا عينه ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه فيحقن دمه، الا يعلم هذا العاقل الكامل أنّه إذا تركه وبنيه وأهله سوقه ورعيته فقد عرّض دمائهم للإراقة بعده وكانوا مضغة للآكل وفريسة للمفترس، يتخطّفهم الناس، وإذا جعل السلطان فيهم والأمر إليهم فقد حقن دمائهم،

....

افترى ذهب عن رسول اللّه ﷺ هذا المعنى؟! أم أحبّ أن يستأصل أهله وذرّيته من بعده؟! فقلت له: أحسنت فيما قلت: إلاّ أنّ لفظه ﷺ يدلّ على أنّه لم يكن نصّ عليه، الا تراه يقول: ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول اللّه ﷺ نوطاً، فجعل الاحتجاج بالنسب وشدّة القرب، فلو كان عليه نصّ لقال عوض ذلك فأنا المنصوص عليّ المخطوب باسمي.

فقال (رحمه اللّه): إنّه إنّما أتاه من حيث يعلم لا من حيث يجهل، الا ترى إنّه سأله فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به، فهو إنّما سأل دفعهم عنه وهم أحقّ به من جهة اللحمة والغيرة ولم يكن الأسدي يتصوّر النصّ ولا يعتقده ولا يخطر له ببال، لأنّه لو كان هذا في نفسه لقال له: لم دفعك الناس وقد نصّ عليك رسول اللّه ﷺ، فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذي تعلّق به الأسدي بعينه تمهيداً للجواب.

فقال: إنّما فعلوا ذلك مع أنا أقرب إلى رسول اللّه ﷺ، لأنّهم استأثروا علينا ولو قال له أنا المنصوص عليه المخطوب باسمه في حياة رسول اللّه ﷺ لما كان قد أجابه، لأنّه لم يسأله هل أنت منصوص عليك وإنّما قال له: لمَ دفعكم قومكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه، فأجابه بما يطابق سؤاله وأيضاً فلو أخذ يصرّح له بالنصّ ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لتنفّر عنه واتّهمه ولم يقبل قوله ولم ينجذب إلى تصديقه، إنتهى.

الحمد للّه خالق العباد وساطح المهاد ومسيل الوهاد ومخصب النجاد ليس لأوّليته ابتداء ولا لأزليّته انقضاء هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل خرّت له الجباه ووحّدته الشفاه حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه خالق العباد**] قيل فيه إشارة إلى كونه مبدء لجميع الموجودات وبيانه أنّ لفظ العباد مشتمل على من في السموات ومن في الأرض لقوله ﴿إن كلّ من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً﴾ ويدخل في ذلك الأجسام الفلكية لكونها أجساماً للملائكة [**وساطح المهاد**] الساطح: الباسط، والمهاد: الأرض، إشارةً إلى خلق الأرض وجعلها مهاداً، قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾.

[**ومسيل الوهاد**] جمع وهدة: وهو المكان المطمئن، ومسيلها: مجرى السيل فيها، [**ومخصب النجاد**] أي: مروضها وجاعلها ذوات خصب، [**ليس لأوّليته ابتداء**] أي: لا حدّ لكونه أوّلاً للأشياء تقف عنده أوّليته وينتهي به وإلاّ لكان محدثاً فكان ممكناً فلم يكن واجب الوجود.

[**ولا لأزليّته انقضاء**] أي: لا غاية ينتهي عندها وتنقضي وإلاّ لقبل العدم فلم يكن واجب الوجود [**هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل**] تأكيد للمعنيين السابقين بعد النفي بعبارة الإثبات.

[**خرّت له الجباه ووحّدته الشفاه**] إشارة إلى كمال إلوهيّته واستحقاقه للعبادة [**حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها**] أي: جعل المخلوقات

لا تقدره الأوهام والعقول بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات لا يقال له متى ولا يضرب له أمد بحتّى الظاهر لا يقال ممّا والباطن لا يقالة فيما لا شبح فيُتقصّى ولا محجوب فيُحوى لم يقرب من الأشياء بالتصاق

ذوات حدود لتتميز عنها إذ لا حدّ لها فإنّه هو الخالق للحدود فكيف يكون محدود.

[**لا تقدره الأوهام والعقول بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات**] فكلّ وهم قدره بحدّ أو حركة أو جارحة أو أداة كما هو مقتضى الوهم في إدراكه لمدركاته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً عن تصوّره، والأدوات جمع أداة: وهي ما يعتمد به.

[**لا يقال له متى**] لتنزّهه عن لحوق الزمان فلا يسئل عنه بمتى، [**ولا يضرب له أمد بحتّى**] لأنّها غاية الزمان.

[**الظاهر لا يقال ممّا**] أي: هو الظاهر غاية الظهور، كما قال عليه السلام: «لقد ظهرت في كلّ شيء فما جهلك شيء» ومع غاية ظهوره لا مادّة ولا أصل يستفاد منه، فلا يقال ممّا هو موجود، [**والباطن**] الذي خفي إدراك كنهه وحقيقته على العقول والأفهام أو الذي استبطن الأُمور أدرك دقيقها وغائبها مع غاية بطونه وخفائه لا حيز له فحينئذ [**لا يقالة**] فيه [**فيما**] أي: فيما ذا بطن وخفي كما في سائر الخفيات من الأجسام والجسمانيات [**لا شبح فيُتقصّى**] أي: ليس بشخص فيلحقه التغيّر والانقضاء [**ولا محجوب فيُحوى**] أي: فيحويه الحجاب، إذ ذلك من لوازم الأجسام التي تنزّه سبحانه وتعالى عنها [**لم يقرب من الأشياء بالتصاق**] بل بقربه باعتبار علمه وإحاطته

ولم يبعد عنها بافتراق لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ولا كرور لفظة ولا ازدلاف ربوة ولا انبساط خطوة في ليل داج ولا غسق ساج يتفيّأ عليه القمر المنير وتعقبه الشمس ذات النور من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر قبل كلّ غاية ومدّة وكلّ إحصاء وعدّة

بجميع الأشياء كإحاطة القريب.

[**ولم يبعد عنها بافتراق**] مكاني عنها بل بعده عنها بعدم المشابهة بينه وبينها وعدم إدراك كنهه وحقيقته والالتصاق والافتراق من لواحق الأجسام التي تنزّه سبحانه عنه.

[**لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة**] كناية عن إحاطة علمه بكلّ المعلومات وشخوص اللّحظة مدّ البصر بلا حركة جفن [**ولا كرور لفظة**] أي: رجوعها.

[**ولا ازدلاف ربوة**] أي: تقدّمها، وأراد الربوة المتقدّمة، أي: في النظر والبادية عند مدّ العين فإنّ الربى أقلّ ما يقع في العين من الأرض [**ولا انبساط خطوة في ليل داج**] أي: مظلم [**ولا غسق**] أي: ليل [**ساج**] أي: ساكن [**يتفيّأ عليه القمر المنير**] الضمير في عليه للغسق [**وتعقبه الشمس ذات النور**] أي: تتعقبه، فحذفت إحدى التائين وروي يعقبه والضمير المنصوب فيه للقمر وتضيّؤ القمر ذهابه ومجيئه حالتي أخذه في التزيّد وأخذه في النقصان إلى المحاق.

وقوله: [**من إقبال ليل مقبل**] متعلّق بتعقّب [**وإدبار نهار مدبر**] يعني إنّ الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أُفوله ويطلع عند أُفولها [**قبل كلّ غاية ومدّة وكلّ إحصاء وعدّة**] لأنّه تعالى خالق الكلّ ومبدئه فوجب تقدّمه وقبليّته.

تعالى عمّا ينحله المحدِّدون من صفات الاقدار ونهايات الاقطار وتأثُّل المساكن وتمكّن الأماكن فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب لم يخلق الأشياء من أُصول أزليّة ولا من أوائل أبديّة بل خلق فاقام حدّه وصوّر ما صوّر فأحسن صورته ليس لشيء منه امتناع ولا له بطاعة شيء انتفاع

[**تعالى عمّا ينحله المحدِّدون**] أي: تنزّه وتقدّس عمّا تصفه المشبّهة المتّبعون لحكم اوهامهم [**من صفات الاقدار ونهايات الأقطار**] أي: المقادير والنهايات والجوانب، [**وتأثُّل المساكن**] يقال: بيت مؤثل ومجد مؤثل أي: أصيل قديم.

[**وتمكّن الأماكن**] أي: الاستقرار فيها، [**فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب**] وهو تعالى منزّه عنها مقدّس عن شبهها ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [**لم يخلق الأشياء من أُصول أزليّة ولا من أوائل أبديّة**] أي: أوّلية سابقة، أي: انّه لم يخلق ما خلق على مثال سبق يكون أصلاً لا أوّل له حذا حذوه، وقيل المراد ليس لما خلق أصل أزلي أبدي خلق منه من مادة وصورة كما زعمت الفلاسفة وفي رواية ابديّة أي: دائمة [**بل خلق**] ما خلق [**فاقام حدّه**] أي: بل هو المخترع لإقامة حدوده وهي ما له من المقادير والأشكال والنهايات والآجال والغاية على وفق الحكمة والمصلحة وكذا قوله: [**وصوّر ما صوّر فأحسن صورته**] أي: اتى به على وجه الإحكام والإتقان.

[**ليس لشيء منه امتناع**] إشارة إلى كمال قدرته، [**ولا له بطاعة شيء انتفاع**] إشارة إلى كونه الغني المطلق عن العالمين لأنّ الانتفاع من لوازم

علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين وعلمه بما في السموات العُلى كعلمه بما في الأرضين السُّفلى أيّها المخلوق السويّ والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار

الحاجة الممتنعة عليه.

[**علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين وعلمه بما في السموات العُلى كعلمه بما في الأرضين السُّفلى**] إشارة إلى إحاطة علمه وأنّه غير مستفاد من غيره لا لمحبّة تغيّر وتجدّد فلا يتحدّد له علم لم يكن بل علمه تعالى أزليّ أبديّ تامّ لا يلحقه نقصان نسبة جميع الممكنات إليه على حدّ سواء كما مرّ تحقيقه.

ومنها

[**أيّها المخلوق السويّ**] المستوي الخلقة غير ناقصها، قال تعالى: ﴿فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾.

[**والمنشأ المرعي**] أي: أنشأ وخلق وأوجد، والمرعي المحوط المحفوظ، ونبّه بكونه سويّاً مرعياً على وجود خالقه الحكيم اللّطيف.

[**في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار**] ستر الرحم وستر المشيمة وستر البطن، قيل الرحم موضوعة بين المثانة والوعاء المستقيم وهي مربوطة برباطات على هيئة السلسلة وجسمها عصبي لتمكّن امتدادها واتساعها وقت الحاجة إلى ذلك عند الولادة وينضمّ ويتقلّص إذا استغنى عن ذلك ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد وزائدتان تسمّى قرني الرحم وخلف هاتين الزائدتين بيضتا المرأة وهما أصغر من بيضتي الرجل أشدّ تفرطعاً منها مصبّ مني المرأة إلى تجويف الرحم، والرحم رقبته منتهية في فرج المرأة، وتلك

بدأت من سلالة من طين ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم وأجل مقسوم تمور في بطن أمّك جنيناً لا يحتر دعاء ولا تسمع نداء ثمّ أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها

الرقبة من المرأة بمنزلة الذكر من الرجل، فإذا امتزج مني الرجل بمني المرأة في تجويف الرحم كان العلوق، ثمّ ينمو ويزيد من دم الطمث ويتصل بالجنين عروق تأتي إلى الرحم فتغذره حتّى يتمّ ويكمل فإذا تمّ لم يكتف بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركات قويّة طلباً للغذاء فيهتك أربطة الرحم التي على هيئة السلسلة ويكون منها الولادة.

[**بدأت من سلالة من طين**] أي: كان ابتداء خلقك من سلالة وهي خلاصة الدين لأنّها سُلّت من الكدر، [**ووضعت في قرار مكين**] كأنّ الفقرة الأُولى لآدم أصل البشر، والثانية لذرّيته، والقرار المكين: الرحم، مكنت في موضعها برباطاتها لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العلوق.

وقوله: [**إلى قدر معلوم وأجل مقسوم**] متعلّق بمحذوف أي: منتهياً إلى قدر معلوم في الطول والشكل ومدّة حياته إلى أجل مقسوم [**تمور**] أي: تتحرّك [**في بطن أُمّك**] حال كونك [**جنيناً لا يحتر دعاء**] أي: لا ترجع جواباً، من أحار يحير.

[**ولا تسمع نداء ثمّ أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدها**] يعني الدنيا.

[**ولم تعرف سبل منافعها**] ويقال أشبه الشيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التي بعد الموت انتقال الجنين من ظلمة الرحم إلى فضاء الدنيا فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلّا الدار التي هو فيها

فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أُمّك وعرّفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك هيهات أنّ من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز

ولا يشعر بما ورائها ولا يحسّ بنفسه إلّا وقد حصل في دار لا يعرفها ولا يخطر بباله فبقى هو كالحائر المبهوت وهكذا حالنا في الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت والغرض من ذكر تقليبه في حالاته وأطوار خلقته التنبيه على وجوب خالقه ووجود صانعه ولذا قال:

[فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أُمّك وعرّفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك] أي: أعلمك بموضع الحكمة عند طلبك الرضاع فالتقمتها بفمك ومن الذي هداك لمصّ الحليب من الثدي بمقدار الحاجة فإذا اكتفيت أعرضت، ومن الذي أحال دم الحيض لبناً لطيفاً شائغاً للشاربين ومن الذي خلق لك هذا الثدي كالدلو المدلى على هذا الطرز العجيب والنمط الغريب وجعله متعدداً ليكون واحد طعاماً والآخر شراباً ومن الذي جعل هذه الحلمة الموافقة لفم الصبي في الثدي وجعلت تنضح كلّما مصّحها ولو كانت مثوبة تجري لاختنق الطفل، إلى غير ذلك من الحكم التي لا تحصى والعجائب التي لا تستقصى.

[هيهات أنّ من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز] أي: بعد أن يحيط علماً بالخالق من يعجز عن معرفة المخلوق ما للتراب وربّ الأرباب وأنّى للإنسان المخلوق من ماء مهين وإدراك سبحات جلال ربّ العالمين وهذا أحد المعاني في قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

ومن تناوله بحدود المخلوقين فقد أبعد لمّا اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان فقام فدخل عليه فقال: إنّ الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه إنّك لتعلم ما تعلم فقال ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فتبلغكه وقد رأيت كما رأينا وصحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله كما صحبناه

[**ومن تناوله**] أي: الربّ، [**بحدود المخلوقين**] فقاسه وشبّهه بحدود خلقه وصفاتها [**فقد أبعد**] وأبعد.

ومن كلام له عليه السلام

[**لمّا اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان**] وكرهوه منه من طريقته وأفعاله وسلوكه.

[**فقام فدخل عليه فقال: إنّ الناس ورائي وقد استسفروني**] أي: اتخذوني رسولاً، أي: سفيراً [**بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه إنّك لتعلم ما تعلم**] وهذا حقّ لأنّه عليه السلام لا يعرف أمراً يجهله من هذه الأحداث بل كلّ أحد من الصبيان فضلاً عن العقلاء المصرين يعلمون وجهي الصواب والخطأ.

ثمّ شرع معه في مسلك الملاطفة والقول اللّين لعلّه يتذكّر أو يخشى [**فقال ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فتبلغكه وقد رأيت كما رأينا وصحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله كما صحبناه**] أي: ما

ثمّ خرج إلى ذكر الشيخين فقال: وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحقّ منك وأنت أقرب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وشيجة رحم منهما وقد نلت من صهره ما لم ينالا فاللّه اللّه في نفسك فإنّك واللّه ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإنّ الطرق لواضحة وإنّ أعلام الدِّين لقائمة واعلم أنّ أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل هدي وهدى

سبقناك إلى الصحبة ولا انفردنا بالرسول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك، ولعلّ مراده ﷺ التساوي بالنسبة إلى معرفة هذه الأمور المبدعة المخالفة للكتاب والسنّة.

[**ثمّ خرج إلى ذكر الشيخين فقال: وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحقّ منك**] ثمّ ترقّى إلى كونه خيراً منهما بالإضافة إلى بعض الأمور فقال:

[**وأنت أقرب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وشيجة رحم منهما**] الوشيجة: عروق الشجرة، [**وقد نلت من صهره ما لم ينالا**] يعني إنّك مخصوص بقرب النسب دونهما، يعني كونه من بني عبد مناف وله مع المنافية الصهرية ثمّ بعد ذلك حذّره جانب اللّه تعالى ونبّهه على ما فيه صلاحه ومضاره فقال: [**فاللّه**] أي: احذر اللّه، [**اللّه في نفسك فإنّك واللّه ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل**] كناية عن عدم احتياجه إلى تعليم في هذه الأمور.

[**وإنّ الطرق لواضحة وإنّ أعلام الدِّين لقائمة واعلم أنّ أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل هدي**] بهداية اللّه [**وهدى**] الناس إلى سبيل اللّه.

وأقام سنّة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإنّ السنن لنيّرة لها أعلام وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام وإنّ شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضلّ وضلّ به فأمات سنّة مأخوذة وأحيى بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيُلقى في جهنّم فيدور فيها كما تدور الرحى ثمّ يرتبط في قعرها يا عثمان! وإنّي انشدك اللّه أن تكون إمام هذه الأمّة المقتول فإنّه كان يقال يقتل في هذه الأُمّة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أُمور عليها ويبثّ الفتن فيها فلا يتبصّرون الحقّ من الباطل يموجون فيها موجاً

[وأقام سنّة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإنّ السنن لنيّرة] مضيئة **[لها أعلام]** وهم العلماء العاملون الهداة إليها والأدلاّء عليها **[وإنّ البدع لظاهرة لها أعلام]** وهم علماء السوء وشياطين الجنّ والإنس، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

[وإنّ شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضلّ] عن الطريق السوي **[وضلّ به]** خلق كثير وجمّ غفير، **[فأمات سنّة مأخوذة]** أي: يؤخذ بها **[وأحيى بدعة متروكة، وإنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر]** يعذره.

[فيُلقى في جهنّم فيدور فيها كما تدور الرحى ثمّ يرتبط في قعرها] وفي رواية ثمّ ارتبك في قعرها أي: ثبت.

[يا عثمان! وإنّي انشدك اللّه أن تكون إمام هذه الأُمّة المقتول فإنّه كان يقال يقتل في هذه الأُمّة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أُمور عليها ويبثّ الفتن فيها فلا يتبصّرون الحقّ من الباطل يموجون فيها موجاً

ويمرجون فيها مرجاً بعد جلال السنّ وتقضّي العمر فقال له ماكان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه ابتدعهم خلقاً عجيباً

ويمرجون فيها مرجاً] والظاهر أنّ العبارة بعد قوله يقال إلى هنا أخبر بها النبي ﷺ وبما في معناها وقد حذّره أن يكون هو هذا المقتول الموصوف بهذه الأوصاف.

ثمّ قال: [فلا تكوننّ لمروان سيّقةً يسوقك حيث شاءخ السيّقة بتشديد الياء: ما يسوقه العدوّ في الغارة من الدواب وقد كان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتله بتصريفه إيّاه على حساب آرائه وقوله **[بعد جلال السنّ وتقضّي العمر]** الجلال بالضم: الجليل، الطوال والطويل أي: بعد العمر الطويل **[فقال له]** عثمان كلّم الناس في أن يؤجّلوني حتّى أخرج إليهم من مظالمهم فقال له عليه السلام: **[ماكان بالمدينة فلا أجل فيه]** لأنّ الحاضر لا معنى لتأجيله **[وما غاب فأجله وصول أمرك إليه]** فلا عذر في التأخير بعد بلوغ أمرك لأنّ السلطان لا يؤخّر أمره فلا عذر في تأخير ردّ المال الذي أعطاه أقربائه من بيت مال المسلمين على غير وجهه.

ومن خطبة له عليه السلام
يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس

بعد الثناء على اللّه تعالى والتنبيه على عجائب مصنوعاته:

[ابتدعهم] أي: ابتدع اللّه المخلوقات **[خلقاً عجيباً]** يبهر العقول ويذعن

من حيوان وموات وساكن وذي حركات وأقام من شواهد البيّنات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلّمة له ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته وما ذرء من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض

له أولو المعقول والمنقول، [**من حيوان وموات**] بالفتح وهو ما لا حياة فيه.

[**وساكن**] كالأرض والجبال ونحوها، [**وذي حركات**] كالأفلاك والماء الجاري والحيوان ونحوها.

[**وأقام من شواهد البيّنات**] أي: ما ظهر للعقول من لطائف المخلوقات [**على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلّمة له**] و(ما) مفعول لأقام، والضمير في (له) يرجع إلى ماء في به وله الثانية إلى اللّه، فكلّ ذرّة من ذرّات الموجودات تنادي بلسان الحال والمقال بوجود مبديها ومنشئها ومخترعها وموجدها وبتنزّهه عمّا لا يليق به ﴿وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾

فواعجباً كيف يعصى الإله ... وكيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد

[**ونعقت**] أي: صاحت [**في أسماعنا دلائله على وحدانيته**] أي: دلائله لظهورها كالأصوات المسموعة التي تعلم يقيناً واستعار النعيق لظهور تلك الدلائل في صماخ العقل.

[**وما ذرء**] في محلّ الجر عطف على الضمير المضاف إليه في دلائله أي: نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته ودلائل ما خلق [**من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض**] أي: شقوقها، جمع اخدود

وخروق فجاجها ورواسي أعلامها من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة متصرّفة في زمام التسخير ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج كوّنها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركّبها في حقائق مفاصل محتجبة ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في السماء خفوقاً وجعله يدفّ دفيفاً ونسقها على اختلافها في الأصانيع

كالقطار الصدا.

[**وخروق فجاجها**] جمع فج وهو الطريق بين الجبلين كالقبح [**ورواسي أعلامها**] أي: والتي أسكنها رؤوس الجبال كالعقبان والصقور.

ثمّ شرع بعد بيان اختلاف أمكنتها في وصف اختلافها بالأجنحة في هيئاتها وكيفيّات خلقها، فقال:

[**من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة متصرّفة في زمام التسخير**] أي: هي مسخّرة تحت القدرة الإلهيّة [**ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج كوّنها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركّبها في حقائق مفاصل محتجبة**] حقائق المفاصل جمع حقّ وهو مجمع الفعلين من الأعضاء كالركبة وكنّى باحتجابها عن ستر اللحم والجد إياهم.

[**ومنع بعضها بعبالة خلقه**] العبالة: امتلاء الجسد، وعيالة الحيوان كثافة خلقه [**أن يسمو في السماء خفوقاً**] والخفوق سرعة الحركة.

[**وجعله يدفّ دفيفاً**] والدفيف للطائر طيرانه فوق الأرض وكنّى بذلك عن النعامة ونحوها فإنّها لعظم جثّتها يمتنع سموّها وارتفاعها فجعلت تدفّ على وجه الأرض.

[**ونسقها**] أي: رتبها [**على اختلافها في الأصانيع**] جمع صنع، أي:

بلطيف قدرته ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ فيه ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسجه إذ أدرج إلى الأُنثى نشره من طيّه وسما مظلاً على رأسه كأنّه قلع داري عنجة نوتيُّه

مختلفة الألوان والأصباغ [**بلطيف قدرته ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون**] واحد كالأسود والأحمر [**لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ فيه**] كأن يكون أحمر وعنقه أخضر أو بالعكس كالفاختة ونحوها.

[**ومن أعجبها خلقاً الطاووس**] على وزن فاعول كهاظوم وكابوس [**الذي أقامه في أحكم تعديل ونضد ألوانه**] أي: رتّبها [**في أحسن تنضيد**] مع اشتماله على جميع الألوان [**بجناح أشرج قصبه**] أي: قصب ريش ذنبه وجناحيه وأشرجها ضبط أُصولها بالأعصاب والعظام.

[**وذنب أطال مسجه**] فإنّه طويل السحب [**إذ أدرج إلى الأُنثى**] حال إرادة السفاد [**نشره من طيّه وسما**] أي: علا به [**مظلاً على رأسه**] أي: مرتفعاً عليه [**كأنّه قلع داري**] والقلع شراع السفينة وجمعه قلاع والداري جالب العطر في البحر من داري وهي قرية في البحرين فيها سوق يحمل إليها المسك من الهند فإنّ الطاووس حالة السفاد يبسط ريشه وينشره ثمّ يرفعه وينصبه فيصير كهيئة الشراع المرفوع.

وفي وجه التشبيه زيادة على ذلك أشار إليها بقوله:

[**عنجة نوتيُّه**] والنوتى الملاّح وجمعه نواتى وغنجه عطفه غنجته أغنجه

يختال بألوانه ويميس بزيفانه يفضي كإفضاء الديكة ويؤُرُّ بملاقحة الفحول الغلمة أُحِيلُكَ من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيف إسناده ولو كان كزعم من يزعم أنّه يلقح بدمعة تسفحها مدامعها فتقف في ضفّتي جفونه وأنّ أُنثاه تطعم ذلك ثمّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب

بالضمّ والاسم الفتح بالتحريك أشار بذلك إلى انّ الملاّحين يصرفون الشراع تارة بالجذب وتارة بالإرخاء وتارة بتحويله يميناً وشمالاً وذلك بحسب انصرافهم من بعض الجهات إلى بعض فأشبههم هذا الطائر عند حركته لإرادة السفاد وزيغانه في تعريف ذنبه وتحويله [**يختال**] من الخيلاء وهي العجب [**بألوانه ويميس**] يتبختر [**بزيفانه**] يقال ناقة زيافة أي: مختالة [**يفضي**] أي: يسفد [**كإفضاء الديكة**] جمع ديك كالقرطة والحجرة جمع قرط وحجر.

[**ويؤُرُّ**] أي: يسفد و ـــــ الجماع [**بملاقحة**] أدوات اللقاح وأعضائه وهي آلات التناسل [**الفحول الغلمة**] أي: يسفد كسفاد الفحول ذوات الشبق [**أُحِيلُكَ من ذلك**] أي: إعلامي لك بذلك [**على معاينة**] أي: عن مشاهدة وعيان [**لا كمن يحيل على ضعيف إسناده**] على إسناد عن وسائط قد يضعف ويدخله الطعن.

قوله: [**ولو كان كزعم من يزعم أنّه يلقح بدمعة تسفحها مدامعها فتقف في ضفّتي جفونه**] أي: جانباها [**وأنّ أُنثاه تطعم ذلك ثمّ تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس**] أي: المنفجر [**لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب**] إشارة إلى زعم قوم أنّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين

تخال قصبه مداري من فضّة وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد وإن شبّهته بما أنبتت الأرض قلت جنىً

أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة، وروي تنشجها مدافعه أي: تعضّ بها وتحار فيها وهو عليه السلام لم يحل ذلك وإنّما قال ليس ذلك بأعجب من مطاعمة الغرب والعرب تزعم أنّ الغراب لا يسفد ومن أمثالهم أخفى من سفاد الغراب ويزعمون أنّ اللّقاح من مطاعمة الذكر والأُنثى وإيصال جزء من الماء الذي في قانصته إليها وهو أن يضع كلّ منهما منقاره في منقار صاحبه ويتزاقّا وذلك مقدّمة للسفاد في كثير من الطير كالحمام وغيره.

ثمّ قال عليه السلام: **[تخال قصبه]** قصب ذنبه أو عظام أجنحته **[مداري من فضّة]** جمع مدرى وهو أصل القرن وقيل هي خشبة ذات أطراف كأصابع الكفّ محدّدة الرأس ينقى بها الطعام **[وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد]** داراته: الخطوط المستديرة بقصبه، والعقيان: الذهب، وفلذ جمع فلذة: وهي القطعة، والزبرجد: الزمرّد، شبّه عليه السلام عظام أجنحة الطاووس بمداري من فضّة لبياضها وشبّه الخطوط المستديرة على رؤوس ريش الذنب بخالص العقيان في الصفرة الفاقعة مع ما يعلوها من البريق وما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر بقطع الزبرجد في الخضرة، واستعار لها لفظ الشموس ملاحظة لمشابهتها في الاستدارة والاستنارة.

ثمّ قال عليه السلام **[وإن شبّهته بما أنبتت الأرض قلت جنىً]** فعيل بمعنى المجني

جني من زهرة كلّ ربيع في الأرض وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل أو مونق قصب اليمن وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل يمشي المرح المختال ويتصفّح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصانيع وشاحه

وهو الملتقط.

[**جني من زهرة كلّ ربيع في الأرض**] ووجه الشبه اجتماع ألوانه مع نضارتها وبهجتها [**وإن ضاهيته بالملابس**] أي: شبّهته بها والمضاهاة المشاكلة يهمز ولا يهمز.

[**فهو كموشي الحلل**] أي: ما ولج بالوشي وهو الارقم الملوّن [**أو مونق**] أي: معجب [**قصب اليمن**] هي برود تعمل باليمن ووجه الشبه ما مرّ من اجتماع الألوان مع النضارة والبهجة.

[**وإن شاكلته بالحلي**] وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة ووزنه فعول وقد تكسر الحاء لمكان الياء مثل عصبى وقرىء من حليهم بالضم والكسر [**فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل**] أي: جعلت الفضّة النطاق لها أي: المرصّعة في صفائح الفضّة والمكلّل الذي جعل كالإكليل، وحاصل الكلام أنّه شبّه قصب ريشه بصفائح من فضّة رصّعت بالفصوص المختلفة الألوان فهي كالإكليل بذلك الترصيع.

ثمّ حكى عليه السلام صورة مشيه وصوته فقال: [**يمشي المرح المختال**] المتبختر فخراً وعجباً بجمال كسوته [**ويتصفّح ذنبه وجناحه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصانيع وشاحه**] الوشاح: سير ينسج من أديم ويرصّع بالجواهر فتجعله المرأة على عاتقها إلى كشحها.

فإذا رأى ببصره قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يبين استغاثته بصادق توجّعه لأنّ قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية وقد نجمت من طنوب ساقه صيصية خفيّة وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة ومخرج عنقه كالإبريق

حاصل الكلام أنّه عليه السلام شبّه قصب ريشه بصفائح من فضّة رُصّعت بالفصوص المختلفة الألوان فهي كالإكليل بذلك الترصيع، ثمّ حكى صورة مشيه وصوته كالقهقهة عند نظره إلى حسن سرباله وإعجابه بجمال كسوته ولفظ الضحك والقهقهة والسربال مستعار وكذا حاله في نظره إلى قوائمه كما قال [**فإذا رأى ببصره قوائمه زقا**] أي: صاح وصوّت، يقال: زقا يزوق زقياً وزقاء وكلّ صائح زاق [**معولاً**] أي: صارخاً [**بصوت يكاد يبين استغاثته بصادق توجّعه لأنّ قوائمه حمش**] أي: دقاق وهو أخمش الساقين بالتسكين وقد خمشت قوائمه أي: دقّت [**كقوائم الديكة الخلاسية**] وهي المتولّدة بين الدجاج الهندي والفارسيّ يقول عليه السلام إنّه يزهو بنفسه إذا نظر في أعطافه ورأى ألوانه المختلفة فإذا نظر في ساقيه فإنّه كالمتوجّع من قبح ساقيه ودقّتهما وينقمع بعد تعظّمه ونفحه لنفسه، ووجه تشبيه قوائمه بقوائم الديكة الخلاسيّة الدقّة والطول والتشظّي ونتوء العرقوب.

وقوله: [**وقد نجمت**] أي: ظهرت [**من طنوب ساقه**] الطنوب: جرف الساق وهو العظم اليابس [**صيصية خفيّة**] وهي الفتة التي في مؤخّر رجل الديك وهي في الأصل شوكة الشائك التي يسوي بها السداة واللحمة، ثمّ نقل إلى صيصية الديكة [**وله في موضع العرف**] وهو الشعر المرتفع عن عنقه على رأسه [**قنزعة خضراء**] واحدة القنازع وهي الشعر حوالي الرأس [**موشاة**] أي: ذات وشي [**ومخرج عنقه كالإبريق**]ووجه الشبه الهيئة

ومغـرزها إلى حيث بطنه كضبع الوسـمة اليمانيـة وكحريرة مـلبّسة مرآة ذات صقال وكأنّه متلفّع بمعجر أسحم إلاّ أنّه يخيّل لكثرة مائه وشدّة بريقه الخضرة الناظرة ممتزجة به ومع فتق سمعه خطّ كمستدقّ القلم في لون الاقحوان أبيض يققٌ فـهو بياضه في سواد ما هنالك يتألّق وقلّ صبغ إلاّ وذد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه

المعلومة بالمشاهدة [**ومغرزها**] من رأسه [**إلى حيث بطنه كضبع الوسمة اليمانية**] والوسمة بكسر السين ويجوز تسكينها شجر العظلم معروف يخضب به، ووجه الشبه السواد المشرق.

[**وكحريرة ملبّسة مرآة ذات صقال**] في سرابها ومخالطة بصيص المرآة لها، [**وكأنّه متلفّع**] أي: ملتحف [**بمعجر أسحم**] أي: أسود وهو ما تشدّه المرأة على رأسها كالوداء [**إلاّ أنّه يخيّل لكثرة مائه وشدّة بريقه الخضرة الناظرة ممتزجة به**] ثمّ وصف الخط الأبيض عند محلّ سمعه فقال:

[**ومع فتق سمعه خطّ كمستدقّ القلم في لون الاقحوان**] الأصفر والبوغ الأبيض وجمعه اقاح، [**أبيض يققٌ**] أي: خالص البياض [**فهو بياضه في سواد ما هنالك يتالّق**] أي: يلمع شبّه ذلك الخطّ الأبيض عند سمعه في وقته واستوائه بخطّ القلم الدقيق وفي بياضه بلون الاقحوان، ثمّ أجمل في تعديد الألوان فقال:

[**وقلّ صبغ إلاّ وذد أخذ منه بقسط وعلاه**] أي: وزاد على الصبغ [**بكثرة صقاله وبريقه وبصيص**] أي: بريق ولمعان [**ديباجه ورونقه**] والديباج مستعار لريشه.

فهو كالأزاهير المبثوثة لم تُربِّها أمطار ربيع ولا شموس قيظ وقد يتحسّر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وتنبت تباعاً فينحتُّ من قصبه انحتات أوراق الأغصان ثمّ يتلاحق نامياً حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سائر ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه

ثمّ رجع عليه السلام إلى تشبيه آخر فقال: [**فهو كالأزاهير المبثوثة**] ونبّه على كمال قدرة صانعها بأنّها مع ذلك [**لم تُربِّها أمطار ربيع**] أي: لم تعدّها لتلك الألوان أمطار ربيع [**ولا شموس قيظ**] لأنّه لما خيّل أنّها أزاهير وكان من شأن الأزاهير خلقها بغير مطر ولا شمس.

ثمّ أخذ عليه السلام في الإخبار عن حالة أُخرى هي محلّ الاعتبار في حكمة الصانع وقدرته فقال: [**وقد يتحسّر من ريشه**] أي: ينكشف [**ويعرى من لباسه**] ذلك الحسن الجميل [**فيسقط**] أي: ريشه [**تترى**] أي: شيئاً بعد شيء وبينهما فترة [**وتنبت تباعاً**] أي: لا فترات بينها، أي سقوط ريشه شيئاً بعد شيء أو إنباته مجتمع.

[**فينحتُّ**] أي: يتساقط [**من قصبه انحتات أوراق الأغصان**] أي: تناثر أوراق الأشجار [**ثمّ يتلاحق نامياً**] أي: زائداً [**حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سائر ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه**] أي: إذا سقط ريشه سقط متفرّقاً وينبت جميعاً كلّ ريشة بلونها الأوّل من غير زيادة ولا نقصان حتّى كأنّها هي وشبّهه في سقوطه ونباته بتحاتّ أوراق الأشجار من الأغصان ونباتها.

ثمّ نبّه على وجود حكمة الصانع في الشعرة الواحدة من شعرات ريشه بأنّك إذا تأمّلتها أرتك من سفافتها وشدّة بصيصها تارة حمرة كحمرة الوردة

وإذا تصفّحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجديّة وأحياناً صفرة عسجديّة فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه، فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاّه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلّفاً ملوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته

وتارة خضرة كخضرة الزبرجد وتارة صفرة كصفرة الذهب فقال:

[**وإذا تصفّحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجديّة وأحياناً صفرة عسجديّة**] الزبرجدية منسوبة إلى الزمرّد والعسجد الذهب [**فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن**] أي: الفطن العميقة البعيدة القعر [**أو تبلغه قرائح العقول**] القريحة الخاطر والذهن [**أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه، فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاّه للعيون**] أي: أظهره لها [**فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلّفاً ملوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته**] عقّب عليه السلام تلك الأوصاف البليغة التي وصفها بها الطاووس على ذلك الطرز العجيب والنمط الغريب الذي لم يسبقه إليه سابق ولا يلحقه فيه لاحق باستبعاد وصول الفطن العميقة إلى صفته معترفاً بالعجز عن وصف علل هذه الألوان واختلافها واختصاص كلّ من مواصفها بلون غير الآخر وعلّل هيئاتها وسائر ما عدّده فإنّ أقلّ جزء منه مما تتحيّر الأوهام في درك علّته وتقصر الألسنة عن وصفه ويحتمل أن يريد العجز عن استثبات جزئيات أوصافه الظاهرة وتشريحه فإنّ ما ذكره كان في

وسبحان من أدمج قوائم الذرّة والهمجة ووأى على نفسه أن لا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح إلّا وجعل الحمام موعده والفناء غايته في صفة الجنّة

غاية مرتبة الفصاحة والبلاغة، إلّا أنّ وراء ذلك جزئيات لم يستثبتها الوصف ولذا عقبه بتنزيهه اللّه تعالى باعتبار قهره للعقول عن وصف هذا المخلوق المشاهد المحدود.

[وسبحان من أدمج قوائم الذرّة] أي: أحكمها، يقال: حبل مدمج أي: شديد الفتل، والذرة: النملة الصغيرة **[والهمجة]** واحدة الهمج: ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها.

[إلى ما فوقهما من الحيتان والفيلة **[ووأى على نفسه]** أي: وعد والزم **[أن لا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح إلّا وجعل الحمام]** بكسر الحاء: الموت **[موعده والفناء غايته]** أي: قدّر على كلّ حيّ منها ضرورة الموت.

تتمّة: ذكر الحكماء في الطاووس سرّ أنّه يعيش خمساً وعشرين سنة هي أقصى عمره ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما ينتقش لونه ويتمّ ريشه ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام ويحضنها ثلاثين يوماً ويفرّخ ويلقي ريشه مع سقوط ورق الشجر، وينبت مع ابتداء نبات الورق، والدجاج قد يحضن بيض الطاوس بل يختار لحضانته مع وجود الطاوسة، لأنّ الطاووس الذكر يعبث بالأنثى ويشغلها عن الحضانة وربّما أفقس البيض من تحتها.

ومنها

[في صفة الجنّة] رزقنا اللّه إيّاها ومنّ بها علينا وعلى جميع المؤمنين:

فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لغرقت نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتـها ولذّاتها وزخارف مناظرها أشجار وقـد غُيِّبت عـروقـهـا في كثـبـان المسك على سواحل أنهارهـا وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة والخمور المروّقة قوم لم تزل

[**فلو رميت ببصر قلبك**] أي: لو نظرت بعين بصيرتك [**نحو ما يوصف لك منها**] أي: من الجنّة ونعيمها وحورها ولذّاتها [**لغرقت**] أي: زهدت وانصرفت [**نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتـها ولذّاتها وزخارف مناظرها**] والزخارف جمع زخرف: وهو الذهب وكلّ مموّه.

[ولذهلت بالفكر في اصطفاقخ بالفاء أو القاف أي: انتظام [**أشجار**] صفا أو اضطرابها [**وقد غُيِّبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها**] الكبائس جمع كباسة: وهي العذق، والعساليج: الغصون واحدها عسلوج، وكذا الافنانة جمع فنن.

[**وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها**] جمع كمامة بكسر الكاف وهي غلاف الطلع [**تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها**] أي: لا تترك له منية اصلاً لأنّه يكون قد بلغ نهاية الأماني.

[**ويطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفّقة**] أي: المصفّاة بالتحويل من إناء إلى إناء [**والخمور المروّقة**] أي: المعجبة [**قوم لم تزل**

الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار وآمنوا ثقلة الأسفار فلو شغلت قلبك أيّها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّه وإيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته

الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار وآمنوا ثقلة الأسفار فلو شغلت قلبك أيّها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة] أي: العجيبة، أي: أخذت في إعداد نفسك إلى الوصول إلى ما يفاض عليك من تلك الصور البهيّة المعجبة **[لزهقت نفسك شوقاً إليها]** يقال: زهقت نفسه أي: مات.

[ولتحمّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا اللّه وإيّاكم ممّن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته] واستعار وصف التمادي الذي هو من أفعال العقلاء لتأخّر الكرامة عنهم وانتظارهم لها في الدنيا إلى غاية حلولهم دار القرار وحصول الكرامة لهم هناك وأمنهم من نقلة الأسفار.

ثمّ عقّبه بتشويق المستمع، ثمّ ختم الخطبة بالدعاء لنفسه وللسامعين، وقد تكلّف بعض لتطبيق هذه الأوصاف على الجنّة المعقولة فجعل الأشجار استعارة للملائكة السماوية والاصطفاق ترشيح تلك الاستعارة، وكثبان المسك استعارة للمعارف والكمالات التي لهم من واجب الجود وهم مغمورون فيها قد وجدوا لها ومنها كما تنبت الأشجار في الكثبان.

ولفظ الأنهار استعارة للملائكة المجرّدين عن التعلّق بالأجرام الفلكيّة،

ليتأسّ صغيركم بكبيركم وليرؤف كبيركم بصغيركم ولا تكونوا كجفاة الجاهلية

باعتبار كون هذه الملائكة أصولاً ومبادي للملائكة السماوية، كما أنّ الأنهار ومبادي عدّة لحياة الأشجار وأسباب لوجودها، واللؤلؤ الرطب والثمار استعارة لما يفيض عن تلك الأرواح من العلوم والكمالات على النفوس القابلة لها من غير بخل ولا منع، فهي ثمارها تأتي على منية مجتنها بحسب استعداده لكلّ منها، والقوّة المتخيّلة تحكي تلك الإفاضات في هذه العبارات والظواهر المحسوسة المعدودة وتكسوها صورة ما هو مشتهى للمتخيّل كلّ بحسب شهوته، ولذلك كان في الجنّة كلّما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ويتأهّل لحضوره فيحضرها عند إرادتها إيّاه وكذلك لفظ العسل والخمر استعارة لتلك الإفاضات المشتهيات الملذّة للنفس بحسب محاكاة المتخيّلة لها في صورة هذا المشروب المحسوس المشتهى لبعض النفوس فتصوّره بصورته، وأنت خبير بما في هذه التأويلات من التكلّف والتعسّف.

ومن خطبة له عليه السلام

[**ليتأسّ صغيركم بكبيركم**] لأنّ الكبير أكثر تجربة وعلماً، وأكيس وأحزم فكان بالقدوة أولى [**وليرؤف كبيركم بصغيركم**] لأنّ الصغير مظنّة الضعف وأهل لأن يُرحم ويعذر لقلّة تعقّله للأُمور وبدء بأمر الصغير لأنّه أحوج إلى التأديب والعناية من هذا الأمر انتظام أُمورهم وحصول أُلفتهم بما أمرهم به ولذا قال: [**ولا تكونوا كجفاة الجاهلية**] بأن تتخلّقوا بأخلاقهم في

لا في الدّين يتفقّهون ولا عن اللّه يعقلون كقيض بيض في أداح يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً افترقوا بعد أُلفتهم وتشتّتوا عن أصلهم فمنهم أخذ بغصن أين ما مال مال معه

الجفاء والقسوة.

[**لا في الدّين يتفقّهون ولا عن اللّه يعقلون**] ما يأمرهم به فهم كما قال تعالى: ﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾، [**كقيض بيض في أداح**] قيضك البيضة قشرها الأعلى قيض البيض كسره تقول: قضت البيضة كسرتها، وانقاضت: تصدّعت من غير كسر، والإداح جمع أدحى فعول من الدحو وهو الموضع الذي تفرخ فيه النعامة، شبّههم ببيض الأفاعي في أعشاشها.

وأشار إلى وجه الشبه بقوله: [**يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً**] إن كسرها كاسر ثمّ لتأذي الحيوان به وقيل لأنه يظنّ بيض القطا فيأثم كاسره وإن لم تكسر يخرج حضانها شراً، إذ تخرج أفعى قاتلاً فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهلية لا يحلّ لأحد أذاهم وإهانتم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم وإن أهملوا وتركوا على ما هم عليه من الجهل وقلّة الأدب خرجوا شياطين، واستعار لفظ الأفاعي للأعشاش لأنّ الأداجي لا تكون إلاّ للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها ودحوها توسيعها من دحوت الأرض.

ومنها

[**افترقوا بعد أُلفتهم وتشتّتوا عن أصلهم**] إشارة إلى أصحابه وأصلهم الذي تشتّتوا عنه وافتراقهم إلى خوارج وغيرهم بعد اجتماعهم عليه.

[**فمنهم أخذ بغصن أين ما مال مال معه**] أي: يكون منهم من يتمسّك بمن أخلّفه بعدي من ذرّيتي أينما سلك سلك معه، ومنهم من ليس كذلك

على أنّ اللّه سيجمعهم لشرِّ يوم لبني أُميّة كما تجتمع قزع الخريف يؤلّف اللّه بينهم يؤلّف اللّه بينهم ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السحاب ثمّ يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة ولم يردَّ سننه رصّ طود ولا حداب أرض

واستغنى بالقسم الأوّل لدلالته على الثاني وقوله: [**على أنّ اللّه سيجمعهم**] أي: من كان على عقيدته فينا ومن لم يكن.

[**لشرِّ يوم لبني أُميّة كما تجتمع قزع الخريف يؤلّف اللّه بينهم**] والقزع: قطع السحاب المتفرّقة، شبّه عليه السلام جمعه لهم وتأليفه بينهم تجمعه لقزع السحاب في الخريف، [**يؤلّف اللّه بينهم ثمّ يجعلهم ركاماً كركام السحاب**] وتراكمهم بذلك الجمع كتراكم ذلك القزع ووجه الشبه الاجتماع بعد التفرّق، والركام ما كثف من السحاب، وركمت الشيء أركمه: إذا جمعته وألفت بعضه على بعض.

قال ابن أبي الحديد: وكذا كان، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على أن آلة ملك بني مروان من كان منهم ثابتاً على ولاية عليّ ومن حاد منهم عن ذلك في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشمية.

[**ثمّ يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة ولم يردَّ سننه رصّ طود ولا حداب أرض**] مستثارهم: موضع ثورتهم، والجنتان: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وأبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل﴾ خمط واثل، والقارة: الجبل الصغير، والأكمة: التلعة من الأرض، والسنّة: الطريقة، ورصّ طود أي: طود مرصوص وهو الجبل الشديد التصاق

يذعذهم اللّه في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ويمكّن لقوم في ديار قوم وأيم اللّه ليذوبن ما في أيديهم بعد العلوّ والتمكين كما تذوب الالية على النار

الأجزاء بعضها ببعض، والحداب جمع حدب: ما ارتفع من الأرض، وشبّه عليه السلام سيلان الجيوش إلى بني أميّة بالسيل المسلّط على تينك الجنتين لم تسلم عليه حيل ولم تثبت له أكمة ولا يردّه جبل شديد الالتصاق، ولا ارض مرتفعة، وقيل الأبواب التي يفتحها لهم إشارة إمّا إلى وجوه الآراء التي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع وأعمّ منها كسائر الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك، واستعار لخروجهم لفظ السيل وشبّه بسيل جنتي مأرب وهما جنتا سبأ، ووجه الشبه الشدّة في الخروج وإفساد ما يأتون عليه كقوّة ذلك السيل حيث لم يسلم عليه مترفع من الأرض ولم يرد طريقه وجريه جبل مرصوص، أي: شديد الالتصاق.

ثمّ قال: [**يذعذهم اللّه**] بالذالين المعجمتين وذعذعة السرّ إذاعته.

[**في بطون أوديته ثمّ يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ويمكّن لقوم في ديار قوم**] المراد كما انّ اللّه تعالى ينزل من السماء ماءً فيستكنّ في أعماق الأرض، ثمّ يظهر منها ينابيع أي: ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يغرقهم اللّه تعالى في بطون الأودية وغوامض الأغوار، ثمّ يظهر بعد الإخفاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين ويمكّن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم.

ثمّ قال عليه السلام: [**وأيم اللّه ليذوبن ما في أيديهم بعد العلوّ والتمكين كما تذوب الالية على النار**] ووجه الشبه الفناء والاضمحلال، قيل ومصداق هذه

أيّهـا الناس لو لم تتـخـاذلوا عـن نصـر الحقّ ولـم تنهـوا عـن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقـومن قوي عليكم، لكنّكم تهتم متاه بني إسـرائيل ولعمـري ليـضعّفنّ لكم التيه من بعدي أضـعافاً خلّفتم الحقّ وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد واعلموا أنّكم إن اتبعتم الداعي

الأخبار ما كـان من أمر الشيعة الهاشـمية واجتماعهـا على إزالة ملك بني أُمية من كـان ثابتاً منهم على ولايـته ومن حـاد منهم في أواخر أيام مـروان الحـمار عند ظهور الدولة الهاشمية، ثمّ عاد عليه السلام إلى توبيخ السامعين فقال:

[أيّها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصـر الحقّ ولم تنهوا عن توهين الباطل] أي: تضعـفوا عن إضعـافه **[لـم يطمع فـيكم من ليس مثلكم ولم يقـومن قـوي عليكم، لكنّكم تهتم متاه بني إسرائيل]** أي: حرتم وضللتم الطريق كحيرتهم وضـلالهم، إشـارة إلى مـا ورد في الأخـبار الصـحـيـحة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لتركبنّ سنن من كـان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذّة بالقـذّة حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه».

[ولعمري ليضعّفنّ لكم التيه من بعدي أضعافاً] حيث لم يجتمعوا على العـمل بأوامر اللّه فـرمـاهم بالتيـه ﴿وضـربت عليـهم الذلّة والمسكنة﴾، ثمّ أخبرهم بعاقبة أمرهم في التخاذل وهو أضـعاف التيه والتفرّق بعده لالتفاتهم عن الحقّ ومقاطعـة بعـضهم لبـعض كـما قـال: **[خلّفتم الحقّ وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى]** أراد نفسه عليه السلام لدنوّه وقـربه من الرسـول صلى الله عليه وآله مع أنّهم أُمروا بمودّته كما قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه اجراً إلاّ المودّة في القربى﴾.

[ووصلتم الأبعد] يعني معاوية، **[واعلموا أنّكم إن اتبعتم الداعي]**

سلك بكم منهاج الرسولﷺ وكفيتم مؤنة الاعتساف ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق في أوّل خلافته: إنّ اللّه سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشرّ فحذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشرّ تقصدوا الفرائض أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة انّ اللّه حرّم حراماً غير

يعني نفسه عليه السلام لأنّه الداعي إلى اللّه والدالّ عليه [**سلك بكم منهاج الرسولﷺ**] وطريقته [**وكفيتم مؤنة الاعتساف**] في طرق الضلال، والاعتساف: سلوك غير الطريق.

[**ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق**] أي: ألقيتم ثقل الأوزار في الآخرة عن أعناق نفوسكم، والفادح: الثقيل، وظاهر كونها فادحة ويحتمل أن يريد الثقل الفادح الآثام مع ما يلحقهم في الدنيا من الخطوب الفادحة بسبب عصيان الإمام والخروج عن أمره.

ومن خطبة له عليه السلام

[**في أوّل خلافته: إنّ اللّه سبحانه أنزل كتاباً هادياً**] موضحاً مبيناً للنجدين طريقي الهدى والضلال، [**بيّن فيه الخير والشرّ فحذوا نهج الخير تهتدوا**] إلى الصراط المستقيم والنعيم الدائم القويم [**واصدفوا**] أي: اعرضوا [**عن سمت الشرّ تقصدوا**] أي: تعدلوا.

ثمّ أمر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها كالصلاة والزكاة فقال: [**الفرائض**] منصوب على الاعزاء [**أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة**] لأنّها أقوى طرق الخير والجنّة منتهى الخير كلّه [**إنّ اللّه حرّم حراماً غير**

مجهول وأحلّ حلالاً غير مدخول وفضّل حرمة المسلم على الحُرُم كلّها وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحقّ لا يحلّ أذى المسلم إلّا بما يجب بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت فإنّ الناس أمامكم وإنّ الساعة تحدوكم من خلفكم تخفّفوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم

مجهول] للمكلّف بل هو معلوم له في غاية الوضوح **[وأحلّ حلالاً غير مدخول]** أي: لا عيب فيه ولا شبهة ولا نقص فلا عذر لمن تركه.

[وفضّل حرمة المسلم على الحُرُم كلّها] وفي النبوي: «حرمة المسلم فوق كلّ حرمة دمه وعرضه وماله».

[وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها] أي: ربطهما بهما فأوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيته المحافظة على حقوق المسلمين ومراعاة مواضعها وقرن توحيده بذلك حتّى صار فضله كفضل التوحيد.

[فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحقّ] كما في حالة إنكار المنكر أو القصاص أو التظلّم **[لا يحلّ أذى المسلم إلّا بما يجب]** أي: إلّا بحقّ وكرّره تأكيداً لما سبق.

ثمّ عقّب تنبيههم بذكر هادم اللّذات فقال: **[بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت]** عزاه إلى العموم لأنّه يعمّ الحيوان كلّه وإلى الخاصّة لأنّ له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم وله مع كلّ شخص كيفيّة مخالفة لحاله مع غيره أمر بمبادرة العمل له ولما بعده قبل سبقه إليهم **[فإنّ الناس أمامكم]** أي: قد سبقوهم إلى الآخرة **[وإنّ الساعة تحدوكم]** أيك تسوقكم **[من خلفكم]** ثمّ أمر بالتخفيف للحاق بهم فقال: **[تخفّفوا تلحقوا]** وحثّهم على ذلك بقوله **[فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم]** أي: إنّما ينتظر ببعث

اتقوا اللّه في عباده و بلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع وعن البهائم أطيعوا اللّه ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فجدّوا به وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان فقال: يا أخوتاه

الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضاً فيبعث الكلّ جميعاً في وقت واحد [**اتقوا اللّه في عباده**] بلزوم خوفه في مراعاة ما ينبغي لكلّ أحد مع غيره [**و**] في [**بلاده**] بترك الفساد في الأرض وعلّل ذلك بقوله: [**فإنّكم مسؤولون**] عن أعمالكم وأقوالكم وأحوالكم وعن كلّ شيء وإن قلّ.

[**حتّى عن البقاع**] فيقال: لِمَ استوطنتم في هذا المكان وزهدتم في ذلك [**وعن البهائم**] فيقال: لم ضربتم هذه وقتلتم هذه ولم أجعتموها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لتسئلنّ عمّا كنتم تعملون﴾، وقال تعالى: ﴿إنّ السمع والبصر كلّ أولئك كان عنه مسؤولا﴾ فيقال: لم أشغلت قلبك وسمعك وبصرك، وفي الخبر أنّ إمرأة دخلت النار في هرّة حبستها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض.

ثمّ أجمل القول بعد تفصيله فقال: [**أطيعوا اللّه ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فجدّوا به**] واجهدوا عليه [**وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه**].

ومن كلام له ﷺ

لما بُويع بالخلافة وقد قال له قوم من الصحابة [**لو عاقبت قوماً ممّن أجلب على عثمان**] أي: جمع وأعان عليه [**فقال: يا أخوتاه**] الألف منقلبة عن ياء

إنّي لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفّت إليهم أعرابكم وهم خلالكم بينكم يسومونكم ما شاؤا، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه انّ هذا الأمر أمر جاهلية فإنّ لهؤلاء القوم مادّة إنّ الناس من هذا الأمر إذا حرّك على أُمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى لا هذا ولا هذا، فاصبروا حتّى يهدء الناس وتقع الحقوق مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة فاهدئوا عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوّة وتسقط منّة وتورث وهناً

المتكلّم المضاف إليها والهاء للسكت **[إنّي لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوّة والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم]** أي: قوّتهم لت تنكسر سورتهم **[يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم]** بتشدد الدال وتخفيفها وكسر العين وضمّها جمع عبد **[والتفّت]** أي: انضمّت **[إليهم أعرابكم وهم خلالكم بينكم يسومونكم]** يكلّفونكم **[ما شاؤا، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه انّ هذا الأمر أمر جاهلية فإنّ لهؤلاء القوم مادّة]** أي: معينين وناصرين **[إنّ الناس من هذا الأمر إذا حرّك على أُمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى لا هذا ولا هذا، فاصبروا حتّى يهدء الناس وتقع الحقوق مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة]** من أسمح أي: ذلّ وانقاد **[فاهدئوا عنّي]** أي: فاسكتوا **[وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوّة]** أي: تضعف وتهد **[وتسقط منّة]** والمنّة: القوّة أيضاً **[وتورث وهناً]** أي: ضعفاً.

وذلّة وسأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ

[وذلّة وسأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ].

قال ابن أبي الحديد في هذا الفصل ما حاصله: إنّ أكثر أهل المدينة أجلبوا عليه وكان من أهل مصر والكوفة عالم عظيم حضروا من بلادهم وطووا المسافة البعيدة لذلك وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية وكان الأمر أمر جاهليّة كما قال عليه السلام ولو حرّك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا فقوم يقولون أصاب وقوم يقولون أخطأ وقوم يتوقّفون ولا يؤمن لو شرع في عقوبة الناس من تجدّد فتنة أخرى كالأولى وأعظم، فكان الأصوب الإمساك إلى حين سكون الفتنة وتفرّق تلك الشعوب وعود كلّ قوم إلى بلادهم وكان يؤمّل أن يطيعه معاوية وأن يحضر بنو عثمان يطالبون بدم أبيهم ويعينون قوماً بأعيانهم بعضهم للتقل وبعضهم للحصار فحينئذ يتمكّن من العمل بحكم اللّه فلم يقع الأمر بموجب ذلك وعصى معاوية وأهل الشام والتجأ ورثة معاوية إليه وفارقوا حوزة أميرالمؤمنين ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيّاً وإنّما طلبوه مغالبة وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية، وقبل ذلك ما كان من طلحة والزبير ونقضهما البيعة ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتل الصالحين من أهلها، وجرت أمور كلّها تمنع الإمام من القصاص وقد قال عليه السلام لمعاوية: «فأمّا طلبك قتلة عثمان فادخل في الطاعة وحاكم القوم إلي أحملك وإيّاهم على كتاب اللّه وسنّة رسول اللّه صلى الله عليه وآله» ثمّ قال عليه السلام: سأمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم

عن مسير أصحاب الجمل إنّ اللّه بعث رسولاً من الحقّ هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم لا يهلك عنه إلاّ هالك وإنّ المبتدعات المشتبهات هنّ المهلكات إلاّ ما حفظ اللّه منها وإنّ في سلطان اللّه

وإنذارهم، وأجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب فإن لم أجد بدّاً من الحرب فآخر الداء الكي، أي: الحرب، لأنّها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها

ومن خطبة له عليه السلام

[**عن مسير أصحاب الجمل**] إلى البصرة [**إنّ اللّه بعث رسولاً من الحقّ هادياً**] للخلق [**بكتاب ناطق**] ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾، ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

[**وأمر قائم**] أي: مستقيم ليس بذي عوج [**لا يهلك عنه إلاّ هالك**] أي: لا يهلك عن مخالفته إلاّ أعظم هالك كما يقال لا يعلم هذا الفنّ من العلم إلاّ عالم، [**وإنّ المبتدعات المشتبهات هنّ المهلكات إلاّ ما حفظ اللّه منها**] المبتدع ما أحدث ولم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وآله، والمشتبهات: الشبهات الملتبسات التي لا يعرف حقّها من باطلها، ومعلوم إهلاكها لمخالفتها الكتاب والسنة الجامعين لحدود اللّه وخروجها عنهما، والمراد الهلاك الأخروي، وقوله إلاّ ما حفظ اللّه، أي: بالعصمة من ارتكابها إذ لا تكون مهلكة إلاّ لمن ارتكبها.

[**و إنّ في سلطان اللّه**] أي: سلطان دينه وهو الإسلام، أو أراد

فهرس الجزء الثاني